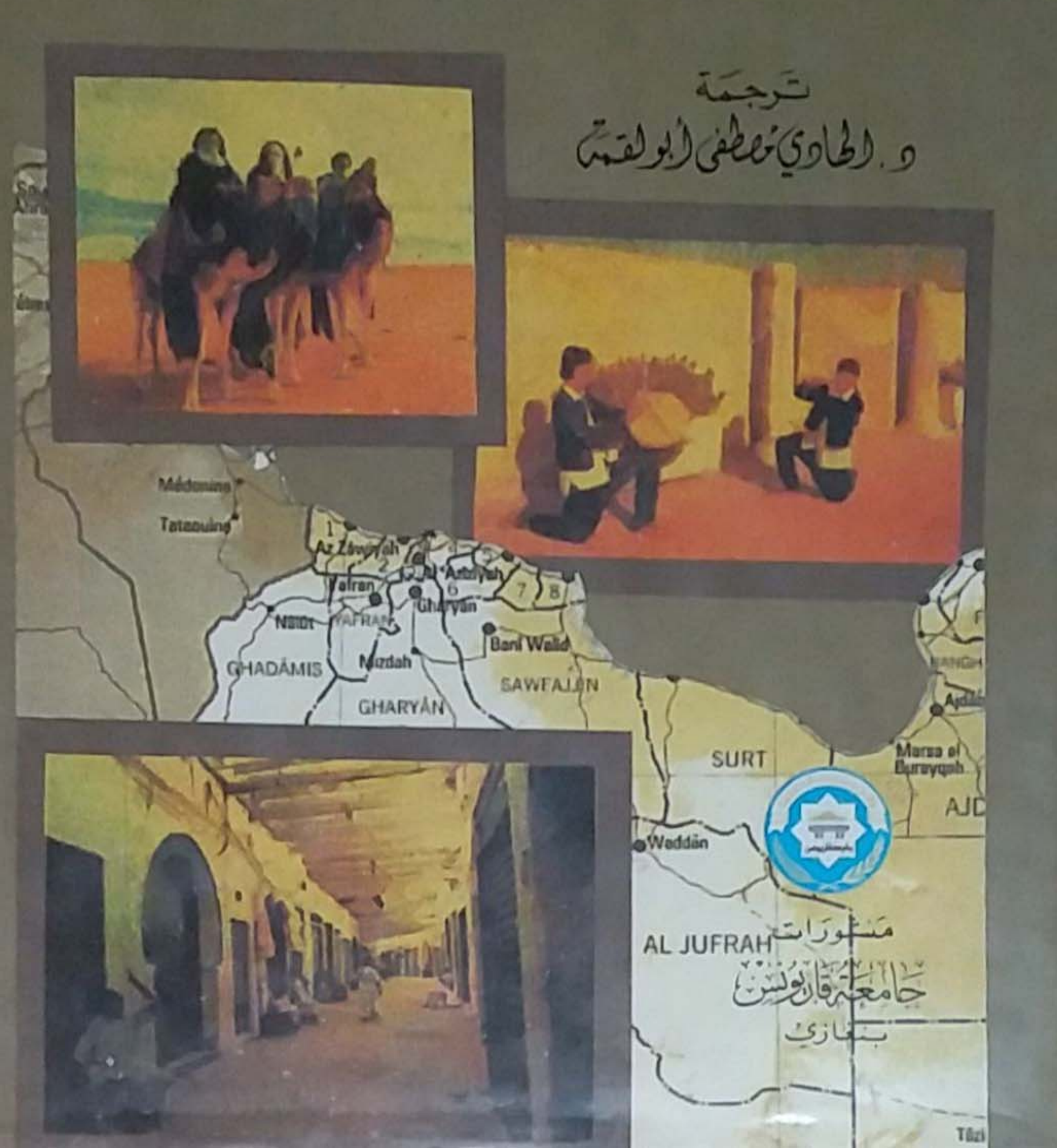
الأخوان بيتشي

والساحل الليبي

1821-1822

ترجمة

د. الهادي مصطفى أبولقمة



منشورات
جامعة قاريونس
بنغازي



الأخوان بيتشي والساحل الليبي

1821-1822

ترجمة

د. الهادي مصطفى أبولقمة
قسم الجغرافيا - جامعة قاريونس

منشورات
جامعة قاريونس
بنغازي



رقم الايداع 2343 / 96
دار الكتب الوطنية - بنغازى

الطبعة الاولى 1996 م .

منشورات
جامعة قاريونس
بنغازي



إهــداء

السيد المبجل صاحب الفخامة باثهيرست The Earl Bathurst،
السيد المبجل صاحب الفخامة اللورد ميلفيل The Lord Viscount Melville
ســادتــي

نستسمحكم عذر تقديم أخبار الرحلة التي حظيت بشرف اختياركم لنا لتولي أمرها معربين لمعاليكما عن شكرنا الجزيل لما وجدته لديكما من إطراء، ولتكرمكما بالموافقة على نشرها مع حمل اسميكما على صدر صفحتها الأولى.

نالت كتب الرحلات عن أقطار تحظى بالأهمية، كالتي قمنا باستطلاعها، بغض النظر عن طريقة كتابتها، بإسداء نوع من الشرف والتكريم على من قاموا بتلك المهام، إلاَّ أن ما جرى من تحولات جذرية فترة توليكما مهام الإدارة، وحرصكما على الرفع من شأن العلوم وإثراء المعرفة، لم يعد يوفر لرحالة زماننا ظهورهم أمام الملأ من وراء الستارة أو ذلك الحجاب الذي ظل يعمل لصالح الرحالة السابقين، ذلك أن الشعب قد علمنا أنه لم يعد بإمكانه الاعتماد على العجائب وطرائف الأخبار التي لم تعد تشكل عجائب تذكر، بعد أن باتت أشياء مألوفة، وفقدت هالة الإعجاز من حولها.

فما نقدمه يملك جانب الجدة، فالأقطار التي شملها الحديث لا تزال

حتى يومنا في حكم المجهولة تماماً للقارىء العادي فمخلفاتها الأثرية لم يتأت وصفها بعد بالدقة اللاَّزمة، ومع اعترافنا بأن حديثنا سيلقي عناية الذين لهم اهتماماتهم الخاصة بالآثار، والبحث عن تلك الصلات التي ربطت الماضي مع الحاضر في أقاليم نالتها أقلام الشعراء والمؤرخين، مع القول بأن تلك الأجزاء التي حظيت بإعجاب وتقدير البعض هي ذاتها التي فشلت في إثارة جمهور القراء، وشدهم إليها.

إن عملاً كهذا هو الذي نقدمه إلى سيادتكما مع رجاء صفحكما، لأننا فعلاً سعداء بتقديم مساهمتنا للخواص والرأي العام مقابل بعض الرضـى على ما تم سبغه عليها من إشادة وتقدير، وعليه فإن استطلاعاتنا إذا ما قدر لها الإسهام بأي نصيب في إثراء المعرفة التي باتت تتراكم بوضوح خلال توليكما منصبيكما، فإنها ستقرأ بلا شك بشعور ورضى داخلي من قبل أولئـك الذين أسهموا في مد يد المساعدة لإنجازها مما يجعلنا ننظر إلى الوراء بسعة صدر إلى تلك الأعمال التي لم تقترن بتحقيق عائد منظور، وعليه: إذا ما صادف وهو ما نعتقده، تأكيد حقيقة أن الظروف الاقتصادية كانت أقل حدة عما كانت عليه حين قيام هذه الرحلة، لكان بالإمكان الرفع من شأنها، ومع ذلك نظل متأكدين أن سيادتكما كنتما ستعملان في ظرف غير ما أشرنا إليه، من تمكيننا من إنجازها بطريقة أكثر نجاعة.

ومع هذه الانطباعات لا يسعنا سوى البقاء ضمن خدمكم الأوفياء.

هنري و. بيتشي

فريدرك و. بيتشي

هارتلي سريت يونيه 1827

مقدمة

يتطلب تقديم مجرد فكرة عن جهد ونتائج هذه البعثة وما قامت به، إلى الرأي العام، طرح ولو تفاصيل مقتضبة عن ملابسات قيامها أصلاً إلى جانب ذكر المواضيع التي انصب حولها ما قامت به من مسوحات واستطلاعات.

عندما قام الرُّبان سميث Smith، المفعم بالحيوية، بزيارة ساحل الشمال الإفريقي عام 1817، أتيحت له فرص تكوين فكرة عن المنطقة، وما يسترعى شدّ الانتباه إليه، فما قام به من جهد بين آثار مدينة لبدة تمخض عن وضع مخطط لها لأول مرة، كما خلفت زيارته لمنطقة قرزة إبراز الصورة الحقيقية لما بها من آثار حظيت بتقدير يتناسب مع روح المبالغة والخيال العربـي، كما هو مدون في الجزء الأخير من أخبار هذه البعثة.

اقترح الربان سميث لما لمسه في باشا طرابلس من رغبة صادقة لمد كامل تعاونه للدارسين الإنجليز، للتحرك في جميع أرجاء مملكته الممتدة ما بين طرابلس وانتهاء بحدود درنة الشرقية، كثمرة للمودة التي جمعت بينه وبين سيد البلاد وصديقه العقيد وارينجتون Warrington، القنصل الإنجليزي العام، غير أن الظروف حالت دون تنفيذ ما عرضه على سيد طرابلس، ولو أنه قام بنقل ما لديه من معلومات إلى رئاسة السلاح البحري مقترحاً في ذات الوقت بإعداد فرقة تتولى بنجاعة مسح منطقتـي خليج سرت إلى جانب

المنطقة الواقعة شرقي درنة وحتى مدينة الإسكندرية ومن ثمة إلى واحة آمون، إذ تضم منطقتي سرت وبرقة العديد من الأماكن التي حظيت باهتمام غير مألوف، وظلت ضمن بؤرة الجذب لما تناولته الميثبيولوجيا وسعى شعراء اليونان وروما لوصفها والتغني بها، في حين كان بعضها الآخر محط إشادة وتبجيل الثقاة من المؤرخين الذين نالوا شهرة ظلت صامدة كصمود ما تناولته أقلامهم.

ومع كل ذلك تظل حالة هذه البلاد اليوم، رغم شهرتها التي سطرتها صفحات من التاريخ تكن لها بالغ التقدير، دون تقييم موضوعي فاسم سيريني الذي اعتادت سماعه آذان الأقدمين لم تطأ أرضها أقدام زائر، تماماً كما هو الحال مع ينابيع الليثي وحدائق الهبسبيرديس اللتين امتزجتا واختلط أمرهما مع قصص التاريخ وحكايات الرمال الحارقة المليئة بأنواع الثعابين السامة التي قيل إنها شكلت الحاجز المنيع فيما يفصل بين لبدة الكبرى وبرنيتشي من أراضي رملية كان جيش كاتو Cato آخر من يرد له ذكر في اجتياز وعبور تلك القفار التي كادت رمالها المتحركة تعمل على توفير قبر مجاني لأفراد ذلك الجيش.

يمثل الإبحار على طول ساحل خليج سرت الكبرى المترامي عقبة كأداء أمام سفن الأقدمين، تماماً كما كانت رماله تشكل معضلة أمام تحركات جيوشهم، ومع ذلك ظل خط الساحل غير محدد بدقة على الخرائط الحديثة إلى جانب تضارب الآراء حول شكله وخصوصياته مما يستدعي القيام بدراسة هذا الموضوع بالجدية اللاّزمة، خاصة وأن العديد من المظاهر الجغرافية، ما بين طرابلس وبنغازي، يتحتم فصل الرأي حولها، إضافة إلى وضع مخططات للعديد من المدن الأثرية التي يزخر بها إقليم البنتابوليس إلى جانب مدينة سيريني، إذ لا زالت جميعها غير معروفة ولا محدودة.

عملت هذه الأسباب مجتمعة لتوحي للربان سميث خاصة وأنه يعد العدة للإبحار لإتمام مسح هذه السواحل عن طريق سفينة الأبحاث المغامرة،

بإعداد فريق بحث يتخذ من الأراضي المجاورة للساحل ميداناً لتحركه مع إمكانية التقاء الفريقين كلما سنحت الفرصة لهما.

كانت الظروف ملائمة إذ كان من رأي حكومة جلالة الملك دعم الأبحاث العلمية وتشجيعها أينما أمكن ذلك إذ كان هناك بالفعل بحَّاث بريطانيون يعملون بمهارة وجدية في جهات امتدت فيما بين فيافي فزَّان الحارقة، وأراضي القطب المتجمدة الأمر الذي عمل على إحالة أفكار الربان سميث بمجرد وصولها إلى قيادة الأسطول وإدارة المستعمرات اللتين أحالتها بدورها إلى مجال التنفيذ بإدارة السلاح البحري، لتوفر سابق خبرة له في مثل هذه الأعمال التي سبق وعادت عليه بالثناء والاحترام لنشاطه في تنمية البحث العلمي والريادة في الكشف الجغرافي.

أدى حسم الأمر إلى تعيين العقيد بيتشي W. Bechey من طرف قيادة الأسطول، لتولي مهمة دراسة الساحل بدءاً من طرابلس إلى مدينة درنة وإلى الإسكندرية إن سمحت الظروف، كما عين السيد تيندل Tyndall للقيام بمساعدة العقيد في مهمته، في الوقت الذي أسند فيه فخامة السيد باثهيرست إلى السيد بيتشي مهمة دراسة الآثار وإعداد تقرير عنها، كما أسندت المهام الطبية للجراح كامبل من سلاح البحرية.

انطلقت البعثة على ظهر السفينة المغامرة Adventure في بداية شهر يوليه تحت قيادة الربان سميث في طريقها إلى مالطا حيث انضم إليها العقيد كوفن Coffin، الذي تطوع مشكوراً من عمله لينضم إلى البعثة حيث استكملت بقية الإجراءات، وأدار الربان دفة باخرته في اتجاه مدينة طرابلس.

كان مقرراً مد عملنا شرقي الخطة الأصلية لدراسة المنطقة فيما بين درنة ومدينة الإسكندرية اعتقاداً منا بالعثور على بعض المخلفات الأثرية الهامة، نعود بعدها عبر الطريق التي سلكها الرحالة هورنمان إلى واحة أوجلة وفي ذلك عودة لنا إلى منطقة سرت مما يسمح لنا بالتجوال في بعض مناطق

الإقليم الداخلية حيث نعود ثانية إلى محطة انطلاقنا طرابلس، غير أن بعض المستجدات التي لا داعي لشرحها حالت دون تنفيذ هذه الفكرة وانتهى بنا المطاف عند درنة مع الإشارة إلى أن الوقت الذي قضيناه في إقليم البنتابوليس كان أقل مما حدد له في البداية، واضطررنا بالتالي إلى تحوير وضغط برنامج عملنا مما لم يعد يوفر لنا المجال لتخصيص الوقت الكافي لدراسة بعض المظاهر التي لا يحوم الشك حول أهميتها.

لا يمثل هذا القول عذراً منا لقيامنا بعمل أقل مما يجب علينا القيام به في ظل الملابسات التي عشناها، أو لنقلل من القيمة العلمية التي نقدمها للجمهور، فما يتوفر كاف في أهميته لإثارة من يقرأون من أجل الاطلاع وفي ذلك عزاء لنا على أن الجهد الذي بذل في جمعها وإعدادها طوال رحلة مضنية لم يذهب سدى.

لقد وفرنا للعلم بأكثر المعايير دقة هيئة ساحل طويل لم يسبق مسحه من قبل في الوقت الذي توفر فيه أدق الخرائط المتداولة صورة بعيدة عن الدقة والصواب، كما أنجزنا مخططات مدن وأماكن لها أهمية أثرية بالغة، إضافة إلى رسم كل أثر حظيَ باهتمامنا واستحق أهلية تسجيله.

وبغض النظر عن استحقاقات عملنا ومدى أهميته في بعض الجوانب، إلاَّ أننا راضون عن المادة العلمية التي تجمعت لدينا، وعن الجهد الذي قمنا به في سبيلها، علماً بأن أهميتها تفوق بالفعل ما أوليناه لها من عناية مقارنة بالوقت الذي خصص لها ويجعلنا في خجل أمام الجمهور الذي يفترض تقديمها له بطريقة أكثر تكاملاً مما هي عليه.

إن عملنا كان يمكن أن يأخذ صيغة وشكلاً أمثل بكثير لو توفر لنا المزيد من الوقت لإجراء ما كنا فعلاً بحاجة إليه من تنقيب وإعداد الرسومات والأشكال التي حازت إعجابنا، وكان بالإمكان تعديلها في صورة فنية أكثر قبولاً عما أتيح لنا إبرازها به، فقد كان بالإمكان إضافة عدد أكبر من اللوحات

لو كان عددنا أكبر بقليل ولكان لنا رأي فصل في اختيار تلك التي دفعنا بها إلى المطبعة ولم ير النور منها سوى القليل.

كلمة أخيرة، لا بد من ذكرها بخصوص تأخير عملية الطباعة إذ تم تقديم ثلثي المخطوط قبل عامين، في الوقت الذي كنا ملزمين بالاحتفاظ بالثلث الباقي حتى انتهاء طباعة الجزء الأول.

الأخـوان بيتشي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

عزيزي القارىء

تضم صفحات هذا الكتاب ترجمة أمينة لذلك الجهد الشاق والعمل المضني الذي أوكلت مهمة إعداده إلى الأخوين فريدرك، وهنري بيتشي من رجال البحرية البريطانية في العامين الأول والثاني من العقد الثالث من القرن الماضي، ولو أن الانتهاء من طبعه وتداوله بالتالي قد تأخر إلى ما قبل عامين من نهاية العقد المشار إليه.

تزامنت فترة حكم الأسرة القرمانلية لولاية طرابلس (1711 ـ 1835) مع فترة تكثيف العديد من الدول الأوربية لمد وبسط نفوذها على كامل القارة الإفريقية بما في ذلك نطاق الصحراء الكبرى في ادعاء سافر للقضاء على تجارة الرقيق حيث بات على بعض تلك الدول ضرورة توفير مقار مصرح بها في عواصم مراكز السلطة والحكم، ذلك أن بريطانيا، على سبيل المثال، قد أفلحت ومنذ عام 1658 في فتح قنصلية لها بمدينة طرابلس تحت رعاية القنصل سمويل توكر الذي تمكن بعض خلفائه وبالذات السيدين ريتشارد توللي الذي تولى مهام عمله مرتين كانت الثانية منها خلال الفترة ما بين (1783 ـ 1793) حيث باتت تلك القنصلية بحكم عظمة الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط، من أكثر القنصليات احتراماً حتى أن قناصل الدول الأخرى كانوا يلجأون إليها عند الضرورة، كما يتودد إليها الكثير من الأمراء

وذوي الأمر أيضاً. أما القنصل وارينجتون الذي تقلد مهام منصبه كقنصل عام، لما يقرب من أربعين سنة كاملة فقد تمكن بدهائه ومساندة وبأس حكومته من أن يصبح الحاكم الفعلي للبلاد، فالباشا يوسف ما كان ليمثل سوى دمية تعبث بها أصابع ذلك الدبلوماسي الماكر.

وصل في عام 1797 الرحالة الألماني هورنمان المكلف من قبل الحكومة البريطانية في محاولة لاختراق حاجز الصحراء لأول مرة إلى مدينة مرزق عن طريق القاهرة، صحبه أحد المقربين من صاحب السلطة في قصر الولاية.

لقي المعني مصرعه في ظروف غامضة بعد مغادرته عاصمة أولاد محمد، ومع أن بعض رسائله وصلت إلى لندن إلاَّ أن ما أراد إيصاله لم يفِ بالغرض الأمر الذي دفع إلى تكرار المحاولة مروراً بمدينة طرابلس ذاتها حيث انطلقت منها بعثة رسمية تحت رعاية الطبيب ريتشي وبمباركة الباشا يوسف الذي لم يعرف عنه رفض أي طلب لصديقه الحميم القنصل الإنجليزي، ومع أن قائد الرحلة لقي حتفه هو الآخر في واحة مرزق حيث تم دفنه، إلاَّ أن رفيق رحلته النقيب لايونس من سلاح البحرية الملكية، أكمل المشوار ما بين عامي (1818 ـ 1820).

والملفت للانتباه أن السيد المكني الذي أرشد الرحالة هورنمان إلى مرزق، كان هو ذاته الذي عهد إليه الباشا يوسف بمرافقة هذه البعثة التي كانت منطقة بئر الويغ آخر محطات توغلها جنوباً كما تبين من نشر نتائج مغامرتها في العام اللاحق.

كان كرم يوسف باشا عند حسن توقعات صديقه قنصل إنجلترا وهو ما دفعه إلى الطلب من كل من شيخي منطقة سرت وبرقة مرافقة بعثة الأخوين إمعاناً في توفير سبل الأمن والأمان لهما، إضافة إلى طلبه من صهره حاكم بنغازي وابنه في درنة تقديم كافة التسهيلات اللازمة لإنجاح مهمتها.

توالى وصول الرحالة البريطانيين إلى طرابلس التي ظلت تشكل قاعدة موثوق بها إلى جانب إسراعها في تقديم ما يطلب منها من تسهيلات لرجال يبحثون عن الحقيقة من منظورهم الخاص بغض النظر عن الدوافع الحقيقية لتجشمهم تلك الصعاب والمخاطر التي قد تعود على البلاد وأهلها من جراء ما يضمرونه من نوايا.

فقد سهّل القنصل المذكور مهام انطلاق صهره إلى غدامس ومنها إلى تمبكتو، وكان يعمل جاهداً لوضع اللمسات النهائية لانطلاق كل من السيدين كليبرتون وأودني نحو فزان وقت رحيل بعثة الأخوين بيتشي نحو سواحل سرت، إضافة إلى تذليله ما قد يعترض أبناء جلدته من صعوبات مع قلعة طرابلس من أمثال الرحالة جيمس ريتشاردسن عام 1845.

باتت طرق القوافل تعرف تردد بعض ذوي البشرة البيضاء، مما أتاح تدوين الكثير من الحقائق التي ما كانت لتلقي اهتماماً بين من تولوا مزاولة تجارة القوافل لقرون طويلة، ذلك أن تدوين الحقائق العلمية من حولهم ما كان ليجد طريقه بينهم لأكثر من سبب وعامل الأمر الذي ينسحب على من يفترض أنهم من المؤهلين من الأتراك الذين لا بد وأن بعضهم قد وصل إلى العديد من الواحات المتناثرة ولم يدونوا عنها ما يستحق الذكر، فالمعلومات عن هذه الأصقاع كانت لا تهم سوى قلة امتلكت دوافع خاصة، وتهتم بأشياء محددة لا دخل لأسبابها عندهم، وكانت مجرد وصف قد لا يحالفه الحظ، وتقتصر على المعرفة السطحية التي يندر أن تجد طريقها إلى التدوين.

لم يكن مثل هذا الحال مقتصراً على دروب الصحراء ومسالكها ومراكز العمران المبعثرة فيها، وإنما تعدى ذلك ليشمل أغلب المنطقة الساحلية بين أهم مركزين للحكم ممثلين في مدينتي طرابلس وبنغازي، وتلك الواقعة بين بنغازي ودرنة حيث يقيم ابن السلطان كممثل لوالده الباشا حتى منطقة الحدود مع مصر.

فوصف وتحديد معالم الطريق البري إلى الشرق من مدينة مصراته كان هو الآخر شبه مجهول، أما فيما يخص خط الساحل ذاته فلا أحد يعلم شيئاً عن طبيعته وشكله اللهم إلا في المناطق المبعثرة التي قد يتخذ منها بدو المنطقة مقراً لإقامتهم المؤقتة التي قد يتردد عليها بعض مأموري الضرائب أو قلة من الحجيج.

وكما هو الحال مع دروب الصحراء أتى أول وصف علمي للطريق الواصلة بين طرابلس وبرقة، عبر صحراء سرت، على أيدي الطبيب الإيطالي، ديلا اتشيلا، الذي عينه الباشا يوسف مرافقاً للبـي محمد، الذي أوكل إليه والده قيادة الحملة التي أعدت خصيصاً لتأديب ابنه أحمد الذي تمرد على سلطة والده وهو حاكم لمنطقة بنغازي.

امتاز الطبيب المذكور بسعة اطلاعه وشغفه بالإلمام بأغلب ما تركه الثقاة من المؤرخين والجغرافيين الذين حاول بالرجوع إلى بعض ما دونوه إعطاء وصف لخط سير الجيش الذي تعهد بوضع حد لخروج الابن عن الامتثال لأوامر والده سيد طرابلس.

فما يعنينا قوله هو أن ما تركه المعنى بات يشكل أول أثر أوروبـي اجتاز كاتبه هذه الربوع، وكان شاهد عيان على تقفـي أثر ما كتب منذ اندحار الامبراطورية الرومانية وتخليها عن ساحل المتوسط الجنوبـي.

فقد أكد ذلك الطبيب بأنه في غاية الشوق لإمكانية توفر مناسبة يتمكن من خلالها زيارة المنطقة ما بين طرابلس وخليج سرت، ومنطقة البنتابوليس بغية ملاحظة المعلومات الجغرافية وتدقيقها وليتأكد من المعلومات الكثيرة التي خلفها السلف عن منطقة برقة وخاصة نبات السيلفيوم، وليتذوق فواكه حدائق أيوسبيريدس، فقد كان فعلاً في غاية السرور لأن أمله سيتحقق بمصاحبة الحملة العسكرية إلى برقة مما سيوفر له عامل الحماية، وهو ما لا يمكن تحقيقه بدون مرافقة هذه الحملة الكبرى.

لقد تحقق أمل ديلا اتشيلا الذي أفلح في إرسال ثمانية عشر رسالة إلى أستاذه في مدينة جنوة حيث تمت ترجمتها إلى الإنجليزية عام 1822 تحت عنوان: «أخبار الحملة العسكرية التي خرجت من طرابلس إلى برقة عام 1817». وفي هذا الخصوص، يتحدث الأخوان بيتشي عما جاء في هذه الرسائل بلغتها الأصلية إذ عقّبا على الكثير مما جاء فيها وبالذات فيما يختلفان معه من نقاط وما أكثرها فقد كانا على علم ودراية بجميع ما دون عن هذه المنطقة ويجيدان اللغتين الإغريقية واللاتينية إلى جانب اللغة العبرية التي أشارا إليها مرات عديدة، إضافة إلى درايتهما بأغلب إن لم يكن جميع ما خلفه كتاب العرب في هذا المضمار.

وبدون الدخول في التفاصيل التي سيلمسها القارىء بنفسه تراني مضطراً للفت انتباهه إلى قلة من جملة النقاط التي شدت انتباهي ومفادها أن معظم أجزاء ساحلنا الليبي ظلت مقصورة على معلومات السلف منالإغريق والرومان وإشارات متفرقة، من قبل بعض الجغرافيين العرب قبل إنجاز هذا العمل العلمي القيم بغض النظر عن الدوافع الكامنة وراء إنجازه، ومنها أيضاً رسم خريطة جديدة لخط الساحل الفعلي في أقصى أجزائه تطرفاً نحو الجنوب، وأقلها جدوى اقتصادية منذ أيام السلف، إضافة إلى إبراز وصف دقيق لجميع المراكز العمرانية ما بين طرابلس ودرنة، وإبراز مخططاتها والشكل الذي كانت عليه إلى جانب محاولة جادة لتقصي أخبار نهر الليثي وحدائق أيوسبيريدس، وتتبع مجرى عين أبوللو وسيرة نبات السيلفيوم. أما الحديث عن المدن الأثرية وآثارها المختلفة فلن يستطيع القارىء سوى الإقرار بأنه حديث الباحث المختص، قولاً وعملاً رغم تمهيده السبيل أمام بداية سرقة جزء هام منها على أيدي نفس السلطات التي تولت أمر إرسال هذه البعثة التي شاركت إدارة المستعمرات في التخطيط وتولـي أمر قيامها.

مثلت بداية الستينات عند انغماسي في جمع بعض المادة العلمية

لموضوع دراستي لرسالة الدكتوراه عن مدينة بنغازي أول دراية لي بهذا العمل الذي عزمت يومها على نقله إلى القارىء حين تسمح الظروف لي بذلك، فشكراً من الأعماق لإدارة جامعة قاريونس، وقسم النشر بها على تحقيق هذه الرغبة التي آمل أن يستفيد منها من هم في حاجة إليها ولا يجدون الوسيلة إلى ذلك مع تقديم عذري سلفاً لما أكون قد وقعت فيه من أخطاء.

عزيزي القارىء

انطلقت بعثة الأخوين بيتشي يوم الخامس من نوفمبر عام 1821، وأبحر أفرادها عائدين إلى بلادهم من بنغازي عن طريق مالطا يوم الخامس والعشرين من شهر يوليه من العام التالي، حيث ظهرت نتائج عملهم عام 1828 في مؤلف قارب على ستمائة صفحة عدا الملحق الذي شكل جزءاً من فصوله التسعة عشر، إضافة إلى خريطتين مثلت إحداهما الخريطة المتداولة للساحل يومها، في حين مثلت الثانية شكل الساحل الحقيقي إضافة إلى مجموعة مختارة من الصور.

شكري الجزيل للمعيدة عواطف الأمين، وزميلها سعد الزليتني على مساعدتهما في رسم الخرائط، وإلى الزميل الأستاذ محمد ليَّاس على مراجعته لغة النص.

والله الموفق

د. الهادي أبو لقمة

الزاوية 1996

الفصل الأول

أبحرت في غرة سبتمبر عام 1821 سفينة الاستطلاع البريطانية المغامرة (Adventure)، من جزيرة مالطا صوب ساحل شمال إفريقيا قاصدة مدينة طرابلس، حيث ألقت مراسيها صباح الحادي عشر بعد أن غيرت من اتجاهها شرقاً ذلك أن خط سيرها كان باتجاه مدينة طرابلس القديمة Tripoli Vecckia (صبراتة).

تبدو المدينة للقادم بحراً في مظهر أخاذ إذ يحيطها سور واضح المعالم تتخلله بعض الحصون والقلاع التي تتراءى من خلفها بعض المساجد، والحمامات العامة بمآذنها وقبابها البيضاء مضيفة مسحة مغايرة لذلك الأثر الذي تعكسه أشجار النخيل الكثيفة بظلالها الداكنة من خلال الحدائق المنتشرة وراءها.

بدت أعلام القلعة، مقر إقامة الباشا، وتلك المرفوعة فوق دور القناصل بألوانها المختلفة وكأنها في غمرة الفرح وسط جو منعش، وشمس المتوسط الساطعة، وهو ما أعطى انطباعاً من نظرة يحدوها التفاؤل أكثر إشراقاً وأوحى باستحقاقها أهمية أكبر مما هي عليه في الواقع.

كان استقبال السيد وارينجتون Warington القنصل البريطاني العام، لنا في منتهى الود والمجاملة بعد تفضله مشكوراً ساعة وصولنا، بتخصيص مقر

القنصلية لإقامتنا، وتقديم كامل العون لرحلتنا التي نقل خبرها إلى الباشا، الذي قام من طرفه بتحديد موعد اللقاء بنا إذ كان يعاني من توعك صحته نتيجة الكـي الذي اختاره وسيلة لشفائه من ألم الروماتيزم الذي يعاني منه، علماً بأن طبيباً بريطانياً ماهراً كان تحت تصرفه هو وحاشيته، إلا أنه فشل في إقناع سيادته بالعدول عن رأيه، واستخدام العقل، وما يوفره الطب الحديث من وصفات علاجية مقابل الرضوخ للاعتقادات الساذجة التي كانت لها الغلبة أمـام التبصـر واستعمـال العقـل اللذين أخليـا السبيـل أمـام تلـك الأحكـام المسبقة[1].

تحركنا في اليوم المحدد للقاء الموعود رفقة القنصل العام، والنقيب سميث عبر شوارع محددة أصلاً للوصول إلى القلعة، وللحق كانت هيئة الطرق لا تليق أبداً كمسالك إلى مقر إقامة ملكية لها أهميتها، إذ كانت مملوءة بمخلفات المنازل المنهارة، إضافة إلى ذلك الحشد الهائل من الأطفال الذين يُرثى لحالهم، إلى جانب مجموعات متناثرة من الكلاب الضالة الأمر الذي لم يترك سوى مساحات صغيرة يمكن استعمالها والسير فيها للحاق بموعد صاحب السلطة، كل ذلك إلى جانب سيل عارم من المنغصات الأخرى الممثلة في تلك الكميات الهائلة من الغبار الناجمة عن تحركاتنا، التي أضفت عليها تلك الحشود الهائلة من البعوض، وحرقة الشمس صعوبات أخرى لم يخفف من شدة وطأتها إلا ظهورنا أمام بوابات القصر وحرس سموه استعداداً لاستقبالنا والترحيب بنا.

---

(1) يعد الكي ظاهرة علاجية معروفة وموثوق بها من قبل سكان شمال القارة، الذين يلجأون إليها كعلاج ناجع لكل داء تقريباً وربما منذ زمن سابق لهيرودوت الذي أشار إليها، ومع أن هذه الظاهرة قد تستعمل اعتباطاً، إلا أن نتائجها قد تكون فعالة في بعض الحالات، فقد أكد لنا أحد مواطني بنغازي شفاءه ثلاث مرات من مرض الطاعون بوضع قضيب من الحديد الملتهب على موضع الداء، وهنا إذا كان لنا الحكم على أثر الجروح الباقية فإن إصابته لم تكن هينة أبداً.

تقدمنا بعد أداء واجب التحية إلى الكيخيا[1] الجالس في نهاية السقيفة أو حجرة الاستقبال، وراء أحد الحجاب عبر ممر مظلم وضيق وغير ممهد الأرضية مما جعلنا معرضين للوقوع بين لحظة وأخرى[2]، مع الإشارة إلى وقوف عدد من الحجاب ومن الجنود أيضاً ولكن دون أن نتبين ملامحهم فقد كانت ألوانهم قاتمة هي الأخرى، حتى بلغنا بعد لأي جناحاً فسيحاً يضم بعض القوم من المسيحيين، والأتراك والعرب واليهود أيضاً يبدو وكأنهم في استقباله للترفيه والسمر معه.

لم نمكث طويلاً حتى أعلن عن استعداد الباشا لمقابلتنا التي ما إن تهيأنا لها حتى وجدنا أنفسنا أمامه وهو جالس في منتهى الوقار والمهابة في الطرف القصي من الردهة صحبة ابنه الثالث السيد علي، والرايس مراد[3] الذي قام بدور المترجم، إلى جانب عدد آخر من ضباط القصر، في الوقت الذي اصطف فيه عدد من الجنود السود المدججين بالسلاح على طول جدران الحجرة، وكأنهم تماثيل قد صفت بعناية.

كانت بنادقهم معبأة ولو أن رؤوس حرابها إلى أسفل (مصوبة) في الوقت الذي وقف إلى جواره حارس أسود مفتول العضلات يحمل مسدساً وعلى أهبة الاستعداد لاستعماله.

---

(1) يمثل الكيخيا الرجل الثاني في قصر الولاية، ويتولى كامل مهام الباشا أثناء غيابه، فهو بمثابة المستشار الخاص مع أن الأصل في اللغة التركية يعني المراقب أو الملاحظ.

(2) وصفت السيدة توللي في مذكراتها هذا الممر وأمثاله بالكآبة التي تقود إلى مستقر مرعب لدفن الأحياء.

(3) يعود الرايس مراد كما نعتقد إلى أصل إسكتلندي، كان يعمل مساعداً لربان إحدى المراكب التجارية، ثم دخل في خدمة الباشا بعد تحوله إلى الدين الإسلامي، حيث استطاع من خلال مهارته البحرية الفائقة الارتقاء في سلم الوظيفة التي بلغ أوجها مع نيله كامل مساندة الباشا.

يمثل حضور الجنود المدججين بالسلاح في غرفة استقبال رئيس النظام الحاكم مظهراً غير مألوف لدى الأوروبيين قد يدفع بهم على اعتباره دلالة على همجية النظام ذاته، رغم ما طرأ عليه من إصلاحات في الآونة الأخيرة.

أخبر أمير البحر، الرايس مراد، الباشا نيابة عنا بالعلاقات الأخوية التي رأى من خلالها ملك إنجلترا ما يتحتم عليه القيام به تجاه سموه مع رجائه التفضل بقبول هديته الممثلة في أربعة مدافع مع ما يلزمها من عتاد وتجهيزات أحضرت خصيصاً، مع تفضله بمنحنا حق الحماية والرعاية في تجوالنا وتنقلنا داخل حدود ولايته المترامية الأطراف.

تكرم الباشا تلبية لهذا الطلب، بتقديم كامل المساعدة وبدون أي مقابل، مع إعرابه عن كامل رضاه وامتنانه عما أبداه جلالة الملك، حيث تم تقديم متطلبات الضيافة من شاي وعصير ليمون بمنتهى الذوق واللياقة تم بعدها أخذ الإذن بالانصراف.

أحضرت المدافع الأربعة عصر نفس اليوم إلى مكان أسفل شرفة القصر التي أطل منها معاليه مع عدد من ضباطه لمشاهدتها ورؤية تلك العروض التي شغفت لب الحاضرين الذين ابتهجوا لبراعة ومهارة المسؤول عن إطلاقها ضمن طاقم الباخرة البريطانية، الأمر الذي أدخل بالغ السرور على قلب الباشا الذي رأى في براعة هذا الجندي ما دفعه لإرسال سيف هدية له على براعته، إضافة إلى كيس مليء بالدولارات لتوزيعها على باقي بحارة السفينة.

تمحض حديثنا مع الباشا في أحد جوانبه على ضرورة قيام أحد الشيوخ بمرافقتنا حتى مدينة بنغازي حيث تم الاتفاق على أن يقوم الشيخ محمد الضبع، شيخ منطقة سرت، وعلى أن يحل مكانه الشيخ حدود شيخ برقة الذي سيتولى رعاية أمرنا حتى منطقة لمية حيث تنتهي سلطة الباشا، وبما أن المنطقة الأخيرة تمثل الحد الشرقي المتعارف عليه لولاية الباشا فقد كان لزاماً علينا أخذ الحيطة لإدراكنا أن متابعة رحيلنا إلى الإسكندرية لا بد أن يتم عن

طريق حماية باشا مصر، وهو ما تم بالفعل إذ أرسلت رسالة من جزيرة مالطا إلى السيد سولت Solt، القنصل البريطاني في مصر، لتقديم رجاء باسم حكومة صاحب الجلالة إلى مقام الباشا لاتخاذ ما يلزم من إجراءات تخص متابعة رحيلنا من درنة إلى الإسكندرية، وهو ما تحقق بالفعل إذ وصلنا فرمان بتوقيع محمد علي صاحب الأمر في القاهرة يضمن مواصلة تقدمنا باتجاه الإسكندرية.

مثّل حسم ضرورات من هذا القبيل بداية استعدادنا لمباشرة مهام هذه الرحلة حيث رأينا ضرورة استشارة ذوي الشأن من أهل طرابلس فيما يخص أفضل السبل للإسراع بإرسال المعدات ذات العلاقة بهذا الشأن.

كان الجميع عند حسن الظن، وعلى أتم استعداد لتزويدنا بمختلف ما يطلب منهم وبالذات من قبل الخبير لشؤون المنطقة السيد محمد الدغيس الذي سبق له تقديم خدمات جليلة للسيدين ريتشي والنقيب لاينس، إضافة إلى ابنه الشاب الخلوق، الذي زودنا هو الآخر وفي العديد من المناسبات بنصائحه القيمة إضافة إلى كرم استقباله لنا[1].

قدّم إلينا ذات مرة في منزل السيد محمد الدغيس، أحد أشهد التجار المسلمين الذين يحترفون التجارة مع مدينة تمبكتو حيث تعهد بضمان وصولنا

---

(1) يمثل هذا الشاب الابن الثاني للسيد محمد الدغيس، ويحمل هو نفسه اسم والده محمد، وللحق تتجلى فيه روح التسامح مع المسيحيين مع أنه مثال صادق لعمق الأصالة الدينية بين قومه، إذ يقوم يومياً بزيارة المدرسة القرآنية، كما يتولى توزيع الطعام الذي يجود به أبيه على الفقراء الذين يترددون دوماً على باب دارهم.

كما يجيد هذا الفتى اللغتين الفرنسية والإنجليزية ويتقن أيضاً الحديث بعدة لهجات عبيد والده الذين لا يفقهون الحديث بأية وسيلة غير لهجاتهم الخاصة. إن ما يتحلى به هذا الفتى من سمات حميدة، ولو أنها مميزات لها اعتبارها، إلا أننا لا يجب إغفال أثر والده في غرسها وتنشئته عليها، ذلك أن الوالد يتقن الفرنسية وبعض اللغات الأوربية الأخرى حسب ظننا، وللعلم فإن ابنه الأكبر موجود الآن في إنجلترا.

إلى هذه المدينة والعودة منها سالمين مقابل قبولنا الكامل بوضع أنفسنا رهن تصرفه، والإقرار بما قد نتعرض له من اعتلال الصحة أو ما يشبه تلك الحوادث التي لا يمكن التكهن أو التنبؤ بها، وقد تواجه أي مسافر في الصحراء.

وبما أن أمر الحديث عن بلوغ تمبكتو لم يكن له مكان في خطة رحلتنا لم يكن أمامنا سوى غض النظر عنه مكتفين بهذه الإشارة التي ربما تفيد من يحاول الإقدام على تنفيذ هذه الفكرة انطلاقاً من مدينة طرابلس.

بات اهتمامنا منصباً منذ الآن على توفير متطلباتنا من الملابس التي يرتديها أهل المنطقة بعد إلحاح العديد من أصدقائنا على ضرورة استعمالها، وهو ما تأكد لنا من خلال تجربة سابقة لأحد أفراد رحلتنا، خلافاً لرأي القنصل البريطاني الذي رأى ضرورة الاحتفاظ بملابسنا الأوروبية، التي ربما جاء الحكم لصالحها انطلاقاً من خبرته بالسفر حول المناطق القريبة من العاصمة حيث تسود أوامر الباشا، وهي مناطق اعتاد أهل البلاد على التعايش مع هذا النوع من الملابس، ومع ذلك جاء قرارنا انطلاقاً من توخي المصلحة، بالأخذ برأي أصدقائنا من الأتراك الذين تمثل آراءهم في مثل هذه الأمور، أحكاماً أقرب إلى الحقيقة لدرايتهم بتصرفات وعادات السكان المحليين، فهذا الرأي بجانب كونه أكثر انسجاماً مع آرائنا، قد يصبح أكثر ملاءمة حين يتطلب الأمر اتخاذ قرارات أكثر أهمية، فقد أثبتت تجربتنا في اجتياز منطقتي سرت وبرقة صواب ما ذهبنا إليه، ذلك أن قرار ارتداء الزي المحلي، رغم ما قد يثار ضده، إلا أننا سنتجرأ لنضيف شهادتنا لصالحه مثلما فعل أكثر الرحالة دراية وإلماماً بالسفر في أراضي المسلمين التي لم يكن لنا سابق خبرة بها، ذلك أن تصرفاً كهذا يصبح الفعل اللائق على الأقل أينما كان أصحاب السلطة يزاولون نفوذهم على مواطنيهم من المسلمين.

أما بخصوص مدى ملاءمة هذا الزي للترحال، فإننا نقر نفس المبدأ

على الأقل لتجنب فكرة التطفل والتدخل فيما لا يعنينا انطلاقاً من حب الاستطلاع والتحيز من قبل أناس أميين.

وجدنا في مقر إقامتنا ذات يوم عند عودتنا من السوق لشراء بعض ضروريات السفر، مجموعة من البدو، بما فيهم الشيخ الذي اختاره الباشا لمرافقتنا إلى بنغازي.

جلس القوم على كراسي وفرها لهم خادمنا في حجرة الاستقبال إلا أنهم لم يجدوا في الجلوس عليها على ما يبدو ما يوفر لهم راحتهم المعتادة، إذ ترك بعضهم كراسيهم التي أزيلت جانباً وجلسوا موفرين بذلك المكان اللائق والأكثر أماناً حيث جلسوا بكبريائهم المعهودة وكأنهم بين ذويهم، وعموماً فإن التمييز بين هؤلاء الرجال ذوي المسحة الداكنة ليس بالأمر الهين إذ لا يبدو من ملابسهم ما يميز أحدهم عن الآخرين، إذ يرتدي الجميع الحولي وقميصاً قطنياً فضفاضاً ناصع البياض، إلى جانب حزام جلدي يتدلى منه كيس جلدي لحمل المسدس، إضافة إلى كيس أو جيب من الجلد هو الآخر لحمل البارود والرصاص، وثالث أصغر حجماً للاستعمال كحافظة نقود، كما يرتدي نفر منهم طاقية حمراء في حين يستعمل آخرون نوعاً آخر أبيض اللون، في الوقت الذي يشترك الجميع في استعمال صنادل من جلود الإبل خيطت بسيور رفيعة من نفس المادة.

انفرد أحد الحضور باستعمال العمة وبتدقيق النظر وملاحظة حافظة مسدسة والسلاح ذاته ظهر أنهما من نوع أجود من باقي رفاقه، وهكذا فإن تمييز وتحديد شخصية الشيخ محمد الضبع لم يكن ممكناً على أساس انفراده بملابس فاخرة تحدد هويته عن باقي رفاقه.

كانت لحية الرجل واضحة فقد علاها بعض الشيب مما أضفى عليه مظهر الإقدام الأبوي المقرون بمزيج من الحيوية والرضاء الباديين للعيان مع اقترانهما بروح مفعمة بالحيوية وبعيدة عن الخنوع رغم ما يبدو عليها من

هدوء ورباطة جأش بحكم العمر الذي يفرض نوعاً من اللياقة التي أملت عليه نوعاً من الابتسامة المفتعلة عند مخاطبته لنا حيث يبدو ذلك واضحاً من نبرات صوته وطريقة حديثه، ولو أن عينيه الواسعتين التي بدت التجاعيد من حولهما تبدوان باهتتين بحكم سنه، كانتا زائغتين باستمرار، وظلتا تتحركان باتجاه كل ما هو موجود من حولنا، خلافاً لتلك النظرات المدفوعة بالاستغراب والدهشة التي بدت جلية على وجوه باقي رفاقه.

يبلغ الشيخ قرابة ستين عاماً من العمر، ومع كونه رئيس قبيلة من المرابطية، إلا أنه كان قبل فترة رجلاً مرعباً كسارق وقاطع طريق في منطقة سرت.

أضافت جسارة الرجل وقوته إلى جانب حظوته الاجتماعية عاملاً آخر نال به فرض سلطانه على جميع قاطنـي المنطقة الذين رأوا في أعماله الجريئة إضفاء كنية الضبع عليه التي بات لا يذكر اسمه إلا مقروناً بها.

تبين للشيخ الضبع منذ فترة مدى جدية باشا طرابلس وإصراره على إخضاع جميع القبائل العربية لنفوذه مهما كانت المعوقات، الأمر الذي حذا به إلى التفكير في الانضمام إلى جانب الباشا تحقيقاً لمكاسب أكثر نفعاً له، وهو ما تأكد بالفعل إذ رأى صاحب السلطة في طرابلس الاستفادة من خدمات المعني الذي يدرك عن كثب طبيعة المنطقة وسكانها، ولا تنقصه الشجاعة والإقدام، وتطوع إلى تقديم خدماته، بأن أسند إليه مهمة شيخ منطقة سرت التي يزيد طولها على مائتـي ميل.

كان سرورنا بالغاً حين تبينت لنا رغبة الشيخ في الإسراع بإعداد العدة للرحيل عن طرابلس، إذ أخذ يعدد الصعوبات المنتظرة في اجتياز مناطق منخفضة تكسوها السبخات خلال الفصل المطير، وهو ما دفعنا لشد الرحال بأسرع ما يمكننا القيام به لو أننا نملك حق اتخاذ مثل هذا القرار، الذي تأجل تنفيذه حتى صباح يوم الخامس من نوفمبر انتظاراً لتوفير التجار ما استقر الأمر

على ابتياعه منهم، إضافة إلى أسباب عديدة أخرى لم يكن بالإمكان التنبؤ بها، أو منع حدوثها علماً بأن المغريات المتوفرة في طرابلس لا كماً ولا نوعاً تشد وتدفع إلى الإقامة بها، علماً بأن مضايقات لا حصر لها قد واجهت إعداد عدتنا للرحيل، مع التأكيد بأن الرعاية الأخوية التي قدمها لنا أصحابنا الأوروبيون، والعديد من أبناء المدينة المسلمين، قد حولت تلك الرتابة التي تفرد جناحيها على كل مدن شمال إفريقيا، إلى نوع من الحياة المفعمة بالحيوية أثناء إقامتنا التي شكلت نهايتها نوعاً من الأسى الصادق على ترك تلك الدائرة الصغيرة من معارفنا التي أضفى وصول الدكتور أودني والنقيب كليبيرتن من سلاح البحرية الملكية بعداً آخر لها، فقد كانا في طريقهما إلى داخل القارة في مهمة حكومية ينويان من خلالها التقدم نحو منطقة البورنو عن طريق مرزق بعد أن تكتمل إجراءات رحلتهما الشاقة والمضنية هذه.

الفصل الثاني

بنيت مدينة طرابلس فوق أرض صخرية تلامسها مياه البحر من جانبين في طرفها الشمالي، أما طرفاها الجنوبي والغربي فينتهيان عند سهل رملي شاسع تزرع فيه بعض المساحات المحدودة[1]، علماً بأن شكلها العام لا يتميز بالانتظام رغم إحاطتها بسور عال وسميك البنيان إذ يبدو أنه كان فعلاً شديد الصلابة ومنيعاً في وقت من الأوقات خلافاً لحاله اليوم حيث تظهر بعض أطرافه وقد أصابها الإعياء فتحولت إلى خراب رغم ما يبدو على أساساتها من قوة ومناعة[2].

زودت أسوار المدينة بمجموعة من الاستحكامات المجهزة بعدد من المدافع تكفي لإضفاء الاحترام اللازم لولا ما يعلوها من صدأ، وما يلازمها من نقص في الذخيرة مما يحول فعلاً بينها وبين أداء أية فعالية تذكر.

أقيمت القلعة في الطرف الجنوبي الشرقي من المدينة بمحاذاة ساحل البحر مما يجيز القول بأنها حلقة وصل مع تلك الحصون المقامة على الشاطىء، أو تلك المحيطة بها من الجنوب حيث شيدت أسوارها، بارتفاع

(1) ما قالته الآنسة توللي عن ملامسة البحر لأطراف المبينة لم يعد قائماً الآن.

(2) يظن أن مناعة أسوار المدينة تعود إلى زمن السيد درغوت الذي ينسب إليه بناء حصنين قرب البحر.

ظاهر روعـي فيها، لحسن الحظ، ميلها الواضح صوب الداخل مما أتاح لها فرصة البقاء ولزمن طويل، ذلك أن صيانة أجزائها الخارجية تبدو سيئة للغاية مما سيعمل على سقوطها لولا ذلك الانحراف نحو مركزها الداخلي، ومع أن الجدران قد نفِّذت بسمك واضح، إلا أن سوء التصرف بإضافة مبانـي جديدة، ولا نقول صيانتها قد أدى إلى تضاؤل قوتها ومناعتها، ومع الأَخذ في الاعتبار منظرها الخارجي، إلا أن الواقع يؤكد أن قلعة الباشا ومقر سكنه في ذات الوقت، وإن بدت براقة ولامعة، إلاَّ أنها بناء مرقع وغير لائق في الواقع. كما تعكس أسوار المدينة واستحكاماتها، مظهراً كاذباً، مع ساعة ميدانها، فمع تمحيص النظر تحت شمس إفريقيا بسمائها الزرقاء، يتحول الانطباع تدريجياً إلى رؤية مقبولة، إن لم تكن مشرقة وبراقة أول الأمر، إلا أَن تدقيق النظر سيكشف تلك الرقع والبقع الكبيرة من الحصى والجبس التي تداعت وتركت مكانها ظاهراً.

ومع أن الجغرافـي ليو الإفريقي (حسن الوزان المغربي الأَصل) قد أخبرنا بأن منازل وأسواق المدينة تبدو أنيقة مقارنة بمثيلاتها في تونس، إلاَّ أننا نؤكد عجزنا عن استيعاب هذه الصفة، إذ علينا الاعتراف بأن جمال وأناقة بيوت طرابلس وأسواقها، لم تجد في أنفسنا شيئاً مما أشير إليه، مع تأكيد القول أن استمرارية ذلك الوصف إذا ما قدر لها أن تظل قائمة، فإننا لا نملك سوى الشعور بالأسى نحو مهندسي العمارة في تونس على ما أقاموه من مبان تستحق الإشارة، فالمساجد والمدارس والمستشفيات التي أورد المعنى ذكرها، ما كانت بالضرورة خلافاً لحالها اليوم لتستحق الإشارة والتنويه بها، فكتل الحجارة والوحل المتداعية، التي دعيت بالمنازل لا تستحق هذه التسمية لفقدانها سمات الذوق، وطريقة البناء وتحقيق الغرض منها، مما يدفعنا للإقرار بأن طرابلس ربما لا تستحق هذه الصفة أصلاً، فقد يظهر لبعض الذين لا تتوفر لديهم الخبرة السابقة عن مدى إهمال المسلمين، بأنهم وهم يتجولون في طرف مهجور ناله الخراب من المدينة بينما هم يتجولون في

الواقع في أكثر شوارع أحيائها مهابة، فالفطنة من سمات الأوروبيين عادة، ذلك أن جل سكانها يملكون قناعة بجمال وأهمية مدينتهم، في الوقت الذي ينظر البدو إليها، ساعة اجتيازهم بواباتها ومن ثمة تطلعهم إلى مبنى القلعة الشاهق والناصع البياض، بدهشة واستغراب تبدوان واضحتين على ملامحهم، من الطريقة التي أتاحت لبراعة الإنسان إقامة مثل هذا الصرح العتيد.

يمثل القوس الروماني، وبعض أرصفة الفسيفساء، إضافة إلى عدد من الأعمدة التي أعيد استخدامها في أجزاء متناثرة، جملة ما أمكننا العثور عليه من بقايا أثرية[1].

تحدد شكل ميناء طرابلس نتيجة لامتداد مجموعة من النتوءات الصخرية الممتدة داخل البحر في اتجاه شمالي شرقي، ومجموعة نتوءات أخرى ممتدة شرقاً غير بعيدة عن الأولى متيحة بذلك ظهور مكونات حماية طبيعية لهذا الميناء الذي لا يتعدى عمق مياهه ست قامات.

أقيمت على الطرف القصي من مجموعة النتوءات الأولى قلعتان تعرفان بالقلعة الجديدة، والقلعة الأسبانية، كما أقيمت إلى الغرب منهما فوق صخرة معزولة قلعة دائرية الشكل تدعى بالقلعة الفرنسية، كما أنشئت على شاطىء الجهة الشرقية قلعتان أخريان، وفرتا إلى جانب القلاع السابقة عامل دفاع يعتد به، ويشكل خطورة حقيقية على سفن الأعداء التي تحاول دخول الميناء، ومما تجدر الإشارة إليه أن حالة ووضع هذه القلاع، لا تقارن كمنشآت دفاعية، بما أشير إليه من أسوار المدينة والتحصينات المقامة عليها،

(1) توجد مقبرة طرابلس القديمة شرقي المدينة، فوق أرض صخرية أعلى منسوباً، حيث أسفرت حفريات القنصل الإنجليزي وارينجتون، على العثور على بعض الشواهد الأثرية القيمة، وبالتحديد عدد من الأواني الزجاجية الكبيرة التي ما زالت في حالة ممتازة، مما يجعلها أفضل ما سبقت لنا مشاهدته.

وما تعانيه من سوء الإهمال بما في ذلك المدافع المقامة عليها.

تناولت منشورات عديدة وبالذات أعمال الآنسة توللي، والنقيب لايوتس وغيرهم، وصف مساجد المدينة، وحماماتها، ومقاهيها وأسواقها، إضافة إلى عادات وتصرفات وتحيز أهلها، إلى جانب وصف ملابسهم، وما يمتازون به من خصوصيات أخرى، الحديث بالتفصيل مما لا يترك مجالاً لمحاولة الحديث عنها مرة أخرى مستعيضين عن ذلك بحديث مختصر من السمات والخصائص الحالية لتربة المناطق المحيطة بالمدينة ومقارنتها بتلك التي كانت سائدة خلال القرنين الخامس عشر والقرن الذي تلاه، إذ لاحظ الرحالة ليو الإفريقي، الذي ذاع صيته أثناء ولاية البابا ليو العاشر، الذي أسبغ على المعنى النعمة والحماية، نقص الحبوب المستمر في منطقة طرابلس لعدم صلاحية إقليمها للزراعة.

إن التمعن في نص الكاتبة النافذة البصيرة، الآنسة توللي، يؤكد على ذلك حيث تقول: .. اجتزنا طريقاً يعرف بشارع آبار الحبوب أو بالأحرى خزّانات أو كهوف الحبوب العميقة المحفورة على جانبي الشارع، على بعد ثلاثين ياردة من بعضها، حيث يتم ملؤها وتبقى في حالة جيدة مدة قرن كامل، يا لسعادة السكان في هذه المنطقة إذا تم ملأ هذه الخزانات الآن، مثلما كان الحال في الماضي، عندما كان الإقليم غنياً جداً في إنتاج الحبوب التي تحفظ من أجل تصديرها إلى العديد من جهات العالم، وتباع بسعر أعلى من أي مثيل لها.

فزراعة الشعير يومها كانت تعطي مردوداً يصل إلى ضعف ما تنتجه أراضي أوربا، أما إذا توفرت لها الظروف الجيدة فيرتفع الناتج إلى نحو خمس وثلاثين سنبلة للحبة الواحدة مقابل خمس عشرة في أوروبا كأقصى حد، خلافاً لمواسم الجفاف وما أكثر تكرارها، فإن الوضع يصبح مختلفاً جداً.

لقد تغيرت الظروف كثيراً الآن، تواصل الكاتبة حديثها، إذ يتم استيراد

الحبوب بأسعار باهظة، فهذا التغير المحزن يعزي إلى تناقص كميات الأمطار التي قد ينعدم هطولها لسنوات عديدة متتالية فلم يتحقق سوى موسمان جيدان خلال الثلاثين عاماً المنصرمة، مما يعني أن فشل وصول كميات من شعير تونس سيؤدي حتماً إلى خروج الوضع عن نطاق التصور، ثم تمضي مؤكدة في مكان آخر، تأكيد الباشا بإفصاحه اللثام عن أن هذه السلع الضرورية لا تباع سوى في محلين فقط، علماً بأن محصول الشعير خلال المواسم الملائمة، الذي يصل إلى ثلاثة أمثال نظيره في أوروبا، كان يصدر ويدر على البلاد دخلاً يسهم في ثراء المنطقة خلافاً للسنوات القليلة الماضية التي توالت محنها بسبب الجفاف.

وبتقصي السبب وراء هذا التباين ظهر أن الأراضي الواقعة جنوب المدينة مباشرة كانت، أيام الجغرافي ليو الإفريقي، مغمورة بمياه البحر ولمسافة واضحة، خلافاً لحالها اليوم حيث تعجز المياه في الوصول إليها وغمرها بالتالي[1]، فقد ذكر المشار إليه، تميز المنطقة المحيطة بطرابلس بطابع رملي مما يسهل توغل مياه البحر صوب الجنوب، وتحول المنطقة التي يفترض أنها أرض قابلة للفلاحة، إلى أرض تغمرها مياه البحر فعلاً، ثم يواصل حديثه مشيراً إلى وجود منطقة من اليابس ممتدة صوب الشمال، ولو أن مياه البحر أخذت في التقدم منذ آلاف السنين لتكمل غمرها، وهو ما يمكن ملاحظته حسب رأيه مثلما هو الحال مع كل من ساحل المونستير والمهدية وصفاقس، وقابس وجزيرة جربة، حيث لا يتعدى عمق المياه أمامها ما يستحق الذكر، ويتيح للإنسان المشي لمسافة ميل أو ميلين قبل أن تصل المياه إلى خصره، ثم يمضي مؤكداً أن جميع هذه الأراضي المغمورة حالياً بالمياه هي في الواقع من ضمن المساحات لتي كانت مزروعة ثم اختفت تحت

---

(1) لا يزال جـزءٌ من السهل الرملي جنوب شرق المدينة يتعرض لطغيان مياه البحر أثناء العواصف الشديدة، مع وجود سبخة محدودة المساحة إلى الغرب من المدينة بين المنطقة المزروعة وساحل البحر.

تقدم مياه البحر من حولها، إذ يؤكد سكان طرابلس بأن مدينتهم كانت تقف شامخة إلى الشمال من موضعها الحالي الذي أخذ يتقهقر جنوباً أمام الزحف المستمر لمياه البحر، وأكثر من هذا لا يزال أهل المدينة يؤكدون بأن بقايا المنازل، وغيرها من المباني الأخرى يمكن ملاحظتها تحت الماء[1].

إن الرد على ما جاء على لسان حسن الوزّان، بخصوص موضع طرابلس المتقدم شمالاً تلاحظه المؤلفة السابقة فيما جاء في ملاحظتها الأولى في هامش الصفحة ذاتها نقلاً عن راموسيو Ramusio بقوله: إن الإشارة إلى تقدم موضع المدينة قديماً صوب الشمال، كما جاء على لسان حسن الوزان، تحمل جانب الصحة نوعاً، ويتفق مع المظهر الحالي لبعض أجزاء ساحل شمال القارة، إلا أنه يتحتم تأكيد القول بأن المدينة ما كان بإمكانها مطلقاً الامتداد شمالاً أبعد من الموضعين اللذين تشغلهما القلعتين الفرنسية والأسبانية لوقوعهما على حافة مياه يتراوح عمقها ما بين خمس إلى ثمان قامات.

يتحتم علينا بعد الإشارة إلى رواية ليو الإفريقي، وبين الموضع الذي تحتله طرابلس الآن، إما الافتراض بأن منسوب الأرض، التي أُشير إليها والمحيطة بهذه المدينة، أكثر ارتفاعاً اليوم عما كانت عليه زمن حسن الوزان، أو أن البحر قد تراجع شمالاً منذ تلك الفترة، ذلك أن الأرض المشار إليها لا زالت رملية الطابع، ولا نملك أدلة تشير إلى غمرها بمياه البحر وبالذات تلك الواقعة جنوبها، إضافة إلى جهلنا للسبب والعلاقة بين فقدان بعض الأراضي بغمرها بمياه البحر حول المدينة، وبين ضآلة توفر الحبوب بها حسب رأيه، ذلك أن المناطق الواقعة وراء تلك التي كانت تصلها

---

(1) تبدو إشارة هذا الجغرافي فيما يخص بالامتداد الشمالي لمدينة طرابلس القديمة، صحيحة في بعض جوانبها، وتتطابق مع حالات مشابهاً في بعض أجزاء الساحل الإفريقي الشمالي، رغم تأكيد القول بأن ذلك الموضع ما كان له ليمتد شمالاً أبعد من موضعي القلعتين الأسبانية والفرنسية.

بعض المياه أثناء الزوابع قرب المدينة، كانت دوماً في منأى عن وصولها إليها، وظلت بالتالي مكاناً لزراعتها كما هو حالها اليوم مثلما هو الحال في منطقتي تاجوراء، وهضبة غريان اللتين ما زالتا جيدتا الإنتاج تماماً كما أكد هو بنفسه.

إن ما نلاحظه في هذا الخصوص، ويتطابق مع واقع اليوم والماضي أيضاً قد يكون أكثر أهمية ذلك أن إنتاجية كل من منطقتي طرابلس وتونس كانتا أوفر حظاً بالتأكيد عن واقعهما الحالي، ذلك أن إقرار مثل هذه الحقيقة يمكن تأكيده بالنظر إلى أمثلة أخرى تؤيد غزارة إنتاج تربة منطقة بيزاكيوم Byzacium المشهورة بجودة تربتها البالغة الخصوبة، فقد أخبرنا المؤرخ يليني، أن حبة قمحها يمكنها إنبات أربعمائة ساق كتلك التي أرسلت إلى الإمبراطور جوستينيان، وأن حبة أخرى أثمرت ثلاثمائة وخمسين ساقاً، أرسلت هي الأخرى إلى الإمبراطور نيرون في تاريخ لاحق، علماً بأن ملاحظاتنا الخاصة تؤكد اليوم تواري تلك الخصوبة التي أشاد بها القدماء، مما يؤكد أن سبباً ما قد ترك مفعوله على مثل هذا التغيير، الأمر الذي يؤكده الكاتب شو Shaw في مؤلفه ترحال في شمال إفريقيا، «Travels In Bardary» حيث يجزم بأن أجزاء كثيرة من منطقة بيزاكيوم القديمة، تضاءلت خصوبتها عن ذلك الحد الذي أشاد به الأقدمون، ولو أن بعض مناطقها الساحلية ما زالت بيئة ملائمة لأشجار الزيتون التي تثمر مردوداً جيداً للغاية.

إن مقارنة ما ورد من تحديد موضع طرابلس الأمس، مع ما هو موجود فعلاً يلزمنا إما القول بأن منسوب الأراضي المحيطة بها الآن، هي أعلى في الواقع عما كانت عليه زمن حسن الوزان، أو أن البحر قد انحسرت مياهه منذ تلك الحقبة، فتربة المنطقة ما زالت رملية وأكثر من هذا لا يمكن القول بأن جزءاً من أرضها المحاذية لها من الجنوب، قد تعرضت فعلاً لطغيان مياه البحر عليها، مما يلزمنا بالاعتراف بفشلنا في إدراك أن ما عناه المعنى بفقدان الأراضي القريبة نتيجة طغيان مياه البحر في أيامه، كان السبب في ندرة

الحبوب أحياناً، وما يخلفه ذلك من آثار سلبية على سكانها، ذلك أن المناطق الملاصقة للأراضي التي أشار إليها، كانت دوماً مناطق مرتفعة، ولا يمكنها التأثر بما أشار إليه، وظلت تبعاً لذلك مناطق زراعية كما هو الحال في منطقة جبل غريان، ومنطقة تاجوراء القريبة من طرابلس، إذ ما زالتا منطقتي زراعة هامة، تماماً كما أشار إليها الجغرافي المذكور.

إن افتراض تقهقر البحر أمر لا يمكننا زعمه لتوفر العديد من الأدلة التي تشير إلى تحقيق مكاسب أرضية في المنطقة الساحلية ما بين ساحل طرابلس ومنطقة الإسكندرية، مما يؤكد أن الأرض المحيطة بطرابلس ازدادت ارتفاعاً بنسبة تفوق منسوب مياه البحر من حولها، مع الإقرار بأن ارتفاع اليابس لم يكن متجانساً مع زيادة مياه البحر النسبي، فالساحل هنا بطبيعته رملي مما قد يدفع بنا إلى القول بأن ارتفاع مياه البحر كان يدفع في بعض الأحيان بكميات كبيرة من الرمال مما يؤدي في النهاية إلى رفع تلك الرقع التي تجمعت فوقها، كما هو الحال في العديد من الأماكن على طول سواحل سرت وبرقة، أو مثلما حدث مع شواطىء بحيرة تريتونس Tritonis كما تشهد على ذلك الملاحظات الحاذقة التي أفضت إليها دقة استنتاجات النقيب رينل Rennel.

آلت طرابلس كما هو معروف، بعد دمار قرطاج، إلى مقاطعة رومانية، كما خضع جزء هام من منطقة الشمال الإفريقي للهمج من الوندال، الذين أُجبروا عن التخلي عنها أمام بسالة القائد بلساريوس Balisarious زمن حكم الامبراطور جوستينيان، كما أن سرعة تقدم وانتشار المسلمين غير العادي بعد وفاة الرسول، أدى إلى ضم منطقة طرابلس وباقي جهات الساحل الإفريقي إلى سيطرة القادمين الجدد، وما تبع ذلك من إحداث تصدعات في نمط الحضارة التي كانت قائمة في ظل سيطرة الكنيسة المسيحية، إذ باستثناء بعض الحالات النادرة، استمرت سيطرة المسلمين بدءاً من عهد الخلفاء، وانتقال مراكز الحكم من المغرب إلى فأس وتونس وانتهاء بحكم الباب العالـي.

أما بعد إقامة أسوار المدينة على يد درغوت، فقد تحولت مدينة طرابلس إلى ملجأ آمن لكل القراصنة الذين كانوا يستظلون بالعلم التركي، وظلوا يتخذونها منطلقاً للهجوم على شواطىء المتوسط في الاتجاه المضاد.

استمر الباب العالي بعد وفاة درغوت في إرسال ممثلين عنه كحكام لطرابلس تحت لقب الباشا في المقام الأول، كما ظلت قلعة المدينة مقراً للحامية التركية حتى عام 1714 حيث تمكن جد حاكمها الحالي من إنقاذ المدينة من ظلم الأتراك الذين تظاهر بعزمه على القضاء على كامل حاميتهم إن حاولت إبداء أية مقاومة أمام عزمه السيطرة على مقاليد الحكم أو إضفاء لقب العظيم على نفسه، الأمر الذي أدى إلى تحول السلطة إلى أبناء المدينة ممثلة في أسرة القره مانللي مع اعتراف اسمي لصاحب السلطة في الأستانة.

يسير الوضع الراهن في طرابلس نحو التقدم فيما يبدو استناداً للآثار الموجبة لاستتباب الأمن والأمان، مقارنة بذلك الوضع السيء السابق لتولي الباشا يوسف مقاليد الأمور.

إن النظر إلى تردي الأوضاع الأمنية خلال فترة السنوات العثمانية المنصرمة، وما صحبها من فوضى النهب والاغتصاب، إضافة إلى تلك الآثار المدمرة الناجمة عن المجاعة، وانتشار وباء الطاعون يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الوضع أفضل بكثير عما كان متوقعاً له.

لقد باتت الملكية الخاصة مصانة تحت سلطة حكومة تباشر مهامها، الأمر الذي انعكست آثاره أيضاً في انتعاش حركة التجارة وتوفر السلع في الأسواق، إضافة إلى تشجيع المصنوعات المحلية، وزيادة عدد السكان بالتالي.

اعتمد جزء هام من دخل طرابلس فيما مضى على مصدرين أساسين تمثل أولهما فيما تُدّره غزوات قراصنتها العتاة، في حين تمثل الثاني في تجارة

الرقيق المربحة، ومع الوقت وبدء الإحساس بضرورة التدخل لوضع حد لهذه الممارسات اللاأخلاقية وبالذات تلك الإجراءات التي باشرت الحكومة الإنجليزية في تطبيقها تعطي ثمارها في الحد إن لم يكن قطع جذور مصادر الدخل هذه، إذ أخذت عمليات القرصنة، حسب معلوماتنا، تترك السبيل أمام تنمية التجارة، فقد تبين الطرابلسيون على ما يبدو أن التخلي عن التجارة في بنى الإنسان أمر يعود بالفائدة عليهم، ويدعونا نحن للأمل في وضع حد نهائي لمثل هذا النوع من الممارسات اللاأخلاقية[1].

إن تحقيق هذه الإمكانية، وهو ما نخافه، لن يكتب له حكم النجاح طواعية كما نأمل، وبالفعل لا يحق لنا توقع ذلك بيسر لأن الإحساس بتقدم المدنية وانتشارها هو نتيجة لذلك الشعور الذي لا يمكن حدوثه قبل حدوث الفعل ذاته، فالإحساس بالإنسانية مهما بلغت درجته تبين أنه لن يكون ذا وزن أمام حجم المصلحة الذاتية، أو تلك الرغبة المعارضة لها.

ملاحظات جغرافية عن مدن طرابلس وما حولها:

احتلت مدينة طرابلس موضع أويا القديمة، إحدى المدن التي كونت مع صبراته وليدة الكبرى، المدن الثلاث الرئيسية لمنطقة نالت كنية تريبوليس Tripolis كاشتقاق من ثلاثية أسماء المدن المشار إليها، علما بأن تحديد الفترة الزمنية لبداية ظهور واستعمال هذا الاشتقاق ما زالت مبهمة رغم إمكانية الإفصاح بأن الأمر قد أخذ طريقه إلى الاستعمال إما خلال فترة حكم الإمبراطور تيتاس Titus، أو خليفته دوميتيان Domitian، بعد إنشاء كل من

(1) ينصح المؤلفان زوار طرابلس بأخذ الحيطة، وتوفير مستلزماتهم من الدولارات الأسبانية، العملة الأكثر تداولاً في كامل منطقة الشمال الإفريقي، تجنباً لتقلبات سوق الصرف وبالذات مع الأجانب الذين يحتاجون لصرف كميات قد تبدو غير عادية لاحتياجاتهم الفعلية داخل أسوار المدينة.

صبراته Tripoli Vecchia، وأويا Oea قبل النصف الأول من القرن الأول الميلادي.

ذكر المؤرخ بليني Pliny مدينتا صبراته وأويا اللتان ذكرهما أيضاً المؤرخ ميلا Mela، في الوقت الذي لم يرد لهما ذكر عند المؤرخ إسترابو Strabo الذي لم يشر إلى اسم المنطقة أيضاً.

توفي بليني عام 79 بعد الميلاد، في الوقت الذي يظن أن المؤرخ ميلا قد عاش وكتب في منتصف القرن الأول، في حين عاش إسترابو أيام حكمي الإمبراطورين أوجوستاس Augostus وتيبرياس Tiberius مما يمكننا من القول بأن سكوت إسترابو، وتجاهله ذكر كل من صبراته وأويا أنهما لم تكونا موجودتين، وكما في حالة بليني الذي رغم ذكره للمدينتين إلا أنه لم يكن فيما يبدو على علم باسم المنطقة، مما يؤهلنا للقول بأن إطلاق الاسم على المعنى المشار إليه لم يكن قائماً، وأنه ظهر بعد وفاته.

إن ما ذكره سيلاريوس Cellarius في هذا الشأن يبدو منسجماً ومؤيداً لهذا الرأي، إذ يؤكد صراحة أنه لم يكن على علم بأي كاتب قبل سولينوس Solinus يأتي على ذكر الاسم في إفريقيا، وأنه بالذات لم يقصد بالإشارة إلى الاسم المذكور الدلالة على أية مدينة بقدر تأكيده على أنه اسم للمنطقة Tripolis، وأن إطلاقه قد تم بكل تأكيد في الفترة بين المؤرخين بليني وسولينوس.

كما أن الأمر يبدو غير مؤكد فيما يخص تحديد زمن إطلاق اسم المنطقة على مدن طرابلس، لأن طرابلس القديمة أو صبراته، كما ظلت تعرف لقرون عديدة، كانت على ما يظهر الأولى التي تحمل هذا الاسم، وهو ما يمكن إقراره بالعودة إلى ملاحظة اسمها القديم المعروف بطرابلس القديمة.

ازدهرت المدينتان زمن الحكم الروماني ومع ذلك فقد تعرضتا

للتخريب والدمار أثناء الفتح العربـي، وبما أن صبراته قد بقيت مجرد أكوام من الأنقاض، تحول موضع طرابلس ليشهد ميلاد مدينة جديدة في مكان أويا التي قد تكون عرفت باسم طرابلس المحرف عن الاسم الروماني للمنطقة، كاسم جديد بعد اندثار اسميها القديمين، في الوقت الذي ظلت فيه صبراته مجرد شبح لمدينة تواصلت الإشارة إليها على أنها طرابلس القديمة.

إننا نجهل أي دليل يشير إلى أن صبراته وأويا قد تبادلتا اسميهما قبل تدميرهما على أيدي الفاتحين الجدد، وبما أن موضع صبراته لم يتعرض لإقامة مدينة أحدث، فإن الأمر والحالة هكذا لا يستدعي الإشارة إليها، أو تعريفها باسم آخر. أما عندما أنشئت مدينة جديدة على أنقاض أويا، فإن احتمال أن يكون الاسم الذي تعرف به حالياً من قبل سكانها ممثلاً فيTrablis طرابلس إنما جاء تحريفاً للمصطلح الروماني الذي عرفت به المنطقة، والذي أطلق على المدينتين بعد أن فقدتا اسميهما اللذين اشتهرتا بهما في السابق.

عرفت مدينة طرابلس Trablis لدى الأمم الأوروبية، كمرادف للاسم tripolis مما يعني أن اسم المدينة والمنطقة أيضاً كانتا على صورة واحدة. دعنا نفترض أن الأمر كان كلك، وأن اسم طرابلس بعد تحريفه عن اللاتينية، لم يرد له ذكر عند القدماء للدلالة على أي من المدن المشار إليها، وأن الحقيقة تدعونا للإقرار بأن اسم المنطقة لم يستعمل خارج دلالته على الإقليم إلا بعد الفتح العربـي الأمر الذي يبدو أكثر احتمالاً عند النظر إلى الترجمة الكاملة الممثلة في: منطقة المدن الثلاث، التي تبدو غير لائقة، ولا مقبولة كاسم علم على مدينة واحدة، ومع ذلك فإن مثل هذا الاعتراض وإن بدا وجيهاً إلا أنه لا يعني شيئاً للفاتحين من العرب ربما لجهلهم باللغة التي اشتقت منها مفردات الجملة السابقة، وبالتالي قصورهم عن اكتشاف سبب مقبول يحول دون إطلاقهم عليها كمدلول لاسم علم على مدينتهم الجديدة طرابلس.

وهنا علينا الاعتراف بأننا لم نتكبد عناء البحث الكافي للخوض في هذه المسألة، التي ربما نالت ما تستحقه من الدراسة على أيدي مؤرخي المرحلة الأخيرة من الإمبراطورية الرومانية، مما يجعلنا ندلي بما توفر لدينا من معلومات في ظل غياب وثائق لا يرقى الشك إلى صحتها. وعلى ذلك يتحتم علينا في نفس الوقت تأكيد حقيقة أن استخدام مصطلح Tripolis الذي ظهر مطبوعاً في كتب المؤرخ بليني كان حقيقة واقعة ولا يجوز الجدل حولها، وعلى القارىء زيادة في تأكيد الأمر الرجوع إلى الكتاب الرابع للمؤرخ سيلاريوس الفصل الثالث، ليجد تفصيلاً للحديث عن هذه المسألة، خلافاً لذلك الاتفاق الخاص باسم لبدة الكبرى Leptis Magna الذي لم يظهر أي خلاف حوله، وعموماً فإن النقاش فيما يخص المصطلح الأول سينجم عنه نقاش لا نهاية له فيما يتعلق بجغرافية المنطقة الممتدة ما بين طرابلس القديمة (صبراته) ومدينة لبدة، خلافاً للجدل الذي تمخض عن محاولة الدكتور ديلاً إتشيلا تمحيص بعض النصوص القديمة وبالذات ذلك النص الذي نقله عن المؤرخ بليني مؤكداً فيه بأن مدينة طرابلس ليست سوى ما أسماه مركز نيابولس Neapolis، التي لا يختلف اثنان اليوم بأنها مدينة لبتس ماجنا[1].

لا تقلل هذه الإشارة من جدارة الدكتور ديلا إتشيلا، الذي يستحق كل تقدير وإعجاب لتفانيه في البحث، وتحمل أعباء ومشاق السفر في رحلته الطويلة، فقد كان أول أوروبي يجتاز قفار ساحل سرت، منذ فترة الاحتلال الروماني، حسب علمنا، ويترك أثراً مطبوعاً لرحلته تلك، مما أهله ليصبح جديراً بالثناء والتقدير لتدوينه معلومات انقطع حبلها منذ قرون عديدة عن هذه المساحة الشاسعة، وما تحمله وتطويه أرضها من أخبار شيقة، ولو أن تأكيد هذه البديهية في حق المعنى، الذي سنشير إلى مؤلفه مرات عديدة، لا يمنعنا

(1) خلافاً للمؤرخ بليني يتفق كل من استرابو، وسيلاكس، وبطليموس، وسيلاّريوس في الإقرار بأن نيابولس هي لبتس ماجنا.

في ذات الوقت من بيان ما بها من أخطاء.

يبرز اعتبار مدينة طرابلس الحالية كبديل عن مدينة أويا صعوبة مفادها أن الأخيرة لم يرد لها ذكر في أي نص على أنها ميناء، خلافاً لطرابلس التي صنِّفت دوماً على أنها كذلك، مع الإشارة إلى أن العديد من المدن كانت تصنف على أنها موانىء من قبل بعض الكتاب بينما يعرِّفها كتاب آخرون بأنها مدن فقط، وهو اعتراض شكلي ولا يمكن غض النظر عنه بالتالي.

يذكر بعض الكتاب القدماء بأن أساس طرابلس الحالية يعود في نشأته إلى سكان الساحل الإفريقي الأوائل الذين أطلقوا عليها اسم طرابلس Tarabilis أو Trebiles، في الوقت الذي يؤكد فيه هؤلاء الكتاب بأن تعبير أو مصطلح Tripolis مشتق من الاسم الذي أطلقوه عليها.

لقد سبق لنا الاعتراض على مثل هذا الرأي، وهنا ترانا نغامر لنؤكد على عدم ظهور أي دليل ينبىء عن وجود أي مركز عمراني قبل نشأة أويا، خلافاً للحال مع مدينة لبدة الكبرى التي لا يدور خلاف حول نشأتها الفينيقية، كما يؤكد ذلك العديد من علماء الآثار عكس وضع المدينتين الأُخريتين اللتين تكونان مع لبدة الكبرى ما يعرف باسم Tripolis أو منطقة المدن الثلاث، فقد اعتبرتا دوماً من أصل ونشأة رومانية.

أعطى الجغرافي ليو الإفريقي شهادته التي تعود في مصادرها أساساً إلى روايات المؤرخين المسلمين المحليين، بينما يجزم بقيام الرومان بتأسيس مدينة صبراته ناكراً بذلك أي ادعاء آخر يتعلق بأصل هذه المدينة.

وبغض النظر عن تاريخ هذا الادعاء الذي يبدو أن الجهل بطبيعة المكان قد لعب دوراً هاماً في الأخذ به، رغم عدم توفر الدليل القاطع لافتراض أن تكون طرابلس أويا القديمة لإقرارنا المسبق بوجودها كمركز قائم بذاته أيام حكم الرومان للمنطقة، ذلك أن القوس الروماني الذي تحدث عنه النقيب لايونس كاف للأخذ بهذه الحقيقة مثلما تؤكد ذلك النقوش التي تعلو هذا

القوس، التي أشار إليها الرحالة السابق، وورد الحديث عنها في مذكرات الآنسة توللي أيضاً حيث يظهر وبدون أي لبس أن نسبة إقامة هذا الصرح المعماري إنما تعود إلى زمن حكم ماركو أوريليوس.

إن تأكيد الجغرافي حسن الوزان بأن طرابلس قد أُنشئت من قبل السكان الأفارقة بعد تدمير صبراته، أو طرابلس القديمة، إنما يبعث على الاعتقاد بأن إشارته تعني إعادة بنائها أيام الحكم العربي، مما يحمل على الاعتقاد بإدراكه لوجود المدينتين قبل الفترة التي تحدث عنها مما يعني ببساطة أن طرابلس التي أشار إليها كانت في الواقع أعمق في جذور التاريخ التي أراد تحديدها لها.

دمرت صبراته، طرابلس القديمة، زمن الخليفة عمر من قبل الفاتحين الذين ضربوا حولها حصاراً امتد لستة أشهر الأمر الذي لم يعد بإمكان ساكنيها توفير سبل مقاومته، ومهد بالتالي لمن ضربوا الطوق من حولها من النيل منها بعد القضاء على بعض سكانها الذين تم أسر بعضهم الآخر ونقلوا إلى مصر والجزيرة العربية.

أكد حسن الوزان هذه الوقائع مما أتاح لنا تاريخ تدمير هذه المدينة التي يبدو أنها لم تستعد إعادة بنائها، رغم أنه لم يشر إلى تاريخ لظهور طرابلس الحالية بعد حادثة التدمير المشار إليها إذ يتضح أنه عند الرأي القائل بأن المدينة الإفريقية كانت الأولى التي أقيمت في نفس المكان.

الفصـل الثالـث

اكتملت ترتيبات رحيلنا بحلول الرابع من نوفمبر، وأمكن بالتالي إرسال جل متاعنا إلى معسكر سبق إعداده لهذه المهمة خارج المدينة، وهكذا ما إنْ حلَّ صباح اليوم اللاحق حتى أخذنا طريقنا إلى تاجوراء بعد توديع هذه المدينة التي لا نملك ما يشدنا إليها في الواقع.

تتألف جماعتنا من ثلاثة أوروبيين يعملون كمترجمين وخدم في آن واحد، وجندي إنكشاري من حرس الباشا، والشيخ محمد الضبع مع خمسة من البدو، وثلاثة رجال من سكان المدينة لرعاية خيولنا، مما يعني أننا ثمانية عشر رجلاً.

دخلنا قـرى تاجوراء المتفرقة، بعد اجتياز منطقة المنشية والسير بمحاذاة سبخة كبيرة ورد ذكرها في مذكرات الآنسة توللي، فهذه القرى المبعثرة محاطة بمزارع أو بالأحرى سواني، تنتج محاصيل متنوعة من الحبوب والخضراوات، والفواكه إلى جانب أشجار النخيل والزيتون التي تفوء ظلالها وتشكل مورداً هاماً وضرورياً لحياة السكان.

وصف ليو الإفريقي، تاجوراء كمنطقة تضم عدداً كبيراً من القرى كمراكز للاستقرار إضافة إلى عدد هام من مزارع النخيل وما سواها من أشجار الفاكهة، وهو ما يكاد ينطبق بكل تفاصيله عن حالتها اليوم.

أدى نزوح عدد كبير من سكان طرابلس إلى ربوع تاجوراء حسبما أكده الجغرافي المذكور، إلى تحولها إلى مناطق تنعم بدرجة هامة من التحضر والاستقرار، رغم اعترافنا بالفشل في العثور على أية بقايا لتلك الأهمية أو ذلك الأثر غير العادي لما بلغته من تقدم وتحضر، خلافاً لجامعها العتيق وما يحظى به من احترام بين مختلف سكانها، أو كرم وفادة أهلها الذين أسبغوا علينا بعضاً منه.

بدا سكان المنطقة في غاية الانشراح، وتبادلوا معنا التحيات الحميمة أثناء عبورنا لأراضيهم المستغلة كأفضل ما تكون عليه الزراعة الكثيفة، إضافة إلى ما سمعناه عن استغلالهم لعدد من الأعمدة الرومانية في بناء المسجد الكبير، مما قد يفسر قربها من أحد المراكز الأثرية، علماً بأن مثل هذا الاستنتاج قد لا يكون مطابقاً للواقع فقد أخبرنا الجغرافي سابق الذكر، أن مدينة طرابلس الحالية قد بنيت باستعمال بقايا لبدة الكبرى بعد تدميرها، مما يحمل على الظن إمكان جلب هذه الأعمدة من المدينة المدمرة أيضاً، تماماً كما تم مع مدينة طرابلس، ومع ذلك إذا كان لا بد لنا من اعتبار تاجوراء ذاتها تحتل أحد الأماكن الأثرية، فإن علينا الافتراض بأنها قد قامت على أنقاض أبروتونم Abrotonom رغم ما يواجه هذا الزعم من صعوبات، فهذا الموقع كما حدده سكيلاكس Scylax يبعد مسافة يومين عن طريق البحر، عن مدينة لبدة الكبرى في الوقت الذي لا تزيد فيه المسافة بين ساحل تاجوراء ولبدة عن تسعة وخمسين ميلاً[1]. أما الصعوبة الثانية، وربما الأهم فتتمثل في تأكيد حقيقة أن ما أشار إليه المؤرخ سكيلاكس يعني مركزاً عمرانياً تتحدد سمته

(1) حدد النقيب رينل Rennell متوسط إبحار سفن الأقدمين بخمسة وثلاثين ميلاً في اليوم، مما يعني أن المسافة المشار إليها يجب ألاَّ تقل عن سبعين ميلاً، وهو ما ينطبق على الواقع، علماً بأن المسافة قد تظل في بعض الحالات كما في الخليج الفارسي والبحر الأحمر، إلى حد أقصاه ثلاثين ميلاً وهو ما يتمشى مع الواقع أيضاً في أغلب الحالات.

الأولى في كونه ميناء، وهو ما لا يمكن نسبته إلى تاجوراء، ويدفع بالقاريء إلى استدراك القول بالتالي إلى إمكانية أن يكون المقصود ميناء طرابلس الذي قدرت المسافة بينه وبين لبدة بسبعة وستين ميلاً، وهو ما يتلاءم مع الرقم الذي سبق تحديده بسبعين ميلاً، مما يعيد إلى الذهن إمكانية أن تكون طرابلس هي مركز أبروتونم الذي أشار إليه وحدده سكيلاس خاصة إذا أعدنا تأكيد حقيقة أن لا أحد من الكتاب القدماء، حسب علمنا، قد أشار إلى أن مدينة أويا كانت ميناء في أي وقت.

إن النظر إلى هذه الحقائق مجتمعة يمكن أخذها كدليل بأن طرابلس الحديثة هي أبروتونم، التي تحدث عنها إسكيلاكس، الأمر الذي لا ينطق تماماً مع ما أشار إليه كل من A'Anville، وسيلاريس Cellarius اللذين يحددان موضع أبروتونم مكان أويا.

إن الافتراض بأن طرابلس هي أويا يدعونا إلى البحث عن أبروتونم في مكان قريب منها ذلك أن المسافة التي حددها إسكيلاكس بين هذه المدينة وليدة تزيد من الحيرة كلما حاولنا تحديد مكانها إلى الشرق من مدينة أويا، وعلى ذلك فإن موضع تاجوراء، حسب هذا الافتراض، هو المكان الذي يجب علينا اعتباره مكاناً لهذه المدينة، رغم الافتراضات التي سبق الإعلان عنها، وهو ما يدعونا إلى الاعتراف بعجزنا في التوفيق بين هذه الآراء.

لم يكن لمدينتي صبراته وأويا وجود إبان زمن المؤرخ استرابو، ذلك أن أول مدينة يرد لها ذكر من قبل هذا الجغرافي، شرقي سرت الصغرى بعد بحيرة زوكيس Zuckis، هي مدينة أبروتونم التي تحدثنا عنها، علماً بأنه لم يحدد المسافة بينها وبين بحيرة زوكيس Zuckis، رغم حديثه عن وجود بحيرة أصغر حجماً من البحيرة الأولى، قبل مركز بروتونم مباشرة، مما يدل على إمكانية أن تكون تاجوراء هي المكان الذي ننشد البحث عنه، خاصة وأن الإشارة قد سبقت إلى وجود بحيرة صغيرة غربي تاجوراء مباشرة.

إن الوصول إلى رأي لا لبس فيه حول هذا الموضوع، يبدو كمن يحاول التطلع وراء حاجز الأُفق، ويدفع بنا إلى وضع حد للخوض في مزيد من التفاصيل تاركين لبصيرة القاريء الحكم على مدى أهلية أن تكون تاجوراء هي أبروتونم المفقودة، مضيفين بأن خصوبة سهل تاجوراء تؤهلها لتكون عن جدارة مكاناً لقيام مدينة، وأنها تشكل فعلاً ملاذاً لقضاء أيام طيبة لمجموعات من الأوروبيين من قاطني طرابلس الذين يأتون لزيارتها، وقضاء وقت ممتع في رحاب حدائقها وقراها. فما تنعم به اليوم منطقة تاجوراء من هدوء واطمئنان مع تلك التي عاشتها الآنسة توللي (1783 ـ 1793) يؤكد تبدل الوضع السائد قبل تولي يوسف القره مانللي مقاليد الأمور، إذ كان على قريبه القنصل البريطاني يومها إحاطة قصر الولاية برغبتها في زيارة المنطقة مع نحو أربعين من أصدقائها، حتى تزود قافلتها بعدد من الجند لضمان ما قد يعكر الطمأنينة، التي لم يحدث ما يسيء إليها نتيجة لنفاذ بصيرة الباشا واتخاذه الإجراءات اللازمة للحفاظ عليها في الوقت الحاضر.

كانت الطرق المؤدية إلى تاجوراء، وتلك المتوفرة بداخلها مغمورة بمياه الأمطار التي سبقت وصولنا، والتي لحسن الحظ رغم إعاقتها لتقدمنا الهين، إلا أنها عملت في ذات الوقت على خلق طقس منعش، وحالت دون انتشار الرمال العالقة به، مما أتاح لنا ميزة الحركة السهلة، خاصة وأن الحدائق شرقي المدينة تقع على حافة صحراء رملية مقفرة، يتحتم علينا اجتيازها، إذ بدأت بوادرها في الظهور ممثلة في تلك الهضاب الرملية حول أشجار النخيل التي توارت جل جذوعها غير بعيد عن مراكز القرى القريبة وفي هذا ما يوحي بأن بعض حدائق هذه الأطراف الشرقية كانت مغطاة كلية بمثل أكوام الرمال هذه، ويوحي أيضاً بأن مثل هذه السواني بما فيها من أشجار ستتعرض لأسر كميات هائلة من الرمال التي تذروها الرياح في مثل هذه المناطق المفتوحة وهو ما سيعرضها للاختفاء كلية.

إن سماع قصص مثيرة عن فقدان وضياع قوافل كاملة، أو تدمير جيش بكامله بفعل هبوب عواصف رملية هائلة، يجعلنا نرتعد لما نسمعه قبل محاولة تعليل أسبابه، التي لو تمعناها لتبين أن جلها مبالغ فيها، إما لأن رواتها قد أشفقوا على أنفسهم إلى الحد الذي جعلهم يؤمنون بها، أو لأن بعضهم الآخر قد أرادوا من قرائهم الإيمان بما لا يؤمنون به أنفسهم.

ففي الواقع نحن نعتقد باحتمال أن يكون أولائك الذين انتهوا إلى الضياع في الصحراء منذ زمن كل من قبائل Psylli وقمبيز(1) حتى الآن قد ماتوا وانتهوا طبيعياً قبل أن يتعرضوا للردم إما بسبب العنف، أو العطش، أو الإنهاك أو بسببها جميعاً.

بات الحديث عما أشرنا إليه أمراً عادياً، لذا ترانا نقف حائرين أمام إرجاع اللوم إلى القاريء الذي يؤمن بما يكتبه الثقاة من الكتاب، أو إلى الكاتب نفسه الذي يخبرنا بما يراه هو حقيقة، لذا نحن نقول للذّي لا يزيد همه عن إثارة الرعب بتهويل ما يتناوله أن الأمر لا يعدو أن يكون أمراً عادياً وسطحياً أيضاً، فصعوبات السفر ومشقاته في الصحراء الرملية يمكنها إرضاء رغبات أعتى المغامرين، وأكثرهم تحملاً للمشاق دون اللجوء إلى بث صور الهلع الخرافية لا لشيء سوى لشد أزر أولئك الذين يحاولون إظهار أنفسهم.

ومع ذلك فإن صور الرهبة والخوف الخاصة بالصحراء لها ما يبرر الحديث منها رغم امتلاكها لصور من المتعة والبهجة تقف مناظرة لصور الحديث الأول إن لم تفقها رونقاً لوجود شيء ما يفرض نفسه ولا علاقة له بفكرة المكان المحدد من ذلك أن أي شيء مهما كان ضئيلاً يبدو فوق سطحها ذا أهمية لا تتوفر لأشياء أكثر أهمية في مناسبات أخرى.

---

(1) روى هيرودوت تعرض قبائل Psylli الليبية القديمة على شواطىء سرت إلى الهلاك نتيجة هبوب سحب من الرمال، أثناء تحركهم جنوباً، وهو ما تعرض له جيش قمبيز أيضاً.

كما أن صمت الصحراء وعزلتها يدفعان بالإحساس العاطفي إلى مراتب السمو، ويدفع بالمرء إلى أحلام بهيجة لا تعرفها منغصات الطمأنينة والاستقلالية، وإلى الشعور بالحرية بكل ما له صلة بالقلق والحماقة والرذائل، إضافة إلى أن هبوب الرياح الباردة المحدودة القوة يحولها إلى رياح منعشة تدفع إلى الابتهاج، وتحول المسافر إذا كان مخزونه من الماء كافياً، إلى كائن يمكنه الرضا بأي شيء.

امتلك مثل هذا الشعور روح جماعتنا، وهم يستعدون لدخول الرقعة الصحراوية أمامهم، فقد كان شعورنا بالفرح على أشده هرباً من الضوضاء المستمرة والصخب المتواصل أثناء إعداد تجهيزاتنا في طرابلس، كما لعب التخلص من إرهاق العاملين، إلى جانب مضايقات التجار مصدراً حقيقياً للشعور بالراحة والسكينة، إضافة إلى الإحساس الفعلي بالأثر المنعش لنسيم البحر، وتوقع رحلة مفيدة وهادئة، عوامل تسيطر على أذهاننا، وتشد من عزائمنا.

يجد المسافر نفسه، بعد اجتياز المناطق المزروعة، وهو يتجه شرقاً أمام ما يتوفر له من سابق خبرة، أو ما تشير به البوصلة التي يحملها تائهاً إذ لا أثر مطلقاً لأي درب يمكن تقفي أثره في رمال السهل الفسيح أمامه.

كان همنا الأساسي في اجتياز هذا الجزء من رحلتنا، الحصول على صورة أو بالأحرى الهيئة الدقيقة لخط الساحل، وهو ما حدا بنا إلى اتباع طريق على هامش خط الساحل الذي يأخذ ما بين تاجوراء ورأس الشيارة Sciarra شكل خليج عند نهاية وادي الرملة.

كان الوقت متأخراً بعد ظهر يوم السادس من نوفمبر عند بلوغنا مجرى الوادي حيث قابلنا من تقدموا المسيرة حاملين متاعنا معهم.

يمثل وادي الرملة، مسيلاً صغيراً دائم الجريان لمياه نقية تأخذ طريقها من المنطقة الجبلية جنوبي منطقة الصحراء هذه، مع الإشارة إلى أن قاع المجرى ينخفض

انخفاضاً واضحاً مقارنة بمستوى سطح الأرض من حوله، مما يؤهلنا للحكم عند أخذنا في الاعتبار عرض هذا الوادي، وشدة انحداره، إلى تحوله، عند اندفاع مياه الأمطار من المنطقة الجبلية التي ينبع منها، إلى مجرى مائي له وزنه وأهميته.

انتهت عن هذا الحد رحلة يومنا، وتم نصب الخيام قرب المسيل، أملاً في قضاء ليلة مريحة رغم الجو العاصف، وبات علينا توديع جميع الرفاق الذين تجشموا مرافقتنا من طرابلس بما فيهم العقيد كلبيرتون Clapperton والسيد كارستنسن Carstenson وآخرون غيرهم.

انهمرت الأمطار صبيحة اليوم التالي، بشكل ملفت للنظر وهو ما حدا بنا إلى الإصرار على ضرورة توقف رفاقنا عن مواصلة مصاحبتهم لنا تحسباً للظروف الجوية التي ما كانت تبشر بتحول ينبىء عن تحولها إلى الأحسن مما اضطرنا إلى توديعهم قافلين إلى طرابلس بينما انطلقنا نشد الرحال صوب الشرق.

ازدادت سرعة الرياح وتحولت بسرعة إلى عاصفة هوجاء وابتلت ثيابنا، ومع أن الأمر لا يبدو مرغوباً فيه في جميع الأحوال، إلا أن الواقع أثبت أنها لم تكن كذلك بالفعل، ذلك أن سحب الرمال التي كان على الرياح حملها وإلقائها على وجوهنا وبالذات إذا كان سطح الأرض أقل رطوبة، ستكون أكثر ضرراً وإساءة مما نحن فيه.

واصلنا رحيلنا مغتبطين، كما هو الحال مع رفاقنا من العرب صحبة الشيخ الضبع، الذين بدوا وكأنهم مسرورون هم الآخرون، إذ سرعان ما بدأوا يفتحون خزائن أغانيهم التي اعتادوا عليها، وظلوا يرددونها بصوت جهور حتى بدا وكأن زئير العاصفة قد خبا أمام تحدي بني الإنسان.

اجتزنا عند العاشرة من صباح اليوم التالي وادي إمسيد الذي يقل أهمية عن وادي الرملة حيث بلغنا وادي الجمَّار الواسع، فهذا الوادي الذي يمكن

اعتباره الحد الشرقي للمنطقة الرملية الممتدة غرباً بما في ذلك جنوبي طرابلس وحتى حدود جبال غريان.

حالت طبيعة الأرض الصحراوية غربي وادي إمسيد عن إمكانية سيرنا قرب الساحل، وهو ما حدا بنا إلى محاولة العودة إلى خط الساحل غير أن الرمال الناعمة حالت دون تمكن جيادنا من السير فوقها ودفعنا للتخلي عن الوصول إلى هدفنا مرة ثانية، وبات علينا التخلي وإنهاء عملنا تاركين بذلك جزءاً من الساحل دون دراسة.

عثرنا على بعض قطع الفخّار بين مجموعة الروابي الرملية ولكن دون أن نتبين أي أثر لمباني تذكر، ومع خصوبة تربة هذا السهل فإن قليلاً من الجهد يمكن أن يحوله إلى منطقة ذات إنتاجية عالية، إضافة إلى قربه من مراكز التجمع السكاني في العاصمة، إلاَّ أن الواقع يؤكد أن جزءاً صغيراً منه هو المزروع فعلاً، كما تدل على ذلك بعض خيام العرب المتناثرة.

لا تبعد سلسلة جبال غريان في هذه المنطقة بأكثر من سبعة أميال عن خط الساحل، حيث عملت الأمطار الغزيرة على تكوين العديد من المسيلات الهامة التي شقت طريقها إلى البحر التي من أهمها واديا تيراجادِت Terragaolt ووادي بوفروس Booforris ووادي Guadigmata حيث أقام بعض العرب خيامهم.

يتحتم البحث في المنطقة المحيطة Guadigmata وتلك التي تفصلها عن وادي إمسيد عن موقع مدينة جرافارا Graphara التي ذكرها سكيلاكس، التي يتحدث عن موقعها في منتصف المسافة بين أبروتونم ولبدة الكبرى، أي على بعد إبحار يوم واحد من كلا المدينتين ذلك أن Guadigmata لا تبعد سوى مسافة ستة وعشرين ميلاً عن لبدة، في الوقت الذي لا تزيد فيه المسافة بين لبدة وتاجوراء عن ثمانية وخمسين ميلاً ونصف، مما يعني أن موضع جرافارا يمكن إقراره على بعد مسافة ثلاثة أميال غربي Guadigmata وهو ما

يحدد موضعها على بعد تسعة وعشرين ميلاً من كُلٍّ المدينتين المذكورتين، أو منتصف المسافة بين لبدة وتاجوراء إذا اعتبرنا تاجوراء هي أبروتونم، وهو ما لا يمكننا الجزم به، مع ملاحظة عدم وجود أية بقايا أثرية إلى الغرب من Guadigmata إذا كان خط سيرنا دقيقاً مع الإشارة إلى ظهور بعض الآثار فوق ربوة شرقي مكان تواجدنا بنحو ميلين رغم فشلنا في إعطاء وصف مرض لها لتكدس الرمال من حولها، فما بقي منها لا يزيد على طرف من قائمي البوابة فيما يبدو.

أعلمنا الربان سميث، فيما بعد، بوجود خليج صغير يشبه الغار، ولا يختلف كثيراً عن المرافىء الصغيرة، التي أفلح القدماء في الاستفادة منها، قرب مصب وادي إمسيد في المنطقة التي لم نتمكن من الوصول إليها بسبب تعثر خيولنا، مؤكداً في ذات الوقت، وجود بقايا لعدد من الحمامات أرضيتها من الفسيفساء، كما يظهر شرقي هذه الرقعة مرفأ صغير آخر بين وادي بن زبرّا وعبد العاطي يتم من خلاله شحن إنتاج المنطقة من الحبوب صيفاً، إذ شبه الربان المذكور مصب وادي عبد العاطي كخليج صغير مميز مؤكداً في نفس الوقت وجود بقايا قرية مكونة من جملة من الكهوف المحفورة في تكوينات الحجر الرملي ما زال السكان يستعملونها كمخازن لحفظ الحبوب كما تدل على ذلك العديد من أبواب هذه الكهوف على حافة الوادي اليسرى. وهكذا يبدو أن الميناء الصغير الأول قد يكون المكان الذي قامت عليه مدينة جرافارا القديمة رغم أن تأكيد مثل هذا الأمر يعتبر ضرباً من المجازفة قبل إجراء عمليات التنقيب الضرورية.

استمرت الظروف الجوية سيئة للغاية خلال اليوم الثاني لوصولنا مما اضطرنا للبقاء وتفقد سلال تموينناَ التي تسربت المياه إليها، إلى جانب أخذ الاحتياطات الصغيرة الأخرى التي باتت ضرورية بعد يومين من السفر الذي ما أن بدأ من جديد حتى تحولت طبيعة الأرض إلى أرض هضبية تخترقها العديد من المسيلات المنحدرة من الجبال القريبة صوب البحر.

بلغنا عند الرابعة بعد الظهيرة منطقة سيدي عبد العاطي Abdel'Uati الولـي المشهور الذي تحيط قبره المقام فوق أرض مرتفعة، مجموعة من الحدائق وأشجار النخيل على ضفتـي الوادي حيث تنتشر الآبار وتكثر الزراعة إذ بسرعة تقدم نحونا عدد من العرب الذين جاءوا يطلبون مكافأة، أو بالأحرى تعويضاً من أصحاب الإبل الذين وجدوا من العرب المرافقين لنا سنداً لهم في رفض طلب التعويض، ونشوب شجار استخدمت فيه السكاكين والمسدسات أيضاً.

أنهى حضور الشيخ محمد الضبع إلى مكان الحادث حداً لما جرى من مناوشات لم ينجم عنها لحسن الحظ ما يشكل حادثاً خطيراً، فقد تمكن المعني من تهدئة الأمر بتوجيه اللوم إلى أصحاب الإبل، وحثهم على بقاء جمالهم بعيداً عن الأرض المزروعة، علماً بأننا قد وقفنا إلى جانب رفاقنا الذين لم نتبين حقيقة خطئهم إلا بعد تسوية الأمر، وهو ما جعلنا نلتزم جانب الحذر حين اتَّضَحَ أن مرافقينا لم يكن يهمهم شيئاً أكثر من حرصهم على استفادة إبلهم.

مَثَّلَ أحد العبيد الموثوق بهم عند الشيخ الضبع أكثر مجموعتنا ضجيجاً وجلبة في هذا النزاع إذ بدأ وكأنه ورث عن سيده فن الجهر بصوته عن بقية من حوله فقد تحول منذ اللحظة التي انتزع فيها مسدسه إلى ثورة من الغضب استل خلالها الموس التي حاول بها طعن واحد منهم لولا تدخل أحد رجالنا بإشهار بندقيته وتجريده من سلاحه حتى لا تتفاقم الأمور.

تبين بعض بقايا القلاع المربعة الشكل المقامة فوق التلال التي تتحكم في طريق الضريح وكأنها بقايا محطة عسكرية الأمر الذي لا يمكن للأقدمين تجاهله في ظل ما يتوفر من إمكانيات أخرى تأتي جودة التربة ووفرة المصدر المائـي على رأسها، إذ تبين بالفعل وجود مخلفات عديدة لبعض المباني، إضافة إلى قبر الولـي ذاته، وأكثر من هذا تبدو للعيان وفي أكثر من مكان

على طول الشاطىء بقايا من الفخار والزجاج الأثريين.

ومع أن هذه المخلفات، باستثناء مبنى الضريح، والقلاع، تظهر الآن مكونة من أحجار متفرقة، ومخططات أرضية غير كاملة، إلا أنها مؤشر قوي لموضع مدينة قديمة غير تلك التي سبقت الإشارة إليها في مكان مما يعني أيضاً إمكانية أن يكون هذا المكان موضع مدينة جرافارا، على افتراض أن يكون بعدها في حدود عشرين ميلاً عن مدينة لبدة.

إن القلاع المربعة الشكل المقامة على قمم سيدي عبد العاطي، يمكن اعتبارها والحالة هكذا كمحطة تابعة لتلك المدينة، وأن الميناء الذي حدده الربان سميث يصبح ذلك المرفأ الذي أشار إليه الجغرافي والمؤرخ سكيلاكس.

وبدون مواصلة الحديث حول هذا الموضوع يمكننا استنتاج أن موضع سيدي عبد العاطي كان بدون منازع مقراً لمحطة عسكرية حصينة، بغض النظر عن الاعتبارات المتعلقة بكونها موضع مدينة جرافارا أم لا؟.

قادنا الطريق بعد مغادرة هذا المكان، عبر وادي سيلين Selin إلى مجرى مائـي آخر يعرف بالنقّازة عاكساً بذلك منظراً أخّاذاً وبالذات حين يتسع مجراه بين التلال القريبة.

واصلنا السفر لبعض الوقت على حافة هذا الوادي ثم أخذنا في صعود السلسلة الهضبية المعروفة بسيلم Selem، وهي فرع من سلسلة هضاب ترهونة الممتدة حتى البحر مشكلة فرعاً من جبال غريان.

يوفر بلوغ قمة سلين منظراً يشد الانتباه باتجاه الغرب صوب سهل جومار حتى المنطقة الصحراوية، أما في الاتجاه المضاد فإن المنظر لا يقل بهجة نحو سهل لبدة، ومع أن المطر ظل ينهمر بين حين وآخر، إلا أننا اضطررنا للتوقف مراراً للتمتع بهذه المناظر الخلابة.

لاحظنا من على قمة هذه السلسلة العديد من بقايا ما يظهر أن قلاع

شيدت بعناية فوق بعض القمم المتناثرة باتجاه الشمال، حيث يظهر من حصانة مواقعها أنها أعدت لصد أي هجوم تتعرض له، إضافة إلى سهولة تمييزها وسهولة الاتصال بها بالتالي.

تتميز أودية هذه الهضاب بخصوبتها الفائقة رغم أن العرب لم يفحلوا بعد في حسن استغلالها على ما يبدو، ولو أن بعضها قد تمت زراعتها بأشجار العنب والزيتون إلى جانب زراعة بعض الحبوب والخضراوات.

تمتد الطريق المنحدرة شرقاً على جانب الجبل حيث بقايا بعض القلاع إلى جانب قبور مبعثرة، وعدد من الآبار القديمة التي يقوم قرب واحد منها عدد من الأعمدة الرخامية.

كان السير على الطريق صعباً للغاية طوال اليوم نتيجة للأمطار الغزيرة التي أعاقت تقدم الإبل وأدت إلى سقوط بعضها أكثر من مرة وهو ما زاد من إرهاقها، واضطررنا بالتالي للمبيت بعد نصب خيامنا عند واد صغير لا يبعد بأكثر من ميل واحد عن برج المرقب حيث قابلنا القنصل الإنجليزي وهو في طريق العودة من جولة له في لبدة حيث أخبرنا بما يفيد وجود جماعة من العرب المسلحين في انتظار مرورنا على مسافة يومين جنوبـي مصراته.

عزّز الشيخ الضبع صدق مثل هذا الخبر الذي يبدو أنه يريد استغلاله في أمر ما، وهو ما دعانا إلى الظن بأن الشيخ نفسه هو الذي أشاع هذا الخبر لزيادة قيمة أجره، وتصميمنا بالتالي على عدم تصديق هذه الواقعة أصلاً، رغم قرارنا بزيادة أخذ الحيطة إلى جانب الطلب من القنصل ضرورة إبلاغ الباشا بالأمر لاتخاذ ما قد يراه من إجراءات في هذا الخصوص.

الفصل الرابع

تابعنا سفرنا صبيحة اليوم اللاحق إلى لبدة، وحالة الطقس لا زالت سيئة، فقد كانت الطريق تسير قرب حضيض هضبة المرقب التي تقوم عليها بقايا منارة عالية بالإمكان رؤيتها من بعيد، في الوقت الذي تناثرت فيه مخلفات العديد من القبور المهشمة أسفل الهضبة.

تقود نهاية وادي سلين Selein إلى رقعة خصبة ذات ارتفاع ملحوظ، وتنتشر فوقها تجمعات من أشجار النخيل تضفي على المنطقة مع ما بها من كلأ وحشائش منظراً يشد الانتباه على كامل سهل لبده الذي يبدو جلياً من على قمة هذه الهضبة التي ينحدر السهل أمامها تدريجياً نحو ساحل البحر تاركاً منظراً خلاباً قلما يتوفر نظير له حيث تظهر تجمعات أشجار النخيل والزيتون تحيط بالقرى المتناثرة تاركة بذلك بعض المساحات المكشوفة مغطاة برداء كثيف من العشب الأخضر، أو محاصيل الحبوب المتنوعة.

إن جمال وروعة طبيعة هذه المنطقة إضافة إلى فعالية إنتاجها لا بد وأنهما كانا دوماً مصدراً للاستغراب والدهشة عن الكيفية والطريقة التي تم فيها تجاوز هذه المنطقة، واختيار طرابلس كمركز أول بدل لبدة، فموقع طرابلس وسط منطقة رملية، وعلى حافة صحراء شاسعة وفي منطقة منعزلة من البلاد يجعلها فاقدة لأي ميزة محلية عدا كونها ميناء بحرياً، في الوقت

الذي يحظى فيه موضع لبدة بجانب جمال الموقع وما يوفره أيضاً من ظروف الحماية والأمان، مما يعني أن امتلاك طرابلس لميناء جيد، إضافة إلى أسوارها الحصينة هما المعياران اللذان ساندا اختيارها كعاصمة مؤكدين في ذات الوقت أن إعادة بناء لبدة وتحصينها، وما يتطلبه من أموال كانت سبباً آخر وراء هذا الاستحقاق لدى قوم قلما تمعنوا الأمور وراء يومهم، ذلك أن سكنى لبدة وبعث الحياة فيها من جديد سيجعلها مركزاً أوفر تحصيناً من طرابلس، وهو ما تجلى في اختيار الأقدمين لها المدينة الرئيسة في كامل الإقليم.

أقيمت مدينة لبدة على مسافة لم تزد كثيراً عن نصف ميل مربع، بجانب ساحل البحر على حافتي مسيل يعرف حالياً بوادي لبدة الذي يبدو كأنه نهر خلال الفصل الممطر، ولو أنه لم يزد أثناء عبورنا له عن مسيل صغير رغم عمقه الواضح في بعض الأجزاء التي يصعب اجتيازها، أما خلال الصيف فيتحول إلى مجرى جاف تماماً كما هو الحال في الماضي، ذلك أن نقص المياه يومها كان وراء إقامة قناة لجلب المياه من نهر سينفس Synphus كما تدل على ذلك بعض أجزاء تلك القناة اليوم.

أقيمت جنوبي المدينة عدة روابي ترابية كحواجز لمنع وصول مياه الأمطار المنحدرة من الهضاب القريبة، وتهديد المدينة بالفيضان خاصة وأن الانحدار العام للسطح يساعد على سرعة تدفق المياه نحوها، وللعلم فإن تراكم كميات الطمي التي تحملها مياه الوادي أثناء مواسم الأمطار، إضافة إلى الرمال البحرية النشأة قد عملتا سوياً على طمس معالم مرسى لبدة الذي لم يكن في أي وقت مرفأ ذا سعة وحجم يعتد بهما.

لا تزال بقايا المدينة تبدو مهيبة بما فيه الكفاية، رغم أن جلها لا يزال مغموراً تحت الرمال التي تراكمت حولها خلال القرون العشرة المنصرمة الأمر الذي يعيق إعطاء تفاصيل عنها قبل إجراء عمليات تنقيب واسعة، مع

التأكيد بأن النمط العام لهذه الموانـىء التي تتميز بالانتظام والصلابة في إنشائها، هو طابع روماني رغم خلوه من تلك اللمسات الدالة على حسن الذوق في تشييدها.

ومع أن جزءاً هاماً من المدينة قد استُخدم الآجر الروماني في بنائه، إلا أن مظهره العام لا يزال في حالة جيدة مما يؤكد تلك السمعة الطيبة التي ارتبطت باستخدام مثل هذا النوع من الآجر. أما على الجانب الآخر فتظهر بقايا الميدان الرياضي كأَهم أجزاء المدينة التي استخدمت الحجارة في تشييدها، مثلما هو الحال مع بعض المباني الأخرى التي لن يكون بالإمكان تفصيل الحديث عنها إلا بعد القيام بأعمال تنقيب شاقة.

كانت لدينا الرغبة في البقاء وقضاء مزيد من الوقت في لبدة الأمر الذي يتعارض مع الحاجة القصوى لمواصلة الرحيل فقرب حلول الموسم المطير فرض سلطانه على سرعة اجتيازنا لأراضي منطقة سرت المنخفضة، خاصة وأن مهمتنا الأولى إنما تتمثل في دراسة ساحلـي سرت وبرقة.

أقيمت لبدة في مرحلة مبكرة على يد الفينيقيين الذين رأوا فيها إلى جانب كل من قرطاج ويوتيكا Utica كأهم مدنهم البحرية، أما بعد تدمير قرطاجة فقد ازدهرت لبدة تحت ظل حكم الرومان الذين كانوا يشيرون إليها كمدينة الإخلاص والطاعة حسبما ورد على لسان سالَّاست Sallust.

تعرضت أسوار لبدة وقلاعها بعد خضوع البلاد لحكم الوندال إلى فكّها أو تدميرها حيث أعيد بناؤها على يد الإمبراطور جوستينيان، وتحولها بعد ذلك إلى مقر إقامة الوالي الروماني Prefect، ثم تعرضها للتدمير على أيدي العرب الفاتحين حسب رواية الجغرافي ليو الإفريقي الذي أكد استخدام أجزاء من حجارتها وأعمدتها في بعض مباني طرابلس، ومن ثم بقائها دون إعادة إعمار.

هوجمت مدينة لبدة أثناء حكم الوالي سيرجياس Sergius لمقاطعة طرابلس، من قبل قبيلة تقطن المنطقة المجاورة، ومع أن الوالي المذكور قد

أفلح في تحقيق بعض الانتصارات، إلا أنه اضطر في النهاية إلى التراجع أمام زحف أعدائه، وبات عليه الاحتماء بأسوارها حفاظاً على نفسه.

جاءت في تلك الأثناء جماعة من قبيلة ليفاتي Levate للإقامة خارج سور المدينة طلباً لاستلام مكافأتها على حسن ولائها للحاكم، إضافة إلى مقابل آخر لضمان ولائها مستقبلاً حيث سمح لثمانين من ممثليها بدخول المدينة ومقابلة الحاكم الذي ثار غضبه من إجحاف مطالبهم، وحاول ترك الاجتماع مما حدا بأحد المفاوضين الإمساك بطرف جلبابه في الوقت الذي تقدم رفاقه إلى الاقتراب منه وهم يصرخون بضرورة تلبية مطالبهم.

أثارت هذه الغطرسة أحد حراس الحاكم ودفعته إلى سل سيفه وطعن أحد هؤلاء الذين جاءوا للتضرع طلباً لحقوقهم التي سرعان ما تحولت إلى بداية مأساة فعلية إذ تم القضاء عليهم جميعاً باستثناء رجل واحد تمكن من الفرار ونشر الخبر المروع بين أفراد القبيلة الذين سرعان ما عقدوا العزم على أخذ الثأر باكتساح المدينة مما عرضهم إلى هجوم روماني مباغت ألحق بهم إصابات بالغة أول الأمر، إلا أنهم تمكنوا من إنزال الهزيمة بقوة الحاكم نتيجة لتهور قائدها بودينتياس Pudentius الذي ذبح ونكل بجسده.

انسحب الحاكم بمن بقي من جنده إلى داخل المدينة التي تم إحكام قفل أسوارها بعد أن تبين له استحالة تحقيق أية انتصارات على أعدائه الجدد، واضطر صاغراً إلى الفرار إلى قرطاج آملاً في إقناع عمه وإغرائه بالزحف على أعدائه.

تمخضت هذه التصرفات عن نتائج وخيمة للحكم الروماني في كامل المنطقة إذ تعرض القائد الروماني الجديد لنفس المصير، كما لم يجد الوالي سبيلاً للنجاة بنفسه إلاّ الفرار هو الآخر[1].

---

(1) عيّن سولومن Solomon عم الوالي السابق Sergius القائد بلليساريوس Bellisarius الذي قتل حيث شغل منصبه Solomon الذي قتل هو الآخر في مكان تيبستا Tebeste=

ورد اسم القبيلة السابقة Lavate في فترة لاحقة في كتابات الجغرافي ليو الإفريقي الذي حدد منطقة إقامتها في تلك الرقعة الأرضية الواقعة بين أوجلة ونهر النيل، واصفاً إياهم بأنهم شعب إفريقي، وفي هذا الخصوص يمكننا القول نقلاً عن النقيب رينل Rennele في تعليقه على هيرودوت، بأن كنية قبيلة الليفاتي التي عرفت بها، هي مصدر اشتقاق اللفظ الإغريقي لليبيا حيث أكد النقيب المشار إليه «أنه رغم سكنى القبيلة المذكورة للمنطقة الصحراوية المذكورة، إلا أن ذلك لا ينفي أنها سكنت في الأصل منطقة الساحل، وأن الإغريق هم الذين أعادوا تسمية إفريقيا ليبيا نسبة إلى تلك القبيلة التي يجزم المؤرخ بروكوبيس Procopius أنها كانت تقطن المنطقة القريبة من لبدة الكبرى»[1].

إن ما أشار إليه النقيب رينل بخصوص اشتقاق مصطلح ليبيا إلى اسم سيدة ليبية تحمل هذه الكنية أو اللقب، مما لا يعطي مجالاً لوجود أصل آخر لهذا الاشتقاق الذي أشار إليه وحدده هو نفسه.

هذا بالإضافة إلى أن أبا التاريخ قد حدد أسماء تلك القبائل الليبية العديدة التي قطنت منطقة الساحل الإفريقي التي لم يرد بينها أي شعب أو قبيلة قد حملت اسم ليفاتا.

إن إلمام هيرودوت بإفريقيا لم يكن مقصوراً على ما كان يجري يومها، أو على الحالة التي كانت سائدة في زمنه لأنه قد أفاض فعلاً في شرح الأَحداث التي سبقته بزمن طويل، كما هو الحال مع تلك الأحداث التي

= في الجزائر تاركاً الوالي الجديد دون حماية مما اضطره للفرار.

(1) ذهب بعض الكتاب إلى القول بأن أصل كلمة ليبيا مشتق من الكلمة العربية (Lub) الدالة على العطش، مما يجيز توافق المعنى مع أرض جافة وشديدة الحرارة، كما يمكننا القول أيضاً بأن الكلمة في اللغتين الفينيقية والعبرية أيضاً تعني اللبوة، مما يتطابق مع الاسم الذي يشير إلى أن ليبيا بلد الأسود.

صاحبت بداية الحكم الإغريقي. وهنا علينا أن نلاحظ، بناء على الافتراضات السابقة، أن ثبوت صحة الاشتقاق السابق يفرض في كل الاحتمالات ضرورة حدوثه قبل زمن هيرودوت بوقت طويل، مع القول بعدم وجود دليل قاطع ينفي عدم صحتها أيضاً.

حضر شيخ لبدة في اليوم التالي لوصولنا للزيارة وتقديم مساعدته في حصولنا على بعض العملات والأحجار الكريمة التي كثيراً ما يعثر عليها اليهود بين الأنقاض ويقدمونها للباشا إرضاءً له.

قبلنا عرض هذا الصديق الجديد بسرور بالغ حيث قام الشيخ الضبع باستضافته، إلا أنه اختفي نهائياً بمجرد تناول العشاء إذ لم نسمع شيئاً عنه ولا عن الأشياء التي تعهد بإحضارها.

اضطرتنا غزارة الأمطار في الليلة المنصرمة على ضرورة البقاء يوماً كاملاً لتجفيف ثيابنا وما نحمله من مؤونة، إذ لم نكد ننهي نصب خيامنا ليلة وصولنا حتى فوجئنا بعاصفة هوجاء مصحوبة ببرق ورعد مما اضطرنا للبقاء طوال الليل في رعاية أوتاد خيامنا تحسباً من اقتلاعها وبقائنا في العراء.

تواصلت زخات المطر الغزير وما صاحبها من رياح عاتية، ومع جودة خيامنا المصنوعة من القنب، إلا أن المياه نالت جميع أطرافها بل وأطاحت بواحدة منها مما عرضنا بما معنا من زاد للبلل قبل طلوع الفجر بوقت طويل.

ظلت الحال على هذا المنوال إلى قبيل الصبح بقليل حين أخذت قوة العاصفة في الخمود وبدأت أشعة الشمس، وسط سماء صامتة تقريباً، تضفي علينا نوعاً من الراحة فقد كانت كل الدلائل تشير إلى يوم مشمس هادىء وهو ما دفعنا للإسراع بنشر متاعنا والتجول بين بقايا الآثار المختلفة.

لم يلق قرار إقامتنا يوماً إضافياً قبولاً من أصحاب الإبل الذين عملوا جهدهم لحثنا على الرحيل رغم أنهم قبلوا بالأمر مقابل أجر إضافي زهيد، وبسرعة بدأنا إعداد قاعدة لعملية الرصد بتحديد نقاط ثابتة تتمشى مع خط

العرض وهو ما دعانا إلى اتخاذ قمة الهضبة المجاورة كطرف أقصى لإقرار نقاط القياس هذه.

كانت النقطة الأخيرة تلك عند مقام أحد أهم وأكثر المرابطية حباً ورهبة لدى سكان المنطقة، الأمر الذي حمل الجندي الإنكشاري الذي خصصه الباشا لحراستنا، على الصراخ بأعلى صوته، وهو يتقدم نحونا، حالما بدأنا نهبط سفح الهضبة ذاكراً بصوت ينم عن الحزن والأسى، بأن المعني لن يسمح لنا البتة بالتجرؤ على انتهاك حرمته، وأنه سيأتي على كل من يحاول النزول، ومن ثم القضاء عليه هو شخصياً لسماحه لنا بالتطفل على مقامه المصون هذا.

لم يكن في ذهن أي منا أية رغبة ذاتية في التحدي والإساءة إلى هذا الولي الورع، فالأمر لا يعدو وجود هذه الربوة كأفضل مكان يمكن اختياره لما عزمنا الأمر على القيام به، ويدفعنا بالتالي عن التخلي عنه مقابل اعتراضات واهية وسخيفة.

تمت المحاولة وانتهت عملية القياس دون أية نتائج مهلكة كما كان متوقعاً، واستقبل من أنهوا عملية الرصد عند الضريح بأحر التهاني من العرب الحاضرين الذين رأوا في نجاتهم فعلاً غير متوقع رعته العناية الإلهية.

تحدث الدكتور ديلا إتشيلا (عام 1817) عن هذا الولي غير العادي الذي باستطاعته أكله حياً، وهو ما أكده العبد الأسود المرافق للدكتور الذي أكد له بأن المعنى قادر بالفعل والقوة على تحقيق تهديده غير العادي له.

لن نتعرض للحديث عن مثل هذا الولي ومن على شاكلته، فقد تناولت العديد من الكتب الحديث عنهم باستفاضة، مع الإشارة فقط إلى أن المنطقة الواقعة بين لبدة ومصراته، وبالذات قرب المركز الأخير، تعج فعلاً بمن يدعون التقوى ويملكون صفات غير عادية ولا يعرف الخجل سبيله إليهم.

غادرنا لبدة صباح الخامس عشر من ذات الشهر سالكين طريقاً بين

مزارع السهل الممتد أمامنا إلى زليتن حيث بلغنا بعد قرابة تسعة أميال إلى مجرى مائي يدعى وادي غان Klahan الذي يشبه دون غيره من المسيلات الأخرى، هيئة النهر الصغير.

يتبع هذا المجرى بين المرتفعات الممتدة جنوب المنطقة ويسير فوق قاعدة صخرية حيث ينحدر مجراه قرابة عشرين قدماً ليواصل السير بعدها ببطء شديد حتى ينتهي إلى البحر، علماً بأن حافتيه تبدوان مرتفعتين بوضوح في بعض الأماكن وتغطيهما الأعشاب مع بعض الأشجار مما يخلق منظراً مناسباً يشد الانتباه إلى هذا المكان الذي تكثر به بقايا المباني الخربة المتناثرة.

تظهر على جانب الطريق على بعد ميل ونصف من مصب النهر بقايا القناة المائية التي كانت تزود مدينة لبدة بالمياه، إضافة إلى مخلفات بعض المباني الأخرى، كما يلاحظ ذلك المستنقع الذي ظل يميز هذه المنطقة، وأسبغ عليها إقامة طريق على أيدي القرطاجيين مكنتهم من الاتصال الأرضي السهل حسب رواية استرابو.

ما زالت بقايا هذا الطريق ظاهرة للعيان، إلى جانب ما عرف عنه واختص به هذا المجرى المائي الذي لا يشير فقط بل ويؤكد أن أرضه هي مكان ذلك المركز العمراني الذي عرف باسم سينافس Cinyphus.

يمثل اجتياز وعبور هذا المستنقع بدون دليل مجازفة خطيرة فقد تعرض اثنان من رفاقنا لمحنة صعبة عند محاولتهما اجتياز كثيب رملي متحرك بين حد السبخة وشاطىء البحر، وللعلم توجد منطقة شبيهة أخرى، ولو أنها أكثر خطورة، إلى الشرق من الأولى حيث أوشكت خيولنا أن تبتلعها الرمال لولا حنكة مرافقينا ويقظتهم، وعموماً يبدو هواء المنطقة ضاراً وغير صحي إذ تعرض أحد الأعراب بعد نومه لفترة قصيرة، للإصابة بأعراض الحمى.

وجدنا عند الطرف الشمالي الشرقي لهذا المستنقع، المعروف برأس

الطابية، بقايا قبر كما ظهرت نتوءات صخرية داخل البحر على بعد ثلاثة أرباع الميل من الساحل، وهو ما يوفر الحماية أحياناً لبعض المراكب داخل ما يعرف بمرسي أوجرة Ugrak نسبة إلى القرية التي تحمل نفس الاسم.

كانت هذه النتوءات أو الجزيرات الصخرية الصغيرة، ظاهرة للعيان عام 1817 عند زيارة الربان سميث للمنطقة، أما اليوم وربما بسبب هبوب الرياح الشمالية الغربية، فتبدو مغطاة كلية بالماء، وهو ما لا يؤهلها لتوفير الحماية اللازمة على الأقل في مثل هذا الفصل من السنة.

إن إحلال وادي غان (وادي كعام اليوم)، محل سينافس Cinyphus اعتماداً على تحديد موقع الأخيرة من لبدة، والمظاهر العامة الأخرى التي سبقت الإشارة إليها، يؤهلنا للجزم بذلك لولا تلك الصعوبة التي تبرز أمامنا ممثلة في استحالة التوفيق بين المسافة بين البحر وبين أقرب الهضاب الواقعة إلى الجنوب منها، إذ حدد هيرودوت هضبة الحسناوات Hill of Graces بأنها منبع وادي سينافس، وأنها تبعد بمسافة مائتي ستيديا Stedia من خط الساحل، ذلك أن المسافة بين أقرب التلال الجنوبية وساحل البحر لا تتعدى أربعة أميال إنجليزية، إضافة إلى جهلنا بوجود مجرى مائي يخترق هذه الهضاب، ويواصل سيره شمالاً لتلك المسافة الطويلة، في الوقت الذي نشاهد فيه أحد الهضاب وكأنها تشكل فعلاً ثلاث قمم، وهو ما ينطبق على تصورنا لهيئة هضبة الحسناوات الثلاث الأمر الذي يقودنا للافتراض بحدوث خطأ ما يتعلق بتحديد المسافة سواء من قبل هيرودوت ذاته، أو من قبل من أتى لينسخ ما كتبه هيرودوت في زمن لاحق، رغم صعوبة الأخذ بهذا الرأي، الأمر الذي يدفعنا إلى عقد العزم على ضرورة تحديد منبع هذا الوادي عند عودتنا إلى طرابلس وهو ما لم نتمكن من الإيفاء به مع بالغ الأسف. لذا ترانا مضطرين للتخلي عن القول بأن مجرى هذا الوادي لا يمتد إلى الجنوب من سلسلة الهضاب التي أشير إليها، رغم دهشتنا في وقت لاحق لإدراك حقيقة أن هذا المنبع يمتد فعلاً إلى مناطق المرتفعات الداخلية، وأن المسافة ما بين

مرتفعات ترهونة والساحل، كما حددها النقيب لايونس، تتفق فعلاً مع مسافة مائتي ستيديا الفاصلة يمين ساحل البحر وهضبة الحسناوات التي ذكرها هيرودوت، وحدد موقعها النقيب لايونس بمسافة ثمانية عشر ميلاً من الساحل في المنطقة المقابلة لمدينة لبدة، علماً بأن هناك مرتفعات أخرى أقل شأناً بين ساحل البحر ومرتفعات ترهونة رغم إقرارنا بأن مجرى السينافس، أو غان الحالي، ما كان له ليتواصل خلال هذه المعوقات الطبيعية التي يبدو أن النقيب سميث يميل إلى اعتبارها البداية الفعلية لمجرى هذا النهر، مما يعني أن المسافة بينها وبين الساحل لا تزيد على خمسة أميال، وفي هذا تأكيد على أن المسافة التي حددها هيرودوت مبالغ فيها بشكل ملفت للنظر.

لاحظ الدكتور الإيطالي ديلا إتشيلا نقلاً عن المؤرخ سيلاَّريوس وجود نهر السينافس إلى الشرق من رأس سيفالاس Cephalas خلافاً لشهادتي استرابو وبطليموس وخلافهما من الكتاب الثقاة مع ملاحظة أن تحديد سيلاريوس المشار إليه لا يعدو في الواقع سوى محاولة منه للتوفيق بين الآراء المتضاربة حول هذا الموضوع، أكثر منه اقتناع شخصي منه، إضافة إلى إمكانية تأثره بالاطلاع على ما ورد على لسان بليني وبطليموس إذ حدد الأول منطقة شعب اللوتوفاجي Lotophagi عند أقصى نقط تراجع خليج سرت الكبير جنوباً، في حين لاحظ الثاني سكنى هؤلاء القوم بجوار نهر السينافس.

إن التوفيق بين هذين الرأيين يعني والحالة هكذا، إما إقرار مكان ذلك المجرى قرب المنطقة الوسطى من ساحل الخليج، أو نقل مكان شعب أو قبيلة اللوتوفاجي قرب المجرى المذكور، مع تأكيد القول بأن المؤرخ ميلا Mella إنما يحدد مكانهم إلى الشرق مما حدده المؤرخ بليني حيث يذكر بتواجدهم في المنطقة الواقعة بين رأس بورنيون Bornion وفيكاس Phycus وكلاهما في منطقة برقة، وهو ما لا يمكن أخذه في الاعتبار كسبب آخر لنقل مجرى الوادي المذكور إلى الشرق من مكانه الحقيقي إذا ما أريد لملاحظة بطليموس أن تؤخذ في الاعتبار.

وبغض النظر عن أية اعتبارات، فإن المؤكد أن مكان المجرى المشار إليه حسب روايات كل من استرابو وبطليموس، وسكيلاكس إنما يقع إلى الغرب من رأس سيفالاس Cephalas، كما أن بليني يحدد مكانه بين سرت الصغرى وسرت الكبرى، في الوقت الذي يحدده ميلا غربـي مدينة لبدة الكبرى، وفي هذا فقدان للدليل الكافي لنقل مجرى هذا النهر إلى الشرق من رأس أو نتوء سيفالاس رغم الاعتراف بأن إقامة شعب اللوتوفاجي قرب النهر المذكور أمر واضح ولا غبار عليه.

إن تحديد مكان انتشار هؤلاء القوم المعروفين بأكلة الجراد، ظل موضع خلاف فقد حدد مكانهم في جهات وأماكن مختلفة من قبل مؤرخين مختلفين، وهو ما يصعب معه إقرار مكان تواجدهم على الخريطة، مما يقر أيضاً بمدى تباين مناطق انتشارهم في أوقات مختلفة سواء في منطقة الساحل أو في المناطق الداخلية.

اشتهرت منطقة نهر السينافس بخصوبة أرضها الفائقة فقد أكد هيرودوت بعطائها مردوداً يصل إلى ثلاثمائة مقابل وحدة ما يزرع بها، في الوقت الذي أهمل العديد من الكتاب أية إشارة إلى خصوبة أرضها، بينما أفاضوا في الحديث عن خصوبة أراضي منطقة بيزاكيوم Byzacium خلافاً للآخرين الذين أسهبوا في الحديث عن المحاصيل غير العادية التي تجود بها أرض السينافس بينما خلت كتاباتهم من أية إشارة عن محاصيل المنطقة الثانية.

أدى هذا الاختلاف في الرأي إلى حمل الدكتور ديلا إتشيلا على الظن بأن بعض الكتاب المعنيين كانوا يعتبرون المنطقتين وحدة واحدة مستشهداً بفقرات من كل من بليني، واسترابو كدليل على ما أراد تأكيده في هذا الخصوص إذ ينقل عن أولهما قوله «ساكنـو منطقة البيزاكيوم هم الشعب المعروف باسم الليبيين الفينيقيين Lybyphoenicies» وعليه فإن تحديد المكان

الذي يعيشون فيه يعني بالتالي تحديد منطقة البيزاكيوم التي يحددها الجغرافي استرابو بأنها المنطقة الساحلية الممتدة ما بين قرطاج وحتى رأس سيفالاس وامتدادها جنوباً حتى منطقة قبائل الميسّاسيلي[1].

إن الاعتقاد بضرورة اعتبار منطقة بيزاكيوم جزءاً من منطقة انتشار الليبيين/ الفينقيين مدعاة لتصبح كل المنطقة التي سكنها هؤلاء القوم حاملة لنفس الاسم بيزاكيوم، ذلك أن استرابو يذكر صراحة أنها تمتد فقط إلى حدود قرطاج الشرقية خلافاً لتلك الرقعة التي خص القبائل المذكورة بالانتشار فوقها وتتفق مع كامل إقليم قرطاج الممتد ما بين رأس سيفالاس وإقليم الميسّاسيلي.

تعود قبائل الليبيين/الفينيقيين فيما يبدو إلى أصل مشترك جمع بين اختلاط وتزاوج الفينيقيين أو القرطاجيين وبين القبائل المحلية الغربية منهم مما يعني أنهم قاطنو منطقة بيزاكيوم التي يمكن نسبتهم إليها أيضاً Byzacians.

لم يكن إسترابو فيما يظهر على علم بخصوبة أرض بيزاكيوم حيث يؤكد أن المنطقة الممتدة ما بين قرطاج وأعمدة هرقل منطقة خصبة دونما ذكر أو إشارة محددة لمنطقتي بيزاكيوم أو أرض نهر السيفيلاس.

إن امتداد أرض مقاطعة بيزاكيوم، كما أشار إليها الدكتور ديلا إتشيلا ما بين إقليم الميساسيلي على الجانب الغربي، ورأس سيفالاس في الشرق يعني امتدادها لمسافة سبعمائة ميل على ساحل البحر، في الوقت الذي لا يعرف فيه مدى امتداد حدودها الجنوبية ما يوضح مدى الاختلاف في تحديد الامتداد الفعلي لها، ومقارنته مع تلك الأبعاد التي حددها بليني مصدر جزء فقط من المعلومة التي نقل عنها الدكتور ديلا إتشيلا حيث يتبين أن منطقة

(1) الميسّاسيلي أو شعب نوميديا، شعب يمتد فوق أرض شاسعة تمتد ما بين منطقتي نوميديا وموريتانيا.

بيزاكيوم إنما تقع ضمن دائرة لا يتعدى محيطها مائتين وخمسين ميلاً رومانياً، الأمر الذي يصعب علينا تخيل الكيفية التي حاول بليني عن طريقها مد حدودها سواء في اتجاه الشرق أو في الغرب إلى الحد الذي ادعاه الدكتور ديلا إتشيلا، وهو ادعاء يفوق ما أكده بليني نفسه.

لا زالت منطقة نهر السينافس تحمل تلك الخصوصيات التي خصها بها هيرودوت إذ لا زلنا نجد تلك التربة السمراء الخصبة إلى جانب الماء الوفير، ومع الإقرار بتفسخ أي شيء على أيدي العرب، فإنتاجية المنطقة اليوم لا تعادل ما أشار إليه المؤرخون، ذلك أن معدل الإنتاج من هذه الرقعة الأرضية الجيدة حسب رأي سكانها، لا يتعدى واحد لعشرة إلا نادراً، كما أن الأراضي بزليتن ومصراته هي الأراضي الوحيدة المزروعة شرقي مصب النهر المذكور.

يتمثل إنتاج الحبوب في الشعير أساساً يليه القمح، أما زراعة أشجار النخيل والزيتون فرغم تناثرها إلا أنها تعطي إنتاجاً جيداً يوفر فائضاً في العادة، كما هو الحال في كل من مصراته وزليتن اللتين يلجأ إليهما سكان سرت للحصول على حاجتهم من هاتين الغلتين.

أما المنطقة الغربية لمنطقة هذا النهر فتبدو هي الأخرى ذات إنتاجية جيدة من نفس المحاصيل السابقة، مع أن ما يزرع فعلاً من أرضها هو جزء محدود فقط، وعموماً يمكننا القول أن منطقة النهر وما حولها ممثلاً في المنطقة المحصورة ما بين حدود سرت عند مصراته ومنطقة الصحراء الرملية عند وادي إمسيد، أرض بور ولا أثر لتدخل الإنسان فيها.

يمثل الحديث المختصر التالي أهم ما تراءى للنقيب سميث الإشارة إليه خلال رحلته لزيارة لبدة عامي 1816 و 1817، وما رأينا نقله منها بعد تكرمه بوضعها تحت تصرفنا ودون التعليق على أهميتها.

«يمثل رأس الحمراء أهم منطقة تلي طرابلس شرقاً، فهذا الرأس عبارة

عن امتداد لأرض رملية منخفضة تتداخل معها بعض الصخور مكونة ما يشبه المرفأ الصغير على حافتها الشرقية مما يعطيه شكل مرافىء المغارات القديمة، مع وجود بقايا عدد من الحمامات الأثرية ذات أرصفة من الفسيفساء».

كما يوجد شرقي هذا المكان مرفأ صغير آخر ظهر نتيجة لوجود أرض بين وادي بن زبرَّا Ben-Z-Barra وعبد العاطي، استغل لشحن إنتاج هذا الإقليم، علماً بأن مدخل وادي عبد العاطي يظهر وكأنه غار أو كهف تقوم بجانبه جزيرة صغيرة، تظهر غير بعيد عنها على حافة الوادي اليسرى قرية صغيرة حفرت بها مجموعة من الكهوف خلال صخور الحجر الرملي لاستخدامها كمخازن لحفظ الحبوب.

تبدأ من هذا المكان المنطقة المعروفة باسم زبِّـي Zibbi وهي أرض تأخذ في الارتفاع التدريجي، ومع أنها تبدو أفضل حالاً إلاَّ أنها ما زالت مهملة هي الأخرى إذ تقتصر زراعتها على بعض أشجار الزيتون مع بعض أشجار العنب.

تظهر بعض مخلفات الآثار الهامة قرب نهر غنيمة عند الاقتراب من منطقة كانت أكثر رخـاء فمن وادي Sayed-n-Alli تبدو للعيان بعض القلاع الرومانية المعروفة لدى السكان باسم الأبراج السبعة.

تقوم لبدة في منطقة منبسطة ذات تربة طينية خفيفة تحفها وتحيط بها هضاب متوسطة الارتفاع، مع الإشارة إلى أن أغلب هذه المنطقة السهلية تشغلها حقول الحبوب وبعض الخضراوات إلى جانب أشجار الزيتون والرمان وأشجار النخيل مع بعض أشجار العنب، مع ملاحظة أن مثل هذه الزراعة لا تنطلق من أجل تحقيق كونها حرفة يمكن لها أن تتطور إلى الأحسن ذلك أن جزءاً هاماً من الإنتاج يضيع هباء بفعل الجرذان التي لم يفكر أحد بعد في القضاء عليها، كما هو الحال أيضاً مع ترك هذه المحاصيل دون حماية من الرياح عدا تلك التي توفرها زراعة التين الشوكي، ومع كل هذا الإهمال فإن

أغلب المحاصيل تعد مرضية لدى قوم يعشقون العزلة ويرضون بالقليل.

توفر مناطق الهضاب القريبة مراعي جيدة للإبل والخيل والماشية والأغنام والماعز، ولو أن طريقة حياة السكان تعمل في ذات الوقت على تدمير فعالية الأرض حول مناطق إقامتهم وهو ما يدفعهم إلى تركها والانتقال إلى جهات أخرى سرعان ما تلقى نفس المصير دونما تفكير في العمل على حفظ التربة، والعمل على زيادة إنتاجها، كما يبدو واضحاً من تلك البقع الجرداء حول أماكن الخيام التي تنقل إلى أماكن ثانية أكثر جذباً.

زرت لبدة لأول مرة في شهر مايو عام 1816 لدراسة إمكانية نقل بعض الأعمدة الملقاة على رمالها التي تفضل الباشا بإهدائها إلى ملك بلادي، إذ بالفعل تظهر آثار المدينة بمظهر يضفي عليها ما تستحقه من أهمية خلافاً لمظهر قريتي لبدة و Legatak وتلك القبائل المحيطة بالمنطقة.

تحتل المدينة وضاحيتها مساحة قرابة عشرة آلاف ياردة يغطي الجزء الأكبر منها طبقة من الرمال البيضاء الناعمة التي حملتها الرياح واضطرتها بقايا الآثار للتراكم من حولها بعد أن عاقت استمرار اندفاعها من على الشاطىء، وهو ما دعاني للإقرار بأنها العامل الحاسم في حفظ العديد من العينات الغنية بما فيها من أعمدة وتيجان وتماثيل منحوتة وما إليها، وما دفع بـي أيضاً لتأكيد أهمية الموقع خاصة وأنها مكان ميلاد الإمبراطور سيفيروس، الذي يبدو أنه أفاض عليها بما قدمه إليها من هدايا، إلى جانب ولائها للحكم الروماني خلال الحرب الجوجورثائية Jugurthime، هذا بالإضافة إلى ما كانت تتمتع به من رخاء مما دفعني للتوصية بجعلها ضمن الأماكن المناسبة لإجراء عمليات تنقيب واسعة بها.

فوجئت أثناء عودتي لزيارتها في شهر يناير عام 1817، وانطلاقي بين أهم آثارها، أن بعض أجود الأعمدة التي كانت قائمة في شهر مايو المنصرم، قد أزيلت أو ألقيت أرضاً وهي مهشمة، وأن معظمها قد أزيلت زينتها، إذ

تبينت نشر أحد حراسي في زيارتي الأولى خبراً مفاده برغبتي في نقل هذه الأعمدة إلى إنجلترا، وبما أن الموضع قد سبق أن حوله العرب منذ مدة إلى محجر لتزويد أنفسهم بما يحتاجون إليه من أحجار لطواحينهم، فقد وجدوا في الخبر الجديد دافعاً آخر لتهشيم تلك الأعمدة إيفاء لحاجاتهم الحالية وفي المستقبل أيضاً وبالذات لاستعمالها في معاصر الزيت.

أعددت خيامي وجهزت معداتي وبدأت التنقيب مع بداية يوم الخامس والعشرين قرب مركز المدينة بمعاونة ثمانية من العمال العرب زاد عددهـم في اليوم التالي إلى مائة، وبسرعة وصلت إلى حقيقة تعرض المدينة إلى تخريب تام تمثل في تقويض صرح مبانيها العامة بعناية، ربما نتيجة للتعصب الديني من قبل كهنة قرطاج الذين دمروا أيضاً كل تماثيل من رأوا فيهم روح الوثنية، أو ربما بفعل انتقام السكان الهمج الذين كانوا يبحثون عن كنوز أهل المدينة.

وبغض النظر عن أي سبب كان الدافع الحقيقي لما حصل وحل بهذه المدينة، إلا أن ما أصابها كان عملاً ماحقاً ذلك أن جل تماثيلها إما أنها تعرضت للكسر أو التهشيم، وأن زخارفها قد تم تشويهها وخلعها عن أماكنها، وأكثر من هذا تعرضت أرضيات مبانيها للخلع ولم يعد بها شيء في مكانه عدا القواعد المهشمة من حولها.

قمت بفتح مقبرة للحصول على مزيد من المعلومات ولكن دون جدوى إذ لم أعثر على ما يستحق الذكر سوى بعض القوارير الخشنة الصنع، مع بعض أدعية الصلاة، وبعض النقود النحاسية العادية التي يعود معظمها إلى فترة حكم سيفيروس والإسكندر وغيرهم، إضافة إلى بعض النقوش الغائرة التي تم التقاطها من عدة أماكن إلى جانب بعض الميداليات القرطاجية العادية التي تعوزها دقة الصنعة والذوق الرفيع.

وبما أن رغبتي كانت تتمثل في الوصول إلى حكم عادل فقد واصلت التنقيب حتى يوم الثاني عشر من فبراير حين وصلت إلى مبنى الكاتدرائية

الرئيسة، وقوس النصر ومبنى السيرك إلى جانب مباني ثانوية أخرى، ومع ذلك تضاءلت قناعتي بالعثور على أية مخلفات ذات قيمة فنية مما لم أعد أجد معه مبرراً لبذل مزيد من الجهد والإنفاق واضطررت عن التخلي عن الفكرة وترك العمل.

أتاحت لي أعمال التنقيب ملاحظة بلوغ لبدة أوج عظمتها في الفترة اللاحقة لحكم الإمبراطور أوجوستين Augustan حين أخذ الاهتمام بأمور الذوق واللمسات الفنية في التدني رغم جودة المواد المستعملة في عمليات التشييد والبناء الذي بدأت أمور العناية بزخرفته تفقد تجانسها، تماماً كتلك التماثيل التي لحقتها عمليات التخريب فيما بعد إذ كانت بالفعل من أسوأ أنماط النحت التي عرفتها الفترة المتأخرة من حكم الإمبراطورية الرومانية. كما لاحظت تعرض المدينة لإعادة تعميرها بعد تدميرها لأول مرة كما تدل على ذلك شواهد بناء عدة أجزاء من أسوارها وأبراجها باستخدام أجزاء وقطع غير متناسقة من مباني سابقة، رغم الإقرار بوجود بعض المباني الضخمة التي استخدم في إقامتها الآجر الممتاز والإسمنت، ولو أن جلّ الأسوار والممرات المسقوفة وبعض المباني العامة قد تم تشييدها عن طريق قطع الحجارة الكبيرة دونما إسمنت يذكر، خلافاً للمعابد التي روعي في بنائها طابع الفخامة والأُبهة، إذ كانت أعمدتها الضخمة من أثمن أنواع أحجار الجرانيت والرخام، وباختصار كانت جميعها من النوع الذي روعي فيها الذوق الرفيع وحسن الصنعة.

كانت لبدة محاطة بأسوار حصينة، أقيمت عليها بوابات رائعة بها أروقة فسيحة ما زال بعضها يحمل روعة ماضيها، وكان النهر يمر بضاحيتها الشرقية في الوقت الذي يكون فيه مصبه حوضاً استغل كمرفأ تحمي مدخله مجموعتان من التحصينات القوية ما زال بالإمكان ملاحظة حاجزين كبيرين يتفرعان منهما تحت سطح البحر.

تقوم على ضفتـي هذا النهر الذي ما يزال قاع مجراه يشغل جدولاً أو مسيلاً صغيراً، عدة أجزاء من قناة مائية إلى جانب بعض الخزانات التي

ما تزال في حالة ممتازة، كما يوجد بين هذه الخزانات والمجرى الرئيسي لهذا النهر غربـي المدينة، بعض الهضاب الصناعية المقامة فوق السهل لتوجيه مياه المجرى إلى الخزانات المشار إليها ونقلها إلى المدينة بعد ذلك.

إضافة إلى هذا يقوم على حافة المجرى الشرقية مرفأ صغير والعديد من الحمامات قرب مكان السيرك غير بعيد عن مبنى المسرح، وللحق فإن كامل المنطقة السهلية، بدءاً من هضاب المرقب وانتهاء بهذا النهر، تبين وتظهر بوضوح مدى كثافة سكنى هذه المنطقة وأهميتها الاقتصادية.

انتهى على هذا المنوال جهدي غير الموفق في البحث والتنقيب، ومع أنني لم أعثر على مخلفات ذات قيمة فنية، إلا أن العديد من القطع الأثرية تم نقلها خلال الصيف إلى ساحل البحر من قبل العقيد وارينجتون، حيث أتيحت لي عملية نقلها على إحدى السفن إلى إنجلترا، إضافة إلى ثلاثين من قواعد الأعمدة التي شكلت محور رحلتـي هذه، والتي توجد كلها اليوم بالمتحف البريطاني، ومع هذا نظل غير راضين لفشلنا في نقل ثلاثة أعمدة ضخمة جداً وممتازة الصنعة بسبب ضعف إمكانيات نقلها الأمر الذي سيظل يقلق راحتنا.

لاحظ النقيب سميث عند عودته من رحلة داخلية للبحث عن آثار قرزة، ثلاث هضاب متوسطة الحجم في أحد فروع سلسلة امسلاته حيث بدت له بحكم عددها وكأنها أجابة لما قصده هيرودوت بإشارته إلى ما أسماه هضاب الحسناوات Hills of Graces حيث يقوم منبع السينافس.

إن المسافة بين هذه الهضاب وساحل البحر لا تتفق مطلقاً مع مسافة المائتي ستيديا التي حددها هيرودوت، ولكن مع عدم اعتمادنا على مظهرها الثلاثي، الذي يمكن أن يتلاءم مع شكل هضاب أخرى، إلا أن وجود منبع هذا المسيل في منطقة الهضاب هذه سيحدد مكان هذا النهر، إذا ما اعتبرنا هذا الرأي نهائياً، مما يعني في النهاية أن قياسات هيرودوت تبدو خاطئة جداً، ومع هذا نظل عند الاعتقاد بأن الخطأ لن يقع على كاتب ثقة كهيرودوت بقدر

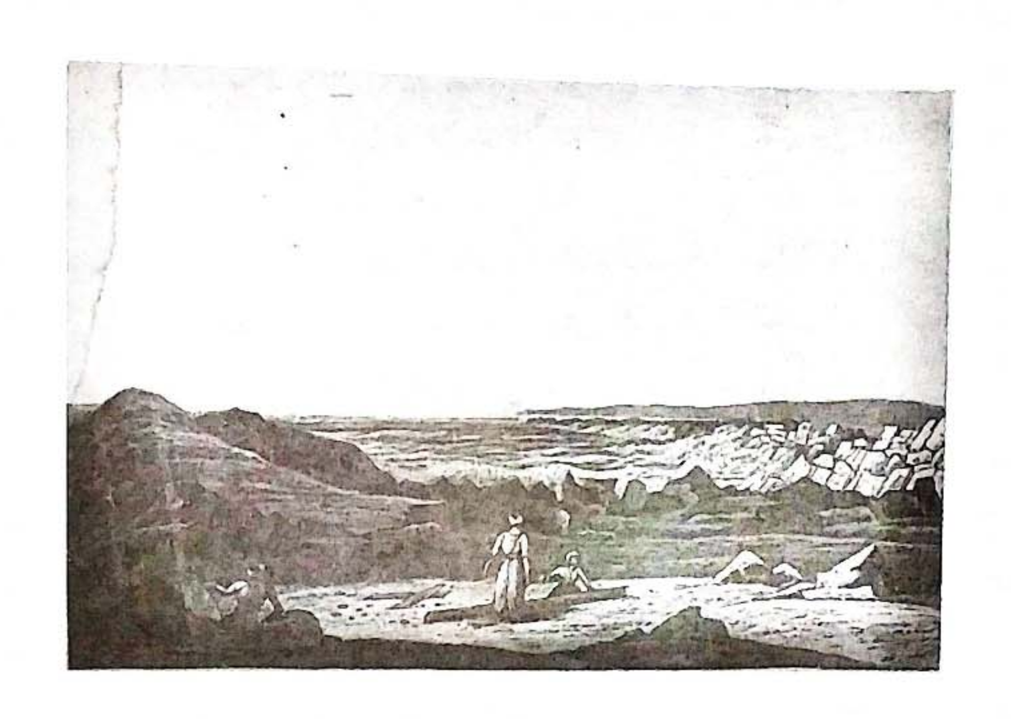
ما هو حمل تقع تبعيته على من نقل ونسخ عن أبـي التاريخ الذي تمتعت كتاباته بالدقة وصواب الملاحظة.

وهنا لعله من الأفضل لنا إيراد كلمات النقيب سميث نفسه عن هذا الموضوع حيث يذكر «ذهبت من بني وليد باتجاه الشمال الشرقي، أملاً في العثور على بعض أطلال تلاتا Talaita، وتيناداسا Tonadassa، وسيدميس Syddemis الواقعة ضمن حلقة الاتصالات بين سرتيس Syrtis وسيداموس Cydamus، وترينونس Tritonis، إلا أننا لم نجد سوى بعض الأبراج الخربة إلى جانب بعض الآثار التي لا تلفت الاهتمام، والتي يبدو من موقعها أنها أطلال ميسبا Mespe حيث اجتزت هضاب امسلاته، وتبينت من خلال وجودي وسط أحد هذه الحصون ظهور ثلاثـة مرتفعات مما جعلني أميل إلى التفكير بأنها هي هضبة الحسناوات الثلاث التي أشار إليها الجغرافيون القدماء، والتي لولا ما بدت عليه من شكل ثلاثي لما استرعت انتباهي أصلاً.

تبدو هذه الهضيبات على ارتفاع حوالي ثلاثمائة وأربعين متراً، وعلى بعد حوالي خمسة أميال من ساحل البحر، وهو ما يجعلها تختلف تماماً عن مسافة المائتي ستيديا حسب الرواية القديمة، ولكن بما أن نهر السيفيلاس ينبع من هنا، فإن النصوص الأولى قد تعرضت لسوء النقل فيما يبدو.

يعرف نهر السينافس اليوم بوادي غان، أو النهر الضعيف إشارة إلى ركود جريانه خلال الصيف، ولو أن قوة جريانه لا تزال تجعل منه نهراً بالنسبة لهذا الجزء الجاف من العالم.

تظهر حافتا هذا المجرى بما ينمو عليها من شجيرات، بمظهر مميز ويجعلهما إلى جانب المستنقعات بنباتاتها الكثيفة، قرب منطقة الطابية ميداناً لعمليات الصيد المختلفة، علماً بأن المجرى يتقلص ويضيق اتساعه بشكل ملفت للنظر قرب الطريق العام الواصل إلى زليتن حيث تظهر بقايا جسر إلى جانب بقايا قناة مائية تسير باتجاه لبدة، مدفونة تحت الأرض ولها فتحات للتهوئة على بعد كل أربعين متراً قريباً.



خط الساحل عند الزعفران

الفصل الخامس

ظهر جلياً عند وصولنا زليطن توفر الشعير، وزيت الزيتون، ورخص ثمنهما مقارنة بمنطقة طرابلس، الأمر الذي دعانا لاستغلال هذا الوضع بسد النقص في متاعنا من إنتاج منطقة السينافس الذي جاء في حديث أبو التاريخ عن فيض إنتاجها «بأن السماء قد أمطرت في هذا الجزء من ليبيا»، الأمر الذي لا يسعنا إلا تأكيد صدقه ومطابقته للواقع، فقد تلف معظم زادنا لتوالي نزول المطر جل الطريق، واضطرارنا لتعريضه لأشعة الشمس للمرة الثانية قبل إحكام وضعه في السلال المعدة لذلك.

يقطن قرية زليطن ما بين ثلاثمائة وخمسمائة نسمة حسب رواية الشيخ بن زاهر شيخ المنطقة الذي ندين له بالعرفان لا على زيارته فقط، وإنما للهدية القيمة من تمر فزان الممتاز التي تفوق جودته ما يتوفر منه محلياً.

تضم منطقة زليتن، حسب رواية هذا الشيخ، الممتدة ما بين وادي غان إلى سيلين، ما لا يقل عن خمس عشرة قرية، وقرابة عشرة آلاف نسمة.

تقام البيوت باستعمال الوحل والحجارة ولو أن نسبة استعمال المادة الأولى تفوق الثانية، كما هو الحال في معظم مباني السكان الوطنيين، في حين يستكمل بناء الأسقف عن طريق ما يشبه الحصير المصنوعة من جريد

النخيل بعد تغطيتها بطبقة من التراب، وهي الطريقة التي تم بها بناء قرى القصيبة والفواتير، والرقيق، والسنود، التي تكون ما يشبه الحزام حول زليطن رغم صغر أحجامها مقارنة بزلتين نفسها.

تحاط جميع القرى السابقة، إلى جانب قرية زلتين نفسها بتجمعات من أشجار النخيل والزيتون، وتظهر في مجموعها صورة لمنطقة مزروعة يفوق إنتاجها حاجة سكانها ويترك فائضاً يتم تبادله مع إنتاج الحصر والقلل المحلية مع تجار البادية أو بنقله إلى الأسواق الأخرى وعرضه للبيع.

توفر عينان طبيعيتان مياهاً جيدة قرب زليطن وتقوم حولهما بركة صغيرة اعتادت النسوة التردد عليها لغسل الصوف والملابس وللاستحمام أحياناً قبل ملأ جرارهن للاستعمال المنزلـي.

يعرف الميناء بمرسي زليتن، وهو مرفأ قليل الأهمية، ولا يوفر حماية ولو لمركب واحد في العادة، إذ لعبت عدة صخور متناثرة تعلو قليلاً فوق سطح الماء من حولها إلى حجز رقعة ضيقة لا يزيد عمق الماء بها عن خمسة أو ستة أَقدام.

وكما هو الحال مع قرية زليتن، توجد هنا أيضاً عينان طبيعيتان توفران هما أيضاً مياهاً جيدة، وبإمكانهما، إذا ما بذل السكان مجهوداً يذكر لحفر خزان قريب والحيلولة دون وصول مياه الموج إليهما، توفير مصدر دائم للمياه الجيدة.

ظهرت نتيجة لطغيان البحر إلى الشمال الشرقي من المرفأ، وعلى بعد ما بين نصف إلى ثلاثة أرباع الميل داخل البحر مجموعة من أجراف الحجر الرملي التي يبلغ ارتفاعها قرابة ثلاثين قدماً، كنتيجة لطغيان البحر.

تشير بقايا الآثار العديدة حول زليتن، إلى جانب تكرار ظهور أحجار البناء وقواعد الأعمدة الرخامية عند أسوار البلدة المبنية من الوحل، إلى قدم استغلال هذا الموقع الذي يظن أنه المكان المقصود بسيستيرن Cisternae عند

بطليموس حيث أشار إليها على أنها المدينة الأولى بعد رأس سيفالاس ونهر السينافس.

عثرنا بين الكثبان الرملية التي تبدو وكأنها تحيط بقرية زليطن على عدة مخططات أرضية غير متكاملة، كما يظهر قرب المصيف، ضريح ولي أقيم على أعمدة رخامية هزيلة كما بدت لنا عدة قطع من أعمدة الرخام وكميات هائلة من الفخار والزجاج. هذا إلى جانب بقايا بعض الحمامات العربية المبنية من الحجارة والإسمنت حتى ليخيل إلى المرء بحكم ما يعثر عليه من بقايا أسوار ومبانٍ أخرى أن القرية كانت مقامة أصلاً بين هذه الكثبان الرملية التي عملت على ردمها بعد أن تم هجرها.

نصبنا خيامنا على الكثبان الرملية قرب ضريح الولي الذائع الصيت المدعو سيدي عبد السلام الذي يكن له جميع المسلمين آيات الاحترام.

أبدى مرافقونا من العرب بالغ حرصهم ورغبتهم في ضرورة إظهارنا بالغ حرصنا واهتمامنا بقبر هذا الولي المقدس، وذلك باجتيازنا الضريح بخطوات بطيئة وحزينة وعلى بعد مناسب، وهو ما استجبنا له ومع أننا قد لا نكن بالغ الاحترام لقدسيته ولا للمعجزات التي تعزى لهذا الشيخ المبجل، إلا أننا لبينا لهم طلبهم المتحيز هذا.

إن ما يتمتع به مثل هذا الضريح من تبجيل واحترام، يبدو واضحاً فيما يوجد بداخله ومن حوله من أنواع الهبات والصدقات بدءاً من أكوام الأخشاب والمحاريث، والحصر، والجرار، والملابس القديمة، والبنادق، والمسدسات والأسرجة (سرج) والسبح وما لا حصر له من الأشياء التافهة الأخرى.

يمثل تقديم بعض الهدايا الهامة كالخضراوات والفواكه ظاهرة يمكن ملاحظتها بين أكوام الهدايا، مما يوحي بأن شهية هذا الولي الذي توفي منذ خمسين عاماً، قد عادت لها الحياة في مثل هذه المناسبات، خاصة وأن جزءاً هاماً من هدايا الأطعمة تختفي بسرعة، مما يدعو غير المؤمنين للانبهار

أمام حجم تلك الكميات الهائلة من الأطعمة التي يستهلكها الأموات من أمثال هؤلاء الشيوخ المبجلين.

لا تعرف سذاجة العربـي حداً حتى ليخيل إليك أنها تزداد وتنمو مع روعة القصص التي يتحدث عنها كما هو الحال مع هذه الحادثة المبالغ فيها رغم عدم تجانسها.

يسمح أو بالأحرى نال المرابطية حرية بلوغ ونيل أي شيء بدءاً من قصر الولاية وحتى خيمة أضعف البدو حالاً للقدسية، وبالتالي عدم المساس بهم مهما كان نوع الحماقات التي يرتكبونها مع ملاحظة أن نيل مثل هذا الشرف لا يسري على الأحياء منهم فقط، بل ويمتد إلى موتاهم أيضاً، فقبور هؤلاء الأولياء لا تسمح بانتهاك حرمتها وتوفر بالتالي ملاذاً آمناً لأعتى المجرمين بغض النظر عن تحديهم للقانون والسلطة.

إن أي مجرم يتمكن من الوصول إلى حرم المرابط والاحتماء به يكون قد ضمن لنفسه وقوف السلطة عاجزة عن النيل منه إلا إذا اضطره الجوع والعطش القاتلين للخروج من ملجئه، حيث تلجأ السلطة في مثل هذه الحالة إلى فرض مراقبة دقيقة تمنع من خلالها وصول الغذاء والماء وبالذات في الأضرحة المنعزلة عن المساجد، كما هو حال هذه الواقعة التي تمت في بنغازي عام 1817.

لجأ بعض أفراد قبيلة الجوازي الذين تمكنوا من النجاة من تلك الواقعة البشعة التي دبرها لهم البـي أحمد في قصر الولاية في بنغازي، إلى ضريح ولـي ذائع الصيت بالقرب من مدينة بنغازي. لم يكن بإمكان البـي التجرؤ واقتحام المبنى لقداسته، وهو ما اضطره لاتخاذ جميع السبل التي تحول بينهم وبين الهرب أو الاتصال بأي مخلوق.

نعم حاصر البـي المحل بعدد من قواته وبات ينتظر بلوغهم حتفهم إما جوعاً أو عن طريق العطش أو بتسليمهم أنفسهم إلى الجنود من حولهم، وهو

ما يلبي رغبته في النيل والتنكيل منهم أسوة ببقية شيوخ قبيلتهم، خلافاً لتطلعات الأهالي الذين كانوا يرون في ضرورة تدخل هذا الولي ووضع حد لهذا الظلم، ما يؤكد قدسيته والمهارة التي يحظى بها وأن شيئاً ما سيؤكد تطلعاتهم هذه.

نعم، كان البعض يراقب حدوث كارثة مروعة تأتي على هؤلاء المساجين إما جوعاً أو بحد السيف. فهذا هو اليوم الثالث ولا بد من انتظار حل لهذا الأمر الذي جاء بالفعل عن طريق هذا الولي المتوفي، فرغم دهشة جمهور الحاضرين بدأ الماء ينساب من داخل الضريح حاملاً معه أصنافاً من التمر وبعض الأطعمة الأخرى.

بات واضحاً أن لا أحد غير هذا الولـي يمكنه توفير مثل هذا الزاد لأناس كانوا على شفتي حفرة الموت فقد كان المكان مراقباً ليلاً ونهاراً من حراس البـي الذين كانوا هم أنفسهم تحت المراقبة.

رويت لنا هذه الواقعة ونحن بدورنا نقوم بنقلها كما هي إلى القارىء مع تذكيره بأن الدكتور ديلا إتشيلا كان شاهداً على وقوع هذه المعجزة التي تمت أثناء وجوده في بنغازي.

يشكل اليهود جزءاً هاماً من سكان زلتين ويقومون بأغلب الحرف التي تحتاج إلى مهارات يدوية، ومع أنهم مضطهدون في أكثر الأحيان إلا أنهم استطاعوا التغلب على مثل هذه العراقيل، وتحولوا بالتالي إلى أناس لطفاء وميالين للمساعدة إلى جانب وداعتهم وحبهم للعمل.

تركنا زلتين صباح الثامن عشر لنشق طريقنا فوق سهل فسيح تغطي الحشائش ونبات العنصل معظم أطرافه التي يخترقها طريقان. الأول نحو مصراته بينما يسير الثاني نحو مركز بني وليد وهو ما حدا بنا إلى أخذ الطريق الأول لقربه من البحر، فقد تبين لنا ظهور أكوام متناثرة من بقايا الآثار على حافتي الطريق بعد أميال قليلة من قرية زليتن، حيث أقيم معظمها على

ركامات صناعية تحيطها خنادق مما يعطي الانطباع بأنها كانت جزءاً من نظام عسكري، وبما أن أغلب هذه المخلفات قد تعرضت لزحف الرمال والتحطيم المتعمد، فإن الوقوف على نوع مخططاتها يحتاج إلى جهد ووقت.

بلغنا سيلين عند غروب الشمس حيث أقمنا خيامنا بجوار بئر قديم ممتازة المياه رغم عمقها البالغ أربعين قدماً.

أدركنا من على بعد قرابة مائتي ياردة من هذا البئر وجود بقايا قلعة تنتشر وتتناثر من حولها بقايا مباني أثرية حددها الدكتور ديلا إتشيلا على أنها موضع أورير Orir رغم فشلنا في إدراك أي أثر لرصيف الفسيفساء الذي يذكره المعنى، ولا أية علامات أخرى تبين مكان البقعة التي حددها كموضع المدينة القديمة، حيث ذكر بقيام مدينة أورير على موضع سيسترن Cisternae الواقعة غربي الرأس الذي يكون الحد الغربي لسرت الكبرى، ومع ذلك يظل مكان زليتن موضعاً أكثر ملاءمة لقيام مدينة عليه، كما تدل على ذلك بقايا الآثار التي تترك الانطباع بأنها كانت تشكل فعلاً أجزاءً من موضع تلك المدينة عما هو عليه الحال بالنسبة لآثار سيلين، مع تصورنا بأن الآثار الواقعة شرقي زليتن إنما تمثل امتداداً لمجموعة من القلاع لاختفاء أية مباني ملحقة بها عدا تلك التي تقام عادةً بالقرب من المناطق العسكرية.

ومع ذلك كانت مدينة سيسترن محدودة الأهمية سواء حدد موضعها في منطقة زليتن أو في سيلين رغم تفاهة مثل هذا الاعتبار.

بلغنا مساء اليوم اللاحق قرية صغيرة تعرف بزوية Zouia ومع أنها تشبه قرية زليتن إلا أنها أكبر منها، كما قمنا بعد مغادرة سيلين بتقسيم مجموعتنا إذ استمرت قافلة الجمال في تتبع الطريق المباشر بينما تقدمنا نحن بجانب الكثبان الرملية المحاذية للشاطىء، حيث صادفنا بعض الأكواخ المقامة على الساحل مباشرة في مكان يعرف باسم زريق وهو مكان يعيش فيه قرابة مائة شخص يقومون بزراعة ما يكفي حاجتهم رغم توفر عدة آبار جيدة المياه يستغلونها

لري أرضهم المحدودة المساحة.

ترجلنا لمقايضة بعض التمر والماء التي قدمت لنا مجاناً من قبل رجل مسن علمنا منه أن سفينـة المغامرة ظلت راسية لعدة أيام، حيث نزل بعض ضباطها إلى الساحل، إذ كونت بعض النتوءات الصخرية غير بعيد عن ساحل القرية مينائين صغيرين أسبغ عليهما أهل القرية اسمي مرسى القصور، ومرسى زريق.

دخلنا مصراته في اليوم التالي، عبر طريق ملتوٍ تحفه وتظلله أشجار نخيل المزارع القريبة، وبلغنا بذلك الحد الشرقي للمناطق المزروعة التي تنتهي على مشارف سرت حيث بات علينا تغيير إبلنا.

نصبنا خيامنا في مزرعة (سانية) قرب المدينة بينما تقدمنا نحن لاتخاذ الإجراءات اللازمة.

أقيمت المدينة على شكل منتظم، إذ تتقاطع شوارعها عند زوايا قائمة بينما يقوم ميدان السوق قرب مركزها، كما هو الحال مع معظم مدن المنطقة، ولو أن نصف هذا الميدان تشغله بركة مياه راكدة ذات رائحة كريهة ولون أخضر.

أما المنازل فتتكون جميعاً من دور واحد استعملت الحجارة الخشنة والوحل في بنائها، في حين تبدو الأسقف منبسطة، حيث بنيت من الخشب المغطى بحصائر من جريد النخيل وتبن البحر تعلوهما طبقة من الوحـل المدكوك بدقة وعناية ذلك أن الذين تتاح لهم فرصة خلط الوحل مع نسبة من الجير هم قلة، إذ بدون هذا المزيج يتعذر على تلك الأسقف مقاومة تسرب مياه الأمطار شتاءً، ووصولها إلى قاطنيها السيـىء الحظ وما أكثرهم! كما أن عملية طلاء الجدران بالجير لها هي الأخرى ارتباط بمحاولة منع تسرب المياه إلى الداخل، إلى جانب ما تضيفه من تباين في الألوان.

أقيم الجزء الأكبر من المدينة على قشرة صخرية صلبة يبلغ سمكها قرابة قدمين تعلوها تربة رملية ناعمة يسهل نقلها، الأمر الذي دفع بالسكان إلى

حفرها وتحويل بعضها إلى أماكن تشبه المخازن لحفظ ما لديهم من حبوب ومواد تموينية أخرى، ومع مرور الوقت تهدمت بعض هذه المخازن، مما أدى إلى أن تصبح بعض الشوارع مغلقة أمام المارة.

تمتد منطقة مصراته، حسب رواية شيخها، من سيلين حتى سولب في منطقة سرت الواقعة على مسافة يومين إلى الجنوب من المدينة، وتتكون من قرى الجارة Ghara، والزوية، والزروق، وقصر حمد، وقزير وغيرها، ويقال إنها تضم أربعة عشر ألف نسمة بما فيهم سكان مدينة مصراته ذاتها، أما سكان القرى الخمسة المذكورة فيقدرون بحوالي ألف ومائتين وخمسين نسمة على افتراض دقة بيانات هذا الشيخ.

تنتج الحدائق الممتدة من قرية الزوية إلى المرابط بو شعيفة، التمر والزيت والبطيخ، والرمان، والجزر، والبصل، والفجل، وقليل من التبغ، والقطن. ويرتفع منسوب العديد من المزارع ما بين أربعة إلى ستة أقدام عن مستوى الطرق، كما أن جلها محاط بأسوار من الوحل، أو أسيجة من التين الشوكي.

تنتج المنطقة عدة أنواع من التمور بوفرة، كما تنتج أشجار الزيتون محصولاً وافراً من الزيت، إضافة إلى المحصول الوفير من الشعير، وهي محاصيل تعرف طريقها إلى أسواق عديدة، ذلك أن استهلاك المنطقة إنما يتكون أساساً من التمر إلى جانب الذرة مما أفسح المجال أمام تصدير إنتاجها من الشعير، أما المصنوعات الأساسية فتتمثل في صناعة السجاد بألوانها الزاهية، والحصر، وقرب الماعز ووبرها، والأواني الفخارية علماً بأن ما يحتاجه السوق من لحوم، وخضراوات، وفواكه محلية، إلى جانب الزيت والملح المستخرج من السباخ الواقعة جنوبي المدينة بعدة أميال، تبدو وفيرة هي الأخرى.

وصفت مصراته من قبل الرحالة ليو الإفريقي بأنها مقاطعة على ساحل البحر المتوسط، تفصلها مائتا ميـل عن طرابلس، ثم يمضي ليؤكد احتواءها على عدد من القصور والقرى يوجد بعضها على مرتفعات، أما الأخرى فتقوم على السهل مباشرة، مشيراً أيضاً أن سكانها ينعمون بالمال الوفير، على اعتبار أنهم لا يدفعون أية ضرائب على أرباح تجارتهم فقد اعتادوا على استلام السلع الأجنبية التي تحملها إليهم سفن تجار البندقية التي يحملونها بعد ذلك إلى منطقة نوميديا لمبادلتها بالرقيق والزباد والمسك من أثيوبيا ثم يعودون ليحملوها من جديد إلى تركيا محققين بذلك كسباً مزدوجاً.

عانت مصراته من عدم الاستقرار طوال أيام حكم الباشا السابق، فقد رفض السكان استقبال سيدي يوسف إلى أن تدخل الشيخ خليفة الذي تمكن من إعادتهم إلى إعلان الطاعة، وعموماً فإن المنطقة لم تعد مزدهرة كما كانت زمن الجغرافي ليو الإفريقي لضآلة أهميتها التجارية في الوقت الراهن.

جاء لزيارتنا بعد وقت قصير من وصولنا، الشيخ البلعزي Belcazi، شيخ مصراته للترحيب بنا واستقبالنا، وكان بصحبتنا الشيخ محمد الضبع ويرافقه رتل من الفرسان العرب المسلحين بالبنادق والمسدسات، وكانت ملابس شيخ مصراته بالفعل من النوع الفاخر وفاقت بالتالي تلك التي ارتداها رئيس مرافقينا إذ كان جلُّها محشياً بأسلاك الذهب أو مصنوعة من الحرير، إلى جانب الجرد الناصع البياض الذي علاه برنوس أحمر، إضافة إلى العمامة، وكانت عيناه مكحلتين، وأصابع يديه مخضبة بالحناء.

إن اهتمام هذا الشيخ بنفسه لم يغفله عن التقاعس وإهمال جواده الذي كانت لجامه من الحرير القرمزي المطرز بالذهب، وهو ما ينطبق على السرج وعلى تلك القطعة العريضة المعلقة على صدره، هذا إلى جانب عشرات الأحجبة المدلاة على عنقه.

كان العرض لصالح هذا الشيخ رغم تهيئة الشيخ الضبع نفسه للركوب

بجانب شيخ مصراته، فقد كان يحمل ضمن حاجياته العديد من الملابس المحشاة بالذهب هي الأخرى ولو أنها من مرتبة أقل، ومع ذلك فقد كان يجلس على مهاريه المهداة من الباشا، وكله شعور بعزة النفس والكبرياء.

انتهى استعراض الرجلين بتصفيق الحاضرين وهما يترجلان لدخول الخيمة وكلاهما فخور بنفسه وفروسيته.

كان كل شيء معد لاستقبالهما، إذ تم تنظيف الأرضية، وفرشت الخيمة بعدد من البسط الصغيرة، وكنا في ذات الوقت على استعداد لتقديم القهوة والشربات بمجرد تمكنهما من الجلوس.

قدم الشيخ الضبع مضيفيه بالحرص على ذكر مركزه وأهميته دون أن ينسى كيل المديح له بين كل جملة وأخرى وهو ما وجد هوى في نفس الشيخ البلعزي رغم اعتبارها كحقائق مسلمة، كما كان علينا إبداء ما يظهر بالغ تقديرنا لهذا الإطراء.

بدأنا بمجرد انتهاء السلام والتحيات المتبادلة، وتقديم القهوة وملحقاتها في تحديد عدد الإبل التي نحتاجها، الأمر الذي حدد شيخ مصراته أمر التعامل معه في تأكيده وتعهده في توفيرها لنا، إضافة إلى تعهده بتقديم أية مساعدة وفي أي مجال يمكنه من خدمتنا.

وبما أن توفير الإبل المطلوبة ما كان له ليتم في لحظتها، فقد استقر الرأي على قيامه بإعلامنا عن الوقت الذي يمكننا فيه الحصول عليها، أما الشيخ الضبع فقد بدأ من جانبه في الإطناب بما يمكنه إغداقه علينا بوصولنا إلى منطقة سرت التي يدبر ويشرف على أمورها معدداً المميزات العديدة لغنم المنطقة وخرافها وما تدره من زبد وحليب، مطمئناً إيانا بمدى سعادته وسروره وكواجب عليه أيضاً بتوفير كامل حاجياتنا من هذه السلع الثمينة دون أن ينسى تأكيد أهمية حمايته لنا التي لولاها لاستحال علينا اجتياز المنطقة بدونه.

كنا على يقين بعد سماعنا لذلك الخبر الذي حمله إلينا القنصل البريطاني، من أن الشيخ المذكور كان السبب وراء إشاعة ذلك الخبر المزعج، وهو ما دفعنا إثارة هذا الموضوع على شيخ مصراته للتعرف على رأيه حول هذا الموضوع ومدى احتمال صدقه.

هَـزّ الشيخ رأسه، وبكل ثقة أكد عدم تصديقه لأي أساس لهذا النبأ إلا أنه مضى ليؤكد بأن حدوث مثل هذاالأمر يمكن له أن يحدث قبل سنوات خلت أما بعد كسر شوكة القبائل العربية من قبل الباشا، فإن سلامة التنقل والاتصال بين مصراته وبنغازي فقد باتت آمنة لحد كبير.

كان الشيخ الضبع وعيناه الواسعتان محدقتين، يتحدث بإصرار على وجود أمثال هذا القطيع من قطاع الطرق، وأكثر من هذا أكد سابق معرفته لجميع تحركاتهم من كر وفر، فقد أكد له بعض معاونيه كثرة عددهم بعد تقصي آثار أقدام خيولهم عند البئر الأخيرة التي حلوا بها، مضيفاً أنه يعرف جميع الآبار التي يرتادونها وأنه سيتقدمنا لاستطلاع الطريق عند بلوغنا تلك الديار.

وضع الرجل يده على المسدس بجانبه وكأنه يريد وضع حد لأمر هام، في الوقت الذي دفع بيده الأخرى إلى لحيته البيضاء، داعياً إيانا إلى عدم الخوف من أي خطر يهددنا طالما نحن تحت حماية الضبع.

تأكد لنا بما لا يدعو إلى الريبة بأن صديقنا الباسل كان هو نفسه مؤلف ذلك التقرير من أجل، كما فكرنا، رفع قيمة حمايته لنا فقد اكتشفنا سر رغبته في الانطلاق أحياناً في مقدمة الركب.

لم يكن في نيتنا مطلقاً الإساءة إلى مشاعر هذا الشيخ المسن بالكشف عن هذه الهواجس كما لم يكن من سياستنا اتباع مثل هذا الأسلوب، مما جعلنا نقر ملاحظاته على مدى أهميته، مؤكدين له في نفس الوقت إيماننا بأن أمثال هؤلاء اللصوص لن يجرأوا أبداً على دخول المنطقة وهو راعٍ لها.

أعدنا تذكير الشيخ البلعزي بعد استمرار النقاش لبعض الوقت مع كليهما، بوعده بإعداد الإبل اللازمة وسرعة تجهيزها، وهنا نهض الشيخ مستأذناً الانصراف برفقة الشيخ الضبع.

أرسل شيخ المنطقة: صباح اليوم التالي، ابنه ليخبرنا باستلام الإبل خلال ثلاثة أو أربعة أيام، فقدمنا له بعض الهدايا التي سر لها كثيراً.

رددنا الزيارة مساءً إلى الشيخ البلعزي حيث استقبلنا ببالغ الأدب والحفاوة التي يجيد القوم من الأتراك والعرب طريقة ممارستها، فقد خيل إلينا أن أساليب طرابلس في مثل هذه المناسبات قد امتدت شرقاً، إذ سرعان ما قدم الشاي الأخضر مع الشربات بدل القهوة، وعندما حان وقت الانصراف أعاد الشيخ تأكيد إرسال الإبل بالسرعة اللازمة، ومع شعورنا بالرضى من حديث الشيخ ووعوده وحسن مقابلته، إلا أننا لمسنا سلفاً عدم الإقرار بكل الوعود التي يكون المسلمون طرفاً فيها.

لم يكد ينقضي اليوم الأول على وصولنا إلى مصراته حتى انتشر خبر وجود طبيب معنا حيث بدأت أفواج الزائرين طلباً للدواء والعلاج في التردد المتواصل، وبالفعل فإن محتويات العشرين صندوقاً من الدواء التي بحوزتنا ما كان لها لتلبي نصف عدد الوافدين مع ملاحظة أن أغلبهم لم يكونوا في حاجة لأي شيء خلافاً لبعض الحالات التي كانت في حاجة إلى المساعدة فعلاً.

تمثل أمراض العيون، والدوزنتاريا المزمنة أهم حالات المرض الفعلي التي انهمك السيد كامبل Campell في علاجها وصرف الدواء لأصحابها.

يصعب في كثير من الحالات، إن لم يكن مستحيلاً إقناع مواطني الشعوب المتخلفة بأن دور الدواء في عملية الشفاء أمر محدود، ومع ذلك كان هناك اقتناع لديهم بقدرة السيد كامبل غير المحدودة، في هذا المضمار، الأمر الذي حمله في النهاية إلى الإقرار به، واللجوء إلى إعداد وصفات غير

ضارة، والطلب من أصحابها بأن الأمر يعود في النهاية إلى الله لشفائهم.

أدى اتباع هذا الأسلوب النفسي إلى جانب صرف الدواء المتوفر إلى خلق ردود فعل مطمئنة، وبدأ المترددون منهم ينصرفون وهم في كامل الرضى من طبيبهم، فقد باتوا واثقين بأن ما يصرف لهم من مساحيق علاجية كافية لتخليصهم مما يعانون منه، ولو كانت غير قابلة للشفاء.

أصيبت امرأة شابة، تقطن قريباً من خيامنا، بعد تناولها وجبة بازين بصداع حاد وبمغص في معدتها، حيث رؤي استدعاء ولـي مرموق وصل مصراته منذ مدة قصيرة لمعالجتها. لبـى الولي الدعوة وعند بلوغه خيمتها كان السيد كامبل وبعض رفاقه قريبين من المكان، وبدافع حب الاستطلاع وتمكنهم من الوصول إلى مكان مناسب تمكنوا بمساعدة المترجم من فهم الحوار الذي تم فهذا الشريف الذي ما إن عرف بما حدث، حتى بدأ وهو يلهث بصوت عالٍ، بإعلام المريضة بأنها مملوكة بروح تسكن باطن الأرض مضيفاً بأن السبب كان نتيجة تجاهلها ذكر باسم الله قبل إقدامها على فعل شيء ما، وأن إهمالها هذا كان السبب في سكب بعض الماء على رأس ابن هذه الروح التي تمتلكها حينما كان يمر من تحتها وهو ما دفعه للانقضاض عليها وإلحاق ما تعاني منه من آلام نتيجة للجريمة التي ارتكبتها.

لم يفهم رفاقنا ما عناه هذا الولـي بهذا الاكتشاف، ولو أن جميع الحاضرين من العرب صدقوا كل كلمة منه في الوقت الذي أخذت فيه المسكينة تصرخ وتلعن حظها العاثر بنسيانها هذه البسملة.

أمرها الشريف بالهدوء وأخبرها بأن حالتها رغم استعصائها إلا أنها ليست مستحيلة الحل، وبنظرة حادة، وأمر صارم أمر الولي هذه الروح ترك هذه الضحية.

لا زالت المرأة تئن من الوجع، وبدا أن هذا الجان لم يخضع للأوامر بعد، ومرة أخرى يتدخل الولي ليخبره بأنه جن عاق وأنه امتلك هذه السيدة

قبل مدة من إرسالها طلباً للمساعدة، وأنه مصرّ على قهره حتى ولو بقي مع مريضته حتى الصباح في الوقت الذي اعترف فيه بأن الأمر ليس هيناً فقد أدرك أن المرأة شريرة، لقد عرف ذلك من عرض أكتافها، ومن سواد عينيها الواسعتين اللتين تفوقان سواد وحجم عينـي إحدى زوجاته.

تحسنت حالة المريضة وفي الصباح انتشر خبر نجاح وقدرة هذا الشريف ولكن هل كان ذلك بفضل ممارسات هذا الولي، أو كأثر لتلك الأدوية التي وصفها لها السيد كامبل، لندع الجواب لرأي القراء.

أدى تأخر شيخ مصراته بالإيفاء بوعده في توفير الإبل المطلوبة لاضطرارنا للبقاء عدة أيام قمنا أثناءها بزيارة عدد من الأماكن الهامة، فقد ذكر النقيب لواتير Lautier خليج بوشعيفة على اعتباره مكاناً يوفر فرصاً جيدة لرسو السفن، وأصبح بالتالي مكاناً يستحق الزيارة للتأكد من تلك الإمكانيات التي لم نجد أساساً للإشادة بها خلافاً لما أسبغه عليها الضابط المذكور، إذ لم نر سبيلاً لتلك الحماية التي يمكن أن توفرها الحواجز المتوفرة بحكم طبيعة السهل الذي لم يوفر لمصراته أي نوع يشاد به من الحماية ولو لمركب واحد، فباستثناء قمة الخليج حيث تقوم أفضل نقطة للرسو، تنعدم إمكانيات الحماية الطبيعية، ولا أثر لشيء هناك سوى بقايا قلعة قديمة.

يعني وجودنا فـي مكان إقامتنا الحالية وصولنا إلى حدود خليج سرت الكبير، مكان الرأس البحري، الذي حدده الأقدمون كنهاية الخليج الغربية، مما يجعله كواحد من أهم المواضع التي تستأثر بالبحث والدراسة.

تقوم بين مدينة مصراته وساحل البحر، سلسلة من الهضاب الرملية التي يفوق ارتفاعها، ارتفاع أعلى أشجار النخيل القريبة، يليها رأس من الحجر الرملي الناعم Soft Sand-Stone بارتفاع يقرب من مائة قدم فوق سطح البحر.

تنقسم الرقعة الأرضية هذه إلى ثلاثة رؤوس مميزة قال النقيب لواتير في وصفها وهو يشاهدها من البحر، بظهورها وكأنها ثلاثة جزر، حيث تبدو

الأرض المنخفضة من ورائها وفي اتجاه الجنوب الشرقي أيضاً، وكأنها مغطاة بأشجار النخيل، ولو أن رؤوسها تبدو معتمة تماماً مع الإشارة إلى أن الحجر الرملي المشار إليه قد أخذ في التصدع والسقوط وأن ارتفاع هذا النتوء يتضاءل باستمرار.

يتوافق منظر هذا النتوء الذي يشبه منظر الرأس الثلاثي تماماً حسب تقديرنا مع ذلك الوصف الذي تركه إسترابو عن رأس سيفالاس مع أنه لا يتفق تماماً مع النهاية الغربية لخليج سرت التي تتكون في الواقع من امتداد صخري منخفض لا يتعدى ارتفاعه منسوب البحر من حوله، ويبعد بحوالي أربعة أميال عن منطقة الرأس المشار إليه، الأمر الذي يجعل ملاحظتها من البحر أمراً غير ممكن ويعطي بذلك عذراً للجغرافي إسترابو في صعوبة ملاحظتها وتحديدها بالثاني.

وهنا يمكن التأكيد بأن تحديد بطليموس للرأس المذكور يتفق تماماً مع رأس سيفالاس عند استرابو الذي حدد مكانه خارج منطقة الخليج بقليل لا لشيء سوى لطبيعة أرض المنطقة، حيث يقوم الرأس المذكور بنهاية الخليج الغربية لا لشيء سوى لرؤيته للمكان من عرض البحر، مما أدى به إلى الوقوع في مثل هذا الخطأ الطفيف إذا جاز لنا تسمية ذلك خطأ أصلاً[1].

فشلنا في الكشف عن أية بقايا أثرية في مصراته، ولو أن موقعها الفريد فيما بين منطقة السينافس الخصبة، وأراضي سرت الكبرى القاحلة، لم يبخل في جعلها أرضاً تملك أكثر من سبب عام بالنسبة لأولئك الذين يرون فرادة هذا التعارض الصارخ، إذ بإمكان المرء بناء فكرة ممتازة عن هذا التعارض، من خلال مشاهدة وتمعن هذا الأمر من أعلى قمم الهضاب الواقعة بين المدينة وساحل البحر فجوانب هذه الهضاب الشديدة الانحدار هي المكان

---

(1) يلاحظ المؤلف الخطأ الذي وقع فيه الدكتور ديلا إتشيلا عن محاولته تحديد مكان هذا الرأس الذي يقول إنه يبعد مسافة ساعتين عن مصراته (ص ص 103 و 106).

المناسب الذي يمكن للمرء من خلاله إمعان النظر في هذا التباين الصارخ وما يعكسه ذلك على إمكانيات المستقبل.

تقع إلى الجنوب والغرب من حضيض الهضاب السابقة أراضي مصراته المتباينة، حيث يمكن التطلع إلى ما لا نهاية له من حقول أشجار النخيل والزيتون التي تضم أرضها العديد من القرى والمزارع أو ترعى فوقها قطعان من الضأن والماعز بجانب قوم يغلب عليهم النشاط والحركة.

أما في اتجاه الشرق فلا أثر لكائن يعلو سطح أرض مهملة تمتد في شريط طويل فليست هناك شجرة أو شجيرة واحدة يمكن رؤيتها في هذا الاتجاه، ولا أثر أيضاً لأي منزل أو حتى خيمة، وبالتالي فلن ترى إنساناً واحداً أو أي حيوان بغض النظر عن فصيلته.

انعكس أثر خليج سرت الكبير على هذا المكان بأن حوله إلى رقعة أرضية عريضة قفراء ومنبسطة دونما ظهور أي شيء يميز بعض أطرافها عن بعضها الآخر باستثناء سطحها القاتم الذي قد يتوارى في بعض أطرافها وراء الأفق.

هبت قبل يومين من مغادرتنا لمصراته، رياح السيرولّو الجافة المزعجة حاملة معها أفواجاً من الجراد التي كادت تحجب نور الشمس، واضطر معها المواطنون إلى البقاء خارج منازلهم طوال اليوم في محاولة منهم لمنعها من النزول والاستقرار فوق مزارعهم والأماكن المزروعة الأخرى بدوام إطلاق بنادقهم وإحداث ما يمكنهم من جلبة وضوضاء، في حين قام الآخرون بالانشغال في جمع ما استقر منها فوق الأرض في سلال استخدمت الحمير في نقلها إلى المدينة والقرى المجاورة، وكأنها سلع تموينية عادية، علماً بأن الضرر الذي يمكن للجرادة الكاملة النمو إنزاله بما يأتي في طريقها من نبات لا يمكن للقاريء تصوره لا لشيء سوى لأنها بالفعل والقوة آفة تأتي على الأخضر واليابس معاً.

عرفت هذه الحشرة منذ زمن موغل في القدم في منطقة الشمال الإفريقي، وتحدث عنها الكثير من الكتاب فقد وصفها ديودورادس عند حديثه عن قبائل (Acridophyzi) الذين يعرفون بآكلي الجراد بأنها سيف ذو عشرة آلاف حد، مما يعطي فكرة عن مدى الدمار الذي تتركه وراءها، أما الدكتور Shaw (1725 ـ 1729) فقد تحدث عنها محدداً موعد بداية ظهورها مع قرب نهاية شهر مارس ثم تبدأ في التكاثر الفعلي في منتصف شهر إبريل حيث تأخذ في الطيران وكأنها سحب متتالية تتقدم عادةً باتجاه الشمال صوب البحر ودون ترك أي شيء يفلت من أمامها، إذ تأكل كل شيء أخضر بما في ذلك الأشجار الكاملة النمو كالتين والرمان، بل وأشجار النخيل أيضاً.

اعتاد الناس اللجوء إلى عدة وسائل منها حفر خنادق قبل الأماكن المزروعة وملئها بالماء، أو بجمع الحطب وإشعال النيران فيه، ولكن دون عائد يذكر، إذ سرعان ما تمتلىء تلك الخنادق وتنطفىء النيران لتوالي تكدسها فوقها.

أعطى الدكتور شو في محاولة منه لترجمة معنى (الجرادة Locuasto) بأنها تعني حسب حدسه، الحيوان الضار، أو الحيوان المدمر المؤذي ثم مضى ليؤكد بأنها إلى جانب كل من السيف، والجوع والطاعون المخاطر الحقيقية التي كانت تخشاها مدينة القدس، جيروسليم، رغم أن اليهود كان مصرحاً لهم بأكلها، علماً بأن الجراد المملح إذا تم تحميره فإن طعمه لن يختلف كثيراً عن طعم بعض أسماك المياه العذبة عندنا، أما قبائل الأكرويدوباجي فقد كانوا فعلاً من هواة تناولها وهو ما أسبغ عليهم اشتقاق اسمهم منها.

كما أخبرنا المؤرخ بليني بأن الجراد يضع بيضه في الخريف، حيث تبقى طوال فصل الشتاء مدفونة في الأرض، إلى أن تبدأ في الظهور خلال الربيع دون أن تكون لها أرجل وهو ما يضطرها إلى الزحف على أجنحتها،

مع الإشارة إلى أن الجراد يفضل وضع بيضه في الأراضي السهلية المنبسطة، ولكن دون أن يتم نضجها خلال المواسم المطيرة خلافاً للحال مع فترات الجفاف التي تساعد على سرعة فقسها، وبالتالي انتظار أسراب منها مع بداية فصل الصيف.

يذكر بعض الكتاب استكمالاً لحديث المؤرخ المذكور بتوالد الجراد مرتين سنوياً، تماماً كموتها وضياعها إذ تموت الأفواج الأولى بسبب حرارة الصيف حيث يلحق بها الفوج الثاني بعد وقت قصير، كما تموت الأمهات مباشرة بعد نمو صغارها بسبب اختناقها بدود صغير، ثم يمضي ليتحدث عن ذكر البعض بوجود نوع من الجراد يبلغ طوله قرابة ثلاثة أقدام في الهند، وأن السكان يستعملون أرجلها وأفخاذها لنشر ما هم في حاجة إليه بعد أن يتم تجفيفها، كما يتحدث عن عبورها للبحر بمساعدة الرياح، ولو أن معظمها يضيع قبل اجتيازها له رغم تمكن بعضها من اجتياز مساحات بحرية شاسعة. ثم يمضي ذاكراً بامتلاك الجراد لحاسة التنبؤ بحدوث المجاعات مما يضطرها لأخذ الحيطة والرحيل لمسافات بعيدة، كما يتحدث عن الجلبة والضوضاء المصاحبة لطيرانها حتى أن البعض يظن أنها أسراب طيور غريبة تحجب نور الشمس مثلما هو الحال مع مرور السحب، هذا بالإضافة إلى ما تحدثه من خوف ورعب لمجرد ظهورها الذي يأتي على كل ما يأتي في طريقها بما في ذلك خشب أبواب المنازل. كما يضيف بتعرض إيطاليا لغزوات الجراد من الساحل المقابل، الأمر الذي يثير الرعب في سكان روما الذين يربطون حدوث نوع من المجاعة كلما ظهرت هذه الحشرات في سماء بلادهم وهو ما يضطرهم في الكثير من الحالات إلى الرجوع إلى الكتب القديمة في محاولة لاستخلاص ما قد يوفر لهم عناء ولعنة السماء التي حلت بهم.

كما يحدثنا عن تشريع في إقليم برقة يلزم الناس كل ثلاث سنوات بشن حرب ضد هذه الحشرات حين يتحتم عليهم البحث عن أماكن أعشاشها وتدمير البيض وما بها من صغار ومن ثمة مواصلة البحث للقضاء وتدمير تلك

التي بلغت مرحلة اكتمال نموها، علماً بأن عقاباً شديداً سينال كل مقصر في أداء هذا الواجب تماماً كمن يرتكب جريمة ضد حاكميهم أو ضد الوطن بوجه عام، مثلما هو الحال في إقليم (Lemnos) حيث أقر نظام يحدد وينظم الكمية الواجب على كل مواطن قتلها من هذه الحشرة التي عليه إعلام الجهات المسؤولة بها.

يبدو جلياً مما أشير إليه مدى الخوف والهلع الذي ينال سكان المناطق المزروعة من ظهور أسراب هذه الحشرة التي لم تحدث ذلك الضرر البالغ في مصراته، فبقدر ما كان السكان هلعين من ظهورها والتصدي لها أول الأمر، إلا أنهم وبسرعة تحولوا لأكل عدوهم المرعب هذا.

وصلت إبلنا يوم الثاني من ديسمبر، بعد فترة من اليأس من تلك الوعود المتكررة، إذ بمجرد تقديم بعض الهدايا المناسبة للشيخ وابنه كنا على أتم استعداد لمواصلة رحيلنا رغم بعض الصعوبات التي قابلتنا في التعامل مع أهل المدينة، الذين إقراراً للحق، وجدنا في شيخهم، رغم بعض المآخذ التافهة، الصراحة والأمانة التي قلما تتوفر من خلال التعامل مع الأقطار المسلمة الأخرى.



النخلة الوحيدة في منطقة أرار

الفصــل السـادس

يمثل اجتياز سواني مصراته، واستشراق أراضي سهل سرت المنبسطة نقطة تحول أول ما يبرز من مؤشراتها، تلك السبخة الهائلة التي وصف إسترابو موضعها بأنها أول ما يلي نهر السيفلاس، التي لا يبدو أنها تملك اليوم صفة كونها سطحاً مائياً لا يعوق تواصله شيء ما، مثلما كان حالها زمن هذا الجغرافي إذ تظهر وكأنها تجمع برك تشغل مساحة كبيرة تتصل أحياناً بالبحر، علماً بأن بعض هذه البرك تمتد لعدة أميال مما يسبغ عليها وصف البحيرات لو أنها أعمق عما هي عليه في الواقع.

لم يبدأ الموسم المطير بعد رغم هطول الأمطار عدة مرات عند تقدمنا بمحاذاة هذه السبخة التي قد تتحول فعلاً إلى امتداد متصل عند نهاية الموسم المطير، إذ بالفعل كان الشيخ الضبع قلقاً جداً أثناء لقائنا في طرابلس فقد كان تواقاً لسرعة رحيلنا تحسباً لحالة هذه السبخة التي سيصبح اجتيازها خطراً إن لم يكن مستحيلاً أصلاً.

حدد إسترابو طول هذه السبخة أو البحيرة بتعبير أدق بثلاثمائة استيديا، وعرضها في حدود سبعين، وهي أبعاد لا تختلف كثيراً عما هو قائم فعلاً، فقد ذكر بأن امتدادها ما بين مصراته وقرية سولب Sooleb يقل قليلاً عن أربعين ميلاً، في حين يتباين امتداد عرضها ما بين ساحل البحر وأطرافها

الجنوبية فيما بين تسعة إلى خمسة عشر ميلاً، علماً بأن هذه البحيرة لا تنتهي في الواقع عند قرية سولب بقدر ما ينكمش عرضها إلى ميلين أو ثلاثة أميال عند القرية المشار إليها حيث تعود كما كانت مرة أخرى عند مركز جيراف Giraff، مما يعني تركز جل حجم أو مساحة هذه السبخة في المنطقة المحصورة ما بين مصراته وقرية سولب التي يمثل اجتيازها عودة لمواصلة امتداد طول وعرض هذا المسطح المائي، ولو أنها تظل مع ذلك أقل من تلك الأبعاد التي ذكرها إسترابو بدءاً من رأس سيفلاس، وهي المنطقة التي ذكر بوجود عدد من الجزر بها، إضافة إلى قاعدة بحرية أو نقطة إنزال عند التقائها بمنطقة الخليج.

ومع أن بعض الرقع اليابسة تبدو ظاهرة في أنحاء مختلفة من السبخة الحالية، إلا أن العثور على ما ينبىء عن أية إنشاءات لا مكان له عدا في الجهات القريبة من مصراته، مع الإشارة إلى ظهور بعض بقايا طريق أرضي في مكان يبعد قرابة تسعة أميال عن نقطة التقاء البحر، ويمتد إلى الداخل لمسافة قرابة ثلاثمائة وثلاثين خطوة مما يؤهله ليكون منطقة التقاء مع الخليج خاصة وأن الأرض المواجهة له تبدو أعلى نسبياً مما حولها، ويدفع بالتالي للحديث عنها كنقطة إنزال مؤلفة من ذلك الطريق الذي يأخذ شكل مصطبة عرضها قرابة عشرة أقدام تنحدر من على حافتها سلالم أو درجات عملت مياه البحر على نحت جوانبها وتحويلها إلى كم من الأنقاض. فهذا الأثر الإنشائي إن لم يكن نقطة إنزال أو رصيف لميناء يعني فشلنا في تحديد الغرض من إقامته، وهو ما لا نقره إذ لا مجال لأي افتراض يستثنى ارتباطه بمحطة ملاحية.

يرتبط المظهر العام للأرض المحاذية للساحل بارتفاعه النسبي عن سطح هذه البحيرة أو السبخة، ومع ذلك يحول بين قيام أي اتصال بينهما باستثناء هذه البقعة وأخرى سيأتي ذكرها بعد قليل.

كان الاتصال المباشر بين البحر وهذه البحيرة في حكم المؤكد إذ لا تزال منطقة العبور بينهما قائمة، وفي ذلك ما يسمح لمياه البحيرة للانتقال إلى البحر، بالإضافة إلى وجود بقايا ما افترض أنه منطقة إنزال عند ذلك المجرى أو القناة التي تسمح لسفن الأقدمين الصغيرة بالدخول والخروج منها، في الوقت الذي يفترض فيه قيام الأرض المرتفعة نسبياً بتوفير بعض الحماية لتلك المراكب لما تتعرض له من أخطار قرب الساحل.

توجد قرب مصراته إلى الجنوب قليلاً من ضريح الولـي سيدي أبو شعيفة، بقايا ما يظهر أنها قلعة صغيرة أو محطة تضم أسوارها الخارجية مساحة مربعة تقرب من مائة قدم تقوم بداخلها بقايا أسوار أخرى تقسمها إلى أجنحة أصغر. كما تقوم على الجانب الشمالي الغربـي بقايا قوالب أحجار يبلغ حجم الواحد منها قدمين مربعين يبدو استعمالها بمثابة دعائم لأقواس حاملة للسقف.

لا تشكل هذه البقايا اليوم شيئاً عدا كونها بقايا مخطط غير متكامل مقامة على أرض لا تبدو واضحة الارتفاع بجانب البحر مما يمكن معه للبحيرة الاتصال مع الخليج إلى الجنوب قليلاً من مقام الضريح. كما توجد إضافة إلى هذا آثار مخلفات المبنى غير بعيد عن هذا المكان، هذا إلى جانب ذلك الطريق الأرضي الذي يسير بجانب البحر، ومع ذلك فإن وجود منطقة الإنزال التي سبقت الإشارة إليها يجعلنا نميل إلى تبني مكانها كأفضل موضع لالتقاء بحيرة إسترابو هذه مع البحر.

أكد الدكتور ديلا إتشيلا، نقلاً عن إسترابو حسب قوله، بأن البحيرة التي سبقت الإشارة إليها، هي ذاتها التي حددها D'Anvitite وغيره من الجغرافيين المحدثين تحت اسم خليج زوكا Zuca أو Zucca غير مدركين بأن خليج زوكا هذا قد تم تحديده على اعتباره مجرى أو مسيلا لم يزد عرضه عن أربعة أميال في أي جزء منه، في الوقت الذي يزيد فيه عرض بحيرة إسترابو

عن ضعف هذه المسافة، وأنه أكثر من ذلك لا يحمل أي شبه مع اصطلاح الخليج عدا اتصاله بالبحر.

وهكذا فإن خليج زوكا، كما ذكر بذلك دانفيل، قد تم تحديده من قبل الجغرافي إسترابو فإنه علينا والحالة هكذا، النظر إليه في فقرة أخرى غير التي سبقت الإشارة إليها ونقل عنها السيد دانفيل، إذ تحدث إسترابو بالفعل عن بحيرة زوكيس Zuchis واتصالها بالبحر عن طريق مدخل ضيق.

إن تشابه اسمي زوكيس وزوكا إضافة إلى ضيق أو ضآلة عرض الثانية يدعونا إلى الوقوف بجانب رأينا علماً بأن مكان بحيرة زوكيس إنما يوجد في منطقة خليج سرت الصغرى Lesser Syrtis أو خليج قابس قرب المدينة التي تحمل نفس الاسم، وعزا إسترابو شهرتها إلى شهرة صبغتها الأرجوانية إلى جانب ما تنتجه من ملح مما يدعونا إلى القول بأن السيد دانفيل قد خلط بين ما جاء في فقرتي إسترابو وحدد البحرين المذكورين على أنهما بحيرة واحدة، مما يجعلنا في حل من هذه الإشارات المتضاربة، ويقف إلى جانبنا في تأكيد أن البحيرة الأولى زوكيس تختلف تماماً على خليج زوكا.

كما يمكننـا القول بكل تأكيد عدم وجود أي مسيل مائي في أي جزء من خليج سرت الكبير، يشبه خليج زوكا الأمر الذي يدعو إلى شطبه وإزالته من أي خارطة، اللهم إلا إذا نقل مكانه من خليج سرت الكبير إلى خليج قابس.

تبدأ هذه السبخة عند مصراته وتمتد باتجاه الجنوب من خط الساحل حتى قرب جيراف محتلة ساحة يقرب طولها من مائة وميل واحد، وعرض خمسة عشر ميلاً مع ميل واضح نحو التقلص حتى تتلاشى عند طرفها الجنوبـي.

كانت المياه تغمر جزءاً صغيراً فقط من هذه السبخة أثناء عبورنا لها، ومع ذلك فإن مخلفات الملح وبعض الترسبات الفيضية، إلى جانب العديد

من القواقع الصغيرة من فصيلة التروكاس Trockus التي تغطي السطح، تؤكد طغيان مياه البحر عليها في بعض الأحيان.

استمر مرافقونا في ترديد نصحهم لنا بالمحافظة على تقفي أثر الطريق تجنباً لخطر الغوص في تربتها المتحركة، كما هي عادة العرب في تهويل كل ما من شأنه إلحاق أي ضرر.

نعم فقد اتضح لنا أن إبرازهم لمثل هذه المخاطر هو في الواقع خدمة لأنفسهم وتجنبهم بالتالي ضرورة السهر علينا أثناء تحركاتنا، وهو ما لم نعره الاهتمام اللازم، إذ استمرت تحركاتنا حسبما تقتضيه واجباتنا الممثلة في دراسة الساحل أو المناطق القريبة منه، مع أخذنا كامل الحيطة في اختيار الجهات التي نرى صلاحيتها للتحرك فوقها.

ومع غوص أقدام خيولنا في بعض الأحيان عند تهشم الطبقات السطحية، وظهور بعض الحفر المليئة بالمياه على أعماق مختلفة، إلاَّ أن أحداً منا لم يصب بسوء لضآلة أحجام هذه الحفر، الأمر الذي دعانا لمواصلة اجتيازها في المناطق التي تبدو صالحة لذلك حتى تأكد لدينا أن تهويل الأمر لا يعدو أن يكون مزيجاً بين الحقيقة والمبالغة، واضطرارنا بالتالي إلى أخذ مزيد من الحيطة واليقظة.

تبدو العديد من المناطق المنعزلة المكونة أساساً من التراب والرمل ظاهرة للعيان في أجزاء مختلفة من السبخة حيث باتت تعرف بأسماء محددة مع الإشارة إلى أن الطريق الذي نسلكه إذا أمكن تسميته طريقاً، يلف على حواف هذه الجزر الصغيرة، أو يخترقها إذا دعت الضرورات الأمنية إلى ذلك، كما هو الحال مع أولى تلك الجهات بعد ترك مصراته ممثلة في واحة تاورغاء الواقعة بعيداً عن مسار ذلك الطريق بما يقرب من ثمانية أميال عن الساحل حيث تقوم قرية صغيرة تحيط بها غابة من أشجار النخيل.

يلي تاورغاء جنوباً مكان صغير معزول هو الآخر، يعرف بوادي حلفا

حيث تظهر بعض أشجار النخيل التي لا يمكن رؤيتها من ساحل البحر، مع القول بأن سطح السبخة في اتجاه هذه المراكز الصغيرة يمثل رقعة مسقوفة على امتداد البصر، ولكن لا أثر لأي نبات فيها بسبب تكويناتها الملحية.

وبمواصلة السفر على الطريق المحاذية للساحل، تبدو أول أرض لها ما يميزها من الارتفاع في الظهور عند ملفا بعد المرور بآرار حيث يوجد ضريح آيل للسقوط وبعض الرقع العشبية التي يتغذى عليها بعض الماعز الهزيل.

تأتي قرية سولب بعد ترك هذا المكان ممثلة للحد الجنوبي لهذه السبخة حسب تلك الأبعاد التي ذكرها الجغرافي إسترابو، مما يسمح بنمو بعض الأعشاب التي ترعاها قطعان الضأن والماعز المملوكة لعدد من شيوخ المنطقة، ويقوم برعايتها عدد من الرعاة الزنوج المقيمين في عدد من الخيام المتناثرة.

مثل ظهور الأعشاب رغم قلة انتشارها، مظهراً محبباً بعد اجتياز تلك الأراضي المنبسطة الجرداء، إذ كان لونها مع فارق المقارنة بمثابة الوصول إلى سهل سالسبيري، أو منطقة يورك، خاصة بعد تمكننا من الحصول على بعض اللَّبن الذي أعاد مطابقة هذه المقارنة، خاصة وأن المياه تنعم بمرارة فائقة ورائحة نافذة، وأكثر من هذا وفر لنا شراء خروف حاجتنا من اللحم الذي لم نذق له طعماً منذ مغادرة مصراته.

بدا لنا وكأننا في دوامة ونحن نتطلع إلى بخار الطعام يدخل خيمتنا رفقة الشيخ الضبع كإشارة منه إلى سخاء وكرم العرب، ولو أننا سرعان ما عرفنا بأن قرية سولب تمثل الحد الشمالي لمنطقة سرت ودخلنا بذلك المنطقة الخاضعة لإشرافه، ورأى فيها مناسبة لاطلاعنا بهذا الأمر، وإظهار صداقته إلى جانب بيان أهميته كرجل نافذ السلطان ويملك صلاحيات التصرف والحكم.

دخلنا بعد مغادرة سولب، التي تظهرها الخرائط الحديثة مكان خليج زوكا، إلى أرض سبخية مرة أخرى حتى الوصول إلى منطقة المهاد Mahad التي يبلغ ارتفاعها قرابة خمسين قدماً فوق منسوب السبخة والممتدة باتجاه البحر عند نتوءات صخرية فجائية الانحدار نحو الداخل.

لاحظنا قرب هذا المكان تلك المخلفات الأثرية التي وصفها ديلا إتشيلا كمخلفات قصر قديم فوق أرض مرتفعة محاطة بسبخة خطرة ولا يمكن بلوغها إلا بالدوران حول حواف الحفر العديدة المحيطة بها.

يعرف مثل هذا المبنى تحت كلمة القصر، وهي كلمة أو اصطلاح يكن لها أهل سرت مهابة خاصة، فهذا القصر بالذات ينسب إلى ابن ولي مشهور يدعى بن جحا Jebka روى لنا الشيخ الضبع عنه القصة التالية ومفادها نيل والده الولي احترام الجميع وبالذات في منطقته الأصلية التي ورث فيها بجانب الجاه الثروة التي تركها باسمه أهالي سولب منذ نحو ثلاثمائة عام، إضافة إلى ذلك الحق المكتسب بالإعفاء من الضرائب أو أية مستحقات أخرى للدولة الأمر الذي ما يزال معترفاً به من باشا طرابلس.

ظهرت للابن المشار إليه جدوى إقامة اتصال بين طرفي السبخة محدداً موضع هذا القصر كأفضل مكان لإقامة ذلك الاتصال الذي أخبر أصدقاءه برغبته في تنفيذه، ومن ثم الشروع في بدء عملية استقرارهم فوق هذه الربوة، الأمر الذي سرعان ما علم بـه أهل تاورغاء الذين دفعهم الخوف من إقامة ذلك المستقر الجديد المقرون بالحسد والغيرة إلى العزم على تدميره والقضاء على الابن ورفاقه في جنح الظلام، الأمر الذي دفع بعشيرته من أهل السيدة عائشة Esha إلى إقامة هذا القصر ودفنه فيه كذكرى تحمل اسمه إن صحت تسميته بنصب تذكاري، رغم أنه لا يزيد عن مبنى خشن الصنعة ولا يزيد طوله على عشرين قدماً وعرض خمسة أقدام، وباتت أجزاؤه الخارجية تبدو وكأنها كومة من الأنقاض.

رفض الحارس محمود، أحد أتباع الشيخ الضبع، قبل بلوغنا هذا المكان بيومين مرافقتنا عبر السبخة أول الأمر حيث تراجع بعد شعوره بقطع أجرته، هذا العقاب الذي يخشاه جميع العرب، شريطة السماح له بترك جواده رفقة الإبل واستعمال أحد جيادنا.

تقدمنا نحن، بعد هذا الاتفاق، بعد إعلامه باللحاق بنا غير أنه تعمد التباطؤ فيما يبدو حتى أوشكنا على التواري، حين امتطى الجواد البديل وبسرعة أخذ طريقاً أخرى مكنته من مقابلتنا بمجرد وصولنا إلى نهاية السبخة ودخول الأرض الفعلية.

أخذ الرجل في إبداء مختلف الأعذار عندما بدأنا نحط الرحال ونستعد لقضاء الليل، معلناً كعربي أصيل، بأنه مستعد للتضحية بزوجته في سبيلنا، أما جواده الذي يعتبره بمثابة صديقه ورفيقه، فهو على غير استعداد لفقدانه في هذه السبخة وبالذات في ذات الاتجاه الذي سلكناه نحن.

كما أضاف بأن سلامته الشخصية لا تعني شيئاً مقابل أدائه وظيفته، إلى جانب أن حرصه على سلامة ممتلكاتنا هو الذي منعه من تغيير خط سيره في محاولة منه للحفاظ على سلامة جوادنا.

شعر الرجل بأن ما ادعاه لم يجد صدى لدينا، وهو ما اضطره للقسم باسم الرسول ليكون شاهداً على صدقه، فنجاتنا تمثل أعجوبة بالفعل، وأن العناية الإلٰهية وحدها التي مكنتنا من بلوغ مكاننا هذا.

لم نجد ما نقوله سوى إعلامه بنفس حجته الدينية التي تقر بأن ما هو مكتوب لا سبيل للحيلولة دونه، في ذات الوقت الذي أعلنا فيه بأن خطورة السبخة ليست بالصورة التي قال بها، وأن بالإمكان اجتيازها في معظم الاتجاهات دونما حاجة ماسة لحماية العناية الإلهية كما يدعي. هز الرجل رأسه وكأنه لا يصدق، ودونما أن يضيف شيئاً سوى إحساسنا بشعوره بأننا في منتهى الشدة وأننا غير عقلاء لرفضنا ولأكثر من مرة اتباع نصائحه.

يعطي تكرار النجاح دوماً المزيد من الثقة ولو في ظل الخطر المحدق، ولهذا فلا عجب إذا ما حاولنا مراراً اجتياز السبخة اعتقاداً منا بضآلة الخطر أمامنا، ولو أن الحادث الذي تعرضنا له أقنعنا بأن قدراً من الحرص لا بد منه في مثل هذه الحالات، وهو ما دعانا إلى الدهشة، فيما بعد، في عدد حالات الخطر التي اجتزناها فحسب وإنما لرغبتنا في تكرار عملية الاجتياز حتى لاحظنا الخطر الحقيقي الذي كشفته طبيعة السبخة لنا.

إن تكرار محاولات المرشدين إعفاء أنفسهم من القيام بالخدمات أو المهام الخطرة، أهلنا لحجب الثقة عنهم في جميع المجالات، وإلى تجاهل الخطر لا لسبب سوى لأنهم أخبرونا بها، فالعرب لا يهتمون كثيراً بالحقيقة، خاصة إذا كانت تتعارض مع مصالحهم، أو راحتهم حيث يكونون دوماً على استعداد لقول مخالف، ولذلك فمن الصعب حتى على الذين يعرفونهم جيداً، القول بما إذا كانوا صادقين ومخلصين فيما يقولونه.

إن امتلاك إحساس على هذا النحو سينجم عنه أحد أمرين يتمثل أولهما في أن أولائك الذين يثقون ثقة مطلقة في إخلاص العرب إنما يخدعون أنفسهم، أما الثاني فيتمثل في أولائك الذين لا يثقون البته فسيجدون أنفسهم مضطرين أحياناً لو أنهم ما كانوا عنيدين إلى هذا الحد.

كان اثنان من الرفاق يشقون طريقهم عبر السبخة، بعد ثلاثة أيام من الحديث المشار إليه، باتجاه ما بدا أنه مبنى قديم، حين انشقت الأرض تحت أقدام الجواد الأول، وظهرت حفرة يصل عمقها إلى قرابة اثني عشر قدماً يعلوها بعض الماء.

شعر الجواد، وهو يسير بسرعة، بالخطر الذي دفعه إلى القفز بقوة بدافع إحساسه بالخطر، وتمكن بذلك من إنقاذ ننفسه وراكبه من الهلاك المحقق لاستحالة إنقاذ أي منهما إذ سرعان ما تكونت فتحة واسعة تمكن الراكب الثاني من سرعة ملاحظتها وتجنب الوقوع فيها بالتالي الأمر الذي

اضطر معه الفارسان إلى النزول والسير بجواديهما حتى بلوغ أرضية أكثر صلابة بعد الكثير من العناء والمشقة.

لم نخبر المرشدين بشيء عن هذا الموضوع الذي عمل على اقناعنا بأن إدراكهم لطبيعة السبخة ليس مجرداً من الحقيقة والدافع، ودعانا بالتالي إلى أخذ الحيطة والنزول من على جيادنا عند أية نقطة يمكن اعتبارها خطرة، فقد تبين لنا عند الفحص أن العديد من الحفر ذات أعماق واضحة وفي جهات متفرقة، وأن الطبقة السطحية المكونة من الملح والوحل قد لا يتعدى سمكها البوصتين وبالذات في الأجزاء التي تبدو منبسطة مع العلم بأن مثل هذه الطبقات السطحية تبدو وكأنها واحدة في أي مكان مما يستحيل معه تحديد أماكن وجود مثل هذه الطبقات القليلة السمك اللهم إلا إذا تعرضت للكسر والتهشيم.

ومع أن طعم مياه مثل هذه الحفر يميل إلى الملوحة الواضحة إلا أنها صافية وعميقة في بعض الأماكن إذ يتراوح عمقها في أغلب الأحيان، ما بين اثني عشر إلى خمسة عشر قدماً علماً بأن مثل هذه الحفر قد يزداد عددها في بعض الجهات عنها في مناطق أخرى، كما هو الحال في المنطقة القريبة من منطقة القصور هذه حيث تنمو بعض الأعشاب حول معظم هذه الحفر مما يتعذر معها رؤيتها مع بداية حلول الظلام ويزيد بالتالي من صعوبة وسرعة الحركة ويحتم في نفس الوقت السير فوق تلك المسالك الضيقة التي أبت خيولنا، لحدة بصرها، التخلي عنها والمشي فوق أرض السبخة ذاتها، وأدى بالتالي إلى زيادة المسافة اللازمة للوصول إلى منطقة القصور بما لا يقل عن أربعة أمثال مسافة الطريق المستقيم.

عثرنا على العديد من حطام المراكب الذي عملت الأمواج القوية على إلقائه على شاطىء البحر المحاور لملفا، ولدهشتنا وجدنا قطعة من الرخام منصوبة قرب الساحل مدون عليها النص التالي الذي يبدو أنه من فعل بحارة:

LA GAZOIR DU ROI

LA CHEVERTTE

1821

LAT. 31^0 35, LON. 13^0 18

السفينة شيفيرت، التي غادرت ميناء طرابلس بضعة أشهر خلت قصد مسح خليج سرت الكبير، فقد طرق سمعنا مؤخراً أن إحدى المراكب المرافقة لهذه السفينة كانت بجانب السفينة الأم.

كان علينا لمقارنة صحة الإحداثيات المدونة على قطعة الرخام التي قام الربان جواتير Gautier قائد هذه السفينة، قياس قاعدة في نفس المكان والقيام بباقي الإجراءات بما فيها موضع القصور القريبة حيث تمت مطابقة النتيجة لما هو مدون فعلاً.

كما لاحظنا بعد مسيرة عدة أميال قطعة قائمة من الخشب على الساحل أظهر تفحصها وجود جملة باللغة الإنجليزية تقر برسو سفينة جلالة الملك أدفنتشر Adventure، على بعد ثمانية عشر ميلاً شمال هذه البقعة يوم الرابع والعشرين من شهر أكتوبر.

بدا واضحاً أن قطعة الخشب هذه قد تم تركها في هذا المكان من قبل الزورق الخاص بربان السفينة Smith الذي كلفه السيد ألسن Elson بقيادة هذا الزورق إلى أخر حد يمكن أن يصل إليه، وهو ما أدخل السرور على نفوسنا ونحن نلاحظ بعض مخلفات أبناء عمومتنا، ودفعنا إلى البحث عن أخرى قد يقود إلى كشف المزيد من المعلومات ولكن دون طائل والابتسامة تعلو وجوهنا ونحن ننظر إلى قطعة الخشب التي أحيت فضولنا بشكل ملفت للنظر.

نصبنا خيامنا هذه الليلة في منطقة الجريد المكونة من عدد من هضاب الحجر الرملي العارية مقابل جزء من الساحل يبدو أكثر اضطراباً لارتفاع

بعض أجزاء قاعة عن الجهات المحيطة بها، وهو ما دفعنا للتفكير في البقاء يوماً آخر لرصد هذه الأرصفة وتحديد اتجاهاتها بدقة على الخريطة، إلا أن إدراكنا أن إقامتنـا القصيرة ستعني في الواقع بقاءنا أربعة أيام كاملة بدون ماء لشرب خيولنا وهو ما حدا بنا إلى مواصلة السير بمحاذاة حفيص سلسلة الهضاب التي ظهر خلفها امتداد السبخة الكبيرة التي باتت أكثر ضيقاً حتى بلوغنا مهاد حسان، القرية الصغيرة القائمة وسط السبخة المكونة من بعض التلال المغطاة جزئياً ببعض الكلأ، إضافة إلى بعض أشجار الزيتون البرية، وبقايا بعض المباني المبعثرة.

بدت مهاد حسان كأول مكان بعد ذلك الجزء الطويل من السبخة، يمكن اعتماده كمكان أثري إذ تتكون بقايا مبانيه من عدد من المباني المربعة شبيهة بتلك القلاع التي يمكن مشاهدتها على طول الطريق بدءاً من هذا المكان حتـى مدينة درنة، وبما أن وضع هذه المنشآت في حالة من السوء فإن تحديد غرض إقامتها يبدو أمراً غير هين، فتواجدها بهذا العدد الكبير إلى جانب قربها الواضح من بعضها البعض ينفي غرض إقامتها كقلاع رغم مشابهتها لها في الهيئة، إضافة إلى أن تصميمها لا يجعل منها بيوتاً للسكن، إلا إذا افترضنا ضرورة إقامة قصر مستقل لكل عائلة على حدة.

تحتل هذه الإنشاءات الصغيرة المناطق السهلية إلى جانب الأراضي المرتفعة القريبة، وتتراوح مساحاتها ما بين خمسين إلى مائة متر مربع، أما ارتفاعها، فيستحيل تحديده لسقوطها وتحولها إلى أنقاض استخدم المواطنون بعضها في بناء الأضرحة ومساكنهم الخاصة، في حين كست الباقي منها ما لا يحصى من الأعشاب، والشجيرات التي قد يصل ارتفاع بعضها إلى أكثر من عشرة أقدام. هذا بالإضافة إلى بعض الآبار التي يمكن العثور عليها، إذ علمنا بإمكان الحصول على المياه الجيدة من واحد منها.

تطلعنا بشغف للحصول على ماء مستساغ، هذه النعمة التي لم ننعم بها

منذ مغادرتنا لأرار فمياه السبخة تجمع بين الملوحة والرائحة النافذة، غير أن أملنا تبخر بسرعـة فقد أتى مرافقنا العربـي الذي ترك الركب ومن كان معه على آخر قطرة منها.

وجدنا خيمة حصلنا من صاحبتها العجوز المقيمة مع ولديها على بعض اللبـن وبالمناسبة لم نقابل أحداً من بنـي البشر غير هؤلاء منذ مغادرة سويلب.

تنتهي السبخة بعد ستة عشر ميلاً جنوبـي مهاد حسّان عند جيراف Giraff التي بلغناها ليلة الحادي عشر، وأقمنا خيامنا قرب بعض التلال الرملية المحاذية لأرض سهلية مغطاة بشجيرات تمتد إلى حيث ينتهي البصر معطية الانطباع بظهور نوع من الحياة البشرية.

كانت رحلتنا عبر السبخة مملة إلى أبعد الحدود، فالمناظر واحدة، ولا أثر لصوت يسمع عدا أصوات مرافقينا وأغانيهم المملة التي لا ينفكون عن ترديدها دونما تغيير في نبراتها، إلى جانب صوت الشيخ الضبع وهو يؤدي الصلاة ليلاً والتي لا تختلف كثيراً عن أصوات الضباع الفعلية التي كثيراً ما تمتزج أصواتها بأصوات ابن آوى قرب خيامنا.

قضينا ليلة مريحة على أمل التقدم مبكراً صباح اليوم اللاحق إلا أننا نفاجأ برفض أصحاب الإبل التحرك في الوقت المحدد بحجة ضرورة استلام أجورهم مقدماً كل يوم.

لم يكن في اتفاقنا مع شيخ مصراته شيء من هذا القبيل، وهو ما دعانا إلى الإصرار على رفض هذا الطلب الذي أسيء توقيته، فقد أدركنا مسبقاً سوء السياسة والحكمة أيضاً من دفع مستحقات العرب مقدماً لأن ذلك يعني في الواقع البقاء تحت رحمة الأقدار إلى جانب ضبط تصرفاتهم، علماً بأن ما يطالبون به حتى مع افتراض سبغهم عليه مسحة مجاملة، ما كان لنا القبول به بتاتاً.

كان رفضنا قاطعاً في هذه الحالة مؤكدين بالتزامنا بتنفيذ العهد الذي يتحتم عليهم الإيفاء به، وأكثر من هذا تصميمنا على مواصلة الرحلة وقيامنا بتحميل الجمال بأنفسنا مهما كان الأمر.

لم يتكلم أحد منهم كما لم يؤدوا واجباتهم أيضاً، وأخذوا يتجمعون فوق مرتفع قريب حيث تبعهم جميع رجال الشيخ الضبع، وبدأوا وكأنهم يعدون بنادقهم التي كانت معدة أصلاً. لم نهتم كثيراً بالأمر سوى البدء في إعداد أسلحتنا وإسراعنا لتحميل الجمال حين أتى جندي الباشا والشيخ الضبع لمساعدتنا وحثنا على تلبية طلب هؤلاء المعوزين.

كان ردنا بالنفي بل ووجهنا إليه تهمة تخاذله ووقوفه موقف المتفرج فقد تبين لنا في ذات الوقت مقدار الاعتماد الذي يمكن الركون إليه مع هذا الشيخ ورفاقه الأمر الذي سرنا تبينه قبل مجابهة ما لا تحمد عقباه، فقد كنا على يقين أن العرب لا ينتبهون عادة إلى نقطة اللاَّعودة، وبما أن جماعتنا كانت قوية ومستعدة هي الأخرى وبإمكانها الاعتماد على نفسها، فقد استقر رأينا على الإصرار على تنفيذ ما عزمنا عليه، إذ بمجرد الانتهاء من تحميل الإبل والاستعداد للتحرك حتى أخذ حماس وإصرار الطرف الثاني على التراجع ذلك أن من عادة العرب أيضاً، التراجع عندما يكتشفون تعارض الأمور مع مصالحهم الخاصة، وهو ما تم بالفعل إذ لحق بنا الجميع بمجرد الانطلاق حيث أخذوا يمارسون ما اعتادوا عليه من واجبات.

بلغنا بعد قليل من مغادرة جيراف مسيلاً أو وادياً صغيراً يعرف بجبيبة Ghebaiba تنمو على حافتيه بعض الأعشاب التي لا أثر لوجودها في كامل المنطقة المجاورة، إضافة إلى آثار خربة فوق أرض مرتفعة لا يمكن تقصي هيئتها.

بدأت ملامح أرض المنطقة بعد جيراف في التغير وبات منظر السهل يعكس انطباعاً يلقى القبول خلافاً لتلك الرقعة السهلية الواسعة والقاحلة التي

تشغلها السبخة خلافاً لهذه المنطقة المموجة التي تكسوها الأعشاب، وتظهر بها بعض قطعان الضأن والماعز إلى جانب خيمة هنا وأخرى هناك.

أما أكثر ما يضفي على النفس الشعور الكامل بالراحة، فيتمثل في آبار المياه العذبة، ففي منطقة الزعفران كان هناك أحد هذه الآبار حيث أقمنا خيامنا للمبيت بعد أن شربنا منها ما أنسانا طعم تلك المياه التي لولا الضرورة لما ذاق طعمها أحد.

كانت البئر عميقة، ومع ذلك سحبنا منها ما يكفي حاجة الجميع بما في ذلك خيولنا وجميع الإبل التي لم تنل حاجتها منها منذ مغادرة مصراته، وأكثر من ذلك لم تحصل على شيء خلال الأيام الأربعة الماضية بحكم ضآلة المياه المتوفرة رغم رداءتها[1].

يتحتم علينا النظر، في هذه المنطقة، إلى مركز أسبيس Aspis الذي حدده الجغرافي إسترابو، بعد انتهاء السبخة، واصفاً إياه كأفضل ميناء في كامل منطقة سرت.

إن أول منطقة أثرية يصادفها المرء بعد سولب، حيث ينتهي أكبر أطراف هذه السبخة، تتمثل فيما أشير إليه من مبان قديمة، تليها تلك الموجودة عند الزعفران المميزة بأهميتها النسبية وموقعها المناسب إذ تقع مباشرة بعد جيراف Giraff، عند نهاية السبخة في منطقة تكسوها المراعي، وتتوفر بها المياه العذبة، فالزعفران كانت فيما يبدو محطة عسكرية تتميز بطبيعة مبانيها المربعة الشكل والمنتشرة في جميع الجهات بدءاً من سولب حتى بنغازي.

تأخذ تلك المباني المبعثرة بدءاً من الزعفران مظهر القلاع المنتظمة في توزيعها مما يجيز القول بأنها بداية سلسلة من المحطات العسكرية المنتشرة

---

(1) تستطيع الإبل البقاء بدون شرب مدة لا تتجاوز عشرة أيام، غير أن علامات الإرهاق والضجر تأخذ في التأثير على سلوكها بعد انتهاء الأيام الثلاثة الأولى.

في كامل منطقة برقة وبالذات في المناطق الأكثر ارتفاعاً مما حولها ولو أن عدداً قليلاً منها موجود بالفعل في المناطق السهلية، هذا بالإضافة إلى قربها النسبي من بعضها حتى يمكن التعرف على ما يجري من حولها، فقد اتخذ الأقدمون جميع الوسائل التي تمكنهم من حماية الأماكن التي توفر المرعى والماء، إضافة إلى تسهيل مهام تحرك الجند لصد القبائل القريبة ومنعها من الإقامة والاستقرار بمثل نقاط الجذب هذه.

إن الأخذ بالمقطع الأول فيما جاء في كتابات الجغرافي بطليموس وتحديده لأول مكان يلي السبخة، يعني، لوجود بقايا بعض الآثار، موضع مهاد حسَّان غير أن إضافة المقطع الثاني الذي ربط وصفه بصفة ميناء لا يترك مجالاً سوى للإقرار بأن ذلك المكان هو ما يعرف الآن بمرسى الزعفران، علماً بأن موضع أسبس Aspis، كما حدده الجغرافي بطليموس على الحافة الغربية لخليج سرت لا يتفق مع ما جاء على لسان إسترابو الذي يبدو أكثر دقة في هذا الموضوع.

يعتبر مرسى الزعفران أول مرفأ يصادفه المسافر باتجاه الشرق بعد انتهاء السبخة حيث يمكن اعتبار بقايا المباني القائمة على الشاطىء علامة على استخدام الأقدمين له لأداء مهمة الميناء الذي قاموا بتطويره دونما تدخل من الطبيعة، علماً بأن المظهر الحالي لهذا الموضع لا يسمح له ولا يؤهله ليكون لا مركزاً عمرانياً ولا ميناء أيضاً.

صحيح أن ساحل سرت لم تؤهله الطبيعة لخلق موانىء يعتد بها غير أن هذا لا ينفي وجود مرافىء فاقت أهميتها مرفأ الزعفران هذا. ومع ذلك علينا التذكير بأن المساحة اللازمة لإيواء واستقبال سفن الأقدمين، تختلف عن حاجة السفن التي نعرفها لا من حيث المساحة والحجم فقط، وإنما من حيث عمق غاطسها أيضاً، إضافة إلى أن مرسى الزعفران كما يبدو حالياً هو في الواقع أصغر بكثير عما كان عليه، كما هو الحال أيضاً مع مرفأ لبدة الذي

أوشك على الاختفاء بحكم تراكم الرمال به هو الآخر، مما يبيح القول بإمكانية قيام كليهما بتوفير ملجأ آمن لسفن تلك الفترة.

أقيمت مخلفات المباني قرب الشاطىء باستعمال أحجار أكبر من تلك المستعملة في منطقة سرت، وفي هذا ما يدل على أنها بنيت باستعمال وسائل مختلفة راعت جانب الدقة، إلى جانب ضخامتها النسبية، علماً بأن بقايا المباني وقطع الفخار تظهر في العديد من المناطق شرقي المرسي ولمسافة تقرب من ميل.

حال ضيق الوقت وقلة الإمكانيات دون الإقامة عدة أيام للتنقيب في مرسي الزعفران الذي عزمنا على البقاء به بعض الوقت، ونحن في طريق العودة لاحتمال تحقيق نتائج مرضية، فهذا المرسي يبدو وكأنه كان فعلاً بمثابة الميناء عند الأقدمين، ذلك أن موضعه يأتي مباشرة بعد انتهاء السبخة ويتطابق بالتالي مع ما أشار إليه إسترابو بميناء أسبس التي تشكل بقايا القلعة عند الزعفران ما بقي من مخلفات ذلك المركز العمراني.

يتبين أن إقامة أي مركز أو مستوطنة ذات بال في منطقة سرت قد روعيت في اختياره بجانب مراعاة المميزات المحلية ضرورة إقامة نوع ما من وسائل الدفاع لردع من يحاول النيل منه، وهو ما تظهره تلك القلاع التي حددت مواضعها في أقرب المناطق المرتفعة لضمان إشرافها على الجهات التي يحتمل وقوع الخطر عن طريقها الأمر الذي لا بد من تجنبه، إلى جانب أدائها نفس الوظيفة فيما يخص سلامة طرق المواصلات بين هذه المراكز المتناثرة في كامل المنطقة.

يصعب تحديد زمن معين لإقامة مثل هذه المباني، ومع ذلك يمكن القول بثقة بأن أغلبها قد شيدت من قبل الرومان وبالذات في تلك الفترات التي تمكن أباطرتها، في فترات مختلفة، من إخضاع كامل منطقة الساحل الإفريقي الشمالية للهيمنة الرومانية، حتى يضمنوا أمن وسلامة حركة الانتقال

الواسعة على هذه الطرق، إلى جانب توفير قدر من الحماية لطرق النقل على المناطق الداخلية.

تشبه هيئة هذه المباني المربعة الشكل ذلك النمط الذي اعتمده الرومان في إنشاء ما أقدموا على تشييده من مثل هذه المحطات وغيرها من المعسكرات، ذلك أن العدد المحدود من القوات التي دأب الرومان على توفيرها لحماية ممتلكاتهم الإفريقية، فرض عليهم ضرورة حماية تلك القوات الصغيرة نسبياً حماية جيدة، فقد أظهرت الدراسات الاستراتيجية أن إقامة مثل هذه المعسكرات الرومانية، المربعة الشكل بطول سبعمائة ياردة للضلع الواحد، تكفي لعسكرة وإيواء عشرين ألف مقاتل، في حين يوفر المعسكر الذي لا يزيد طول ضلعه عن ثلاثين ياردة، إقامة مريحة لنحو تسعمائة وخمسين جندياً، وهو الحجم السائد في أغلب هذه القلاع العسكرية باستثناء القليل منها، التـي لا يقل طول أي من أضلاعها على ستين ياردة.

أدت الظروف الطبيعية القاسية إلى ضرورة تخصيص أجزاء من هذه القلاع إلى مخازن للتموين، وهو ما يجيز القول بأن طاقة استيعاب معظمها لا تزيد فعلياً عن مائتين وخمسين جندياً، وأن جزءاً منها قد تمت إقامته حسب أغلب الظن، زمن حكم الإمبراطور جوستينيان حين مكنت انتصارات القائدين بليسابيوس وسولمن Solomon من عودة سلطة الرومان إلى هذه المنطقة، مما يعني بالتالي ضرورة إقامة مثل هذه المنشآت العسكرية لتوالي استمرار جني المكاسب السابقة.

عانى جيش ماركوس كاتو Marcus Cato الأمرَّين من الفاقة أثناء عبوره منطقة سرت مما يشير إلى أن مثل هذه القلاع لم تكن قد أخذت طريقها إلى الظهور بعد، الأمر الذي عمق من مآسي مثل هذه التحركات الجماعية التي تنبّه إلى ما تجره من مخاطر كل من الامبراطورين أوجوستس Augustus، وهادريان Hadrian اللذين أوليا اهتماماً خاصاً لإنشاء مثل هذه القلاع.

أخذت الاتصالات البرية تأخذ طابع الانتظام والاستمرارية، بين أطراف الإمبراطورية الرومانية خلال حكم الإمبراطورين المذكورين، وفي هذا الخصوص أضحى الاتصال بين الأطراف الغربية والشرقية للساحل الإفريقي أكثر وضوحاً عما كان عليه زمن حكم الإغريق والقرطاجيين لهذين الإقليمين.

كانت القبائل الليبية العديدة التي تقطن الساحل دوماً على خلاف مع الغزاة الأجانب، وعلى أتم استعداد أيضاً لاغتنام أية فرصة لإقلاق راحتهم، ومع تأكيد القول بضآلة أهمية المنطقة اقتصادياً للوافدين من جهات أوفر حظاً في مواردها، إلا أنها، رغم ذلك، تضم بعض جهات الجذب للسكان الرحل على أطرافها الجنوبية الذين يجدون في مائها العذب رغم قلته، وتلك الرقع القليلة المبعثرة بما فيها من كلأ محدود مميزات تظل تحظى ببالغ اهتمام قوم قلما تتاح لهم فرصة العثور على أي من هاتين الميزتين المغريتين.

مثلت مثل هذه التحصينات الحربية الرومانية، نقاط دفاع فعالة ضد هجمات القبائل المحلية التي يعوزها الاستعداد والمهارة، إضافة إلى ملاءمتها لإيواء مجموعات قديرة من الجند، بدل المعسكرات التقليدية الباهظة التكاليف، الذين باستطاعتهم حراسة وتوفير قدر هام من المياه، إلى جانب السهر على مخازن التموين موفرين بذلك ضرورات حركة الانتقال والوصل بين جهات البلاد المختلفة.

إن ما أشير إليه لا يدفعنا إلى الإقرار بأن مثل هذه المنشآت العسكرية لم يكن لها سابق وجود في منطقة سرت قبل حكم الرومان لها، إذ عرف السكان المحليون استعمال مثل هذه القصور قبل وقت طويل لمجيء الرومان، مما يشرح أن إقامة مثل هذه المنشآت على بعض جهات الساحل لا ينفي القول بإمكانية معرفتها في منطقة سرت أيضاً، وأكثر من هذا ظلت الكثير من تلك المنشآت على ما يبدو في حالة جيدة لفترة طويلة بعد الفتح

العربـي، إذ كثيراً ما أشار الكتاب العرب إلى استعمالها من قبل السكان الوطنيين هذا في الوقت الذي لا تزال العديد من تلك الآبار قائمة حتى الآن، وبالذات في تلك المناطق التي يمنع استعمالها بدون إذن من حاميتها العسكرية.

تحدث الجغرافي حسن الوزان، في إشارة إلى ما سبق الحديث عنه عن العثور صدفة على ثلاثة قصور داخل صحراء ليبيا في روايته التالية التي حدد زمانها بثمانية عشر عاماً سبقت تدوين هذه القصة التي جاء فيها: فقد مرشد إحدى القوافل طريقه نتيجة مرض نال من عينه وليس معه من يتولى تقفي الطريق الصحيح، وهو ما دفعه إلى مواصلة الرحلة راكباً جمله متقدماً القافلة صحبة بعض الأتباع الذين عليهم تزويده بحفنة من الرمل لشمها بين حين وآخر، وهو يواصل تقدمه حتى مسافة أربعين ميلاً من تلك القصور حيث توقف الركب للراحة.

تحدث المرشد الملقب بجمّار إلى الجميع مؤكداً لهم أنهم على وشك بلوغ مستوطنة، الأمر الذي لم يعبأ بتصديقه جل مرافقيه الذين اعتقدوا بأنهم لا يزالون بعيدين بما يقرب من خمسمائة ميل من مصر، وأنهم أكثر من ذلك يسيرون في الاتجاه المضاد لواحة أوجلة.

مرت ثلاثة أيام على حديث المرشد لهم، أتوا بعدها إلى مكان تلك المستوطنة ممثلاً في تلك القصور الثلاثة التي أصاب الهلع والمفاجأة أصحابها من وصول هؤلاء الغرباء مما دفعهم إلى التقهقر وحماية أنفسهم داخل قصورهم التي أحكموا إغلاقها بعد أن رفضوا تزويد القافلة بحاجتها من المياه التي لا أثر لها خارج سور حصونهم هذه.

لم يجد الوافدون مخرجاً لظروفهم السيئة بداً من اقتحام هذه الحصون عنوة للتزود بالماء الذي يعني الفشل في الحصول عليه، تعرض القافلة بكاملها للموت عطشاً في تلك القفار، وهو ما نجحوا في تحقيقه وهيأوا لأنفسهم السبيل لمواصلة الرحيل.

عثرنا في العديد من القلاع التي زرناها في منطقة سرت على بئر أو أكثر لا تزال آثارها بادية للعيان، ولو أن معظمها مملوء بالوحل والرمال، أو بمخلفات المباني المنهارة، كما عثرنا في بعض الحالات على آبار خارج المناطق المحصنة ولو أنها تظل في حدود مرمى حراس المقاليع ورماة السهام الذين يحرسون أسوار هذه القلاع، وهنا علينا الإشارة إلى أن وجود مثل هذه الآبار الخارجية لا يعني بالضرورة عدم توفرها داخل الأسوار رغم عدم العثور عليها في الوقت الحاضر، ذلك أن مرور قرن واحد سيكون أكثر من كاف للقضاء على أي أثر لها.

أما بخصوص تشييد مثل هذه الحصون أو القلاع فعلينا ملاحظة أن الأجزاء المخصصة للإقامة في بعضها على الأقل، يأخذ دائماً شكل المربع في جزئها الأوسط، وأنها محاطة بسورين متينين تترك بينهما مساحة تتراوح ما بين عشرة وثلاثين قدماً حيث توجد الآبار في بعض الأحيان، إضافة إلى استعمالها لحفظ الخيول والضأن والماشية أيضاً.

أما في بعض الحالات الأخرى فقد أقيمت هذه القلاع كوحدة واحدة قوية البنيان مع ميل أطرافها الخارجية فيما يشبه قاعدة الأهرامات، مع ترك مساحة مربعة في مركزها لسكنى الجنود ومخازن التموين، مع القول بأن أسطح هذه المنشآت كانت غالباً تأخذ شكل المنحدر، إضافة إلى إقامة خنادق من حولها.

شيدت جميع هذه القلاع باستعمال الحجارة المتوفرة وبدون استعمال للإسمنت في أغلب الأحوال، وبالذات في تلك التي تتميز أسطحها بالانحدار الذي يعيق تسلقها، أما في حالة القلاع الرئيسة فإن الحجارة يغلب عليها الحجم الكبير مع انتظام أشكالها عكس الحال مع القلاع الأقل أهمية إذ لا تحظى أحجار بنائها بما يلفت النظر سوى أن أسطحها مائلة وكما هو الحال مع أغلب الحالات، تبدو ملساء وناعمة مما يعيق تسلقها هي الأخرى.

إن الافتراض بأن أغلب هذه القلاع قد أنشئت فعلاً لأغراض دفاعية ضد هجمات سكان المنطقة الرحل، وأنها لن تصمد بالتالي أمام حصار جيش منظم، فإن الأمر يبدو جلياً، والحالة هكذا، أنها كانت بالفعل أهلاً لأداء هذه المهمة، ذلك أن مخزونها من الضروريات سرعان ما يتعرض للنضوب أمام استمرار حصارها لضآلة أحجام مخازنها وكميات التموين التي تستطيع تخزينها بالتالي.

إن تصميم القلاع ذات الشكل الهرمي، وهي الأكثر انتشاراً، لا يوفر مكاناً لحفظ الخيل والماشية، ومساحة أكبر لتخزين مواد التموين كما يتبادر إلى الذهن لأول مرة، ومع ذلك فإن ارتفاع جدران هذه القلاع الواضح مقارنة بعرض قواعدها، يشير إلى أنها ربما كانت مكونة من طابقين أو أكثر مما يؤهلها لأداء ذات المهمة.

أقيمت أسقف هذه الأبراج على الأرجح باعتماد طريقة الأقواس لاختفاء الأخشاب اللازمة لهذا الغرض، إضافة إلى استحالة استخدام قطع كبيرة من الحجارة لندرة توفرها محلياً بالإضافة إلى صعوبة استخدامها، الأمر الذي ترك المجال أمام استعمال الأحجار الصغيرة التي يسهل بناء الأقواس بها.

لا يوجد أي أثر للأبواب على جدران مثل هذه القلاع مما يعني أن إضاءتها كانت تتم من أعلى عن طريق ترك فجوات مكشوفة في مراكزها لهذا الغرض، وهو ما يتلاءم مع الكثير من المباني في المناطق الحارة خاصة أن تغطيتها لمنع تسرب مياه الأمطار القليلة لن يكون بالأمر الصعب، فاختفاء الأبواب أو أية فتحات أمر يسهل ملاحظته، مما يفسر أن دخولها لا بد أن يتم عن طريق استعمال أسقفها، أو عن طريق ممرات مقامة تحت سطح الأرض من حولها.

توجد في الجزء الشرقي من خليج سرت أمثلة كثيرة لقلاع لا يتم

دخولها إلا عن طريق ربط الراغبين في ذلك بحبال يلقيها إليهم الموجودون أعلاها ويجرونهم إلى أعلى بعد ذلك، وهنا علينا التأكيد بأن فشلنا في العثور على أية ممرات أو دهاليز أرضية لا يعني أن الوسيلة الأخيرة كانت هي الأداة الشائعة ومع القول بسهولة التعرف على أبواب جدران القلاع المحمية بسورين، إلا أن مثل هذا الأثر لا وجود له البته على جدران المناطق المأهولة منها.

لقد راودتنا فكرة البقاء والتنقيب حول بعض هذه المنشآت لبيان مخططاتها بشكل أدق، إلا أن ضرورة استطلاع الساحل ذاته قبل حلول موسم المطر حالت دون ذلك. وعموماً علينا أن نسجل كملاحظة عامة، أن اجتياز منطقة خليج سرت باتجاه الشرق يعكس حالة هذه القلاع التي تبدو أهميتها في الظهور بدءاً من منطقة الزعفران، كما يزداد عددها عند مركز سلطان حيث تواصل بعده الظهور على مسافات منتظمة إلى جانب ازدياد صلابتها ومتانتها كلما تقدمنا نحو بنغازي.

الفصل السابع

يتحتم علينا إذا صحت المسافات التي أوردها الجغرافي العربي الكبير الإدريسي، البحث عن مخلفات مدينة سورت Sort أو سرت Sert في المنطقة القريبة من الزعفران، إذ حدد المسافة بينها وبين مدينة طرابلس بما يساوي مائتين وثلاثين ميلاً عربياً، أو ما يوازي مائتين وستة وأربعين ميلاً جغرافياً، وهي المسافة التي نرى تحويلها بعد تدقيق ضبطها إلى مائتين وعشرة أميال بالمقياس المألوف يومها، أو ما يساوي مائتين واثنين وعشرين ميلاً في الواقع.

يقودنا الأخذ بالمسافة الأولى المحددة بمائتين وستة وأربعين ميلاً إلى موضع يبعد سبعة أميال شرقي الزعفران، وقبل بلوغ الجديد بثلاثة أميال، أو ما يساوي عشرة أميال شرقي الزعفران.

أما المسافة بعد تدقيقها البالغة مائتين وإثنين وعشرين ميلاً جغرافياً فتنتهي بنا إلى ميلين قبل موضع جيراف Giraff، وإلى أربعة عشر ميلاً شرقي مهاد حسّان Mahad Hassan.

هذا من جهة، أما إذا اعتمدنا عدد الأيام التي ذكرها نفس الجغرافي البالغة أحد عشر يوماً، آخذين قياسات النقيب رينل، كما هو الحال في المرة السابقة، فإن المسافة تصبح والحالة هكذا مائتي ميل جغرافي فقط أي إلى ما قبل مهاد حسان بستة أميال.

تقودنا القياسات السابقة بالإشارة إلى الأماكن المذكورة، إلى أن تحديد موضع سرت سيكون عند مهاد حسَّان، أو الزعفران، أو حتى بالقرب من

الجديد على أساس أنها الأماكن الوحيدة التي يمكن التعرف على بعض المخلفات الأثرية بها، خلافاً للمنطقة غربـي مهاد حسَّان حيث لا أثر لشيء سوى السبخة، كما أن منطقة جيراف لا يبدو بها ما يلفت النظر عدا الكثبان الرملية. أما بين الجديد والشويشة فتوجد الكثير من بقايا المخططات الأرضية لعدد من المنازل المتواضعة التي يبدو أنها هي ما أشار إليها الدكتور ديلا إتشيلا بمخلفات شاراكس Charax عند إسترابو، إضافة إلى عدد من القلاع المنعزلة إلى جانب بقايا مباني أخرى يمكن مشاهدتها على الطريق ما بين الجديد ومدينة سلطان.

أكد الجغرافي حسن الوزّان (ليو الإفريقي) عدم وجود ما يستحق الذكر من آثار مدينة سرت في زمانه، خلافاً لبعض أجزاء ضئيلة متداعية من أسوارها، مما يؤكد أن الأخذ بحرفيه قوله يعني أن تحديد موضع سرت بدقة يصبح في غاية الصعوبة وسط رقعة أرضية لا تخلو من مخلفات أثرية عديدة متناثرة.

وعليه فنحن مرتاحون بتكرار القول بأن موضع سرت المشار إليه آخذين في الاعتبار قياس المسافات السابقة، سيكون عند مهاد حسان، أو بالقرب من الجديد، أما إذا كان علينا تحديد موضعها بناء على ما قال به الجغرافي العربـي الآخر أبو الفداء، فيتحتم نقل ذلك الموضع لمسافة أبعد إلى الشرق بالقرب من مدينة سلطان وهو الموضع الذي نميل إلى الأخذ به.

أخبرنا أبو الفداء عند حديثه عن مخلفات مدينة سرت بوجود خليج يدعى روديك Rodaik أو روداكيا Rodakiah غربـي تلك المخلفات، حيث تظهر بقايا مدينة زودياك سيناس Zodiac Sinus التي أشار إليها الإدريسي أكثر من مرة قائلاً بوقوعها غير بعيد عن مدينة أنسا Ansa الواقعة على بعد مائة وثمانية أميال جنوب شرق رأس كانم Kanem الذي يمكن اعتباره أقصى بعد لخليج سرت باتجاه الغرب، أو ما يمكن الإشارة إليه برأس سيليفاس القريب

من مصراته، ذلك أن مسافة مائة وثمانية أميال جغرافية بدءاً من مصراته ستنتهي إلى مسافة خمسة أميال فقط قبل الزعفران التي تبعد بمسافة مائة وثلاثة عشر ميلاً انطلاقاً من مصراته.

إن الأخذ بهذه المسافات سيقودنا إلى تحديد موضع أنسا Ansa عند الزعفران رغم خلو المنطقة من أية مخلفات أثرية بين هذا المكان ومنطقة مهاد حسّان، وعليه فإن اعتبار مهاد حسان (قصر حسان) عند الإدريسي، وهو ما يبدو متطابقاً، فإنه بالإمكان المجازفة باعتبار أنسا Ansa محل الزعفران، خاصة وأن آبار الزعفران لا تبعد عن الشاطىء، وأن نفس الجغرافي قد حدد تلك الآبار عند مركز أنسا.

حدد الإدريسي مكان مدينة أنسا على بعد ستة وأربعين ميلاً عربياً عن مدينة سرت، فإذا أضفنا هذه المسافة إلى المائة وثمانية أميال التي سبق ذكرها، فإننا نجد أنفسنا بالقرب من مدينة سلطان التي يفصلها عن مدينة مصراته مائة وواحد وخمسون ميلاً جغرافياً. أما إذا افترضنا كما قال بذلك النقيب رينل، أن مسافة الستة وأربعين قد دونت خطأ بدل الستة وعشرين، فإن الرقم الأخير سيقودنا إلى موضع الشويشة Shwaisha حيث لا تنبىء بقايا الآثار الضئيلة عن موضع أية مدينة، أما إلى الجنوب الشرقي وعلى بعد يقرب من ميلين من مدينة سلطان، فتظهر بقايا مدينة لا يحوم الشك حولها تدعى المدينة (The City) مما يحذونا إلى الافتراض بأنها مدينة سرت.

تتطابق المسافة بين أنسا Ansa والطرف الجنوبي الغربي من خليج سرت مع ما قال به أبو الفداء، مع المسافة بين الزعفران ومصراته، وبما أن سرت تقع شرقي أنسا بمسافة ستة وأربعين ميلاً رومانياً من ذلك المكان حسبما أقره الإدريسي، وأن المسافة بين الزعفران والمدينة هي سبعة وأربعون ميلاً رومانياً مما يعني تطابق هذا القول، إضافة إلى أن اسم المركز الأخير، المدينة، يقع شرقي المركز الأول ممثلاً في الزعفران، إضافة إلى هذا يمكننا

القول بأن اصطلاح سُرت لا يعني اليوم عند السكان المحليين الإشارة إلى أية مدينة بقدر ما يعني الرقعة الأرضية الواقعة بين سولب وبرقة.

تقوم الآثار الباقية مما عرف بالمدينة، ضمن الرقعة الأرضية المشار إليها، وهو ما يدعونا لافتراضها الموضع الحقيقي لمدينة سرت، ويدفع بنا إلى الظن بأنها عندما تلاشى اسمها الأول، ظلت تواصل البقاء تحت اسم المدينة لكامل المنطقة التي باتت تعرف باسم سرت.

تمثل آثار سلطان امتداداً أكبر من نظيرتها فيما يعرف بالمدينة مما قد يكون سبباً في إضفاء نسبة كنية السلطان إليها، رغم أن طابعها لا يوحي بأنها مخلفات لمدينة بقدر ما هي محطة عسكرية هامة، وفي هذا سبب آخر يدعونا لاختيار بقايا المدينة كموضع لمدينة سرت.

يقر هذا التحديد موضع مدينة سرت شرقي المكان الذي حدده لها الإدريسي بما لا يقل عن خمسين ميلاً، وفي هذا تباين مع تحديد المسافات بين الأماكن القريبة من بعضها كما هو الحال مع المسافة بين سرت وأنسا، بدل اعتماد قياسهما من مدينة طرابلس، وبناء على ذلك فإن قياس أبو الفداء بين خليج كانم إلى أنسا سيكون أقرب إلى الواقع من قياس الإدريسي بين طرابلس وسرت.

إن الاستعانة بمكان خليج رودايك يمكنه توضيح هذا الأمر لو أن بالإمكان التعرف على أي أثر له، وهو ما ينطبق تماماً على خليج زيناس زاديك الذي تحدث عنه الإدريسي، وهنا علينا إنهاء مناقشة هذا الموضوع تاركين للقراء الحكم من خلال المعلومات المذكورة التي رأينا من خلالها الإقدام على تحديد موضع سرت في المكان الذي تم اقتراحه.

اكتشف الدكتور ديلا إتشيلا أثناء اجتيازه لهذا الجزء من خليج سرت عموداً مربعاً واضح الارتفاع مقاماً على قاعدة استخدم الحجر الجيري في بنائها مما ساعد مع مرور الوقت على تآكله، وأدى بالتالي إلى صعوبة

استخلاص ما دُوّن على جدرانه الأربعة.

وصل المعنى بعد انقضاء ساعة من السفر إلى عمـود ثان ثم ثالث بعد نفس المسافة، وكان العمودان كما في الحالة الأولى يحملان آثار كتابة باهتة جداً غطت جدرانهما، وحالت بالتالي من قدرته على تدوين ولو كلمة واحدة منها خاصة وأنه في عجلة من أمره.

تقف قرب الساحل في مواجهة العمود الأول، بقايا برج تعلوه قبة في مكان يدعى البنية Elbenia، هكذا واصل الرجل حديثه عن هذا المكان بعد اعترافه بالفشل في تحديد الغرض من إقامة هذه الأعمدة، ولو أنه اقترح في ذات الوقت الأخذ برأي إسترابو القائل بأن الزعفران هي أسبس مما يعني والحالة هكذا، أن البرج القريب منها، لا بد وأن يكون هو نفس البرج المسمى أيوفرانتس Euphrantus حسب رواية هذا الجغرافي.

استنتج الدكتور من هذه النتيجة، بأن برج أيوفرانتس، كان الحد الفاصل بين إقليمـي برقة وبين إقليم القرطاجنيين، وأن الأعمدة الثلاثة كانت نهاية الإقليمين، إضافة إلى تدوين أمور أخرى ترتبط بمثل هذه الأمور.

ارتفعت معنويات المعنى لما افترضه من توافق بين الجغرافيا التاريخية وجغّرافية عصره مفترضاً بلهجة مؤكدة من نتيجة خاطئة مع إظهار كراهيته الدفينة لأصحاب الرأي، وتحيزه المطلق بإعلانه الصريح عن كامل ثقته بأن ما صادفه من آثار بالية بعد ترك البنية بثلاث ساعات هي ما أشار إليه إسترابو Charax شاراكس.

لم يجهد ديلا إتشيلا نفسه بإعطاء وصف لهذه الآثار، ولا الأسباب التي دفعته لتأكيد استنتاجه المفعم هذا، بل على العكس نراه ينتقل لينتقد إسترابو، مخاطباً أستاذ علم النبات في جنوة، عن قراءة جديدة لمفهومه عن نبات السيلفيوم والعصير المستخلص منه.

إننا لا ندعي قدرة خاصة في التعامل مع المنطق، إلا أن نهج أو وسيلة

المعنى في استخلاص ما توصل إليه تبدو لنا شاذة وغير مألوفة فقد جاء حديثه «بما أن الزعفران هي نفسها أسبس، فإن البرج ذا القبة البيضاء يجب أن يصبح برج أيوفرانتس، وبما أن البرج الأخير كان الحد أيام البطالمة، وبما أن الأعمدة الثلاث المربعة الهيئة تبدو بنقوشها المطموسة تمثل حدوداً هي الأخرى، فإن بقايا الآثار التي تم العثور عليها بعد مسيرة ثلاث ساعات، يتحتم أن تمثل مركز شاراكس، التي وصفها إسترابو بأنها معرض أو سوق استخدمه القرطاجيون لمبادلة عصير السيلفيوم بالنبيذ، وفي هذا تحريف للنص الإغريقي.

وأكثر من هذا انتقل الدكتور، وهو يخاطب أستاذ النبات، ليتحدث عن خط سيره خلال يوم بالغ الحرارة وهو في طريقه إلى زيارة البـي في خيمته وذلك العشاء الفاخر المعد من بيض النعام ومن ثمة خلوده للنوم.

يمثل موقع الزعفران إضافة إلى المرفأ، الذي يحمل نفس الاسم، ما يخولنا القول باعتبارها أسبس عند إسترابو بناء على ما سبق ذكره من أسباب، خلافاً لما أورده الدكتور فيما يتعلق بتحديد موضع كل من شاراكس، وبرج أيوفرانتس.

إن البرج ذا القبة الذي تأكد أنه هو ذات برج أيوفرانتس لا يحمل من السمات ما يؤهله لبلوغ نصف العمر الزمني ليصبح معلماً أثرياً في أي وقت، ولا أن يكون برجاً حتى مع افتراض بنائه زمن البطالمة، فمنظره لا يوحي بما يزيد عن مبنى سكني على غرار طريقة بناء الأضرحة، وأن كل ما في الأمر أن اختيار موضعه فوق قمة هضبة تشرف على الطريق القريب منها، أسبغ عليه أهمية تبدو واضحة من المنطقة المنخفضة من حوله، خلافاً لأولائك الذين أتيحت لهم فرصة فحصه عن قرب، وهو ما يدعو إلى الاعتقاد بأن مشاهدة الدكتور له قد تمت من على الطريق في المنطقة السهلية الأمر الذي دعاه إلى الاعتقاد بوجود شبه بين هيئة هذا المبنى وبين برج أيوفرانتس.

إننا لا نملك سوى الاعتراض على رأي المعنى لأنها ليست سوى إحدى القلاع التي سبق التطرق إليها، وأنها لا تناظر أي من المباني التي أشار إليها الدكتور ولو كانت قديمة التشييد.

يوجد مبنى آخر مقام على مكان مرموق على نفس التلال التي حددها الطبيب الإيطالي، والتي يصعب إيجاد تفسير يحدد الغرض منها، اللهم إلا إذا اعتبرناه قبراً آخر أريد له أن يكون ظاهراً للعيان.

يشغل هذا القبر، إن صح التعبير، مربعاً طولُ ضلعه عشرون قدماً ويمثل في الواقع كتلة من الحجر والإسمنت يتوسطها مربع أصغر حجماً خال من أية وسيلة توصله بما حوله.

كان ارتفاع المبنى قرابة ثلاثين قدماً فيما يبدو، ولو أن ما بقي منه لا يزيد عن القاعدة المقام عليها التـي أخذ عرضها كأساس لتقدير الارتفاع إلى جانب كميات مواد البناء المنهارة من حولها، علماً بأن ارتفاع القاعدة يبلغ نحو ستة أقدام استخدم في بنائها أحجار متناسقة بطول خمسة أقدام، وارتفاع سمك يتراوح ما بين اثنتي عشرة وست عشرة بوصة في حين لا يزيد ارتفاع ما بقـي من الجدران الأساسية على ثلاثة أقدام، مع ملاحظة أن قاعدة مكان العماد (التعميد) التي لا تزال قائمة في إحدى الزوايا تدل على أن تشييد المبنى ككل لا بد وأنه قد حظي بعناية خاصة، وبالذات في واجهاته الخارجية.

تبدو قاعدة العماد المشار إليها وكأنها تقليد للعمارة اليونانية قام به المسلمون إذ لولاه لما أحجمنا عن إعطائه بعداً زمنياً يسبق ذلك بكثير، فالحجارة المستعملة ذات أحجام معقولة وحسنة الصنعة، وذات نسق موحد باستخدام نوع ممتاز من الإسمنت.

يتصل بهذا البرج، إذا صح استخدام التعبير، الذي ما كان بالإمكان استخدامه لأغراض عسكرية، بقايا مخزن للحبوب أقيم تحت الأرض ولا يزال سقفه يعلو سطح الأرض بارتفاع قدم تقريباً، هذا بالإضافة إلى ما يشبه

فتحة البئر التي ربما كانت بمثابة المدخل إلى مخزن الحبوب التي لم نتمكن من الهبوط إليها بسبب كميات الركام المكدسة بداخلها.

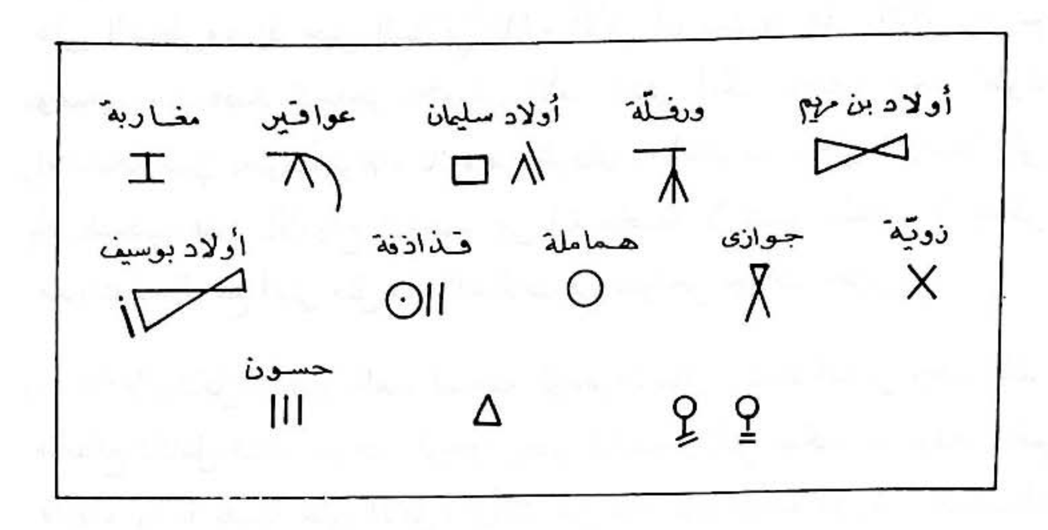
لم نعثر على أية مخلفات بين أكوام المبنى المنهارة، مما يمكننا من الإقدام على تحديد فترة بنائه بدقة رغم اعتقادنا بأنه إسلامي النشأة، أما إذا أقر الآخرون خلاف ذلك وأرادوا له أن يكون برج أيوفرانتس، وأنه لم ينشأ لأي غرض آخر يمكن للبعض التفكير فيه، كما حدث للسيد ديلا إتشيلا، فإننا نخالفهم الرأي قطعاً.

أما فيما يتعلق بالأعمدة التي افترض بأنها بمثابة نقاط حدودية، ولم يفلح من نسخ أي من نصوصها، فإننا لا نعلم عن أية معالم تحمل وتتفق مع هذا الوصف عدا تلك الموجودة في منطقة حمد قروش 'Garrosh، هذا بالإضافة إلى إصرار جميع المرافقين لنا بما فيهم أهل المنطقة على نفي وجود مثيل لها في أية منطقة أخرى.

تأخذ الأعمدة الموجودة في هذا المكان شكل المربعين هي الأخرى إلى جانب ارتفاعها الظاهر لإقامتها على قواعد لما زعمه بعلامات الحدود الحجرية، أما على الجانب الآخر فإنها ليست من أحجار الحجر الرملي، ولا من أية أحجار أخرى بمعنى أنها ليست قطعاً كاملة من الحجارة بقدر ما هي قطع صغيرة خالية من أي تناسق جمعت مع بعضها وتم تغليفها بطبقة من الإسمنت فظهرت وكأنها تبدو قطعة واحدة عن بعد. وأكثر من هذا أقيم عمودان منها على القاعدة الواحدة مما يفسر أن الدكتور حسب رأينا لا بد وأنه نظر إليها من اتجاه واحد الأمر الذي لا يمكن أخذه في الاعتبار لجنوحه عن الحقيقة.

أما فيما يتعلق بتلك الحروف أو الرموز التي فشل في حل أي منها، فهي وإن تطابقت على ما وصفه بها، إلا أن الواقع يقر أنها علامات غير مقروءة فعلاً لأنها مجرد اصطلاحات يستخدمها أهل المنطقة للتمييز بين

قبائلهم المختلفة، وليطلع عليها طالبـو الراحة الذين قد يتوقفون لبعض الوقت في ظل هذه الأعمدة.



تختلف أحجام هذه الأعمدة رغم أن ارتفاعها ربما كان واحداً أما الغرض من وراء إقامتها، فإننا لن نجازف بذلك إذ لا يمكن مشاهدتها من على الساحل، إضافة إلى أنها لا ترى من الطريق الأقل ارتفاعاً، رغم قربها النسبـي من كليهما، وأكثر من هذا تم تشييدها في حضيض الهضاب القريبة منها مما يعيق التكهن بوجودها أصلاً من المناطق المنخفضة القريبة منها.

إن رفضنا لاعتبار البرج ذي القبة كحد أقيم أيام البطالمة، يمكننا أيضاً إعفاء هذه الأعمدة من مهمة رعاية هذا الحد سواء فيما يتعلق بتلك الأعمدة الموجودة في منطقة حمد قروش التي أشار إليها ديلا إتشيلا، لأننا لا نرى أي مبنى في هذه المنطقة يمكنه توفير الإجابة عن فكرتنا حول برج أيوفرانتس سواء فيما يتعلق بطبيعتها أو بالنسبة لموقعها. إن وجود مباني أخرى شرقي الزعفران تبدو في رأينا أكثر ملاءمة لإقامة أبراج حدودية، وهو ما يتفق مع ما أشار به إسترابو خلافاً لرأي ديلا إتشيلا الذي يستهجن الأخذ بذلك.

لن يكون هيناً قبل مغادرة الزعفران، دون الإشارة إلى ذلك المظهر الخاص والمرعب الذي يميز ساحلها والمنطقة المجاورة ذلك أننا لو لم نكن

شهود عيان لما كان بالأمر الهين علينا تصديق تلك القوة الجبارة التي مكنت أمواج البحر من نقل تلك الكتل الهائلة من الحجارة، وألقت بها في أكوام على الشاطىء، إذ خيل إلينا في بداية الأمر أن بعضها على الأقل قد تم وضعها عن قصد كحاجز للأمواج الأمر الذي أمكن دحضه بيسر لطول امتدادها الذي تعلوه أكوام متناثرة من الرمال والأعشاب البحرية، إضافة إلى أن صخب هدير الأمواج الناجمة عن أية عاصفة لا تتسم بالعنف لا يمكن مقارنته بحال مع أعتى مثل هذه الحالات في سواحل جهات أخرى.

لا يشكل المظهر العام لمنطقة الزعفران مظهراً تأباه النفس رغم الفقر المدقع لكامل منطقة سرت، لوجود بعض الأشجار التي يعكس وجودها رغم قلتها، راحة نفسية على الأقل، وأكثر من هذا فإن طبيعة الأرض المنبسطة الجرداء إلى جانب أرض السبخة، باتت تفسح المجال أمام تلال متقطعة مغطاة بالحشائش وبعض الأزهار، كما أن بعض الأودية الصغيرة بين الهضاب مزروعة جزئياً، كما تظهر بعض قطعان الضأن والماعز على المناطق المرتفعة، إلى جانب بعض خيام البدو مما يخلق مظهراً بهيجاً ويولد نوعاً من الراحة والاطمئنان خلافاً لتلك المسافات المنعزلة الخالية من أي أثر يذكر للحياة.

تسهم كميات المياه الجيدة والوفيرة من جانبها في إضفاء نوع من الجذب على هذه المنطقة المحدودة الحاجيات والمطالب، ومع ذلك فنحن على يقين تام من أن أي مسافر يجتاز أرضها سيدرك بكل دقة ذريعة ما يمكن تحقيقه من إضفاء سمة المزيد من الجذب عليها.

تحتل منطقة الزعفران مكانة لها وزنها في منطقة سرت لما توفره أرضها من مراعٍ جيدة إلى جانب إنتاج كميات وفيرة من الحبوب والصوف، أما اسمها فيقودنا إلى القول بأن المنطقة كانت في وقت ما ذات شهرة خاصة في إنتاج الزعفران ذلك النبات الذي ذاع صيته في كامل منطقة الشمال الإفريقي،

رغم فشلنا في التعرف على ذلك النبات مع القول بأن كل المنطقة القريبة هي في الواقع مسرح لفصيلة من نبات كروكاس Crocus التي ربما كانت هي الأصل لجنـي الزعفران، وهو ما تأكد اليوم فعلاً.

تعد أجود أنواع الزعفران في أيامنا هو ما يحصل عليه من نبات الكروكاس بعد جني مدقاتها (أعضاء التأنيث بها) وتجفيفها بكامل الحذر في تنور، وفي هذا الخصوص يؤكد الجغرافي حسن الوزّان بأن زعفران غريان هو الأفضل في العالم قاطبة.

جمعنا عينات من النبات المذكور، إلاَّ أن طبيعة رحلتنا لم تمكنا من تجفيفها كما يجب إذ تبين لنا عند بلوغ بنغازي أنها قد تعرضت فعلاً للتلف مع عينات أخرى بسبب ما لحقها من رطوبة.

يسكن منطقة الزعفران عدد من البدو، كما هو الحال مع باقي منطقة سرت حين تسمح الظروف بذلك، إذ لا توجد مدينة أو قرية واحدة بين مصراته وبنغازي، وللحق كانوا مؤدبين وكرماء معنا إذ لم ندخل لهم خيمة إلاَّ وكان حسن الاستقبال إلى جانبنا بتقديم ما لديهم من حليب قليل وتمر دونما طلب منا وبدون أي مقابل أيضاً، بل وأكثر من هذا كانت خيولنا تلقي هي الأخرى حصة مما لديهم من حبوب، ومع أن الحليب الطازج قد لا يتوفر لديهم باستمرار، إلاَّ أن الحامض منه أو ما يعرف باللبن موجود دوماً وبكميات كبيرة أيضاً ونحن على ظهور خيولنا إذا كنا في عجلة من أمرنا إذ وجدنا في تناول جرعات منه عاملاً مساعداً على السير مسافات طويلة تحت الشمس.

يمثل ظهورنا المفاجىء بين تجمعات البدو القليلة جانباً من المتعة لنا، لما يخلفه لهم من مفاجآت إلى جانب حرص كل منهم على إظهار مدى احترامهم وإكرامهم للضيوف الذين يحلون بينهم الأمر الذي قد يستمرون في مناقشته حتى بعد الانتهاء من الطعام الذي يقدم إلينا حيث تقوم النسوة بفحص

ملابسنا بدقة وتمعن بينما يركز الرجال اهتمامهم على أسلحتنا النارية وما نحمله من سيوف.

حظيت البوصلة والتلسكوب والساعات بإعجاب فاق ما لدينا من أشياء أخرى إذ انصبت معظم الاستفسارات عن السبب وراء دوران عقارب الساعة، وعن سبب اتجاه إبرة البوصلة صوب الشمال، ولماذا يمكن رؤية الجمل من خلال أنبوب بينما يصعب بل ويستحيل رؤيته بالعين المجردة.

يمتاز الرجال بالحيوية والصحة وبنية جيدة، أما النسوة فجميلات ومهذبات ويرتدين قمصاناً قطنية واسعة تحت أرديتهن، كما يستعملن بعض الزينة، وتحمل أغلبهن تعاويذ ضد الحسد بينما لم تعبأ أي منهن باستعمال الحجاب، أو تجنب تجمع الغرباء، في الوقت الذي تبدي فيه أي واحدة منهن عميق شكرها على إهدائها مرآة صغيرة أو أي عقد مهما كان حجمه، في حين يبدي الرجال خالص امتنانهم لاستلام سكين، أو بعض قطع الصوان مع الإشارة إلى أن ملابسهم لا تعدو هي الأخرى حولي خشن الملمس، وطاقية حمراء ونعلاً من جلود الإبل.

لا يبخل جندي الباشا المكلف بمرافقتنا في مثل هذه المناسبات، في إثبات حضوره وإلمامه بمعرفة كل شيء بما في ذلك جهار الكرونوميتر البالغ الحساسية.

اشترينا حاجة خيولنا من الحبوب، التي يتم تخزينها كما هو الحال في معظم مناطق الشمال الإفريقي، في صهاريج أو مخازن للحبوب قام الأقدمون بإعدادها، ثم انطلقنا لمتابعة رحلتنا إلى الجديد حيث أقمنا ليلة واحدة، وللعلم أشار الأقدمون مرات عديدة إلى طريقة حفظ الحبوب فقد أشار فارو Varro على سبيل المثال، بأن القمح يمكن حفظه لمدة خمسين سنة، في حين يحتفظ الدخن بكامل جودته لمدة قرن كامل.

بمغادرة الجديد واصلنا السفر إلى الشويشة Shwaisha عن طريق بنيت

Bennet وحمد قروش حيث توجد مخلفات بعض القلاع إلى جانب مبنى الرومية رغم اختفاء ما ينبىء عن أصله المسيحي.

يأخذ سطح الأرض في الارتفاع التدريجي بين الزعفران وحمد قروش، وتبدو الوديان أكثف في زراعتها وهو ما ينطبق على قطعان الضأن والماعز، إضافة إلى بعض الماشية والإبل، إضافة إلى الأرانب والبط البري وطيور الزقزاق والسمان، وأعداد كبيرة من ابن آوى التي لازمت قافلتنا في معظم الأحيان.

تحول الجو إلى عاصف مع حلول المساء، وهطلت أمطار غزيرة حالت دون وصولنا إلى خيامنا إلاَّ في وقت متأخر، وهو ما دعانا للبقاء طوال اليوم التالي حتى نتمكن من فحص ودراسة باقي جزء الساحل.

يتكون خط الساحل ما بين الجديد والشويشة من عدة خلجان صغيرة، إلى جانب بعض الصخور المغمورة قرب الساحل الذي عثرنا فيه على بعد ربع ميل غربي هذه الصخور المغمورة، على بقايا مبنى يبلغ ارتفاعه قرابة عشرين قدماً ومع ذلك تحجب الحافة الصخرية القريبة رؤيته.

غادرنا المنطقة ضحى يوم السابع عشر مارين ببقايا قلعة قديمة بلغنا بعدها مدينة سلطان بعد انقضاء سبع ساعات حيث وجدنا مصدراً هاماً للمياه.

مثلت مدينة سلطان موقعاً عسكرياً هاماً، كما تشهد على ذلك بقايا عدة قلاع منيعة البنيان تشبه من حيث تصميمها الرباعي الهيئة تلك الموجودة بالزعفران، إضافة إلى قوة ومتانة أساسات الأسوار المؤدية إليها من مختلف الاتجاهات.

لا تزال مخططات هذه القلاع في حالة أفضل وحجم أكبر من مثيلاتها في حالة الزعفران، أما بخصوص أسوارها فإن دقة وصفها تحتاج إلى دراسة دقيقة قبل الجزم بتحديد أبعادها ونقاط الاتصال بينها، ومع هذا فقد أمكن الحصول على مخططات اثنتين منها، إحداهما واضحة المعالم باستثناء مكان

مدخلها، خلافاً للأخرى حيث أمكن تحديد مكان بوابتين على جدرانها الخارجية خلافاً أيضاً لجزئها المخصص للسكن والإقامة.

كما عثرنا في جزء مربع داخلي ملحق بقلعة أخرى ذات نفس الحجم، على صهريج أو خزان أسفل سطح الأرض تم حفره وبناء جدرانه بالحجارة المغلفة بطبقة من الإسمنت لا تزال في حالة جيدة جداً.

يتم النزول إلى هذا الصهريج عن طريق فتحة مربعة يصعب تحديد مكانها لكثرة ما يعلوها من أعشاب ونباتات أخرى، ومع ذلك تمكنا من الهبوط إلى الحجرات المنحوتة على جدرانها آملاً في العثور على بعض النقوش التي ربما تنير لنا الطريق حول هذا الموقع، إذ لم نعثر سوى على بعض الحروف العربية السيئة الصنعة.

تقع بقايا المدينة القديمة المعروفة فعلاً بالمدينة، غير بعيد عن هذا الموضع العسكري، حيث تظهر العديد من الآبار، وأحواض المياه التي لا تزال محتفظة بحالتها الجيدة، خلافاً لحالة المباني القريبة التي تبدو فعلاً في منتهى السوء مما يصعب معه وصف أي مخطط لها دون تكثيف التنقيب من حولها.

لم يترك أي كاتب على حد علمنا سوى القليل جداً عن المباني القائمة في إطار منطقة سرت، الأمر الذي يجعل من العسير جداً تحديد أو إطلاق أي اسم آخر على مخلفات القلاع والمدن القائمة حالياً عدا تلك الأسماء التي يميزها ويحددها سكان المنطقة.

فمدينة شاراكس أشار إليها إسترابو بأن حدد موقعها شرقي برج أيوفرانتس، مما يعني أن تحديد مكان الأولى يحتم إقرار مكان البرج أولاً، وهو ما ليس بالأمر الهين في منطقة تتخللها مجموعة من القلاع والأبراج بين طرفي حدها.

كما أن تحديد موضع نهاية الأخوين فيليني يتطلب معرفة الموضع

المقدس الذي قال عنه المؤرخ بليني أنه مجرد مكان رملي لم يعد له مكان محدد منذ زمن الجغرافي إسترابو.

لو لم يكن اختيار مكان مناسب لبرج أيوفرانتس شرقي منطقة بن جواد بالقرب من اليهودية Howodea، لفضلنا اختيار مدينة سلطان كميناء نبحث عنده عن مكان البرج، غير أن قرب المكان من الزعفران (التي حددنا هويتها بأسبس) سيشير بكل تأكيد لاختيارها المكان المناسب لكلا المدينتين.

إن المميزات المحلية التي يحظى بها برج بن جواد كقلعة حدودية وعلامة مميزة، يغري بإعطائها سنداً خاصاً كموضع لبرج أو قلعة أيوفرانتس، مع التأكيد بأن هذا الاختبار لا يستند إلى أدلة لا لبس فيها.

يوجد في مدينة سلطان خليج رملي صغير يسمح للمراكب الصغيرة باستعماله، إضافة إلى بحيرة ممتدة باتجاه الشرق، تبدو عميقة المياه ولها نقطتا اتصال مع البحر، وهو ما دفعنا إلى إمعان النظر في محاولة إيجاد ممر يسمح للمراكب الصغيرة بالدخول منه إلى هذه البحيرة التي يعطي قربها إمكانية استعمالها كميناء للمدينة المجاورة، غير أن طبيعة الساحل الصخري في جملته إلى جانب ضحالة مياهه يجعلان من قيام مثل هذا المرفأ أمراً يشكل خطراً على إمكانية استعماله لذلك الغرض، فخط الساحل بين هذا المكان ومنطقة حمد قروش، مرتفع وينتهي إلى البحر بأجرافٍ شديدة الانحدار لا تترك سوى ساحل رملي ضيق، خلافاً لامتداده الشرقي حيث تسود التلال الرملية المنخفضة.

لاحظنا عند البحيرة أعداداً كبيرة من طيور البحر إلى جانب أخرى محلية قابلتنا في أكثر من مكان، علماً بأن مياهها كما هو مع باقي البحيرات والسباخ مالحة أيضاً، وغير قابلة للاستعمال.

واصلنا رحيلنا بعد مدينة سلطان بجانب أرض سبخية ظلت متصلة حتى موضع نعيم Nehim حيث أقمنا ليلتنا قرب بئرين عذبتي المياه.

لم نعثـر على مخلفات لأي مبنى على طول الطريق اللهم بعض الحجارة فوق ربوتيـن يظهر أنها جمعت على عجـل كإشارة إلى مثـوى رجلين صالحين. وأكثر من هذا أعلمنا الشيخ محمد بأن الأرض الممتدة جنوباً خالية هي الأخرى مما يلفت الانتباه، ولا تقوم بها أية مباني مهما كان نوعها.

يوجد عند محط رحالنا خليج رملي يبدو أن السفن كانت تبعث إليه ببعض قواربها الصغيرة مهما كانت حالة الطقس، للتزود بالمياه من ثلاثة آبار عند الشاطىء مباشرة.

كما يوجد خليج آخر على بعد عدة أميال باتجاه الشرق عند الحامة حيث يمكن الحصول على المياه في جميع الأوقات لضآلة أعماقها، ويسر بلوغ مدخل الخليج، وللعلم يوجد في منتصف المسافة تقريباً بين هذين الخليجين ما يشبه الرأس البحري حيث تظهر بقايا قلعة قديمة.

فكَّت بعض خيولنا قيدها أثناء انهماك الجميع في نصب الخيام، واندفعت نحو فرس الشيخ الضبع الذي أخذ يصرخ بأعلى صوته طلباً للنجدة، بعد أن تمت محاصرته مما أثار ضحكنا رغم ما أبداه من جرأة لم تحقق ما كان ينشده، إذ زاد طيش خيولنا وتحول الأمر إلى خطر حقيقي مما اضطرنا إلى الإسراع لتخليصه من ورطته بعد أن كسرت بندقيته.

دخل الرجل صباح اليوم التالي إلى خيمتنا حاملاً ما بقي من سلاحه المكسور، وجلس كعادته بعد إلقاء السلام لمرات عديدة، قبل تقديم ما لديه من مطالب استهلها بسرد كامل لما تم مساء الأمس، وأنهاها برفع ما بقي من بندقيته، التي لم تعد تفي بالدفاع عن نفسه في حالة هجوم عصابة قطاع الطريق الأشداء التي كثيراً ما تحدث عن تربصها بنا.

كان وقتنا أثمن من الإصغاء إلى مثل هذا الهراء، كما أننا غير مستعدين لتقديم بندقية له بديلاً عنها، وهو ما اضطرنا إلى تغيير الحديث خلافاً لآماله،

وسؤاله عن الإبل التي عليه تزويدنا بها في بو سعيدة عند بلوغها في اليوم اللاحق.

أجاب الرجل بأنه قد أعطى أوامره فعلاً في هذا الخصوص، وأن من الأفضل له الرحيل لإنهاء إجراءاتها حال وصولنا، طالباً في نفس الوقت أن يقوم ابنه الأكبر، الذي حضر خصيصاً للسلام عليه، بمهامه أثناء غيابه وهو ما تمت الموافقة عليه.

سكت الجميع لبعض الوقت انتظاراً لمغادرته الخيمة إلا أنه ظل جالساً مما يشير إلى أنه يريد السؤال عن شيء آخر خاصة وأنه قد استلم ضالته من بعض ملاعق السكر التي اعتدنا تقديمها إليه... نعم فقد أخذ يبدي استحسانه بعديد من الأشياء الملقاة من حوله كالسكاكين، والأقلام، وأقلام الرصاص، وحافظات المسدسات وعلب البارود.

لم نعر ملاحظاته شيئاً، ومع ذلك ظل الرجل جالساً والضيق يعلو صدورنا، وتزداد خيمتنا ثراء بتلك البراغيث والحشرات المنطلقة من جرده.

فقدنا صبرنا في النهاية، وكان لا بد من التأكد من الوقت الذي تراءى لنا أنه متأخر جداً، وكان علينا الطلب من زائرنا ذي اللحية البيضاء، الالتزام بوعده بالرحيل قبلنا. قام الرجل ونصف ابتسامة تعلو وجهه، وهو يفكر في أشياء أخرى، وانحنى جانب الدكتور ليذكره بذلك الدواء المنبه الذي وعده به في مناسبة سابقة.

عرفنا السر بعد لأي، فقد اعترف الشيخ بعزمه على العودة إلى منزله بعد غياب طويل، وأنه يريد العودة قليلاً إلى أيام الشباب تحسباً من عزوف زوجته البالغة الجمال.

زال ضيقنا وتحول الأمر إلى ضحك عال تقبله الرجل بصدر رحب، فقد أعد الدكتور الوصفة التي وضعها الشيخ في حافظة حاجياته الأخرى، وامتطى فرسه وانطلق مسرعاً، والفرح يملأ صدره لما يتوقعه من آثار عجيبة من هذه الوصفة الطبية الساحرة.

الفصل الثامن

اتخذنا طريقنا بعد مغادرة نعيم بجانب السبخة التي تستمر لمسافة عدة أميال موازية لخط الساحل غير بعيد عن سلسلة الهضاب الرملية، إلى أن انتهى بنا المطاف عند بوسعيدة Boosaida، مع حلول المساء، فقد كانت المنطقة أرضاً منبسطة وخالية مما يلفت الانتباه، ولا أثر لأية مباني مهما كان نوعها باستثناء قواعد جدران عادية لمنازل سكنية، على الأرجح، مما لا يضفي عليها أية أهمية خاصة وأنها قليلة العدد ومبنية بحجارة عادية.

تمثل هذه المنطقة رقعة أرضية تكسوها الحشائش والشجيرات، إلى جانب جزء صغير تم زرعه شعيراً، فسكانها من البدو يتمثل همهم الأساسي في رعي إبلهم وما لديهم من ضأن وماعز، في حين تنهمك نساؤهم في إعداد وتجهيز القرب لحفظ الماء .باستعمال جذور بعض النباتات المتوفرة من حولهم.

يدعى الرجل الأول في هذه المنطقة الشيخ حمد الشكشاك الذي تعمد أن يكون الشخص الوحيد والرقيب الأول على تزويدنا بكل ما نحتاجه عن طريقه هو شخصياً، إذ لا يعقل أن يساورنا أي شك في نزاهة رجل مثله الأمر الذي حدا به إلى رفع الأسعار بشكل لا يعقل، وفرض علينا حصاراً حال دون حصولنا على أي حليب طازج دون تعهد منا للنسوة بكتمان الأمر عن هذا

الشيخ النزيه الذي حفاظاً منا على استمرار علاقته السابقة مع مواطنيه، وقصر مدة إقامتنا، إضافة إلى ضآلة مشترياتنا، جعلنا وكأننا قد تعامنا فعلاً مع رجل يليق بالمكانة التي يحتلها.

ينتهي في هذا المكان اتفاقنا مع أصحاب إبل مصراته، حيث لحق بنا صديقنا الشيخ الضبع في اليوم التالي لإنهاء إجراءات التعاقد الجديدة، حاملاً معه ثلاث بيضات نعام ملفوفة في طرف من جرده، كما هي عادة العرب في إخفاء ما لا يريدون كشفه أمام كل الناس.

وضع الشيخ ما يحمله بكل تـؤده على الحصيرة التي نجلس فوقها، ليظهر قيمة هديته التي لاقت منا كل الاستحسان. أجاد الشيخ مقدمة ما يريد قوله بعد أن تنفس الصعداء وهو يتحدث بصوت منخفض، وينظر في أرجاء الخيمة كي لا يسمعه أحد من خارجها... هناك مجموعة كبيرة من قطاع الطرق عند منطقة الكبريت قد وصلت لتوها من ضواحي القاهرة، وعلى أتم استعداد لوصول قافلتنا.

ليس هناك أدنى شـك حول مصداقية هذا القول الذي أعلمه به ابنه الذي وصل من القاهرة هو الآخر، وبسؤاله ما إذا رأى ابنه هذا الحشد من اللصوص، أجاب حتى هذه اللحظة لم يقابلهم أحد، غير أن آثار أقدام ستين من خيولهم قد تم رصدها قرب الآبار هناك، لا تخافوا شيئاً، واصل الشيخ حديثه، وهو يشعر بأهميته واعتزاز أكبر، طالما الشيخ الضبع صديقكم ومرشدكم، فسأرحل أمامكم وإذا تم وعثرت على آثار الخيل المعتدية فويل لهؤلاء الأوغاد.

حاولنا كبح جماح غضبنا، وظلت وجوهنا عابسة، وهو يتحدث إلا أن تصوير بسالته وإقدامه على النحو الذي أظهره في خاتمة حديثه، أجبرنا على الضحك وهو ما دفعه لمواصلة الحديث عن مخاطر أخرى يمكن التعرض لها أثناء الطريق، غير أننا لم نعبأ كثيراً لما يقوله، ربما لفشلنا في تقدير الدافع

الحقيقي الذي دفع به لإثارة الحديث بهذه الصورة، وفي هذا التوقيت أيضاً.

تبين لنا في اليوم اللاَّحق وجود منافسة بين شيخنا وأصدقائنا المشرفين على إبل قافلتنا ويرغبون مخلصين مرافقتنا إلى بنغازي تمشياً مع رغبتنا نحن لما لمسناه منهم من حسن الخلق وجديتهم في أداء الواجب، ومهما يكن من أمر كانت رغبتنا استمرار هذه المنافسة حتى ننهي إتمام الصفقة مع أحد الطرفين، لإدراكنا بالتعرض للابتزاز الذي يمارسه العربي إذا تأكد من استحالة قبول عرض آخر لا يخصه هو شخصياً.

كان الطرفان على يقين تام بأننا في حاجة إلى مجموعة من الإبل سواء واصلنا سيرنا، أو عدنا إلى الوراء، وهو ما دفعنا إلى عدم إعطاء وعد أكيد يخص إبل الشيخ الضبع، إضافة إلى تجاهلنا لرغبة أصدقائنا مواصلة مرافقتهم لنا حتى بنغازي الأمر الذي أدركه الشيخ وأثار من أجله قصة رجال العصابة حتى يثنيهم عن متابعة رحيلهم معنا وتجنبهم مثل هذه المنازعات، وفقدان إبلهم وما لديهم من متاع خاص.

انتشر ما أذاعه الشيخ الضبع من أخبار سيئة ما انفك يرددها، ودب الخوف في نفوس مرافقينا الذين لا نعلم يقيناً إن كان الخوف قد دب بينهم فعلاً، أم أنهم رأوا تجنب ما قد يثير غضب الشيخ في داره وهم بعيدون عن أهلهم، الأمر الذي حملهم على الإعلان أمامنا بأن الشيخ قد تعاقد فعلاً على إبل جديدة مع أبناء عشيرته، ولا حاجة لاستمرارهم معنا بالتالي.

كان ردنا أننا بحاجة إلى مفاصلة الشيخ أولاً في هذا الأمر، إذ لا غضاضة عندنا أن يكسب كصديق ومرشد ربحاً معقولاً، أما إذا كان الأمر خلاف ذلك فلن نرضى بما يمليه علينا.

لم يبد الرجال رغبة في مواصلة الرحلة دون أسباب محددة وهو ما دفعنا لتسوية مستحقاتهم التي أضفنا إليها ما رأيناه مناسباً مقابل كريم خلقهم وتعاونهم.

استعد الرجال للعودة، في الوقت الذي حضر فيه الشيخ الذي أرسلنا في طلبه لإعلامه بعدد الإبل المطلوبة، والمبلغ الذي سندفعه مقابلاً لها حيث أبدى موافقته بعد تردد لم يطل كثيراً.

حضر الشيخ مبكراً صباح اليوم التالي مؤكداً بأن الإبل موجودة وسيتم إحضارها فوراً إذا تمت الموافقة على رفع عددها إلى خمسة وعشرين تحسباً لطول المسافة وحجم متاعنا.

كان رفضنا مطلقاً لهذا الاقتراح، وبسرعة بدأ الشيخ حديثاً لا رابط له سوى تباين النبرات واختلاف اللهجة التي قد تصل إلى درجة فقدان أعصابه، ولكن دون تمكنه من إقناعنا بمصداقية اقتراحه رغم مهارته في الصراخ والتهريج وكأنه محترف من مدينة نابولي.

لم يسفر الأمر عن نتيجة مرضية لإدراكه بأن رفاق مصراته قد ولّوا أدبارهم فعلاً، وأن علينا الرضوخ لطلباته في نهاية المطاف، فقد أقسم بأن الأمر مفروغ منه: إما الكل وإما لا شيء، وهو يولي وجهه خارج الخيمة لإدراكه بأن الوقت لن يطول قبل أن نطلب منه العودة للموافقة على مطالبه المجحفة التي يعني عدم قبولها إعطاءه الفرصة لزيادة العدد مرة أخرى، وهو ما لا يمكننا في الواقع رفضه.

كان تصميمنا على الرفض قائماً طالما بقيت لنا وسيلة يمكنها قلب الموازين لصالحنا، إذ بمجرد خروجه أمرنا بتجهيز جوادين لأحد رجالنا وحارس الباشا لإحضار رفاق مصراته الذين انطلقوا عائدين قبل وقت قصير.

اعتقد الشيخ بعزمنا على إرسال وفد إلى الباشا وتقديم شكوى ضده، الأمر الذي لا يمكن القيام به لما يعنيه من ضياع للوقت الذي نحن في أمس الحاجة إليه، وهو ما أثار رعبه خاصة وأننا لم نرتكب ما يسيء إليه، إذ عاد ليقول وكله حسرة بموافقته على الشروط السابقة التي ما إن علم بموافقتنا عليها حتى أخذ يتوسل للسماح له باللحاق وإرجاع موفدينا اللذين تمكن من

اللحاق بهما قبل تواريهما عن الأنظار.

بات الوقت متأخراً، ولم يعد هناك بد من تأجيل الرحيل إلى صباح اليوم التالي، مما حال دون تعرضنا للمطر طوال تلك الأمسية.

مررنا صباح يوم الثاني والعشرين عبر منطقة الشرفاء لنتوقف لقضاء الليل عند شدغن Shedgane، وهي مسافة لم تتعد اثني عشر ميلاً نتيجة للتأخير المتكرر بسبب جموح بعض إبلنا الجديدة وإلقاء حمولتها بالتالي، إضافة إلى عدد لا يحصى من حفر الجرابيع وما يترتب على ذلك من ضرورة أخذ كامل الحذر تحسباً لوقوع جيادنا.

تبدأ عند منطقة الشرفاء بحيرة ملحة ثانية تمتد حتى رأس يبدو من بعد وكأنه قصر خرب، ولعله هو المقصود بالرأس المعروف ليكوندا Liconda.

يفصل هذه البحيرة عن البحر لسان أرضي تقطنه مجموعة من البدو لا يكاد يظهر لهم أثر بين مجموعة الهضاب القريبة، إذ لم يدر بخلدنا وجود أي كائن حي حتى بتنا على مقربة منهم وتبين لنا حرص رجالهم على مباشرة الإشراف على رعي حيواناتهم في المناطق المنخفضة تحسباً لرؤيتها من رجال الباشا إذا قدر لها صعود الهضاب المحيطة بهم، وتعرضهم بالتالي لفرض الضرائب المقررة في هذا الشأن.

قابلنا أهل المنطقة بكل ترحاب، وقدموا لنا التمر والحليب دونما طلب منا، وبالتالي فقد كان علينا رد الجميل بتقديم بعض مسحوق البارود الذي سرّ له الرجال غاية السرور، كما قدمنا لنسائهم بعض العقود المختلفة الألوان، نلنا مقابلها ابتسامات عبرت فعلاً عن كامل امتنانهن.

يجيد البدو عادة التملص والمراوغة لمن يريد ملاحظتهم بحكم طبيعة تنقلهم وضآلة الضمانات الأمنية لممتلكاتهم، إذ كثيراً ما يعجز حتى الذين يعرفون طرق حياتهم جيداً في الوصول إليهم، في حين كثيراً ما يمر الغرباء

قريباً جداً من خيامهم ولا يشكون مطلقاً في وجود أحد بجوارهم.

تتكون مقتنيات البدوي أساساً مما يملكه من حيوانات إلى جانب بعض الحاجيات المحدودة الأخرى مما لا يشكل عائقاً أمام تحركه الذي ربما لن يأخذ منه أكثر من نصف ساعة، يتوارى بعدها كل شيء باستثناء مخلفات موقد النار.

إن جمع ما يملكه أحدهم من ضأن وماشية لا يشكل صعوبة، ويتم عادة باستعمال صوته بطريقة خاصة، أما الخيمة ومتاعها الذي يتشكل أساساً من أفراد أسرته فلا تشكل عائقاً هي الأخرى إذ يمكن وضعهم على ظهور إبله في دقائق يصبح بعدها مؤهلاً للتحرك في أي اتجاه. أما في حالة عدم توفر وسيلة النقل ممثلة في الجمل ولديه الوقت الكافي، فإن النساء والأطفال هم الذين يتولون عبأ نقل حاجياتهم دونما كلل رغم الإرهاق الذي جبلوا للتغلب عليه بإذكاء روح المرح بينهم، فما يجري أمر مفروغ منه وجزء من حياتهم وعليهم التعايش معه. أما خلال الرحلات الطويلة نوعاً فإن خيامهم تبقى مطوية حتى بلوغ مستقرهم المنشود، وعليهم النوم في العراء بين حيواناتهم حتى بزوغ نور اليوم الجديد.

مررنا بعد مغادرة هذه التلال، بمستنقع يشكل نهاية البحيرة ويمتد حتى ساحل البحر، ويمثل اجتيازه بالنسبة للخيول بالذات، صعوبة بالغة، ويستغرق وقتاً طويلاً، علماً بأن الأرض الواقعة جنوبي البحيرة تبدو مرتفعة مقارنة بالمناطق القريبة، كما أنها مأهولة أكثر من أية منطقة أخرى في إقليم سرت.

بلغنا وادي Sheppa بعد الظهر بقليل حيث تزودنا ببعض الماء وتابعنا سيرنا إلى أن وصلنا بعض خيام البدو حيث توقفنا لقضاء الليل.

عثرنا على بعض بقايا القلاع الحصينة المربعة الشكل عند الوادي المشار إليه، كما لاحظنا ضريحاً استخدمت في بنائه حجارة الأبنية المنهارة قريباً منه، أما في المناطق المجاورة الأخرى فتظهر العديد من بقايا الأبنية

الصغيرة الخالية من حسن الصنعة، كما هو الحال مع بقايا تلك الموجودة على حافتي الوادي، إضافة إلى أساسات الحواجز المائية عبر المجرى نفسه حيث لعبت مياه السيول المنحدرة من الهضاب القريبة خلال الفصول المطيرة، فعلها في تحطيمها وجرف معظم مواد بنائها، خلافاً لتلك المباني على ضفتي الوادي، التي نالها العطب بسبب الأمطار ذاتها الأمر الذي يمكن أن يكون السبب أيضاً في خراب تلك المباني القريبة من القلاع الواقعة عند مدخل الوادي، مما يوحي بأن المنطقة كانت يوماً ما موضعاً لمدينة صغيرة بائسة رغم توفر مرعى جيد، لما يتوفر به أحياناً من مياه غريزة تنساب إليه من التلال المجاورة إذ بالفعل وجدنا أنفسنا محاصرين بقطعان من الضأن والماعز، إضافة إلى أعداد وفيرة من الإبل.

يظهر على بعد ميلين شرقي هذا الموقع نتوء صخري بارز على ساحل البحر، أقيمت فوقه قلعة متينة البنيان وظاهره للعيان استخدمت في بنائها أحجار كبيرة منتظمة الأشكال كما يبدو من أجزائها الملقاة على الشاطىء بعد انهيار بعضها بسبب تآكل قاعدتها، مما يوحي بأنها كانت قلعة هامة وحصينة في ذات الوقت، حيث وفر لها موقعها الإشراف المباشر على مسافات شاسعة باتجاه البحر، وفي الاتجاه المضاد حيث يتبين للناظر بقايا العديد من المباني المنتشرة فوق السهل القريب.

أقيمت هذه القلعة إضافة إلى موقعها الفريد هذا عند نهاية أحد المسيلات الهامة الذي ينتهي بمحاذاة النتوء الصخري، مشكلاً بذلك وسيلة دفاعية يمكن استغلالها للمحافظة على أمن المنطقة السهلية القريبة، كما تدل على ذلك بقايا الأسوار البنية على ضفتي هذا الوادي الصغير، وعلى طول مجراه الممتد ما بين البحر وحضيض الهضبات المجاورة.

تمثل مميزات هذا الموقع ظاهرة ما كان للأقدمين غض النظر منها، أو تجاهلها وإغفال أهميتها كعلامة مميزة أضفت عليها الطبيعة المقرونة بجمال

الفن كونها نقطة حدودية لا غبار عليها، وهو ما لا يدعونا لافتراض أن تكون مؤشراً للدفاع عن حدود دولتـي سيرينى وقرطاج فحسب بل ولإقرارها ذلك الموضع الذي حمل اسم قصر أيوفرانتس أيضاً.

لا تتلاءم المسافة بين هذه القلعة وبين الزعفران، أو أسبس، مع المعنى الحرفي عند إسترابو، إلا أن ملابسة اعتبارها نقطة حدودية حصينة لا يخطىء أحد منظرها الظاهر جيداً للعيان ويجعلها مكاناً مرجواً لموضع القصر المنشود، وفي هذا حافز لنا لتفضيلها على أي مكان آخر يمكن التفكير فيه بهذا الخصوص، خاصة وأن الوصف المحدد من قبل الجغرافي إسترابو للحدود بين قرطاج وسيريني، زمن البطالمة، يتفق مع موضع هذه القلعة. هذا بالإضافة إلى أن منطقة سرت وما تعج به من قلاع لم يحدد لنا التاريخ الأسماء المعروفة بها عدا في حالتين اثنتين فقط ممثلتين في قلعتي أيوفرانتس وأوتومالا Euphrants And Automala، مما يعني والحالة هكذا أنهما لا بد وأن تكونا مميزتي الموضع وظاهرتين للعيان بشكل يفوق غيرهما.

لا يوجد بين مواضع جميع القلاع الممتدة ما بين الزعفران وهذا المكان قلعة واحدة يمكن تمييزها فعلاً عن غيرها باستثناء قلعة بن جواد، وهذا المكان الفريد الذي لا يخطىء أحد التعرف عليه لبروزه الواضح فوق نتوء يشرف على مياه البحر مباشرة، ويجعل منه معلماً لن يفشل بحار أو مسافر كإسترابو في إمكانية التعرف عليـه أثناء إبحاره أمام هذا الجزء من الساحل.

يبدو من الواضح أن اختيار موضع مذبح الأخوين فيليني لم يكن للطبيعة دخل فيه كمكان حدودي، بقدر ما تمثلت في رغبة وشغف توسيع مناطق النفوذ ولو في إقليم محدود الجدوى، هي التي كانت السبب الذي دفع بالبطالمة إلى تحريك ذلك الحد الفاصل إلى الغرب قليلاً عن قصر أيوفرانتس.

إن العابر للمنطقة عبر الرقعة الرملية التي يستدعى البحث عندها عن مذبح الأخوين فيليني، لن يسترعى انتباهه وهو يبحث عن نقطة محتملة

لإقامة حد بين جارين متخاصمين، أفضل من منطقة بن جواد، التي تتلاءم جيداً مع هذه الغاية، وهو ما لا يمكن تجاهله من قبل ملك مصر حين أرسى حدود مناطق نفوذه.

سننهي عند هذا الحد نقاشنا الطويل حول نقطة لن تفضي إلى جواب محدد، تاركين للقراء اتخاذ القرار حول ما قصده إسترابو حول هذا الموضوع.

اجتزنا بعد ترك الوادي المذكور منطقة سهلية تكثر بها حفر صغيرة مليئة برمل أحمر تنمو بها بعض الأعشاب كما هو حال السهل نفسه حيث تظهر بعض الغزلان والأرانب وابن آوى إلى جانب أعداد كبيرة من الجرابيع غير بعيد عن أفعى سامة يفوق طولها ستة أقدام، داكنة اللون وسمك يضاهي سمك اليد حيث تم إطلاق النار عليها رغم تمكنها من الهرب.

يقع مباشرة بعد النتوء الصخري، مرفأ رملي صغير يطلق عليه السكان اسم ميناء خلافاً للواقع رغم إمكانية استخدام الأقدمين له كنقطة لرسو المراكب الصغيرة.

يكوِّن النتوء المشار إليه مع رأس الحويجة Houeijah خليجاً ظاهراً يمكن استخدامه لرسو المراكب وبالذات على شاطئه الغربـي، أما بعد اجتياز بن جواد فينخفض منسوب الساحل حيث تخلو الطريق القريبة مما يثير الانتباه بما في ذلك الهضاب القريبة.

تقوم أطلال ميناء صغير على ساحل رملي غربـي النتوء الصخري السابق، بخمسة أميال، كما توجد إلى الجنوب منه على بعد ثلاثة أرباع الميل تقريباً، عدة هضاب رملية صغيرة تعلوها أكوام من مخلفات المباني التي تبرز بينها بعض أجزاء الأسوار والمنازل مما يوحي بأنها بقايا مدينة أثرية، كما يستدل على ذلك من قرب بقايا تلك المنازل إذ لم يسبق لنا رؤية مثل هذا التجمع السكني في أي مكان آخر في كامل المنطقة رغم حالتها المزرية

اليوم، مما لا يمكن معه إعطاء فكرة صحيحة عن أعدادها، أو طريقة تخطيطها، مما سيضفي على التنقيب عنها أهمية خاصة ذلك أن كلا من عاملي الزمن وضراوة العدو قد تآلفا على إحداث كل هذا القدر من التدمير.

كما يلاحظ أيضاً وجود عدد من المباني بين هذا الموقع وبين آبار اليهودية Houdea، كما هو الحال مع كامل المنطقة بدءاً من منطقة بن جواد. ولو أن مخططات المباني تأخذ أشكالاً أكثر انتظاماً، وأكثر عدداً بدءاً من منطقة آبار اليهودية.

لا جدال في أن هذا الإقليم كان منطقة مأهولة، ولو أن ما أشرنا إليه عند مناطق الهضاب القريبة، يعكس أكثر من غيره ظهور طابع المدينة على تلك المخلفات أكثر من غيرها في كامل المنطقة، وهو ما يدعونا إلى المجازفة وافتراضها موضع مدينة شاراكس Charax التي وصفها إسترابو كمدينة حدودية تعتمد التجارة محركاً لها، ويتردد عليها كل من القرطاجيين وأهل سيريني إذ بادل فيها أهل قرطاج نبيذهم بالسليفيوم والعصير المستخلص منه، لمنع السلطات الإتجار فيهما من قبل الأفراد الذين ظلوا يلجأون إلى تهريبها بكامل الحذر والسرية إلى تجار قرطاج الذين كانوا يحضرون خصيصاً لهذا الغرض.

وكما أن تحديد هوية قلعة بن جواد مع برج أو قصر أيوفرانتس لا يمكن إقراره بصورة نهائية ومن قبل الجميع، فإن الأمر يبدو غريباً للتأكيد بأن قرب مخلفات هذه المدينة من بن جواد هو أحد الأسباب التي تدعونا لافتراضها مدينة شاراكس الأثرية.

وبغض النظر عن تحديد موضع برج أيوفرانتس عند بن جواد أو خلافه، فلن نعتبر ذلك المكان عدا كونه منطقة حدودية، فمدينة شاراكس كانت مدينة حدودية ويتحتم البحث منها في مكان ما في هذه المنطقة، ذلك أن قرب مكان الآثار المشار إليها، يجعلها كموضع وحيد يصلح لاتخاذه حداً، الأمر

الذي يدفعنا إلى اعتبارها مخلفات مدينة شاراكس المنشودة. إن اعتماد هذا الرأي يحمل إقـرار آثار بن جواد موضعاً لبرج أيوفرانتس أقرب إلى الأخذ به، لأن مدينة شاراكس كما سبق القول، هي المكان الأول الذي يذكره إسترابو بعد هذا البرج، مما يجيز تصنيفها بالمدينة التي تعترض طريق المسافر من البرج الواقع غربيها.

لا شيء يبدو مؤكداً، إلاَّ أن وجود حد ومدنية إلى الغرب قليلاً منه يظلان مؤشرين للتأكد من مدى صحة الحقائق التي أوردناها كبراهين لموضع برج أيوفرانتس، والمدينة التجارية شاراكس اللتين يتحتم البحث عنهما ما بين أسبس ونهاية الخليج وإلى الغرب من مذبح الأخوين فيليني وقلعة أوتومالا.

كرر الدكتور ديلا إتشيلا هوايته المفضلة بتنقيح أقوال الأقدمين إذ تحدث عن بيع السيلفيوم في مدينة شاراكس التي حدد موقعها عند الزعفران مقترحاً بذلك قراءة جديدة في نص إسترابو، الذي يذكر هذه المدينة وتجارتها ولا شيء غير ذلك.

مضى الدكتور مخاطباً صديقه في مدينة جنوة... بقوله لن أتحدث إليك عن السيلفيوم حتى أصل إلى مكان إنتاجه... رغم أنني لن أخفي عنك ما قرأته في إحدى فقرات إسترابو وهو يتحدث عن عصير السيلفيوم بدل العصير والسيلفيوم.

نحن نعلم أن هذا النبات الذي لا يتلاءم إلاَّ مع تربة برقة، كان بمثابة مورد هام لسكان المنطقة الذين يستخلصون منه سائلاً ثميناً ذا شهرة عالية، فقد كان هذا العصير يباع لذاته تحت إشراف الحكومة، وأنه كان يشكل عماد التجارة المحرمة التي ذكرها إسترابو بين تجار كل من سيريني وقرطاج.

إذا عدت بذاكرتك وفكرت ملياً، يواصل ديلا إتشيلا مخاطبة صديقه، أن مدلول العصير البرقاوي كثيراً ما استعمله إسترابو وغيره من الكتاب الأقدمين كمصطلح مرادف للسيلفيوم، لوافقتني على ضآلة التغيير الذي يطرأ

على نص الجغرافي الإفريقي.

إننا نعترف بأن ما افترضه الطبيب الإيطالي أمر يدعو إلى الحيرة لإقدامه على المجازفة التي لا داعي لها أساساً، ذلك أن النبات ذاته كان سلعة تجارية، كما هو الحال، مع عصيره كما هو مدون في الصفحة التالية من نفس كتاب المؤلف التي أبى هذا الطبيب إلاَّ أن ينقحها حسب هوايته.

لقد ميز المؤرخ بليني بينهما بإعطائهما اسمين خاصين أيضاً إذ دعا العصير لاسير Laser، والنبات لاسيربيتيوم Laserpitium وهو ما يمكن قوله عن كتاب آخرين، ويدعونا لترك فقرة إسترابو على حالها للدلالة على معناها الأصلي والحقيقي.

نحن راضون بالقول بأن نبات لاسربيتيوم، أو السيلفيوم كان يباع أو بالأحرى يقايض في مدينة شاراكس، كما هو الحال مع العصير المستخلص منه، وهنا علينا الاتفاق مع الطبيب بإنهاء الحديث عن هذا النبات حتى نصل إلى منطقة إنتاجه ونعود لنواصل رحلتنا على امتداد سواحل سرت.

وصلنا بعد وقت قصير من مغادرة تلك الركامات التي من بينها بقايا شاراكس المحتملة، إلى آبار اليهودية، وهو اسم يظن البدو أنه جاء نتيجة لرداءة مياهها التي يرون ملاءمتها لاستعمال اليهود الذين لا يحظون بتقدير المسلمين، ومع هذا فلن نجرأ على نسبة أصل هذه التسمية إلى المصطلح الذي يعرف به هذا المكان، ولو أن نسبة هذا الاسم تظل محتملة كإشارة إلى هؤلاء المضطهدين الذين يعاملون بازدراء في هذه المناطق. إننا ندرك جيداً أن اليهود كانوا يقيمون في إقليم المدن الخمس بأعداد كبيرة، كما ندرك ما أشار إليه المؤرخ بروكوبياس Procopius بأنهم سكنوا الطرف الغربي من ذات الإقليم، مما يوحي بأن الاسم قد يعني اسم آخر مستوطنة لهم في هذه الديار، وأن الاسم ربما اكتسب كنيته من تلك المناسبة.

لا يوجد مكان آخر للراحة إلا بعد انقضاء يوم كامل من ترك

اليهودية. . . وهو ما دفعنا لنصب خيامنا لقضاء الليل عند الآبار المذكورة التي تظهر عندها العديد من مخلفات الأبنية المنهارة.

انتشرت في السنوات القليلة المنصرمة أعداد كبيرة من قطاع الطرق في منطقة اليهودية، ومع أنهم قد أبيدوا أو على الأقل تم تشتيتهم بفعل الإجراءات الحازمة التي اتخذها الباشا ضدهم، إلا أن الرعب الذي خلفوه يومها لا زالت آثاره باقية.

تم أخذ الحيطة والاستعداد بناء على اقتراح الشيخ محمد الذي لم ينس لعن كلبنا مرزوق متهماً إياه بهواية النباح حيث انطلق ليخبرنا، وهو يلتفت حوله، عن تلك المذبحة التي اقترفها البـي محمد، الابن الأكبر للباشا الحالي، كما يظهر من تلك الحجارة المتناثرة الدالّة على قبور أولائك المساكين الذين يبدو أن ما لاقوة كان شيئاً ضرورياً إذ تحول الطريق إلى طريق آمن بعد أن كان عبوره أمراً مستحيلاً.

تهتم سياسة المسلمين بتحقيق النهاية دون مراعاة للوسائل التي يمكن اتباعها في بلوغ ذلك الهدف، ومن ثمة فإن أفضل سبل التخلص من الإنسان الذميم هي السياسة المثلى في نظرهم، فنحن إذا لم نتفق مع هذه المذبحة غير الشرعية فلن يكون بإمكاننا معايشة حسناتها، فقد نمنا ونحن أكثر طمأنينة بين قبور اللصوص أكثر مما كان بالإمكان التلاءم معه لو أنها ظلت خاوية.

توجد باليهودية هضبة فريدة، يبلغ محيط قاعدتها نحو ثلاثين قدماً، يبدو الجبس ظاهراً للعيان في أغلب جهاتها، وتنتهي بكومة مخروطية تكتسى لوناً يشبه الثلج لشدة نقائها، أما الوديان فتبدو هي الأخرى واضحة الخصوبة إذ تنمو بها العديد من مختلف الأزهار إلى جانب نبات الكراث الواسع الانتشار.

تجمعت مياه الأمطار في حفرة بين الهضباب القريبة، كما زادت كميتها بفعل المزيد من التساقط في الأيام الماضية مما زاد من عذوبتها، ولو أن

تصرفات مرافقينا من العرب لم تقم اعتباراً يذكر لهذا الأمر إذ شرعوا في غسل ملابسهم قبل أن نتبين حقيقة أمرهم، لإدراكنا أن حاجياتهم، التي لا يملكون بديلاً عنها، أشياء لم يتم غسلها منذ مغادرة طرابلس، مما يعني أن هذه المياه لن تكون نظيفة هي الأخرى، ومع ذلك فقد استعنا بهذه المياه للاحتفال بمولد المسيح بطريقة أفضل مما لو أنها سقطت بعد أيام قليلة في منطقة مقفرة لا أثر للحياة فيها.

قد يتخيل البعض أن المرح والبهجة والمياه القذرة الآسنة مطلبان متنافران، إلاّ أن ضرورات الحياة قد تصبح أحياناً مباهج وكماليات حيث يتم التعامل معها على هذا الأساس من التقدير، فقد يتراءى للبعض استحالة الانشراح والغبطة دونما ضجر رغم أنهم قد يحققون الفعل ذاته بشربهم قدحاً من الماء المخلوط بالطين بعد الإحساس بالظمأ المفرط.

امتد طريقنا في اليوم التالي فوق منطقة جرداء مضرسة ما بين منطقة اليهودية وبداية حدود برقة حيث بدأت التربة تكتسب مظهراً أكثر قبولاً، فقد مررنا بعد الظهيرة بمنطقة Mahiriga حيث توجد بقايا مبنى مربع الشكل فوق إحدى الهضاب الواقعة بين الطريق وساحل البحر تبين من خلال فحصها اختلافها الكامل عن جميع الأبنية الأخرى التي سبقت رؤيتها.

أقيم برج دائري صغير على جميع زوايا المبنى ولكن بانحدار يأخذ في الاتساع كلما قرب من القاعدة، أما الجدران فقد تم بناؤها بأحجار مصقولة يبلغ طول الواحد منها قرابة خمسة أقدام استخدم الإسمنت الممتاز في تثبيت أركانها، مع الإشارة إلى أن الحجارة المستخدمة في إقامة الأبراج هي من حجم أقل، إذ تبين أنها أقيمت أساساً على الجدران الخارجية ودون أن تشكل جزءاً منها، مما يعني أنها ربما أضيفت إليها في وقت لاحق من قبل السكان العرب.

أحيطت هذه القلعة التي لم يعد أي أثر لسقفها، بسور يبلغ عرضه أربعة

أقدام ولكن لا أثر لأي خندق بالقرب منه، كما تبين أن القلعة ذاتها خالية من أي مدخل مما يعني أن الدخول إليها كان يتم عن طريق سري تحت الأرض، أو برفعهم إلى السطح عن طريق الحبال وجهد القاطنين داخلها.

عثرنا على بعض الماء الجيد في مجرى أحد المسيلات القريبة التي يبدو أنها وجدت قبول واستحسان بعض الحجاج، وهم في طريقهم إلى مكة إذ قضوا ليلتهم قرب خيامنا، فقد خلدوا إلى الراحة والنوم، بعد أداء صلاتهم، حول موقد نار كبير تحسباً لبرودة الليل والرياح الجنوبية الباردة.

نام الجميع في دائرة، وأرجلهم لا تبعد كثيراً عن الموقد دون دثار سوى برانيسهم، إذ لا شيء على ما يبدو يحد من عزيمتهم ويرهبهم من طول المسافة والمصاعب التي عليهم مواجهتها والتغلب عليها، أنهم بحق في غاية الاطمئنان والسرور، ويقدمون مساعداتهم إلى رجالنا دون طلب منهم، فقد صحبنا بعضهم إلى بنغازي وكانوا فعلاً مسرورين لتلك القروش القليلة التي منحت لهم في هذه المدينة لمساعدتهم في قطع الطريق الطويلة التي لا زالت تفصلهم عن المدينة المقدسة.

قابلنا بعض الرعاة الذين أبوا بيع ولو رأس واحد من قطعانهم من الضأن والماعز، رغم إدراكهم لحاجتنا الماسة إلى بعض اللحم، وحاجتهم هم أيضاً إلى النقود، إنها حالة شاذة وغريبة لم نتبين لها سبباً حتى ظهر أن رفضهم المطلق هذا لا يمثل سوى خدعة ومؤامرة من مؤامرات الشيخ الضبع.

تابعنا تحركنا في منطقة مقفرة وخالية تماماً مما يثير الانتباه، إلى أن وصلنا ليلاً إلى رأس لانوف، وفي الصباح، وكما هي العادة، بدأنا في اتخاذ إجراءات مواصلة الرحيل، إلا أننا نفاجأ بتجمع سائقي الإبل الذين ما إن طلبنا منهم إحضارها حتى صاحوا جميعاً.. أعطونا النقود... إنها مناورة خطط لها مسبقاً، كما هي عادة جميع فئات العرب، ومع ذلك احتار أمرنا في

تفسير سببها الذي يبدو مختلفاً جداً عن السبب الظاهر لها، إذ تم الاتفاق مسبقاً مع الشيخ الضبع على إتمام الدفع بوصولنا إلى بنغازي الأمر الذي فهمه ووعاه هؤلاء الرجال الذين هم في الواقع أقرباء له.

إنها طبيعة هؤلاء القوم الذين وجدوا في هذا المكان فرصة لفرض آرائهم بدون الحاجة إلى تبريرات لابتزاز الآخرين، إنها عادة قلما يتخلى عنها العربي حين يعي أنها فرصة مناسبة للقيام بمثل هذه المحاولة.

لن يكون بالإمكان إيجاد بقعة أكثر قفراً وعراء من التي اختارها أصدقاؤنا، لأنها لا تقل بعداً عن سفر يومين كاملين عن أقرب مكان مأهول، إضافة إلى انعدام أي نوع من المحاصيل باستثناء الصخور وابن آوى والضباع. ففي مثل هذا المكان، وبدون أي موارد تذكر، وغير قادرين على التزود بما نحتاجه من مواد غذائية ومياه، وبعيداً جداً عن الناس يتحتم علينا الرضوخ لأية مطالب.

لم يكن هؤلاء قلقين على نقودهم، فقد رأوا كيف تم دفع مستحقات أسلافهم إضافة إلى ما استلموه نظير حسن سلوكهم، إنها فقط الفرصة المناسبة التي يتحتم استغلالها، ذلك أن دفع أجورهم كل يوم يعني بالنسبة لنا أن ما نحمله كمصاريف للطريق لن يمكننا من بلوغ بنغازي، التي لن يكون بالإمكان الحصول على أي مبلغ فيها قبل وصولنا واستلام ما يخوله إذن الباشا لحاكم المدينة بدفعه إلينا.

لم يدرك هؤلاء الرجال، ولا قريبهم الشيخ الضبع، ضآلة ما لدينا من نقود، كما أنهم لم يشكوا في قدرتنا على الدفع وثارت ضجتهم لهذا الأمر بالتالي، بقدر ما رأوا ضرورة استغلال هذه الفرصة لاستلام ما يمكنهم الحصول عليه.

صممنا أمرنا، بغض النظر عن الأسباب التي رأوها، على عدم الخنوع والقبول بهذا الطلب، فقد أعلمناهم بأننا لن نمانع في الاستجابة إلى طلبهم،

لو أنهم عرضوا الأمر بطريقة أفضل، ومع ذلك فإننا والحالة هكذا قد عقدنا العزم على رفض الأمر مهما كانت الظروف دون أن ننسى تذكيرهم بالاتفاق الذي تم بموجبه تأجيرهم، وهو ما ننوي الالتزام به وتطبيقه. كما أخبرناهم أملاً في ترك الباب مفتوحاً للمصالحة، بأن معاملتنا لهم إنما تعتمد عليهم أولا وأخيراً، وأنهم إذا ما أحضروا إبلهم للتو وتصرفوا كما يجب فإننا سنغض الطرف عما حصل، وسنقدم إليهم بعض الهدايا زيادة على مستحقاتهم، كما فعلنا مع رجال مصراته.

لم يرفض الرجال إحضار إبلهم فقط بل أخذوا في إبعادها إلى الوراء، وتقدموا للوقوف صفاً واحداً وهم يعدون بنادقهم وكأنهم قد قرروا تحقيق مطلبهم مهما كانت المخاطر، فقد كان منظرهم مرعباً ومخيفاً فعلاً.

لقد بدا وكأن نزاعاً عادياً سيتحول إلى معركة لن تكون لنا مصلحة ولا رغبة في إشعال نار فتيلها، رغم إصرارنا على عدم استغلالنا مما حتم علينا إشهار سلاحنا كرد فعل وتحسب لما قد يطرأ مع تذكيرهم بأننا لن نرغب بأية حال في إصابة أي منهم، وأننا لن نخضع مهما كانت الأسباب لفرض رأيهم علينا، وأننا إذا لم يستجيبوا لمطالبنا سنرسل أحدنا رفقة جندي الباشا لإحضار إبل بديلة من منطقة برقه، أما إذا فشلا فسيواصلان سفرهما إلى بنغازي لمقابلة البـي الذي لن يفشل مطلقاً في تزويدنا بالعدد المطلوب، وأكثر من هذا سنرجع بخيولنا إلى خيم البدو عند المحيريقة حيث سيكون بإمكاننا التزود بالماء للعيش على ما بقي معنا من أرز حتى يرجع رفيقانا بالإبل المطلوبة. كما هددنا الشيخ الضبع بإعلام الباشا بمسلكه المشين إلا أنه تجاهل كل شيء ولم يبد أي اكتراث يذكر.

واصل الجميع رفض إعداد إبلهم وتجهيزها للتحرك في الوقت الذي لم يرفعوا من درجة التحدي باستثناء التلويح ببنادقهم.

لم يعد أمامنا شيء نفعله سوى الإسراع في تنفيذ خطتنا رغم مخاطر

التأخير في الحصول على جمال بديلة، وما يمكن أن نتعرض له من مخاطر عند العودة والإقامة قريباً من أقارب الشيخ الضبع الذي لم نعد على وفاق معه هو الآخر. نعم لقد بات الأمر جلياً فإما الخضوع لهؤلاء المتمردين، وإما الإقدام على تنفيذ خطتنا التي ما إن بدأنا العمل على تحقيق الجزء الخاص منها بإرسال موفدينا إلى بنغازي حتى بدأت الأمور تأخذ طريقاً آخر إذ لم يعد لحسن الحظ داع لمواصلة المشوار.

كان الشيخ أول من أخذ يلين ويتراجع ربما لخوفه من إبلاغ الباشا بتصرفه المشين خاصة وأنه يعرف جيداً ماذا سيكون عليه موقفه مستقبلاً بعد رفضه المتعمد لتلك الأوامر التي أبلغها له عند تكليفه بمرافقتنا إلى بنغازي، فقد خرج من خيمته ليتحدث مع كل فرد من مجموعته متظاهراً بإقناعهم بالعدول عن مطالبهم، وإحضار إبلهم والبدء في الاستعداد كما هي العادة، علماً بأن كلمة واحـدة منه كانت كافية لوضع نهاية لهذا الخصام في أي وقت.

واصل الشيخ الضبع مسرحيته بكل وقار وبدأ الانفراج يأخذ طريقه دون تدخل منا، ودون أن نشعره بما قام به من مناورات مع الإقرار بأن تمثيل المشهد كان رائعاً من الجانبين، فقد تظاهر بعضهم بالمعارضة بصوت عال، في حين تظاهر آخرون بعدم السماع لما يقوله أصلاً، بل وقاموا بإبعاد إبلهم والشيخ يسير من ورائهم ممسكاً بأطراف جرودهم في مشهد تمثيلي رائع.

ظهر الشيخ أخيراً في خيمة خدمنا لإبلاغهم والأسى باد على ملامحه، بنجاحه في إقناع هؤلاء المتمردين في التخلي عن مطالبهم وإحضار إبلهم لمواصلة المسيرة حيث بدأ في ترديد قائمة طويلة من الحجج التي كان عليه استعمالها لإقناعهم بالتنازل عن مطالبهم بما في ذلك تعهده شخصياً بالإيفاء بكامل حقوقهم.

لم يقتنع رجاله بهذا التعهد، وهنا ما كان منه، لحسن الحظ، سوى

تقديم البرنوس المطرز بالذهب الذي قدمه إليه الباشا عند مغادرته طرابلس، كرهن على تعهده لهم.

تعلقت عيون الجميع بهذه الهدية، واصل الشيخ حديثه، التي ما إن أخرجها من محفظته حتى أعلنوا التزام الصمت، وطاعة كل ما يأمر به مقابل هذا الرهن القيم.

لن يكون إدراك من لم يسبق لهم التعامل مع العرب بالأمر الهين تخيل تلك المصاعب والمشاق التي يضعون فيها أنفسهم مقابل تمثيل مثل هذا الدور الذي تحبك أطرافه حتى ليخيل للناظر البريء، أن ما يجري مبالغ فيه خلافاً للوضع معنا، إذ ألفنا مناظر كثيرة مشابهة رغم أننا لم نشك مطلقاً أن الأطراف المعنية لم تكن صادقة، فقد عملت وكأنها تعزف في فرقة واحدة حتى أخذ الشيخ في التدخل، فإظهار العربي لروح المزح في حال فشله في الحصول على ما يطالب به يعد من المظاهر البارزة الأخرى التي تشكل شخصيته، كما أنه لا يقر بأسفه على ما تحمله من متاعب رغم قضائه وقتاً طويلاً في الإعداد لما ينوي القيام به من مناورات، إلى جانب الجهد الذي يتطلبه تنفيذها، إضافة إلى أنه لا يحمل نوايا سيئة ضد من يكتشف أمره رغم مداومته على تكرار الحدث، وكأنه قصة رائعة رغم فشلها، مع تكرار إطرائه لمن أفشلوا خططه الرائعة بالوقيعة بهم.

لم نر عائداً يستحق الذكر من إعلام الشيخ بما قام به من خداع، إذ واصل الحديث عن براعته وحكمته في إنهاء الأمر، كما ظل يؤمن بكسبه كامل ثقتنا بما أسداه لنا من جميل مقابل رهنه لعباءته لتخفيف ما نعاني منه من ضائقة، هذا الحدث الذي استمر في جعله مرآة تعكس حكمته وحسن تدبيره.

عاد الرجال بجمالهم وباشروا تأدية سابق مهامهم، وانطلق الجمع إلى منطقة المختار التي وصلناها ساعة الغروب وكأن شيئاً لم يحدث.

الفصل التاسع

اجتزنا بعد مغادرة لانوف، أرضاً صخرية مقفرة بكل معنى الكلمة، إذ لا أثر لأي مخلوق باستثناء ضبع وحيد، وإحدى أبقار الوحش اللذين أسرعا بالهروب والتواري عن أنظارنا.

كان طريقنا خلال اليومين المنصرمين صخرياً ويبعد قليلاً عن البحر، ولو أن الساحل ما بين اليهودية والمختار منخفض وتحفه التلال الرملية في معظم أجزائه التي تظهر بها مرافىء صغيرة لا تعلو صخورها على قدم واحد فوق مستوى المياه من حولها.

تشكل منطقة المختار الحد الفاصل بين منطقتي سرت وبرقة حيث رسمت معالم الخط الحدودي بأكوام صغيرة من الحجارة تظهر عندها معالم طريق ثانية تتجه صوب الجنوب إلى مناجم السلفا عند مقطع الكبريت على بعد مسيرة يوم ونصف.

تنقل مادة السلفا على الإبل إلى منطقة البريقة حيث تأتي بعض السفن أحياناً لنقلها مما يفسر إطلاق العرب على هذا الجزء اسم خليج الكبريت.

تقوم في هذا المكان هضبة مستوية السطح يعرفها السكان باسم جبل الله، إضافة إلى سبخة كبيرة تدعى المختار انطلقنا قرب حافتها لعدة أميال،

اجتزنا بعدها حافة مرتفعة تعرف بالجرية Jeria، حيث واصلنا السير إلى منطقة الساكرين Sackrin لقضاء الليل.

بلغنا عند هذه النقطة أقصى أطراف خليج سرت تطرفاً نحو الجنوب، إنها رقعة ساحلية قلما يوجد نظير لها ضمن أي من جهات العالم المناظرة لها في جدبها وكآبتها، إنها منطقة أسباخ وصخور جرداء لن تسعف العين فيها مطلقاً برؤية مخلوق ما، أو أثر لنبات في أي اتجاه كان.

إن السكون المطلق الذي يميز ليالي هذا المكان الفاصل لن يقطعه أو يثير صفاءه عدا عواء أصدقائنا القدامى من الضباع، وابن آوى التي ما انفكت تتردد ليلاً على خيامنا في عديد الجهات الأخرى، حتى ليخيل إليك أن اتفاقاً ما قد تم بين جميع الكائنات الحية بإسقاط هذه المنطقة من قائمة المناطق المؤهلة للحياة.

تمثل ساكرين قاعدة خليج سرت مما يجعلها المكان المناسب لتحديد الشكل الدقيق للساحل عند نهاية هذا الخليج الواسع، الأمر الذي دعانا للذهاب مبكراً إلى تلك الجهة المرتفعة التي أشرنا إليها عند الجرية حتى نتمكن من مقارنة الشكل الفعلي للخليج عند هذه النقطة، مع تلك التي حددها الجغرافيون الذين تركوا وصفاً لها.

حال الضباب الكثيف دون رؤية الكثير مما حولنا إلى ما قبل الظهيرة حين بات بالإمكان رؤية طرف كبير من خط الساحل بوضوح تام.

كانت مختلف الخرائط بحوزتنا، وتحققت بذلك الفرصة الحقيقية لما كنا نأمل فيه، ولكن كم مختلفة الصورة التي تتيحها المشاهدة مع تلك التي خطها معظم الكتاب، وعلينا مقارنتها مع الواقع الذي لا يظهر أبداً أي أثر لذلك الخليج الذي تصوره الخرائط الحديثة. فما نشاهده عبارة عن ساحل يسير في اتجاه الشرق والغرب مع انحراف لا يكاد يذكر، وأن مكان الموانىء العديدة والتعرجات التي تبدو على الخرائط أمامنا فلا أثر لها باستثناء فجوة صغيرة لن

يكون بمقدورها توفير الحماية للمراكب مهما كان وصفها.

تظهر الخريطة المنسوبة إلى الجغرافي بطليموس أدق ما تركه السلف قرباً من واقع الساحل، وفي هذا تأكيد بأن ما حاول الجغرافيون المحدثون إبرازه في هذا الشأن، هو في حقيقة الأمر خطوة للابتعاد عن الحقيقة إذ يصعب تحديد دوافعهم وراء إظهار خليج صغير عند نهاية خليج سرت اللهم إلاَّ إذا كان مجرد اجتهاد منهم عند محاولتهم تفسير نصوص الأقدمين في هذا الشأن.

فقد حدد إسترابو موضع قصر أو قلعة أوتومالا عند أقصى الطرف الجنوبي لهذا الخليج، أما بليني فقد تحدث عن الساحل الذي تقطنه قبائل اللوتوفاجي Lotophagi الواقع هو الآخر عند المكان الذي سبق لإسترابو ذكره، وفي هذا ما قد يكفي ويدعو إلى الاعتقاد بوجود خليج صغير عند المحدثين من الجغرافيين، الأمر الذي يناقض الواقع رغم صعوبة تأكيده قبل الآن لانعدام مسح كامل ودقيق. وعلى أية حال، فإن الافتراض بإمكانية استنتاج مثل هذا الأمر من محاولة تفسير نصوص إسترابو، فإن الأمر يبدو عادياً للثقة التي يتمتع بها بين العديد ممن نقلوا عنه دون التزام الحذر الكافي وبالذات حين نعلم أن المعنى قد وصف هذا الساحل من على ظهر إحدى المراكب، وأنهم كانوا عند الاعتقاد بأنه قد وصف ما رآه فعلاً.

ومهما كان الأمر فنحن نؤكد بما لا يدع مجالاً للريبة عدم وجود أي أثر لخليج كهذا، وأن اتجاه خط الساحل عند نهاية خليج سرت هو اتجاه شرقي غربي لمسافة عدة أيام ينعطف بعدها ببطء نحو الشمال بدرجة يصعب على العين تحديد أبعادها.

كما حدد كتاب عديدون رقعة واسعة من الرمال المتحركة في هذا الجزء من ساحل خليج سرت، إلا أننا اجتزنا مناطق الرمال والتلال الرملية على ظهور جيادنا وفي مختلف الاتجاهات، مما يمكننا من القول بأن عبور

هذه المناطق لا يشكل عقبة تذكر، ولا يختلف بحال عن المناطق الجافة المشابهة لها، خلافاً لما تجاسر الدكتور ديلا إتشيلا عن الإفصاح عنه من يقين، وهو يدون كلماته واصفاً من خلالها ما عساه أن يحدث للجيش الذي يرافقه قائلاً. . . آه لنا لو هبت رياح السيروكو الجنوبية فوق رؤوسنا في هذا المكان لا قدَّر الله. . . إنه الهلاك ودفن كامل الجيش تحت الرمال التي تحركها وتحملها الرياح إلى أعلى وكأنها أعتى أمواج البحر.

إن توفر نوع ما من الرطوبة في مكونات الرمال العالية التي سببت كل هذا الذعر والهلع للمعنى، ما كان لها لتثير في نفسه مثل هذا المصير المحتوم له وللجيش المرافق له، لأنها لن تكون كذلك لو أنها كانت منطلقة من الجنوب.

إن توقع الهلاك والدفن المشار إليه قبل أوانه جاء نتيجة اعتقاد الدكتور بأن مجموعة الهضاب الرملية المبعثرة على طول الساحل إنما تكونت بفعل عامل النقل الهوائي من المناطق الصحراوية إلى الجنوب منها، إننا نشك في هذا الأمر، وفي ذلك ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن قضاء سبع ساعات ونصف، التي استغرقتها رحلة الجيش لاجتياز هذه الكثبان تحت أشعة شمس حارقة، هي الدوافع لما حاول الطبيب تفسيره لاعتقادنا الجازم بأن تكون هذه المعوقات لا علاقة لها مطلقاً بالمناطق الجنوبية، ذلك أن جميع الكثبان الرملية الموجودة على طول ساحل منطقة سرت هي رمال بحرية الأصل، ولا علاقة لها بالصحراء بأي شكل.

وأكثر من هذا تخلو المنطقة الواقعة جنوبي سلسلة الكثبان الرملية الساحلية هذه والصحراء من أية عوائق مهما كان نوعها، الأمر الذي لا يجيز انتقال كل هذه الكميات من الرمال وبلوغها حط الساحل، رغم أن المعنى يذهب في تماديه لتأكيد رأيه بفشله التام في رؤية أية مناطق ظاهرة الارتفاع في الاتجاه الجنوبي، وفي هذا ما يعطيه دليلاً آخر على انتقال هذه الكثبان الرملية

من الجنوب، إضافة إلى حديثه عن هبوب الرياح الشمالية من البحر صوب الجنوب الأمر الذي ما كان ليحدث إذا ما اعترضت اعترضت طريقها سلسلة من الهضباب، وما رواه أيضاً نقلاً عن هيرودوت، عن رحلة قبائل Psylli (سيللي) الذين تم دفنهم جميعاً نتيجة لهبوب عاصفة رملية، ذلك أن المنطقة الواقعة بين الصحراء والبحر لا تتكون من شيء عدا رمال حمراء مرعبة!!.

إن إقرار مثل هذه الحقيقة عن تربة من هذا النوع تنتشر في المنطقة الواقعة ما بين نهاية الخليج والصحراء الكبرى، يعني وجودها في منطقة تقطعها مع الأسف، سلسلة من الهضاب يتراوح ارتفاعها بين أربعمائة وخمسمائة قدم إلى الجنوب قليلاً من الساحل، الأمر الذي يدعونا إلى القول بأن كامل المنطقة التي وصفها الدكتور، لا يخلو طرف منها من وجود مناطق مرتفعة، وفي هذا ما يدعونا للأسف لوضع عراقيل إضافية تعترض مسار الرياح الشمالية وهي في طريقها صوب الجنوب رغم ما قد يتسبب عن ذلك من حرمان المناطق الممتدة ما بين ساحل البحر ومنطقة النيجر من أثر هذا النسيم المنعش.

وأكثر من هذا علينا تأكيد حقيقة أن هذه التلال الممتدة ما بين أسفل الخليج والصحراء الكبرى، ليست تلالاً رملية بقدر ما هي مناطق تجمع بين أراضي سبخية ومناطق صخرية مختلطة بالرمال التي يؤكد الدكتور أنها فقط النوع الوحيد السائد. وأكثر من كل هذا يتحتم القول بأن الجزء الوحيد الذي تكسوه الرمال الحمراء إنما يوجد بالقرب من مناجم السلفا، وأن هذا اللون لا يعود لسبب سوى لطبيعة التربة ذاتها، كما أنها شديدة النعومة مما يعطيها طبيعة الغبار بدل رمل الصحراء ذي اللون المتعارف عليه، إضافة إلى عدم تجمعها في أكوام واضحة كتلك الموجودة على الساحل إذ ينحصر توزيعها في حفر صغيرة قد تنمو عليها بعض الأعشاب، زيادة على أن هذا النوع لا يناظر لا تلك الرمال الساحلية، أو الموجودة في النطاق الصحراوي.

إننا في حيرة من تجرؤ ديلا إتشيلا وربطها بتلك الكثبان الرملية الساحلية ذات اللون الأكثر بياضاً من رمال الصحراء، في حين أن ما يعنيه أكثر نعومة إن لم تكن كالمسحوق الأحمر تقريباً، وأكثر من هذا يمتد تواصل الهضاب الرملية مسافات طويلة أبعد من المنطقة التي تنتهي عندها الرمال الحمراء حسب زعمه.

وكما نختلف مع الدكتور حول هذه النقطة، علينا أن نعترف أيضاً بأن حدسه حول امتداد الخليج صوب الجنوب لا يقوم على أساس أكثر واقعية من ملاحظاته حول امتداد الكثبان الرملية.

إن الأمر يبدو غريباً إذ بينما حدد شكل أو هيئة نهاية الخليج بطريقة خاطئة على معظم الخرائط الحديثة، فإن خط العرض الذي رسم لها من قبل نفس المصادر لا يبعد كثيراً عن الواقع، مما يجعلنا نقر بأن النهاية المشار إليها لا تقترب بالمرة من الصحراء مثلما تشير إلى ذلك الخرائط التي أشار إليها المعنى، ناهيك عن الثقة التي تدفعه إلى تبني رأي مخالف، اعتماداً منه على ثقة صديقه الربان لاوتير Lautier.

يتحتم علينا، في مكان ما عند نهاية هذا الخليج، البحث عن النصب التذكاري للأخوين فيليني إذا كان لا يزال له وجود، علماً بأن الجغرافي إسترابو قد أكد اختفاء أثره على أيامه، ومهما كان الأمر فإن اختفاء تلك الأعمدة التي حددت موضع دفن الأخوين، إلا أن قصة تلك البطولة ما تزال محفوظة ضمن صفحات كتب التاريخ، ولو أن رواية المؤرخ سالأست عن تلك الواقعة التي لا يرى فيها ما يستحق التضحية، ما قد لا يروق للقارىء إذ كتب يقول... أثناء حكم القرطاجيين لمناطق شاسعة من إفريقيا، كان سكان قورينا أقوياء ويتمعون بالرخاء هم الآخرين... وبما أن المنطقة الفاصلة بين إقليميهما كانت منطقة سهلية تكسوها الرمال، ولا أثر فيها لمناطق جبلية أو مجاري مائية يمكن اتخاذها معالم للفصل بين المملكتين اللتين نشبت بينهما

العديد من الحروب الدامية، التي أفرزت بعد تكرار الكر والفر توصلهما إلى الاتفاق التالي: . . . يتم اختيار نفر من الناس من كل دولة بحيث يتم تركهم لبيوتهم في يوم ووقت محدد يتم الاتفاق عليه سلفاً بحيث تشكل نقطة التقائهم حداً لكلا المملكتين.

حقق الأخوان فيليني سرعة أكبر في سفرهما من ممثلي سيريني، ثم يمضي المؤرخ ليؤكد عجزه عن تأكيد ما قيل عن احتيال الأخوين للأمر، فما حققه الأخوان قد يكون مجرد صدفة تجمعت من تواني وتكاسل فريق سيريني. . . حيث مضى ليؤكد بأن الجو العاصف قد يسبب التأخير كما هو الحال مع السفر في البحر، فالرياح العاتية تثير عواصف من الأتربة من شأنها إعاقة النظر وإنهاك القوة مما يحتم إبطاء سرعتهم وتأخرهم بالتالي.

أثار فريق سيريني بمجرد معرفتهم للأراضي المترامية التي فقدت منهم، وما يترتب على ذلك من ضرورة المناداة بمعاقبتهم والقصاص منهم، مزاعم اتهموا من خلالها الفريق القرطاجي ببدء سفرهم قبل الموعد المتفق عليه، مما أثار نزاعاً حاداً دفع بهم لتقديم أية تضحية مهما كانت بدل عودتهم مهزومين.

طلب الفريق القرطاجي، في ظل مثل هذا الجو المشحون بالانفعالات، من الفريق الآخر تقديم أية شروط يرونها للخروج من هذا المأزق الأمر الذي دفع بهم إلى اقتراح مفاده قبول القرطاجيين أن يدفنوا أحياء في ذات الموضع الذي يرونه حرياً بهم، وإما السماح لهم بالتقدم إلى المكان المناسب حيث يتم دفنهم أحياء.

قبل القرطاجيون الاقتراح بدون تردد خدمة لوطنهم، وتم تنفيذ الاتفاق في ذات البقعة التي أثارت النزاع بينهم حيث تم تشييد نصبين إحياء لروح وطنيتهم من قبل شعبهم الذي خلد ذكراهم في قرطاج ذاتها.

رويت قصة الأخوين فيليني من قبل أكثر من كاتب وبتفاصيل قد لا

تتفق مع بعضها إذ نقل المؤلفان عن النقيب رينل قوله: . . . امتدت الإمبراطورية القرطاجية زمن حملة هانيبال على إيطاليا عام 217ق.م. إلى نصب الأخوين فيليني المقام في الطرف الجنوبي الشرقي من خليج سرت الكبير . . . تبدو قصة الأخوين، كما تروى، غير مقبولة في بعض جوانبها، إذ قيل بتحرك طرفي النزاع من عاصمتيهما قرطاج وسيريني، حيث تقابلا في موضع النصب التذكاري الذي تم تشييده في تاريخ لاحق، فهذا النصب قد أقيم عند نقطة تبعد سبعة على تسعة من كامل المسافة بدءاً من قرطاج في اتجاه سيريني، مما يوضح حدوث تلاعب أو خداع واضح إذا ما قدر لنا القبول بإمكانية قطع الفريق الأول لأكثر من ثلاثة أمثال ما اجتازه الفريق الثاني مما يطرح تساؤلاً عن إمكانية عقد اتفاق تم بموجبه تعديل موعد انطلاق كل منهما، أو أنهما قد انطلقا من طرفي الإقليم المتنازع عليه، وليس من عاصمتيهما.

حددت خريطة بيوتينجر Peutinger مكان النصب التذكاري صوب الغرب غير بعيد عن المنطقة المعروفة بسرت الصغرى، خليج قابس، في حين يتفق كل من بطليموس، وإسترابو، وبليني، وميلا على أنه في مكان ما في منطقة سرت الكبرى، وبالذات في المنطقة الواقعة قبل قلعة أوتومالا للمسافر باتجاه الشرق كما أكد ذلك الجغرافي إسترابو مما يفرض تقفي أثر ذلك النصب في المنطقة التي تمت الإشارة إليها انطلاقاً من تحديد تلك القلعة في نهاية الخليج الجنوبية حسب رواية نفس الكاتب.

يبدو الأمر صعباً في إيجاد تلاؤم بين وجهتي نظر كل من بليني وميلا ذلك أن موقع النصب التذكاري للأخوين فيليني كما حدده أول الكاتبين يقع على الحد الشرقي لإقليم قبائل اللوتوفاجي عند الطرف الجنوبي لخليج سرت، في حين أشار الثاني بأن إقليم تلك القبائل إنما يبدأ من رأس بوريم Boreum وينتهي شرقاً عند ما يعرف حالياً برأس السم، مما يعني أن منطقة انتشار القبائل المذكورة يقع ضمن ما يعرف بمنطقة برقة التي تنتهي عند رأس بوريم.

إن هذا التباين في الرأي قد يكون الدافع الذي حدا بالمؤرخ سيلاريوس إلى تحديد كل من رأس بوريم وأبيدام Oppidum عند الطرف الجنوبي لخليج سرت، انطلاقاً من قول المؤرخ بروكوبياس Procopius الذي حدد موضع مدينة بوريم Boreum بأنها أقصى مدن إقليم البنتابوليس تطرفاً نحو الغرب، وعلى بعد مسيرة أربعة أيام من أوجلة، إنها نفس المدينة التي سبق وصفها باليهودية، التي استوطنها يهود من برقة وكانت معفاة من الضرائب، وقام بتحصينها آمر الإمبراطور جوستنيان.

كما أن رأس بورنيون Bornion قد ورد ذكره من قبل المؤرخ بليني أيضاً الذي وصفه بأنه النهاية الشرقية لخليج سرت، الأمر الذي ذكره أيضاً كلٌّ من بطليموس وإسترابو الأمر الذي يتيح لنا القول بإمكانية وجود مكانين يحملان نفس الاسم إذ بدون ذلك يبقى مجال التلاؤم بين وجهات النظر هذه خارج إمكانية القبول به أصلاً، الأمر الذي رآه سيلَّاريوس ودفع به إلى القول بوجود الاسمين معاً حدَّد أحدهما على الحد الشرقي في حين اتخذ من نهاية خليج سرت الجنوبية مكان الرأس الثاني.

لن يكون باستطاعتنا إنهاء الحديث عن هذا الموضوع دون ملاحظة أن ما خلفه الكتاب السابقون من إشارات عن طبيعة تربة المنطقة، لا تمت بصلة إلى وصف مبني على المشاهدة فعلاً، فقد ذكر إسترابو أن القائد كاتو Cato قاد جيشه عبر منطقة سرت وسط رمال حارقة، في حين أعطى لوكان Locan وصفاً شعرياً مبالغاً فيه لمسيرة ذلك الجيش، أما المؤرخ سالأست فقد تحدث هو الآخر عن سهل رملي عند إشارته إلى قصة الأخوين فيليني والنصب المقام لهما في منطقة لا أثر لنهر أو جبل فيها.

إن الحديث عن سهل رملي عند الطرف الجنوبي لخليج سرت أمر لا يمت للحقيقة بصلة، فمع الاعتراف بعدم وجود أثر لمجرى دائم فإن نكران وجود هضاب صخرية ظاهرة الارتفاع يبدو أمراً مخالفاً للواقع أيضاً، صحيح

أن هذه الهضاب تسير باتجاه شرقي غربي وأنها لا تشكل بالتالي حدوداً ظاهرة، إلا أن وصف سالأست ومن بعده ديلا إتشيلا للموضوع يعني أن تبايناً في طبيعة الأرض خارج الكثبان الرملية، لا أثر له بالمرة، وفي هذا ما يخالف الواقع والحقيقة.

مرة ثانية إذا كان لحقيقة أن القائد كاتو قد قاد جيشه فوق الهضاب الرملية التي يبدو أن الجيش الذي يرافقه الدكتور ديلاً إتشيلا قد سلكها بصعوبة بالغة، هو الآخر، فإن ما قيل لا يبدو دليلاً على قول أكيد، ذلك أنه باستثناء مكان واحد حيث تعوق السبخة يسر الانتقال والحركة لقرب الكثبان الساحلية من حافتها، فإن باقي الطريق لا تعترضه أية رمال لاستواء الأرض جنوبها، مما لا يترك مجالاً لاضطرار الجيش لاجتياز الكثبان الرملية المحاذية للساحل التي تتوفر بها كميات أكبر من المياه الجوفية في العديد من الآبار التي لا شك أن مرشديهم كانوا على علم تام بها.

إن ما ذكر ينطبق تماماً على كامل مساحة المنطقة التي ينحصر ظهور بعض الكثبان الرملية بها قرب ساحل البحر فقط، إذ لا وجود يذكر لها خارج مناطق خط الساحل، وأكثر من هذا، فإن المناطق الواقعة جنوب الكثبان الرملية المجاورة لأقصى الطرف الجنوبي لخليج سرت تصبح أراض قابلة للزراعة بل وتوفر بعض أطرافها مناطق ممتازة للرعي، وعليه فإن النظر إلى منطقة سرت بكاملها على أساس أنها منطقة تكسوها الرمال، كما تهيأ للأقدمين، فإننا بذلك نكوّن فكرة جد خاطئة عن طبيعة أرض هذا الإقليم.

يوجد على بعد نحو ميل وربع شمال غرب منطقة ساكرين، التي يمكن اعتبارها نهاية امتداد الخليج جنوباً، مسيل صغير يدعى أبو شعيفة، تظهر إلى الجنوب منه سبخة كبيرة توجد بها بقايا آثار يبدأ منها مجرى وادٍ في اتجاه الشرق، غير بعيد عن الكثبان الرملية الساحلية التي يسير الطريق محاذياً لها وعلى بعد خطوات فقط من حافة السبخة.

إنها المنطقة التي يبدو أن الجيش الذي يرافقه الدكتور قد سلكها فقد تكون مياه السبخة قد امتدت لتصل أقدام التلال الرملية، مما لم يترك لهم مجالاً سوى لاجتياز الكثبان الرملية الشاطئية، أو لأنهم فضَّلوا ما قاموا به فعلاً مقابل المرور عبر طريق ضيق عند حضيض تلك الكثبان، وهو الطريق الذي اجتزناه دون مخاطر رغم اضطرارنا أحياناً السير فرادى تجنباً لمياه السبخة.

إن إمكانية إلقاء هذه الكثبان الرملية كميات هائلة من رمالها فجأة فوق رؤوسنا سيكون بالفعل أمراً يؤدي إلى دفننا أحياء نتيجة لأوزانها الهائلة، الأمر الذي سيؤدي حتماً لمواجهتنا لصعاب جمة، قد تقضي علينا فعلاً، غير أننا نعترف بأننا لم نتوقع آثاراً قاتلة لهبوب الرياح الجنوبية، ولا أن نتوقع حدوث انزلاق رملي في اللحظة الحاسمة ليأتي علينا.

ساعتان من الوقت تكفي لاجتياز هذا الممر الواقع بين الكثبان الساحلية، وحافة السبخة في أي وقت من السنة مما يعني أن عبور الكثبان هذه سيعني مضاعفة الوقت على أكثر تقدير وفي أسوأ الحالات.

تخلو كامل منطقة خليج سرت وفي أي فترة من العام من ضرورة عبور واجتياز الكثبان الرملية، وفي هذا ما يجعلنا في حيرة من أمرنا عن الكيفية التي اجتاز بها جيش البـي، والجيش الروماني من قبله إقحام نفسيهما في اجتياز هذه الكثبان بالذات التي بمجرد أن تنتهي السبخة تبدأ الأرض الصالحة للرعي في الظهور، وأكثر من هذا بلغنا بعد انقضاء خمس ساعات فقط من منطقة سكرين، مكان الجرتوبة Gartubba حيث أقام بعض العرب خيامهم، وأقمنا نحن لقضاء الليل.

انطلقنا صباح اليوم التالي إلى البريقة التي توقعنا حركة وازدحاماً في مينائها، كما هو الحال في ميناء طرابلس بناء على أقوال مرافقينا من العرب.

كانت البريقة محطة محصنة جداً كما يظهر من مخلفات القلاع الواسعة المتينة البنيان التي أقيمت إحداها على ربوة غربـي الخليج وآلت اليوم إلى

ركام يقف إلى جانب بقايا مبانٍ أخرى كانت متصلة مع بعضها حيث تبين من فحص إحدى حجراتها وكأنها كانت إما مخزناً للغلال أو خزاناً للمياه مما يبين مدى جودة الإسمنت الذي إستعمله الرومان لإقامة منشآتهم الدفاعية في كامل المنطقة، إذ بينما تهاوت الحجارة من حوله بقي الإسمنت محافظاً على تماسكه رغم تعرضه للرياح الشديدة والأمطار، كما عثرنا على بعض الحروف الإغريقية والرومانية المنقوشة على بعض الجدران إلى جانب رسم لسفينة وآخر لشجرة نخيل.

تبين أن سطح الإسمنت حيث الرسمان المشار إليهما ما يزال ناعماً وأملسَ، وكان أملنا كبيراً بالتالي في العثور على بعض النقوش والكتابات على بعض الجدران حتى نتمكن من تحديد تاريخ إقامة هذه المنشآت، إلا أن أملنا خاب مع الأسف رغم أن المنطقة القريبة كانت مليئة بقطع الفخار والزجاج المهشم التي عثرنا بينها على قطعة عملة نحاسية تعود إلى زمن الإمبراطور أوجاستس.

كان العمل يجري بجانب مسح وتنظيف أحد الجدران لإحدى هذه القلاع حتى يمكن قياس البوابة المؤدية إليها، إلى جانب أخذ القياسات اللازمة لتحديد شكل الميناء الذي أدى خلوه من أية مراكب إلى تسهيل عملنا حيث تبين أن أفضل نقاط استعماله إنما تقع في الجانب الغربي غير بعيد عن الربوة التي أقيمت القلعة المذكورة فوقها، إذ بالفعل أمكننا العثور على كميات من السلفا في أحجام متساوية، جلبت من منطقة تعدينها التي يقال إنها ملك لمحمد علي باشا مصر.

تقع إلى الجنوب الغربي من هذه المنطقة بحيرة مالحة، وسبخة كبيرة يبدو أنهما واقعتان أقل من منسوب سطح البحر الذي تظهر بعض مياهه منسابة من ارتفاع يعلو مستواهما بنحو سبعة أقدام، وأكثر من هذا تبدو الأرض الواقعة على حافتي البحيرة الشرقية والغربية منخفضة مما يوحي

بإمكان اتصالها بالبحر مباشرة في وقت ما، مما يعني أن الأرض التي أقيمت القلعة فوقها كانت بمثابة جزيرة صغيرة.

إن تأكيد توفر عمق كاف في ميناء البريقة يعني إمكانية دوام استعماله بغض النظر عن اتجاهات الرياح، نتيجة لتلك الحواجز الصخرية أمام مدخله إذ يمكن التعرف واللجوء إليه بتلك التلال الرملية العالية المطلة عليه، إلى جانب مخلفات ذلك الأثر المقام على البقعة الصخرية، عند نهاية طرفه الغربـي.

توجد بين التلال الرملية بعض الآبار التي رغم ارتفاعها الواضح فوق مستوى سطح البحر، إلا أن مياهها رديئة، أما إلى الجنوب من هذه التلال فتبدو المنطقة هضبية الطابع مع وجود مـراعٍ لبعض الإبل وبعض قطعان الضـأن والماعز، التي فشلنا في الحصول على اقتناء شاة واحدة منها بسبب مناورات صديقنا الشيخ الضبع الأمر الذي تكـرر مرة ثانية في منطقة قرطوبة Cartuba التي تحمل نفس المواصفات تقريباً.

يقع بين هذه التلال الخضراء بعض الآثار لعدد من القلاع المربعة الهيئة التي استخدمت في بنائها أحجار كبيرة دقيقة الصنعة مما يدل على أن البريقة كانت محطة عسكرية على جانب كبير من الأهمية، فقد عثرنا إلى الجنوب منها بعدة أميال على بقايا قلعة يحيطها خندق وتدل أساساتها على أنها حصينة جداً هي الأخرى. إن إعطاء البريقة اسماً قديماً إذا دعت الضرورة إلى ذلك، يدعونا إلى القول بأنها موضع قلعة أوتومالا Automala التي كانت هي الأخرى محطة عسكرية، حسب رواية إسترابو، واستغرق وصول جيش أوفيلاس Ophell'as إليها ثمانية عشر يوماً من برقة حيـن توجه لمحاربة القرطاجيين، كما جاء في رواية ديودورس الصقلي.

إن موقع قلعة أوتومالا كما حددها إسترابو عند نهاية الطرف الجنوبـي لخليج سرت لا ينطبق تماماً مع الوصف الدقيق لاتجاه خط الساحل الذي بدأ

فعلاً في الانحراف نحو الشمال قبل بلوغ البريقة، ومع ذلك فإن المكان الذي يطابق الوصف لهذه القلعة لا يمكن اندثاره نهائياً، إضافة إلى عدم وجود مكان مشابه عند الطرف الجنوبي لهذا الخليج قبل بلوغ مكان البريقة، إضافة إلى أن وجود قطعة نقود تخص الإمبراطور جوستنيان يعني أن البريقة كانت موجودة زمن ذلك الإمبراطور، وأكثر من هذا فإن هيئة وقوة مخلفات المباني القائمة يومها، إنما تؤكد أنها كانت محطة عسكرية، وبما أن ذكرالأماكن المحصنة يومها قد اقتصر على ذكر قلعة أوتومالا، وعليه فإن البريقة إذا لم تكن تمثل مخلفات تلك القلعة فإن الأمر يعني تجاهل الأقدمين لها، وأننا نجهل بالتالي أي اسم يمكن أن يلحق بها.

إننا نميل إلى اعتبار تحصينات البريقة هي ذاتها التي نسبت إلى قلعة أوتومالا آخذين في الاعتبار قربها من مخلفات أخرى تتطابق مع ما وصفت بالمحطات البحرية التي ظهرت على خريطة بطليموس التي ظهرت عليها اسم المحطات المشار إليها إلى الشمال قليلاً من قلعة أوتومالا ودون ظهور اسم آخر بينهما، مما يعني أن موقع البريقة بالنسبة لموقع تابيلبا Tabilba الذي يتفق تماماً مع اسم المحطات البحرية يعني بدون لبس أن اسم أوتومالا هو بالفعل المكان الذي تحتله البريقة اليوم.

تمثل منطقة سكرين بدون شك النقطة الأكثر تطرفاً صوب الجنوب لخليج سرت في وضعه الحالي، ولو أن هذا لا ينفي أن نقطة أخرى تبعد عنها بمسافة عشرين ميلاً تقع هي الأخرى في هذا الاتجاه وبالذات لمن ينظر إليها من البحر.

فالبريقة تبدو من اتجاه البحر ظاهرة للعيان في جميع الأوقات، وعليه فإننا لا نتخيل أن القلعة ذات الارتفاع الواضح فوق الشاطىء، لم يلاحظها إسترابو، إذا كانت قائمة فعلاً يومها الأمر الذي لا نشك فيه مطلقاً.

لقد لاحظ إسترابو قلعة أوتومالا فقط، وهو ما يتركنا أمام تحديد مدى

أحقيتنا في اعتبار هذه الأماكن هي التي نبحث عنها انطلاقاً من البيانات المتوفرة أمام القاريء.

أحضر أعرابـي من أهل المنطقة، قبيل مغادرتنا للبريقة خمسة خراف وقدمها للشيخ الضبع هدية لنـا، الأمر الذي وجد فيه مرشدنا فرصة ثمينة لإظهار مدى كرمه وتأثيره على السكان المحليين الذين تقدموا من تلقاء أنفسهم، واحتراماً لمرافقنا بهذه الهدية القيمة في الوقت الذي فشلنا نحن في مبادلتها بالنقود في أماكن أخرى.

حضر الشيخ إلى خيمتنا مختالاً حامـلاً اثنين منها، في الوقت الذي أغدق على نفسه العديد من عبارات التبجيل قبل أن يقدمهما هدية منـه شخصياً مع رجاء قبولهما.

أولدت تصرفات الشيخ في الفترة الماضية حالة من الريبة والشك بيننا، وفي هذا عذر كاف لإظهار رفضنا لهديته دون دفع مقابل لها، فقد ظهر الارتباك على الرجل وتوجم وجهه وبدأ في التراجع خارج الخيمة حيث بدا وكأنه يراجع نفسه بدافع من تأنيب ضميره، واستلام نقود مقابل شيء يعرف جيداً أنه يخصنا، وهكذا لم يطل الوقت إلاّ وعاد قائلاً إن الخروفين هدية لنا وليس كما جاء سهواً في تقديمهما لنا، وأن الراعي الذي أحضرها تابع للباشا وأنه يريد إظهار ولائه لسيده ولضيوفه، مضيفاً بأن الخراف الأخرى كانت بمثابة هدية له شخصياً، الأمر الذي نفاه الراعي بشدة بعد وقت قصير، كما تبين لنا السبب وراء فشلنا في الحصول على حاجتنا في المرات السابقة إذ تبين أن الشيخ كان يرسل اثنين من أتباعه مقدماً لتحريض الرعاة على عدم بيع أي شيء لنا، الأمر الذي اتضح لنا بجلاء في تلك الحالات التي لم نتمكن فيها من الوصول إلى خيام البدو قبل وصول موفديه، ففي جميع مثل هذه الحالات كان العرب يتقدمون بعد الترحيب بنا بعرض تلبيتهم لحاجتنا من اللحم والزبد، وما يتوفر لديهم من أشياء أخرى.

لم نجد مبرراً لتصرف الشيخ عدا حقيقة رغبته في إشعارنا بالحاجة الماسة إلى الاعتماد عليه، ومدى تأثيره على تلبية رغباتنا وبالتالي الإحساس البالغ بأهميته وبقائنا رهينة لتصرفاته مما يشكل عامل خطر قد لا ينفع الندم عليه إذا ساءت الظروف لسبب ما، ذلك أن عناصر شخصية العربـي لا تتسم بالثبات، صحيح أن العرب أمة تمتاز بالكرم، إلا أن مثل هذا الإقرار قد يولد نوعاً من الخذلان لدى البعض إذا ما صادفوا ذلك النوع الذي يحترف عمليات الخداع والمناورات.

اجتزنا منطقة هضبية بعد مغادرة البريقة باتجاه الشرق مارين بمخلفات آثار قلعتين، وعند الظهر توقفنا قرب بروز صخري ظاهر عليه بقايا قصر عرف باسم تابيلبا، كما يوجد غير بعيد فوق إحدى الهضاب مخلفات حصن منيع كان متصلاً بالقصر عن طريق حائط يبلغ سمكه نحو خمسة أقدام غير بعيد عن خندق تم حفره في أرض صلبة، ويبلغ طوله قرابة ثلاثين قدماً لحماية الحصن من الجانب الأرضي، إضافة إلى تلك المواد التي انهارت من مبنى الحصن نفسه وكونت حاجزاً أو سداً آخر مباشرة قبل الخندق. أما على شاطىء البحر فيوجد حائط متين آخر مما يوضح مدى صلابته ومقاومته لأثر الأمواج القوية بالتالي، إذ يبدو أنه كان بمثابة جزء من حاجز لرسو المراكب، مع الإشارة إلى أن البروز الصخري قد تم حفره وتحويره إلى حجرات لخدمة جند الحامية، علماً بأن معظم هذه التحويرات وبالذات القريبة من فعل الأمواج، قد طمست معالمها وتحولت إلى ما يشبه الحطام الذي يشكل الاقتراب منه خطراً بالغاً فقد تحولت قاعدة هذا النتوء الصخري إلى ما يشبه أسنان المشط بفعل التعرية البحرية المتواصلة، التي تحدث ضجيجاً يمكن سماعه عن بعد، ناهيك خلال الشتاء، وبالمناسبة عثرنا على جدار إحدى الحجرات بعض الحروف الإغريقية التي لم نتمكن مع بالغ الأسف سوى من قراءة كلمتين منها.

تبدو طريقة الكتابة كتلك التي كانت سائدة أيام الإمبراطورية الرومانية، ومهما كان الأمر فإن المهتمين بمثل هذا النوع من الخطوط سيكون بإمكانهم إذا توفرت لديهم المزيد من وسائل الإضاءة من تدوين كامل ما هو مكتوب على هذا الجدار، كما عثرنا في جزء آخر على بعض القبور المنحوتة في الصخر ولكن دون العثور على شيء بداخلها سوى بعض العظام، وعموماً يظهر أن جانباً هاماً من هذا النتوء قد تآكل بفعل التعرية المائية إذ ما تزال بعض الآثار ظاهرة للعيان تحت سطح الماء مما يعني أن خط الساحل قد تراجع قليلاً في هذا الجزء، أما على الجانب الجنوبي فقد عثرنا على جزء من قوس شبيهة بأخرى تم العثور عليها في مناطق سابقة وفي منطقة برقة أيضاً، كما وجدنا أيضاً بعض العملات النحاسية والفضية ولكن دون التمكن من معرفة تاريخ صكها لشدة تآكلها.

كان بودنا البقاء لمدة أطول بدل الثلاث ساعات التي قضيناها بين هذه الأطلال خاصة وأن بقاءنا في البريقة كان أطول بكثير مما هو مخول لنا في العديد من المناطق، مع تكرار رغبتنا في العودة لقضاء مزيد من الوقت لدراسة بعض الحالات بدقة وبعناية أكثر مما هو متوفر لدينا الآن رغم كامل قناعتنا بأن موضع التابيلبا هو الموضع الذي حدده بطليموس لما أسماه وأطلق عليه بالمحطات البحرية Maritime Stations لأن بقاياها تتلاءم تماماً مع المظهر التضاريسي الذي وقع الاختبار عليه لتوفير مستقر لعدد هام من الرجال لا يمكننا التجاسر على تحديد عددهم.

يوجد على جانبي هذا النتوء الصخري الذي أقيمت عليه القلعة مرفآن رمليان صغيران لا يوفران اليوم أية حماية ذات بال لسفن اليوم، مع تأكيد إمكانية استعمالهما من قبل سفن الأقدمين التي يمكن جرها بيسر فوق رمال الشاطىء إذا دعت الضرورة، ذلك أن حماية مراكب الإغريق والرومان أيضاً كثيراً ما كانت تتم بهذه الطريقة، وأكثر من هذا فإن مرفأ من قبل هذا النوع،

كان يعد بمثابة ميناء جيد، أفلم يخبرنا إسترابو بأن هذا الجزء من الساحل كانت به العديد من المرافىء ومحطات التزود بالمياه، وأن أفضل تلك المرافىء كان ميناء أسبس Aspis الذي لم يعد يحمل هذه الصفة اليوم، وفي اعتقادنا أن مرسى البريقة هو الميناء الوحيد الذي يستحق هذه التسمية لحمايته من قبل تلك الجزر أو بالأحرى النتوءات الصخرية التي تعوق وصول الأمواج العاتية إليه، رغم أنه لا يتيح جرّ المراكب الموجودة به إلى الشاطىء إذا ما دعت الضرورة إلى حمايتها.

تابعنا سيرنا على طول الشاطىء في اليوم اللاحق إلى عين أجان Ain Agan مارين ببقايا قلعتين ظاهرتين للعيان على الهضاب القريبة، ومع أن مظهر الساحل مقفر ولا يوحي بأية إمكانيات إلاّ أن تغيراً بات يلوح في الأفق مباشرة بعد اجتياز مجرى الوادي، إذ ظهرت بالفعل بوادر زراعة بعض الأراضي القريبة، كما ظهرت عدة مجموعات من قطعان الضأن والماعز، وبات بالإمكان النظر إلى العديد من الخيام وفي كل الاتجاهات تقريباً.

اشترينا بصعوبة كمية من الحبوب لإطعام جيادنا التي كانت في أمس الحاجة إليها، كما ملأنا جميع قربنا من الماء رغم رداءة نوعيته على اعتبار أنه أفضل المتوفر في كامل المنطقة.

تظهر بعد عين أجان بعدة أميال هضبة ذات شهرة خاصة تعرف بعلم المريش إذ تبدو البريقة واضحة للعيان من أعلى القمة، كما تظهر في اتجاهها الجنوبي حلقة من البحيرات والمستنقعات الممتدة إلى مسافة بعيدة وبالذات في اتجاه الجنوب الشرقي حيث تبدو جميعها على اتصال بذلك الوادي عند عين أجان، مما يعطي احتمال اتصالها مباشرة مع البحر في وقت من الأوقات. أما في اتجاه البحر فيمكن للناظر ملاحظة جزيرة يبلغ طولها ميلاً تقريباً مع وجود حواجز أو نتوءات صخرية قرب حافتيها الشرقية والغربية وهو ما يوحي بأن الجزيرة الحالية كانت أكبر اتساعاً مما هي عليه اليوم.

يعرف المواطنون هذه الجزيرة باسم جارة Gàra، وفي هذا تشابه كبير جداً باسم جايا Gaia الذي حدده بطليموس على خريطته، ومع أن الجزيرة الحالية قد حدد موقعها إلى الشمال الشرقي من تلك التي أشار إليها بطليموس التي تظهر أكثر قرباً من الساحل أيضاً، إلا أن تشابه الاسمين لا يمكن غض النظر عنه مما يدفع بنا إلى القول بأنها الجزيرة التي أشار إليها وحدد موضعها الجغرافي بطليموس.

توجد على بعد ميل من الشاطىء في مواجهة علم المريش صخرة بيضاء قائمة الجوانب يبلغ ارتفاعها نحو أربعين قدماً تعرف باسم Iskaifa، ومما يلاحظ عليها ظهور نتوءات بارزة من حولها مما يستدعي الاحتراس عند الاقتراب منها.

حدد بطليموس جزيرتين أخريين في خليج سرت تقع أولاهما قرب أسبس لم نتمكن من رؤيتها، بينما تقع الثانية وسط الخليج وهي ما لم نتمكن من مشاهدتها هي الأخرى على افتراض أنها ما زالت قائمة.

تقع جزيرة جارة على بعد يقرب من ستة أميال من الشاطىء، وقد تمكنا باستعمال المنظار المكبر من رؤية الحشائش التي تغطي معظم سطحها، إلى جانب ما نعتقد أنه أثر لمبنى، ذلك أن حافة الجزيرة تبدو على هيئة أجراف قائمة، وهو ما دفعنا للبحث عن وسيلة تمكننا من بلوغها، إلا أن محاولاتنا باءت بالفشل إذ لم نعثر على سفينة أو مركب واحد في كامل منطقة الخليج، وهكذا لم يعد لنا عزاء سوى إدراكنا بأن بحارة السفينة المغامرة لا بد وأن يصلوا إليها، وهو ما تحقق بالفعل.

تظهر التلال الرملية بوضوح بين علم المريش والشيبة Sheiba ومع أن بعضها تكسوها الأعشاب، إلا أن اجتيازها عاق من سرعة تقدمنا، ودفعنا إلى السير بمحاذاة الساحل مع ملاحظة أن المياه في هذه المنطقة من النوع الرديء جداً ولا يمكن استساغتها.

كانت هناك بعض قطعان الضأن بعد ترك الشيبة، ومع ذلك فشلنا في شراء شيء منها، وهو ما اضطرنا لما نعاني منه من جوع من إخبار الراعي، بأننا سنضطر لأخذ شاة منها حسبما تخوله لنا تعليمات الباشا ولكن بعد دفع ثمنها. أصر الرجل على رفضه وكان علينا الإقدام للحصول على ما نريد وهو ما تم فعلاً فقد أسرع جندي الباشا لحمل شاة منها. أخبرنا الرجل بعزمنا على تنفيذ وعدنا، وأننا سنقيم غير بعيد من مرعاه، وعليه الحضور لتناول العشاء ومستحقاته أيضاً فقد كنا على يقين من حضوره ولكن خاب أملنا فقد خلد الجميع للنوم من شدة التعب، ومع أن حارسنا الكلب مرزوق ظل ينبح إلا أن أحداً لم يهتم بأمره حتى خرج الشيخ الضبع من خيمته في الصباح الباكر ليتبين فقدان ثلاثة من إبله التي اتضح من تقفي أثرها مع بعض رفاقه، أن الجمال قد فك عقالها وأن رجلاً ما كان وراء هذه العملية كما تدل على ذلك آثار قدميه وهو يتبعها.

لم يكن بإمكاننا فعل شيء سوى الضحك حين علمنا بسرقة جمال الشيخ، الذي أساء التصرف مع الراعي، إذ رأينا في هذه السرقة عقاباً في محله وجزاء له على تلك الألفاظ المشينة وإلقائه الحجارة التي ظل يلقيها على مرزوق كلما سمع نباحه، ومع أن ثمن ثلاثة جمال لا يمكن مقارنتها بثمن شاة واحدة إلا أن طريقة سرقتها تنم فعلاً عن مدى الحقد الذي يكنه الرجل لمن كان سبباً في أخذ شاة عنوة من عنده.

أخذ زادنا في التناقص الواضح تماماً كما هو الحال مع مؤونة جمالنا وعليه فإن حاجتنا للإبل الضائعة لم تعد ذات أهمية تذكر، فما بقي من سلال وصناديق فارغة يمكن تحميلها دون عناء للإبل الأخرى، أو أن نقدم السلال علفاً لها، أما الصناديق فيمكن استعمالها وقوداً، مما يعني أن تأخير سفرنا لن يكون سبباً مرهوناً بانتظار العثور أو إيجاد بديل لإبل الشيخ الذي واصلنا رحيلنا مع أسفنا على غيابه حتى حين، فقد امتطى فرسه وانطلق مسرعاً مقتفياً

آثار جماله ونحن نعدّ العدة للرحيل.

أقمنا الليل في منطقة الشوهان Shohan ولكن دون أن نرى أي شيء حي خلال كامل النهار حيث ظهر قبر أحد المرابطية فوق هضبة تطل على سهل تكسوه الشجيرات الصغيرة، ويمكن للناظر منها مشاهدة آثار قلعتين صوب الشرق.

وصلنا كركورة بعد سفر ثماني ساعات فوق السهل المذكور الذي تحيطه من جهة البحر بعض الكثبان الرملية وأرض سبخية، على أمل الوصول والعثور على المكان الذي وصفه الربان لواتير على الجانب الشمالي من الخليج الصغير بأنه بئر قديم عليه نقوش يونانية عديدة.

لم نتبين شيئاً وبسؤال عرب المنطقة أفاد الجميع بعدم وجود بئر كهذا، الأمر الذي حز في نفوسنا كثيراً لأن ما أشار إليه يمكن أن يكون ذا فائدة كبيرة لنا.

يوجد في كركورة خليجان صغيران يمكن استخدامهما لاستقبال المراكب الصغيرة، ويمكن التعرف عليهما من خلال بعض التلال الرملية الواقعة بينهما، إضافة إلى أثرين فوق الهضاب الداخلية القريبة منهما، أما عدا ذلك فلا أثر لوجود ما يستحق الذكر على كامل خط الساحل ما بين هذا المكان ومدينة بنغازي. أما إلى الداخل فيوجد عدد من مخلفات القلاع وبعض بقايا المباني الأخرى التي تزداد في عددها وفي أهميتها، ففي فمينس الواقعة على مسيرة يوم شمال كركورة توجد بعض مخلفات قلاع أثرية هامة تختلف كلية في طريقة بنائها عن تلك التي سبقت الإشارة إليها، إذ تم بناؤها من أحجار كبيرة غير متناظرة الأحجام وبدون استعمال الإسمنت، ومع أن هيئتها مربعة الشكل إلا أن حوافها دائرية كما أن بعضها قد ملء بالتراب، كما حفرت بعض الآبار في الجهات المرتفعة حول هذه القلاع لتزويد مستخدميها بما يحتاجون إليه من ماء، كما تم حفر خنادق حول معظمها إلى جانب بعض

الأسوار التي استُخدمت الحجارة الكبيرة في بناء أساساتها، أما الخنادق وبالذات التي حفرت فوق أرض صلبة فذات عمق وعرض واضحين، إذ يتراوح عرض إحداها ما بين خمسة وعشرين قدماً، أما عمقها فيبلغ خمسة عشر قدماً، أما القلعة ذاتها فيبلغ طول ضلعها مائة وخمسة وعشرون قدماً أما العرض فلا يزيد على تسعين قدماً.

كما تبين أن آبار هذه القلاع قد تم حفرها في الخنادق المحيطة، أما في بعض الحالات الأخرى فحفرت خارج سور القلعة، خلافاً لبعض الحالات القليلة الأخرى حيث حفرت قرب بعض المباني الملحقة بالقلعة، حيث ظهرت بعض القبور المنحوتة في الأرض الصلبة التي لم نجد فيها ما يلقي ولو بعض الضوء على طريقة الدفن مع الأسف.

قبل بلوغ بنغازي بيوم واحد أخذت بوادر تغير الظروف الجوية تلقي بحملها بعد أن غابت عنا طوال المدة الماضية وهو ما أتاح الفرصة أمامنا للبحث وتقصي الأمور في العديد من المناطق ذلك أن سوء الأحوال الجوية وسقوط المطر كان سيدفع بنا إلى محاولة الإسراع وبلوغ المدينة، المحطة الوحيدة التي ستوفر لنا فرصة الحماية ما بين مصراته ودرنه، وربما أدى إلى إبطاء سيرنا لأن معظم المسيلات والأودية ستتحول إلى مجاري مائية ستجبرنا على التوقف، كما أن السير يصبح شبه مستحيل فوق الأراضي السبخية التي ستؤدي حتماً إلى توقف وحتى استحالة سير خيولنا التي اضطررنا إلى قيادة اثنين منها لعدة أيام قبل بلوغ بنغازي، علماً بأن الخيول الأوروبية لن يكون بإمكانها تحمل كل هذا التعب والجوع والعطش الذي تقاسيه جيادنا التي تحمل راكبها طوال اليوم دون طريق محدد أمامها، وتحت وطأة شمس حارقة، والبقاء دون حماية من البرد والرطوبة ليلاً، وأكثر من هذا فإنها بدل الحصول على زاد إضافي لمواجهة هذه الصعاب، قد تترك لمدة يوم كامل دون أكل أو شرب بل إنها بقيت مرة مدة أربعة أيام كاملة دون حصولها على قطرة ماء واحدة.

لم تبلغ جيادنا بنغازي وهي في حالة جيدة بالطبع، وأكثر من هذا ظهرت عليها بوادر التعب قبل اجتياز منتصف الطريق، نعم فقد باتت شبه هياكل عظمية، ومع ذلك فإن قلة إن لم يكن أحداً من نظائرها الأوروبية ما كان له ليكمل هذه الرحلة في ظل هذه الظروف.

رغم كل هذه الصعاب كثيراً ما كنا نسعد ونمرح لمشاهدة ذلك الحصان الأبيض الذي يخص أحد خدمنا، وظل لسنوات طويلة ملكاً لأحد جنود الباشا ويعرفه جلّ أهل بنغازي فقد كان كعلامة مميزة لجيش الباشا الذي يتردد لجمع الضرائب.

بلغ التعب بهذا الحصان حده، وبدا هزيلاً قبل انقضاء منصف الطريق، ومع ذلك لم ينسَ للحظة واحدة واجبه العسكري لمجرد رؤية المهماز، فلم ينسه التعب أو الجوع أنه كان ذا حظوة ويجيد القيام بكل الحركات، والتمرينات التي لا تزال تجد قبول جميع المشاهدين.

كان زادنا بما في ذلك المياه محدوداً، وعليه فلا أحد يلوح لنا بالتقصير في العناية بهذه المخلوقات البائسة التي كثيراً ما كانت فعلاً في حاجة إلى العناية الجيدة، إذ كان علينا بعد نفاذ زادنا من طرابلس الاعتماد على ما يمكن شراؤه من خيام العرب، إلى جانب المرعى القليل في كامل المنطقة، فبعد الآثار عن بعضها قد يتركنا جميعاً بدون ماء، ومع أن جيادنا قد تكون في حاجة فعلاً إلى الماء، إلاّ أنها قد ترفض شرب ما نتناوله نحن. وأكثر من هذا قد ترفض الأكل كلية إذا نال منها التعب والجوع أكثر من اللازم، مما يعني أن رفضها للأكل أو الشرب إنما يعني في واقع الأمر حتمية انتظارها حتى مساء اليوم التالي لتعودها على الأكل مرة واحدة في المساء حين نتوقف نحن للمبيت.

كان عليها التحرك طوال اليوم، بل وقد يتحتم السير السريع جداً بل والقفز إذا دعت الظروف إلى ذلك، إلى جانب السير فوق الرمال الناعمة قرب

الساحل والأراضي الملحية، وصعود وهبوط الهضاب إذا كان ثمة شيء يستدعي الوصول إليه، كل ذلك تحت شمس ورياح جنوبية حارقة، ومع ذلك تظل محافظة على حيويتها وإن بدا التعب عليها أثناء الليل.

إن عادة إطعام الخيل مرة واحدة بعد غروب الشمس عادة عامة في شمال إفريقيا حتى في أفضل الظروف حيث يسمح لها بالشرب كيفما تشاء قبل الأكل مباشرة، علماً بأن بعض العرب لا يسمحون لها بالشرب لعدة أيام حتى تتعود على ما قد يقابلها من ظروف صعبة أثناء سفر الصحراء، وهي عادة يمكن أن تترك نفس الأثر على خيولنا الإنجليزية، كما تم مع تلك التجربة التي قام بها ذلك الفرنسي الذي جاهد في حمل جواده على البقاء بدون طعام حتى مات ذلك الجواد، وحال بالتالي من تحقيق المكسب الشخصي الذي كان يسعى إلى تحقيقه.

إن توفير إسطبل مريح لقضاء عدة أسابيع في بنغازي سيكون كافياً جداً لإعادة جل خيولنا إلى قوتها ونشاطها السابق، وهو ما تحقق بالفعل إذ استطاعت بكل يسر التحرك فوق أرض هضبية ومسالك في غاية الوعورة في أغلب جهات هضبة برقة.

يتغير مظهر الإقليم بين كركورة وبنغازي مع كل خطوة، إذ سرعان ما ظهرت مناطق مزروعة بالشعير إلى جانب بعض الكلأ الممتاز مع زيادة واضحة في أعداد السكان، وقطعان الماشية علماً بأن جزءاً من الأرض تعلوها الصخور التي تم نزعها لتوفير المزيد من الأرض الزراعية، وتم وضعها بطريقة توحي للناظر وكأنها ممرات مغلقة تجنباً للجهد المطلوب لإزالتها بالكامل، إلى جانب أداء وظيفة إقامة الحدود بين الجيران من أصحاب الأرض، وعرقلة تحركات السراق والأعداء على حد سواء.

ظهر لنا في البداية أن بلوغ المخلفات الأثرية المبعثرة يعني اجتياز مثل هذه العوائق الذي تبين أنه منهك للجياد التي قد تتعرض للوقوع، وهو

ما جعلنا نقرر الأخذ بالمثل القديم القائل بأن الطريق المستقيم هو في الواقع أقصرها لبلوغ الهدف، كما تبين بعد حين أن خطوط الحجارة هذه قد تترك بينها فتحات تستعمل كممرات جانبية، وهو ما دأبنا على البحث عنها واتباعها في بلوغ الجهة المطلوبة.

يحد السهل الفسيح الذي تقوم عليه مدينة بنغازي، أرضٌ مرتفعة تتجه جنوباً وتقع على قمتها مدينة سيريني الشهيرة، أما السهل ذاته فتغطيه الحشائش بدءاً من حضيض الهضبة حتى ساحل البحر مما يعطي منظراً خلاباً يشد انتباه الجميع بما في ذلك جيادنا التي بدأت وكأنها في قمة زهوها تماماً كما هو الحال معنا نحن.

أرسلنا أحد رجالنا رفقة جندي الباشا إلى بنغازي لإعلام الممثل البريطاني بقرب وصولنا واتخاذ الإجراءات الضرورية لاستقبالنا في المدينة التي سيدفعنا طول موسم المطر وغزارتها إلى الإقامة فيها لبعض الوقت. كان المساء قد حل عند بلوغهما البحيرة المالحة التي تكاد تحتضن المدينة وعليهما اجتيازها قبل الوصول إليها. مثل حلول الظلام وشدة سقوط المطر حائلاً وقف أمام اجتيازهما لهذه السبخة مما حدا بهما لمحاولة العثور على ممر مناسب انتهى بهما إلى بلوغ الشاطىء عند الساحل المقابل بعد أن غاصت أرجل جواديهما أكثر من مرة، وكان عليهما بالتالي تكملة باقي المشوار سباحة.

حلت قافلتنا بالمدينة، صباح اليوم التالي، وتم استقبالنا بكل اعتزاز وأدب من قبل السيد روسيني Rossini، نائب القنصل الذي حمله السيد وارينجتون Warington، السفير البريطاني بطرابلس، بالتعليمات الضرورية في هذا الخصوص.

كان نائب القنصل قد أنهى معاملات تأجير، أحد أفضل بيوت المدينة من أحد الشيوخ، وكان بانتظارنا لإنهاء الإجراءات التي تتلاءم مع ظروفنا،

الأمر الذي تمت تسويته بسرعة، وتم استلامنا للمنزل في اليوم اللاحق حيث بدأنا بسرعة اتخاذ الترتيبات التي من شأنها توفير أقصى حد من الراحة حسبما تسمح به ظروف فصل شتاء ماطر في مدينة بنغازي.

أقيمت مدينة بنغازي على موضع مدينة برنيتشي القديمة، أقصى مدن إقليم البنتابوليس تطرفاً نحو الغرب، وهنا لعله من المفيد العودة إلى الوراء وإلقاء نظرة عامة على خليج سرت الكبير وشواطئه حتى نستعيد مع القاريء بعض أهم الملاحظات كما وردت عند الكتاب الأقدمين.

الفصل العاشر

لا يتطابق تحديد الأبعاد التي ذكرها إسترابو عن منطقة خليج سرت البحرية مع بعضها، بحيث يستحيل إيجاد شكل أو صيغة ما للتوافق بين القياسات التي أشار إليها كقطر لهذا الخليج وتلك التي حددها كمحيط له حيث يقول بالحرف الواحد. . . يساوي محيط خليج سرت الكبير تسعمائة وثلاثين إستيديا Stadia، ويبلغ قطره في نهاية طرفه الجنوبي ألفاً وخمسمائة إستيديا، وهو ما يساوي عرض المدخل أيضاً[1].

فالأرقام السابقة تعطي بجلاء محيطاً أقل بكثير من القطر، وبالتالي خلق صعوبة يستحيل حلها حتى بالنسبة لمن يشتغلون بالرياضيات، إلا إذا حدث تغير جوهري في النص، وهو ما لا يمكن توقعه من أي ناشر، الأمر الذي أوحى بعدة اجتهادات أو بالأحرى قراءات من أكثر من معلق على هذا النص، ومع ذلك فإن مقارنة آراء أمثال هؤلاء المعلقين أو النقاد تصبح غير ذات بالٍ لعدم تمشيها مع الحقيقة قبل أن تكون متطابقة مع بعضها البعض، ذلك أن

---

(1) يختلف الميل الجغرافي عن الميل الروماني، فالميل الأخير يقل بمقدار الخمس عن الميل الجغرافي، وعليه فإن كل 700 إستيديا إغريقية، تساوي درجة جغرافية واحدة، مما يعني أن 1830 إستيديا كمحيط للخليج تساوي 1/10 80 ميلاً جغرافياً أو 1/2 100 ميلاً رومانياً. أما القطر البالغ 1500 إستيديا فيساوي 1/2 162 ميلاً رومانياً أو 1/2 128 ميلاً جغرافياً.

المحيط الحقيقي لا يزيد في الواقع عن أربعمائة واثنين وعشرين ميلاً جغرافياً، وأن قطره إنما يساوي مائتين وستة وأربعين ميلاً جغرافياً[1]، مما يعني ضرورة إحداث تغير هام في كل من المحيط والقطر حسبما أشار إليهما إسترابـو، قبل أن يصبح بالإمكان الركون إلى استعمال تلك الأبعاد، مما يعني في الواقع أن محصلة المسافات الجديدة سيؤول أمر الأخذ بها إلى صاحب التعديل، ولا علاقة لها بهذا الجغرافي، ومهما كان الأمر فإن مواجهة هذا الأمر يعني اجتياز صعوبة ليست هينة لاعتقادنا بأن النص الحالي لا يتمشى مع النص الأصلي الذي لا نملك مع بالغ الأسف الشكل الذي كان عليه، علماً بأن القياسات التي تركها المؤرخ بليني لا تبعد كثيراً عن الواقع، وأكثر من هذا فإن تحديده للقطر يكاد يكون في منتهى الدقة إذ حدده بثلاثمائة وثلاثة عشر ميلاً رومانياً، أو ما يساوي مائتين وثمانية وأربعين وربع ميل جغرافي مما يعني أن الفرق لا يزيد على ميلين وربع. أما بخصوص المحيط فإن ما قال به لا ينطبق كلية مع الواقع، إذ حدده بستمائة وخمسة وعشرين ميلاً رومانياً أو ما يوازي أربعمائة وأربعة وتسعين ميلاً جغرافياً مما يظهر فارقاً يساوي اثنين وسبعين ميلاً جغرافياً بين ما قال به وبين المحيط الحقيقي. وأكثر من هذا فإن الفرق يظهر أيضاً على الجانب الآخر، فالمسافة التي قال بها بليني لا تزيد فقط عن المسافة الحقيقية التي يمكن الحصول عليها بالملاحظة وإنما عن مسافة الطريق الحقيقية أيضاً.

إن القطر الذي حدده بليني يتفق بشكل قريب جداً مع قياس آخر تركه لنا ويتعلق بالمسافة بين كل من لبدة الكبرى ومدينة برنيتشي، والبالغ ثلاثمائة وخمسة وثمانين ميلاً رومانياً، ذلك أن المسافة ما بين لبدة ومصراته (النهاية الغربية لخليج سرت) إنما تقدر بثمانية وخمسين ميلاً جغرافياً، أو ما يعادل ثلاثة وسبعين ميلاً رومانياً، إن طرح عدد الأميال هذه من المسافة الكلية يترك

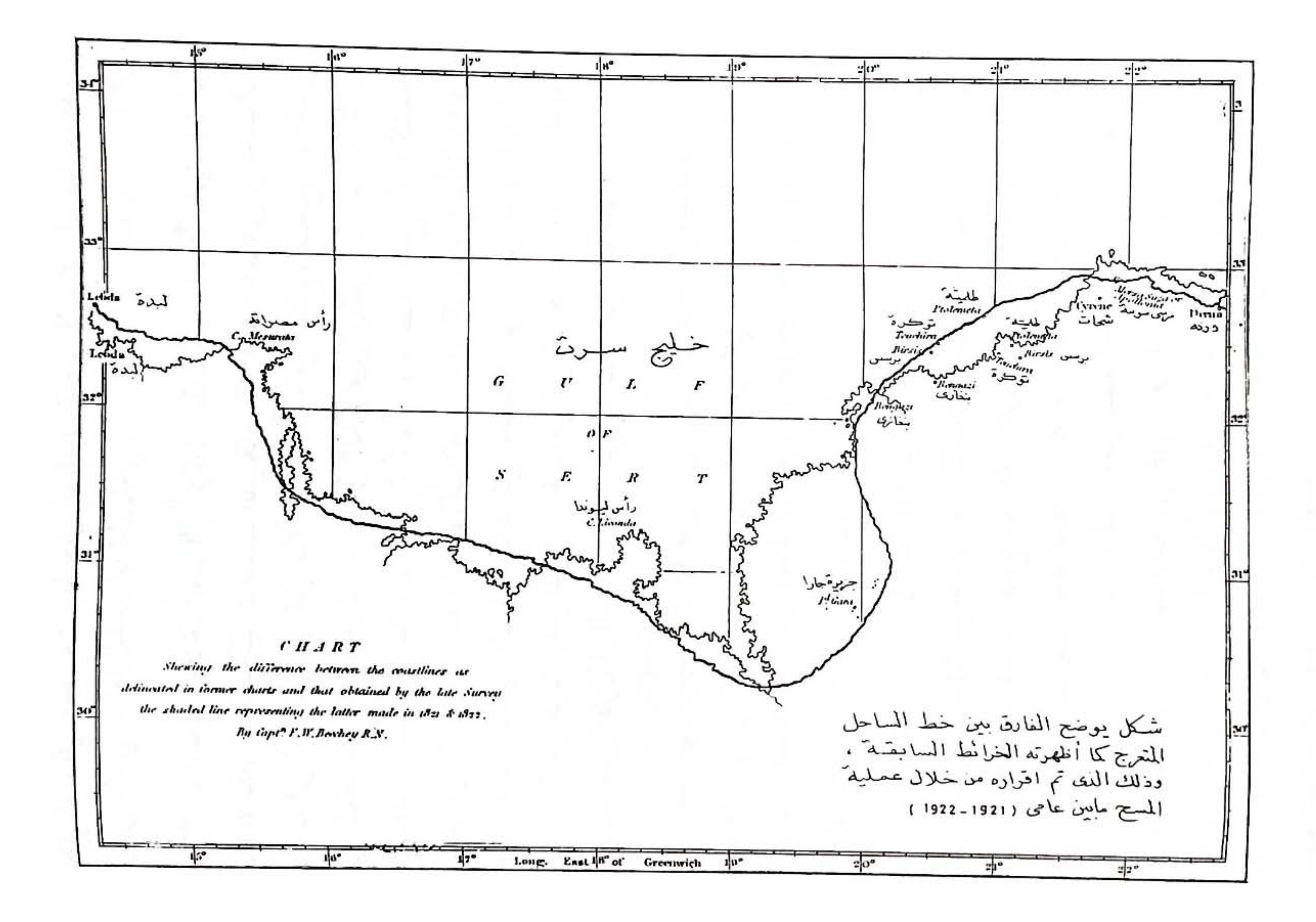
(1) تم احتساب محيط الخليج بالنسبة لنا بقياس الطريق الذي تسلكه الإبل مع إجراء كافة التعديلات التي قمنا بها لتحديد خط الساحل وبالتالي خط السير المذكور.

ثلاثمائة واثني عشر ميلاً مما يعني أن الفرق الفعلي لا يزيد على ميل واحد، ويعنى بالتالي سلامة التقدير المشار إليه.

إن استغرابنا للاختلافات التي تركها السلف ولو بدا شيئاً عادياً، إلا أن هذا الاستغراب لا يجب أن ينصب على هذه الاختلافات كما هي بل يجب أن يذهب إلى أنها لم تظهر أكثر عمقاً مما هي عليه في الواقع، صحيح أن الكثير من المعلومات قد توفرت لعديد من الجغرافيين والمؤرخين بسبب تلك الحملات العسكرية بما فيها البحرية منها سواء قصد الفتح أو الكشف الجغرافي، إلا أن الخرائط والمصورات الجغرافية لم تكن قد عرفت الاستعانة بعلم الفلك وبالتالي فإن المسافات بين مختلف الجهات التي تم وصفها قد جاءت إما عن طريق قياس تلك المسافات من قبل العسكريين، وتقدير قياسها فيما بعد على الطرق أو المسالك البرية التي سارت السفن قريباً منها.

فقد تبين للسيد Rennell على سبيل المثال أن الفرق بين القياسات التي يذكرها كل من Erato Sthenes وإسترابو وبين التي تظهر عند الجغرافيين المحدثين تشابه الفرق بين الخط المستقيم الواصل بين مكانين وبين مسافة الطريق الفعلي بينهما.

ومهما كان الأمر ظلت الجغرافيا غير محددة الهوية والمعالم ولم تستقر على أساس صلب إلاّ مع حلول زمن بطليموس حتى انتهى بها المقام الآن لتصبح علامة مميزة ضمن فروع المعرفة الأخرى، ومع ذلك فإن الأمر يبدو غريباً، إذ كيف لم يقم الجغرافيون في الفترة ما بين كتابات Hipparchus وأولئك الذين عاصروا عهد الإسكندر ومن بينهم إسترابو وبليني من تحقيق أعمال سابقيهم وقياس المسافات التي ظهرت في أعمالهم إذ تمت ملاحظة العديد من الأخطاء في جغرافية بطليموس، ومع ذلك فإن الأمر يظل عادياً إذ كيف يمكننا القول بحصوله على المعلومات الكافية للتأكد من دقة وصواب جميع المواقع التي دونها منذ تلك الفترة.



شكل يوضح الفارق بين خط الساحل المتعرج كما أظهرته الخرائط السابقة ، وذلك الذى تم اقراره من خلال عملية المسح مابين عامى (1921-1922)

إن الخطوط العريضة التي حددها لخليج سرت، ولو أنها ليست صحيحة في مجملها، إلا أنها تظل مع ذلك أكثر دقة من تلك التي دونت بعده، كما أن إظهار نهاية الخليج الجنوبية بذلك الامتداد الواضح الذي تظهره الخرائط الحديثة إلى جانب رسم ذلك المسيل الذي عرف بخليج زوكا Zuca الذي تأكدنا من عدم وجوده أصلاً تعكس حقيقة لم يقرها الجغرافيون القدماء ولا تستند إلى أي دليل مادي يبرر ظهورها على الخرائط اللاحقة.

وعليه فإن الوصف العام لهذا الخليج كما جاء على لسان بطليموس يظل أكثر التصاقاً بالواقع رغم سطحيته من أي وصف آخر بين أيدينا، وبغض النظر عن الأسباب الحقيقية التي دفعت بالجغرافيين المحدثين إلى ربط هذا الخليج بأخطاء واضحة، فإن الأمر لا يحتاج إلى سند ذلك أن أفضل الخرائط التي رسمت له تحتاج إلى إعادة نظر تتعلق بإضافة تسعين ميلاً بالنسبة إلى طوله، وإلى زحزحة عرضه شمالاً بثلاثين ميلاً مما يعني تناقص مساحته بستة آلاف ميل مربع قبل أن يصبح متفقاً ومتطابقاً مع الحقيقة.

هذا فيما يتعلق بالقياسات، أما إذا انتقلنا إلى مظهره العام فسنجد أن الأقدمين قد أخطأوا لا في تحديد أبعاده فقط، وإنما انخدعوا فيما يتعلق بطبيعته وبموارده أيضاً. فقد بدأت المنطقة الممتدة ما بين بنغازي ومصراته بكاملها لدى الكتاب الأقدمين وكأنها منطقة صحراوية تسودها الرمال ولا أثر لطائر أو نبات فيها وتعج بالثعابين السامة.

لقد رأينا وجود نقاط يغطي العشب والكلأ أرضها ويمكن توفر المياه بها، ومع أن امتداد بعض الأراضي السبخية يمثل حقيقة ظاهرة إلا أن نسب توزيعها مع تلك الأراضي الصالحة للزراعة والرعي ولو أنه لصالح الطرف الأول إلا أنها ليست بالمستوى الذي يصور عادة.

صحيح أن المنطقة بكاملها مخلخلة ومحدودة السكان وأن جزءاً صغيرا منها فقط هو المزروع فعلاً، إلا أن السبب وراء هذه الظاهرة إنما يعود لطبيعة

سكانها من البدو الذين يترددون عليها، وإلى الحكومة التي تحكم مصيرها قبل أن يكون مرد ذلك إلى طبيعة عقم تربتها.

إن البدو رغم نشاطهم لا يميلون إلى العمل اليدوي فإذا تحقق لهم كسب قوتهم بما يملكون من قطعان فإنهم نادراً ما يلجأون إلى عناء أنفسهم بزرع أخصب الرقع الزراعية لأنهم في مثل هذه الحالة لن يكونوا في أمان أكثر من المحصول ذاته أو من الربح الذي يعود عليهم منه.

دقائق محدودة يستطيعون من خلالها طي خيامهم وتحريك قطعانهم، إلا أنهم لن يتمكنوا من فعل شيء نحو ما لديهم من زرع مما يؤهل جامعي الضرائب أو أولئك الذين يأتون للنهب في التردد عليهم بل والإقامة بينهم حتى يتم نضج المحصول وجمعه، فقد سألنا أحد بدو سرت ذات مرة عن السبب الذي يمنع أفراد قبيلته من حفر بعض الآبار في المناطق التي كثيراً ما يترددون عليها للاستفادة من مائها الجيد نوعاً والقريب من السطح، وكان جوابه إذا كان لهم فعل ذلك فإن مأموري ضرائب الباشا سيتمكنون من الوصول إليهم ومحاصرتهم بيسر وسهولة أكبر خلافاً للوضع عندما تكون المياه المتوفرة نادرة لأن في ذلك استحالة إمكانية تقدمهم لمسافات أبعد نحو الداخل واللحاق بهم والنيل منهم بالتالي.

إنه سبب كافٍ ومعقول في نظره لمواجهة مثل هذه الحالات التي تشغل بالهم وتحول بينهم وبين الإقدام على حفر المزيد من الآبار ولو كانوا في حاجة ماسة إليها، فهم يفضلون الانتقال والتنقل إلى أي مكان آخر يمكن أن يوفر لهم بعض حاجتهم من الماء بدل إجهاد أنفسهم والبحث عنها في أماكن تواجدهم.

لم يكن الكتاب القدماء هم وحدهم الذين أساءوا فهم طبيعة بيئة منطقة سرت، فقد وصف ليو الإفريقي (حسن الوزان) في النصف الأول من القرن السادس عشر، المنطقة تحت عنوان برقة بقوله. . . إنها بلد صحراوي بمعنى

الكلمة حيث لا ماء ولا أرض قابلة للفلاحة، ثم يكمل قائلاً. . . كانت المنطقة مأهولة بعد أن فتح العرب إفريقيا حيث كانت خلواً من السكان قبلهم وهو ما مكن المهيمنين على الفتح الإسلامي من السيطرة على الأراضي الخصبة على الساحل تاركين الصحراء كمستقر لمن هم أقل قوة وعزة مما عرضهم للعيش في ضنك ومصاعب لا حصر لها، فهذه الصحراء معزولة تماماً عن أي تجمع بشري وخالية من أي إنتاج كان مما يحتم على السكان البائسين عند احتياجهم لبعض الحبوب أو أي شيء آخر تقديم أطفالهم إلى الصقليين الذين يترددون على الساحل والذين كثيراً ما يكون بإمكانهم أخذ هؤلاء الأطفال مقابل ما قدموه من زاد لذويهم.

يصف هذا المؤلف المغربي الأصل، الذي نشأ بعد أسره في بلاط البابا ليو العاشر حيث أنهى كتابه عن إفريقيا عام 1526، كامل منطقة برقة بأنها رقعة صحراوية، رغم قوله بأن سرت كانت مدينة أثرية، أقيمت كما يظن البعض من قبل المصريين، بينما يعتقد آخرون بأن مؤسسيها هم الرومانيون في الوقت الذي يخبرنا بأن الإقليم الذي تقوم فيه هذه المدينة لم يكن مأهولاً من مصراته حتى الإسكندرية قبل وصول العرب إليها.

وبغض النظر عن رواية الوزان عن سكان المنطقة من المسلمين الجياع الذين عاش بينهم وتحدث عنهم والذين لا نعيرهم اهتمامنا الآن الذي نوجهه بالدرجة الأولى إلى قبائل سرت من النساموثين Nasamons وغيرهم من تلك القبائل القديمة التي قيل بأنها عاشت في منطقة الساحل في هذه الديار.

كان الصقليون فيما يظهر على علم كامل بأحوال وظروف زبائنهم قبل أن يتجرأوا على انتزاع أطفالهم حسبما جاء في قوله الذي يواصله بقوله. . . بأن عرب المنطقة هم في الواقع من أبرع السراق ومن أخطر الناس على وجه الأرض قاطبة، فقد انساحوا حتى منطقة نوميديا لسلب المنطقة مهاجمين

وسالبين لجميع الحجاج الفقراء الذين يقعون في طريقهم، وأكثر من هذا كانوا يجبرونهم على تناول الحليب الساخن والإبقاء عليهم في حركة دائمة حتى يعمل الحليب فعله كدواء للقـي على أمل حصولهم على ما قد يكون مخبأ في أمعائهم من نقود.

وهكذا يبدو أن المؤرخين المحدثين قد بنوا آراءهم التي لم يجانبها الصواب طبعاً من قراءة هذا الروائـي الإفريقي الذي تحدث عن منطقة وصحراء برقة وهو ما قاموا هم بذكره وترديده، خلافاً لما أكده هيرودوت كواحد من الكتاب الثقاة بأن هذه الرقعة الأرضية لم تكن صحراء فقط وإنما كانت دوماً شهيرة بمدى خصوبة أرضها، وأكثر من هذا تحدث هذا المؤرخ عن الليبيين أو الإفريقيين الذين قطنوا منطقة سواحل المتوسط الجنوبية وكانوا مقسمين إلى قبائل من الرعاة والمزارعين، وأن أفراد الفئة الأولى الذين كانوا يشكلون سكان منطة برقة، لم يكونوا بأي شكل يعيشون حياة الفقر كما صورهم البعض، إذ كانوا حسب رواية هذا المؤرخ يعيشون على اللحم والحليب، وهي حالة كما يدركها الإنجليز لا تعني إساءة لأن توفر هذا الحد لا يعني أن من يعيشون عليه لا يملكون إلا الندر اليسير من ضرورات الحياة.

أما بالنسبة لسكان منطقة سرت الحاليين فإننا لا نملك وصفهم سوى أنهم أصحاب بنية وذوي ملامح مقبولة على خلاف ما قيل عن عبوس وجوههم وقباحتها مع ضعف وهزال أجسادهم كما جاء في معظم الروايات التي وصلتنا عنهم. فالبدو عموماً شعب نقي ومرهف في أخلاقه ومظهره أكثر مما يتصف به قاطنـي المدن من العرب وعموماً مهما كان أصلهم في هذا الجزء من إفريقيا، فإنهم يحيون جميعاً نمطاً واحداً من الحياة، كما أن مواردهم تكاد تكون واحدة أيضاً كما هو الحال مع من سبقهم في الحياة والإقامة في هذه الديار.

لم يفشل هيرورودت في اكتشاف حقيقة أن القبائل الإفريقية التي ذكرها،

كانت معافاة وسليمة البنيان، وأن الكي بالنار لا يزال عادة يمارسها أحفادها المسلمون، إذ لم يكن على يقين تام بأن عادة الكي كانت السبب وراء ما يتمتعون به من صحة حتى باتت كواحدة من أشد خصوصياتهم.

كما لم يلحقه شك عن طبيعة فقر وجفاف التربة الرملية، وهي الصفة التي ألحقها الكتاب اللاحقون لتكون صفة مميزة لطبيعة المنطقة التي وصفها حسن الوزان بقوله... حيث لا يوجد ماء ولا منطقة للزراعة مما يجعلنا نؤكد بأن الانطباع الذي تولد لدينا عن هذا الجزء من الساحل وسكانه (من قراءة نص هيرودوت) إنما يتفق مع المظهر وخصوصيات الوصفين في حالتها الراهنة، أكثر من أي وصف تركه كاتب آخر.

فقد ذكر هيروروت بسكنى البدو أو القبائل الرعوية المناطق القريبة من البحر، ومعلوم أن وجود أية قطعان ورعاة لا بد له من وجود مرعى ومياه، أما عن المنطقة الواقعة إلى الجنوب من المناطق الساحلية فيقول بكثرة حيواناتها البرية التي يعني وجودها هي الأخرى، ضرورة توفر نوع من المأوى ونسبة ما من الرطوبة وهما لا يتوفران في الرمال الصحراوية الحارقة، مما يخولنا القول بأن المناطق التي تعيش بها تلك الحيوانات ستحوي في أكثر الاحتمالات، مغارات أو كهوف أو نباتات حتى تخلق مستقراً لها، أو ملاجيء للحماية عند الخطر.

ورغم أن هذه المنطقة خالية من السكان وصخرية الطابع وغير مؤهلة للزراعة ولا توفر سوى القليل من المرعى، إلا أنها في ذات الوقت ليست مناطق رملية صرفة وعديمة المياه كلية، أما المنطقة الثالثة عند هيورودت فهي المنطقة التالية نحو الداخل وبعد المنطقتين السابقتين وتحتل المنطقة الرملية عادةً حيث لا ماء ولا نبات من أي نوع، إنها المنطقة الخالية من أي شيء يمكن أن تتوفر فيه الحياة، وتمتد على شكل حافة رملية ما بين مصر وأعمدة هرقل غرباً.

يملي علينا الصدق فيما يتعلق بتأكيد ما رواه أبو التاريخ الذي بات تصديقه في كل ما جاء على لسانه موضع شك، بأن حدود تجربتنا وما سمعناه عن العرب حول هذا الموضوع، يمكننا من القول بمجاراة أقواله مع الحقيقة، أما ما يقع وراء حاجز الرمال فلم يكن أبو التاريخ يعلم عنه شيئاً وعلينا بالتالي استثناء الإشارة إليه.

لقد تبين لنا بخصوص المياه في منطقة سرت أن قبائل بسيلي Psylli سكان المنطقة الواقعة جنوب الأرض التي تحتلها قبائل نسّامونيس Nssamones الذين احتلوا منطقة الطرف الجنوبي الشرقي لمنطقة الخليج، كانوا يملكون مصدراً للحياة رغم إقامتها قرب الصحراء الرملية وبعدهم النسبي عن المنطقة الساحلية التي تحتلها قبائل النسامونيس.

حملت إلينا المصادر التاريخية أن القبائل الأولى ممثلة في شعب Psylli قد اضطروا للهجرة نتيجة لجفاف مواردهم المائية، مما أدى إلى هلاكهم أثناء تحركهم صوب الجنوب مما يعني أنهم كانوا يستحوذون على ما يكفيهم من الماء في محل إقامتهم الأصلي رغم محدوديته أصلاً.

ومهما كان الأمر يمكننا الإقرار بدون الدخول في بقية التفاصيل، بأن منطقة برقة بما فيها كل المنطقة الواقعة ما بين مصراته والإسكندرية، ليست ولم تكن في يوم من الأيام، مقفرة وجرداء كما صورت، وأكثر من هذا فإن منطة برقة الحالية قادرة على تحقيق أعلى درجات الفلاحة، وأن أجزاء كثيرة من منطقة سرت توفر مرعى ممتازاً رغم أن بعض أجزائها فقط هي المأهلة للزراعة وأنها تنتج محاصيل جيدة من الشعير بالذات، كما يمكننا الإشارة في ذات الوقت، أن نسبة أو حصة الرمال الموجودة فعلاً في منطقة الخليج بوصفها منطقة رملية، وأن نسبة ما يوجد بها من مياه يدعونا للقول بأنها لا تملك ما يوفر الحد الأدنى للحياة كما نلاحظ إضافة إلى ذلك أن عددالثعابين والزواحف السامة التي كثيراً ما وصفها كتاب الرومان وغيرهم تبدو مبالغ فيها

بشكل كبير، وأنها بالتالي لا تملك أسباباً للرعب والهلع خاصة على الأقل فيما نحن على علم به لأنها لن تضيف مصاعب أخرى للعالمين بطبيعة المنطقة.

دعنا الآن ننتقل إلى الحديث عن الخليج نفسه الذي يظهر جلياً أن ما وصلنا عنه ضمن روايات تحدد خصوصياته هي في الواقع أكثر واقعية من تلك التي تناولت المنطقة المحيطة به، فهيرودوت الذي وصف السكان القاطنين على سواحله بدقة، لم يترك شيئاً على الخليجين ذاتهما رغم علمنا بما ذكره إسترابو عن المخاطر التي يتعرض لها بحارة الخليجين سرت الكبير وسرت الصغير، إذ كثيراً ما نصادف الحديث عن المنحدرات... والمياه الضحلة الناتجة عن تقلب مياه البحر Flux وتدفقها Influx التي كثيراً ما ترتطم بها السفن وقل أن تنجو واحدة منها، ثم يضيف مؤكداً أن السفن كثيراً ما تتعمد الابتعاد عن الشواطىء طلباً لتجنب مثل هذه المزالق.

وهنا علينا إدراك أن ما أشرنا إليه من ظواهر وبالذات فيما يخص تقلب المياه وتدفقها لا يعني الإشارة كما قد يتخيل البعض، الحركة المقرونة بفعل المد والجزء الضعيفة أصلاً في البحر المتوسط مقارنة بما هو ملاحظ في البحار الأخرى، وإنما ذلك التدفق المصاحب لهبوب الرياح العاتية المتواصلة لفترة ما وما ينتج عن ذلك من رد فعل يحاول البحر من خلاله العودة إلى مستواه الأصلي.

إن هبوب الرياح الشمالية ظاهرة شائعة وتصل الساحل بقوة وعنف مما يمكنه من تجميع التربة مكونة منحدرات خاصة وأن مياه معظم السواحل ضحلة، الأمر الذي يجعل من رسو السفن عملية صعبة وخطيرة. هذا إضافةً إلى أن إمكانية تجميع التربة إنما يرفع من منسوب الأراضي المنخفضة في منطقتي سرت الكبرى والصغرى إلى منسوب أعلى مما كانت عليه في السابق وأن كلتا المنطقتين كانتا مغمورتين بمياه البحر بعمق يزيد عما هي عليه الآن.

لاحظنا تقدم البحر الواضح على معظم أجزاء الساحل الإفريقي الشمالي، الأمر الذي يثبت صحته عثورنا على مخلفات مدن شاطئه تحولت اليوم إلى أنقاض يغمرها البحر بوضوح تام كمدينة قرطاج التي تبدو مخلفاتها أسفل سطح البحر لمسافة يزيد طولها على ستمائة وستين ياردة، وعرض يزيد على مائتي ياردة حيث يصفها الكاتب شو Shaw في مؤلفه ترحال في شمال غرب إفريقيا بأنها مغمورة بالكامل بمياه البحر، الأمر الذي ينطبق على مدينة طرابلس القديمة التي تعرضت لنفس الفعل كما أشار إلى ذلك حسن الوزان.

إن ارتفاع منسوب مياه البحر المتوسط ما كان له ليترك أراضي سرت المنخفضة بدون طغيان عليها أحياناً وبدرجة تفوق ما كان يحدث في العهود السابقة لولا فعل وتجمع تربة البحر ذاتها غيّر بعد شواطئه، حيث تبدو العديد من الموانىء والمرافىء القديمة مليئة بالرمال البحرية النشأة، وإلى تحول بعض البحيرات إلى أسباخ، إضافة إلى الرمال الساحلية المتحركة قد اكتسبت صفة الصلابة وتغيرت طبيعتها بالتالي.

إن ما أشير إليه يمكن توضيحه أكثر بتلك الملاحظات التي دونها السيد Rennell عن الوضع السابق والحالي لما كان يعرف ببحيرة Tritors وخليج سرت الصغير، حيث يقول:

يؤخذ من أقوال الكتاب الذين سنشير إليهم بأن خليج سرت الصغير كان يتوغل كثيراً نحو الداخل وكان على اتصال بالبحيرة المعروفة ببحيرة بالنس تريتونس Palns Tritonis عند القدماء، لأن ما يخالف هذا يعني رفض آراء كل من هيرودوت وبطليموس إضافة إلى ما نادى به إسكيلاكس Scylax الذي يفترض الجميع بعلمه للحقيقة، كما أن آراء الخبير Shaw الذي لاحظ مصداقية هذه الفكرة مما يدعونا للأخذ بها أيضاً، ومفادها أن المسطحين البحريين المذكورين كانا على اتصال في الزمن الغابر، وأن صلة الوصل تلك ظلت قائمة حتى عهد بطليموس.

إننا نعتقد بجواز اتصال نهر Triton بالبحيرة، وأن الجزيرة المعروفة لدى البعض بنفس الاسم Triton ودعاها هيرودوت باسم فلا Phla.

ومهما كان الأمر فإن الجزيرة المقصودة تشكل جزءاً من السهل الرملي الذي ينتهي عنده نهير أومسيل الحامة الذي يفترض أنه هو ذاته نهر التريتون.

إن المظهر الحالي للمنطقة المشار إليها واختلافه عن ذلك الذي أشار إليه المؤرخون الأوائل لا يشكل نقطة خلاف إذا ما أشرنا إلى تلك التغيرات التي طرأت على السواحل الرملية، وبالذات عند رأس الخليج حيث يباشر المد والجزر أقصى طاقة له في تجميع الرمال على علو ملحوظ، وبما أن شواطىء منطقة سرت أكثر استواء وتتميز بانخفاض ملحوظ فإن أثر العملية المشار إليها ربما تم بسرعة أكبر مما سبقت الإشارة إليه.

يعتقد لوكان كما هو الحال مع السيد رينيل بأن قاع خليج سرت الكبير ظل يشتد تماسكاً وضحولة حتى تحول إلى أرض جافة صلبة، إلا أن التغيرات التي تمت في الدرجة والمدى التي واكبت ذلك التحول إذا ما تم أصلاً، لا نعلم حقيقها رغم استمرار الاحتفاظ بالمكونات الأصلية لها.

تحدد الصعوبة الأساسية في الإبحار في خليج سرت فيما يطلق عليه البحارة الإبحار قرب الشواطىء التي تهب عليها الرياح، هذه العملية التي لم تجهز سفن الأقدمين للتعامل معها، فما رأيناه من شواطىء الخليج يبدو تأثير الأمواج العاتية التي تنطلق فوق المنخفضات البحرية عند هبوب الرياح القوية على الشاطىء، تجعل من إمكانية بلوغ المراكب بغيتها بالرسو أمراً غاية في الصعوبة ولا ينجو منها بالتالي إلا القليل، كما أن تدفق المياه نحو الخليج يبدو عظيماً حين تهب الرياح الشمالية والشرقية على السواحل مما يجعل من الصعوبة بمكان بلوغ المراكب التي امتلكها الأقدمون وصول الشاطىء قبل غرقها، وأكثر من هذا فإنه حتى الآن لا تجرؤ سوى مراكب قليلة على الإقدام

بالإبحار غرباً من بنغازي عند هبوب الرياح القوية تحسباً للغرق.

أدى تحسين وسائل الإبحار إلى تجريد خليج سرت من الكثير من المخاطر التي ظلت عالقة به، هكذا لاحظ السيد رينيل فيما يخص هذا الموضوع الذي أكد الربان سميث بأن آراء الأقدمين حول هذا الموضوع كانت تميل إلى المبالغة أكثر من ذكر الحقيقة.

كما يظهر من أقوال المؤرخ Mela أن مياه خليج سرت لم تكن خطيرة فقط لتكرار تكون المنخفضات ولكن نتيجة التدفق والانحسار الذي يصاحبه كما سبقت الإشارة. فهذا الارتفاع والانخفاض للمياه لا يمكن إرجاعه للمد أو الجزر بقدر ما هو رد فعل لأحجام هائلة من المياه بسبب تواصل هبوب الرياح العاتية، ودفعها لأجزاء منها فوق الأراضي المنخفضة، أما التدفق نحو الخليج فتسببه الرياح القوية التي تهب نحوه.

أكد كل من سيلاست وبليني بأن اسمي خليجي سرت الكبرى (سرت) وسرت الصغرى (قابس) قد اشتق من الأصل الإغريقي الذي بنى أساس التسمية على الأثر الذي ينجم عن فعلي التدفق ورد الفعل عنه، الأمر الذي أنكره الدكتور ديلا إتشيلا وغامر على التأكيد بأن الاشتقاق إنما يعود إلى الأصل العربي بقوله بأن كلمة سرت تعني الصحراء التي لا زال مظهرها ممثلاً في نهاية الخليج الجنوبية.

وهنا إذا كان لنا الاتفاق مع المعنى بأن المنطقة المعروفة بسرت هي صحراء، التي ينكر صديقنا الشيخ الضبع الذي يعيش هنا وغيره كثيرون في ربوعها أن تكون كذلك، فإن التسمية لا تبدو في محلها، مقارنة بتلك الأراضي التي تحدها جنوباً والمؤهلة قبل غيرها لأن تدعى كذلك وهوما لم يتحقق لا من طرف القدماء ولا المحدثين.

فالتسمية كانت موجودة زمن كل من إسكيلاكس وهيرودوت اللذين تم لهما استعمالها، ولو أن هيرودوت عند حديثه عن القبائل العديدة التي

اتخذت من سواحل المنطقة مستقراً لها لم يتعرض مطلقاً ليقرن أراضيها بصفة الصحراء، إذ لم يكن على دراية بمثل هذا المعنى.

أما إذا كان للكلمة اشتقاق من لغة شرقية فإن علينا البحث في تلك الأصول التي لا علاقة لها باللغة العربية المتداولة، وبما أن الفينقيين كانوا على اتصال مباشر مع هذه السواحل ومنذ زمن مبكر جداً، فإنه بالإمكان التطلع إلى إمكانية ظهور التسمية معهم.

لقد تبين جلياً أن خصوصيات خليجي سرت تبدو أكثر إثارة وتعلقاً بالذهن من تلك التي ترتبط بإقليمها، مما يولد الانطباع بأن اسمي الخليجين هما اللذان أفردا اسميهما على المنطقة وليس العكس خاصة إذا عرفنا أن الفينيقيين كانوا أمة بحرية وأنهم كانوا بالتالي على دراية كبيرة بالخليجين قبل إقليميهما.

إن احتمال أصل الكلمات الإغريقية والعبرية التي يمكن البحث عن اشتقاق كلمة سرت منها هو أصل كلمة صحراء العربية التي أشار إليها الدكتور ديلا إتشيلا بأنهما ينتهيان بنا إلى ضرورة نسبتهما إلى الخليجين كإشارة إلى العواصف الشديدة وما ينجم عنها من آثار، إذ ليست لها علاقة بالإشارة إلى جدب الأرض وخلوها من مظاهر الحياة.

إن الرجوع إلى الكلمتين العربيتين سار وسارات Saar و Saarat يوضحان المعنى المشار إليه، إذ تعنيان الزوبعة والعاصفة، وفي هذا مجرد اقتراح لمن يرفضون نسبة الاشتقاق إلى الأصل الإغريقي لكلمة سرت Syrtis، الأمر الذي نقره بناءً على ما جاء به الكتاب الذين تحدثنا عنهم، في الوقت الذي تظل فيه إمكانية نقل إحدى الكلمات الفينيقية إلى اللغة الإغريقية ومنها إلى لغة الرومان الذين نظروا إلى أصلها ضمن فحوى دلالتها الإغريقية التي بدت لهم ملائمة للتعبير عن خصوصيات الخليجين دون النظر إلى إمكانية قيام الإغريق بأخذها عن غيرهم.

الفصـل الحـادي عشـر

حل كامل ركبنا يوم الثاني عشر من يناير بمدينة بنغازي بعد قضاء شهرين وسبعة أيام من وقت مغادرتنا لمدينة طرابلس، إذ لم ينقض زمن يذكر حتى بدأت السماء تمطر دون توقف يذكر حتى بداية شهر مارس مع هبوب رياح عاصفة من اتجاهـي الشمال الغربـي والشمال الشرقي في الوقت الذي تحولت فيه حالة المدينة إلى وضع أقل ما يمكن قوله عنه بأنه سـيء للغاية، إذ تهاوت الكثير من المنازل التي كثيراً ما يتبعها صراخ وعويل الأسر المنكوبة، كما تحولت الطرقات خلال هذه الفترة إلى ما يشبه المسيلات المائية، وكان السوق خالياً من السلع لاستحالة وصول الماشية إلى المدينة، فقد وصل عدد النافق من الضأن والماعز إلى عدة آلاف.

كان حظنا جيداً، فقد كانت لدينا حجرة قاوم سقفها وصول المطر إلينا بعد أن قام أحد أبناء الباشا قبل فترة من وصولنا، عندما كان مقيماً بهذا المنزل، بإصلاح سقف هذه الحجرة، مما يجعلنا نعتقد بأنها الحجرة الوحيدة الصامدة ضد التقلبات الجوية في كامل المدينة، أما الفسحة الواقعة وسط المنزل فكانت بمثابة البركة التي لم تترك مجالاً للانتقال بين باقي الحجرات سوى بصعوبة بالغة.

إن حالة منزلنا الذي يمكن وصفه بأنه أفضل ما في بنغازي، لا تقارن

مطلقاً بباقي أجزاء المدينة أثناء الفصل المطير، حيث يصبح عسيراً على أبناء الدول المتقدمة البحث عن أي نوع من الراحة في ثنايا المدن العربية.

شيدت بيوت المدينة على طريقة البناء العربية التي تستعمل أحجاراً خشنة غير متجانسة باستعمال الوحل بدل الإسمنت، وتتكون عادةً من طابق واحد يقام حول فناء مربع غير مسقوف تفتح عليه أبواب الحجرات التي قلما تتصل ببعضها، كما أنه غير مرصوف وقد تحفر به بئر عند الطبقة الميسورة الحال. أما الأسقف المقامة على جذوع نباتات الصنوبر الصغيرة بعد تغطيتها بحصر من جريد النخيل التي تغطي بدورها بحشائش البحر أو مخلفات الحشائش الأخرى حيث تفرد عليها طبقة من التراب التي تدك إلى الحد الذي يسمح به كسل المواطنين إذ كثيراً ما تصبح هذه الأسقف مكان جذب لبعض الماعز، كما تنمو فوقها الحشائش والشعير أيضاً. أما أولئك الذين تسمح ظروفهم المادية، فإنهم يعاملون هذه الأسقف بفرش طبقة من سائل الجير فوقها منعاً لتسرب المياه من الشقوق التي قد تعلوها، وهو ما يعمل على حفظها لبعض الوقت، كما يحافظ على بقاء مياه الأمطار نظيفة مما يساعد على حفظها في خزانات أرضية تعد لهذا الغرض، أو لاستقبالها مباشرة عن طريق مسيلات حيث تعد جرار فخارية لحفظها لبعض الوقت، ومع ذلك فإن أغلب المنازل خالية من مثل هذه الحماية البسيطة، ذلك أن أغلب المنازل التي تترك أسقفها دون دك جيد فإن المياه التي ستتسرب خلالها أثناء الفصل المطير كفيلة بهدمها قبل انتهاء الموسم.

تعمل روح الكسل لدى العرب إلى جانب معتقدهم الديني إلى ترك أمر العناية بأشياء كثيرة لديهم إلى العناية الإلهية بدل بذل أي مجهود واتخاذ الاحتياطات اللازمة من قبلهم حتى إذا وقع المحظور ممثلاً في تعرضه لنزول المياه القذرة فوق رأسه، أو سقوط المنزل كاملاً أخذ يفيق من غفلته نتيجة لصراخ زوجته وأطفاله مذعورين أو مصابين أيضاً لسقوط السقف أو نتيجة سبب آخر يكون هو نفسه المتضرر الفعلي منه إذ أصيب العديدون إصابات

بالغة أثناء وجودنا في المدينة، الأمر الذي لا بد أن يتكرر كل عام نتيجة لمثل هذا الإهمال.

يترك المنزل مهجوراً إذا تهدم مضيفاً بذلك كتلة من الوحل تعمل من جانبها على تعطيل المرور في أكثر من شارع ومن أكثر من بقعة واحدة منه، الأمر الذي يحول معظم طرقاتها إلى أكوام من الطين والوحل شتاءً، وإلى سحاب خفيف من الغبار يكسو الوجوه صيفاً.

تعمل أمثال هذه الركامات الترابية القذرة من جانبها كوعاء لاحتضان مجموعات جائعة من الكلاب، وأسراب الذباب والناموس، حيث يتجمع الأطفال الجياع من أنصاف العرايا من حولها وكأنها نتاج لما تتمتع به هذه الركامات من مخصبات.

لا تملك بنغازي خاصية تميزها وسط هذا المظهر والمنظر الكئيب الذي يكاد يكون سمة ملازمة لكل مدينة وقرية رأيناها، فالقذارة والغبار وأسراب الحشرات المختلفة لا بد أن تكون نتاج هذا الإهمال المتواصل، وبالتالي فإننا نجد مثل هذه المنغصات، إلى جانب جماعات الكلاب الجائعة، والأطفال العرايا هي الخصوصيات الرئيسية لمثل أماكن الإقامة هذه، ومع ذلك فإن مواطن الشمال الإفريقي لا يرى شيئاً مميزاً حول ما أشرنا إليه بل ويعتبرها صفة ضعف أو نظرة أنثوية حتى يغضب أو يثور من مثل هذه المنغصات.

إضافة إلى كل هذه المنغصات تتحول أماكن الفضاء هذه عادة إلى مستنقعات قذرة، وبالذات تلك الواقعة في منطقة السوق التي تتخذ كوعاء لروث ودماء الحيوانات المذبوحة التي حولت هذه البركة ـ كما قال الشاعر ـ من اللون الأصفر إلى اللون الأحمر، ففي هذه الأماكن يمكن للمرء تخيل كيف تتحول مثل هذه الجهات إلى مستودع يتسبب في نشر أسباب الحمى، وبالذات حين تسود الرياح الجنوبية.

إن تخيل تحول مثل هذه الجهات البالغة القذارة إلى أماكن

للاستحمام، أمر لا يصدقه العقل، ولكن مع ذلك فإنها قد تصبح كذلك، إذ كثيراً ما يتحول الأطفال من اللعب فوق أكوام القذارة إلى إنعاش أنفسهم والاستحمام في هذه المستنقعات التي تلعب أسراب الذباب التي تعد هي الأخرى من سمات جميع أجزاء المدينة بما في ذلك منازلها مشكلة بذلك آفة لا يمكن تجنبها والهروب منها، إنها معك أينما كنت ومع كل شيء تعمله، إذ تتبعك أينما ذهبت، وتحل على أي مكان في جسمك ـ على ذراعيك، أرجلك، وأي مكان تضطر لتركه دون غطاء وهو ما لا يمكن تحقيقه في فصل الصيف بالذات، كما قد تصل وبسهولة إلى عينيك وأنفك وأذنيك وفمك، وأكثر من هذا تلاحق صحن أكلك الذي سرعان ما يمتلىء بها، تماماً مثل أي وعاء يحمل سائلاً، وباختصار لن يمكنك المشي أو الركوب، أو القراءة أو الكتابة أو الأكل أو الخلود إلى الراحة في أي مكان في بنغازي دون أن تكون ضيفة عليك، أما ليلاً فإنها تلجأ لأخذ مكانها المفضل على السقف تاركة مكانها للبراغيث والناموس حتى بداية طلوع الفجر حين تأخذ في تحريك أجنحتها وتبدأ معك من جديد.

إنها حشرات حرة وسريعة الحركة مما يسبب صعوبة في قتلها، إذ كثيراً ما ننجح في قتل ثلاثين أو أربعين منها في الصباح إذا قلبنا أسرتنا بحذر، ومثلها نهاراً على أجزاء مختلفة من ملابسنا، إلا أن حصيلة ما نصطاده منها خلال أسبوع كامل لا يتعدى حصيلة البراغيث في يوم واحد، هذا طبعاً عدا تلك التي نصطادها باستعمال المصائد الخاصة بذلك والتي لا نتوانى عن استعمالها في أي وقت.

تتعرض جميع مناطق المناخ الحار تقريباً لبعض هذه المساوىء والمنغصات، إلا أن احتمال وجود مكان واحد يفوق ما في بنغازي من ذباب يظل أمراً غير وارد.

ومع ذلك تظل المدينة أفضل حالاً من باقي المدن القذرة الأخرى، إذ

شيدت على ساحل البحر على طرف سهل جميل وخصب يمتد حتى حضيض سلسلة جبلية على بعد قرابة أربعة عشر ميلاً إلى الجنوب الشرقي، وتتوفر بها العديد من محاصيل الحبوب والخضراوات التي تزرع قريباً منها، إضافة إلى كميات من لحم البقر والضأن التي تتوفر منها كميات منتظمة ووفيرة.

أما الميناء فيبدو أنه كان قادراً على استيعاب السفن الكبيرة، حيث يذكر العديد من السكان أن سفن الباشا كانت ترسو في الأماكن التي لا تستقبل اليوم عدا المراكب العادية، كما أن الدخول إليه غير ممكن سوى للسفن الصغيرة التي لا يزيد غاطسها على ثمانية أقدام وفي فترات اعتدال ظروف الطقس فقط رغم جودة حمايتها بعدد من النتوءات الصخرية التي تحتم استخدام مرشد لاستخدام الميناء دون مخاطر.

لا يحوم أي شك حول اتصال الميناء قديماً مع البحيرة الواقعة جنوبي المدينة مما يسمح بالاتصال المباشر بينهما، الأمر الذي لا يتم اليوم إلا خلال الفصل المطير إذ عمل كل من تجمع الرمال البحرية بواسطة البحر ذاته، إضافة إلى كميات من الإرسابات الفيضية عن طريق البحيرة ذاتها إلى قطع عملية الاتصال المباشر خلال أشهر الصيف.

أقيم قصر البـي عند مدخل الميناء على موضع مبنى أثري لا تزال بعض آثاره ظاهرة عند قاعدة القصر بجوار البحر، حيث استخدم في بناء هذا القصر الحجارة الصغيرة المخلوطة مع الوحل الأمر الذي حدا بالبـي أن يطلب من الربان سميث عند اقتراب سفينة المغامرة، عدم أداء واجب التحية المعتاد خوفاً على انهيار بعض أجزائه نتيجة لصدى المدافع.

يأخذ القصر شكل مربع أقيمت أبراج دائرته على ثلاثة من زواياه، أما الزاوية الرابعة المواجهة لمدخل الميناء فقد أعدت خصيصاً لحريمه.

إذا كانت كياسة المسلمين وتوددهم للنساء قد شكك في أمرها أو تم إنكارها أصلاً، فنحن أمام دليل أكبر على وجودها، ذلك أن الواجهة التي

خصصت لخدمة النساء هي الوحيدة التي يمكن أن تشكل إزعاجاً للسفن الداخلة للميناء، إذ بينما زودت الأبراج الثلاثة الأخرى بمدافع تركت هذه الزاوية دون تحصين مما يسمح لسكانها من الجنس الناعم بمنظر خلاب لعرض البحر من خلال نوافذها المقضبة، حيث تجلس النسوة لاستقبال نسيم البحر البارد دونما خوف من نظرات الحاقدين وغيرهم من الرعاع في الوقت الذي يجيز ارتطام المياه مع قاعدة القصر خلق ما يبعث فيهن روح الخمول ويساعدهن على النوم العميق، ولو أن ذلك يعني سرعة استيقاظهن أيضاً لأي سبب يحدث قريباً منهن، وعموماً فإن قاعدة هذا القصر لو لم تكن أثرية وصلبة البناء فإن إله البحر نيبتون Neptune وهو يرنو إلى هذه العيون الكحيلة لأزال هذا الحاجز الذي أقام نفسه كسد يعزله عن هذا الجمع الجميل من سكان هذه الزاوية، وانتهى بغواصته إلى حيث لا يدري أحد.

يدعى البـي باسم خليل وكان محظوظاً يوماً ما، إذ حظي بقبول الباشا زواجه من ابنته ضامناً بذلك قدراً من المهابة والسلطان على الأقل زمن حياة زوجته التي لم تدم طويلاً فقد توفيت مع الأسف قبل فترة من وصولناإلى بنغازي، وهو ما أدى إلى زوال بعض نعمته، فقد توالت طلبات الباشا طلباً للمزيد من دخل البـي من المنطقة التي بات جمع الضرائب فيها يعاني من استمرار العثرات وتناقص الدخل بالتالي مما لا يسمح بالإيفاء بطلبات الباشا المتتالية، إلا إذا اقترن الأمر بإنزال أقسى العقوبات على قوم أنهكتهم طلبات حكام لا يعرفون إلى الشفقة والرحمة سبيلاً، الأمر الذي كثيراً ما أساء إلى نفسيته مقابل جني مكاسب الآخرين.

أُخبر البـي بقدومنا ورغبتنا في تحديد موعد للقاء به لتقديم واجب الاحترام، الأمر الذي جعله يحدد موعداً لنا حيث انطلقنا إلى القصر رفقة السيد روسيني، نائب القنصل في بنغازي، وأخيه.

كان البـي جالساً في حجرة واسعة مطلية بالجير رطبة ونظيفة للغاية،

وكان بجانبه عدد من كبار الموظفين والحرس، وبعض المشائخ، إلى جانب عدد من الخدم وبعض صغار الموظفين في الجانب الآخر من الحجرة.

كان الاحتفال أقل من ذلك الذي تم مع الباشا في طرابلس، وكان الحديث عاماً قبل أن ننتقل إلى الاجتماع به في جناح خاص.

انخفضت أصوات الحاضرين حالما ظهر جمعنا، فقد كانت جميع العيون في اتجاهنا ونحن نتقدم لأخذ مكاننا بجواره، بدا البـي جميل المحيا وذا بنية قوية، حيث يبدو أن قلة الحركة والنشاط والحياة الرغدة قد أضفتا عليه سمتي العظمة والمهابة، تلك الصفات التي قلّ أن يبلغها أبناء الطبقة الدنيا في الأقطار الإسلامية.

ولد البـي خليل في جورجيا، وامتلك بذلك مظهر الملامح الآسيوية التي أضفت عليه سمة الوداعة وطبعت عينيه الحادتين بمظهر جميل، وكان استقباله لنا متوافقاً مع مظهره، كما أن انحناء الرأس الذي يقوم به المسلمون عند استقبال الأجانب عادةً قد ترك للمصافحة اليدوية على الطريقة الإنجليزية، إضافة إلى استعمال تحية صباح الخير باللغة الإيطالية، مما أضفى على اللقاء نوعاً من الراحة.

وقف أمين السر إلى جانب البـي إضافة إلى اثنين من حراسه الخاصين أحدهما تركي الأصل، في حين كان الثاني عربياً، كما حضر بعض القوم الذين يؤدون السلام مع تقبيلهم ليده حين يجلسون كل في المكان الذي يلائم مقامه حيث بدأوا في التطلع وفحص ملامحنا.

كان البـي فيما يبدو على علم بالغرض الأساسي وراء رحلتنا قبل وصولنا، ومع ذلك رأينا من باب الأدب والكياسة إعطاءه فكرة موجزة عنها عن طريق أخ نائب القنصل بصفته مترجماً رسمياً لنا.

وهكذا وبمجرد أن أنهى المترجم حديثه الموجز حتى تحول الحاضرون إلى الهمس فيما بينهم، فقد بدا عليهم عدم الاقتناع ولو بكلمة واحدة مما

سمعوه، وبالذات فيما يتعلق بالدوافع وراء هذه الرحلة، إذ لم يكن باستطاعتهم تخيل إرسال عدد من الرجال للقيام ببحوث من هذا القبيل ودون أن يكون المال الدافع الحقيقي وراءها.

ومع تقبل البـي لوجهة نظرنا، وتقديم كل مساعدة ممكنة دون مقابل تمكيناً لنا من إنهاء العملية التي جئنا من أجلها، إلا أنه بدا فيما يظهر غير مقتنع ببراءة حكومة تجهد نفسها في سبيل البحث العلمي دون الأمل في عائد يغطي ما تكبدته خزينة مليكها!!.

أحضرنا معنا العديد من الرسائل للبـي من قبل باشا طرابلس، حيث قام بتسليمها جميعاً عدا واحدة إلى أمين سره، إذ عرف فحواها، ربما لاستلام العديد من أمثالها، فقد كانت بالفعل ما يعرف بالتسكرة الخاصة بتسليمنا مبلغ خمسمائة دولار.

تغيرت ملامح البـي قليلاً وهو يحط نظره على التسكرة، ومع ذلك حافظ عليها ربما لكريم أصله، ليظهر لنا أن زيارتنا له لم تكن مناسبة له من جميع الوجوه مع القول بأن المبلغ قد تم دفعه لنا ولو على عدة دفعات من قبل سكرتيره أو أمين سره الخاص.

وللحق لو كنا نعلم ما فيه الكفاية عن تاريخه الخاص ساعة إقامتنا في طرابلس لحجمنا عن تحميله إياها، أو أي مبلغ آخر مهما كان تافهاً لما يسببه دفعها من إرباك له.

نحـى البي خليل عن منصبه بعد قليل من مغادرتنا للساحل الإفريقي، الأمر الذي لا شك أنه قد سعد به لأنه لو بقي مدة أطول فإنه سيهلك لا محالة لكثرة تلك المطالب التي لا ينفك الباشا يأمره بها، هذا بالإضافة إلى ما تكبده من خسارة بسبب استيلاء اليونانيين على باخرة مؤجرة له، كما علمنا بذلك في بنغازي، وأكثر من كل هذا تحطيم وحرق دواليب زوجته بما فيها من جواهر تبعاً لأوامر والدها الباشا مباشرة بعد وفاتها.

قدم الشاي والشربات، كما هو الحال في مجلس الباشا في طرابلس، بدل القهوة في جميع المقابلات التي تمت مع البـي خليل حيث انتهزنا فرصة لقائه في المرة الأولى للاطلاع على التصرفات التي أخلت بوفاء الشيخ محمد الضبع للعهد الذي قطعه أمام الباشا، حيث أوضحنا له ذلك السلوك المشين الذي تسبب في تكرار تأخيرنا، وحرماننا مما كنا في حاجة ماسة إليه، وما تعرضنا له من سرقة من قبل معارفه، كل ذلك على أمل أن يعيد إلينا بوصلة جيب، وبعض الحاجيات الأخرى التي لا يمكن الاستغناء عنها وتمت سرقتها في منطقة سرت.

بدا لنا أن البـي لم يكن راغباً في مساعدتنا ربما لعدم قدرته، حيث اكتفى بهز كتفيه، وصرخ ليظهر امتعاضه أيها العربـي وكأنه يريد القول بأن الشيخ الضبع لا يمكن أن يكون سوى وغد.

إن ممارسة العدالة بهذا الشكل لا يمكنها مع الأسف إرجاع ما فقدناه رغم امتلاكه لوسيلة أخرى من العقاب ممثلة في خصم القيمة الفعلية لما سرق منا من باقي حساب الشيخ لدينا، الأمر الذي دفع بنا إلى التوقف عن هذا الموضوع معلمين إياه برغبتنا في البقاء ببنغازي خلال الفصل المطير حيث نتابع بعده رحلتنا شرقاً مع رجائه بتقديم المساعدة الممكنة لحماية معداتنا، حيث استأذنا في الانصراف بعد أن تم التأكيد لنا إن كل شيء قد تم حسب رغبتنا.

بدأنا بمجرد انتهاء هذا الحفل في ملاءمة أنفسنا مع وضعنا الجديد الذي سنضطر خلاله لقضاء معظم الوقت داخل البيت بسبب المطر الغزير، وذلك بترتيب معداتنا، إضافة إلى الاعتناء بخيولنا التي هي فعلاً في أمس الحاجة إلى العناية بها، إلى جانب شراء وتجهيز مؤونتنا وما نحتاجه من أشياء أخرى وللحق قام القنصل وأخوه بتقديم مساعداتهما لنا كما يجب مما يلزمنا بتقديم خالص شكرنا على ما قاما به نحونا طوال فترة وجودنا.

حاولنا بذل جهدنا لقضاء الوقت بطريقة مناسبة، ومع ذلك ظل الوقت مخيماً فوق رؤوسنا، فقد اكتشفنا أن بنغازي مدينة لن نأسف على مغادرتها إذ لا يوجد بها مكان عام واحد، كما أنها خالية من أي مكان للتسلية، فسكانها إما عاطلون عن العمل أو نيام معظم الوقت ولا يملكون رغبة في تغيير أحوالهم وظروفهم البائسة التي لا يحسدون عليها في ظل رتابة وتكرار نمط حياتهم البائس هذا.

لا تعد المدن التركية مرتعاً للتسلية عادةً ومع إننا لم نتوقع وجود مسارح أو صالات للاجتماعات، ومع ذلك تظل زيارة المقهى والسوق ملجأ للتسلية وضياع الوقت والحصول على بعض المعلومات أيضاً.

لا وجود لمثل هذه الأماكن في بنغازي، وبالفعل لم نجد مكاناً واحداً يشعرنا بالرغبة في تكرار الزيارة له، فالغرباء يمكنهم إيجاد مستقر يقيهم المطر فيما يعرف بالفندق كمكان مؤقت للاستقبال وتوفير بعض الراحة.

قمنا مرة، ومرة واحدة فقط بزيارة هذا المكان وبالدخول إليه من فتحة باب مكسور، وجدنا أنفسنا في حجرة مقامة على قوس لا يدخلها الضوء إلا بصعوبة بالغة، مما يجعل المشي بها يتطلب بالغ الحرص حتى يتم وضع القدم في مكان آمن. لم يكن هناك أحد سوى أعرابي يغط في النوم قرب بقايا نار لا زال دخانها يعكر جو الحجرة. تبدو الحجرة وكأنها بناء قديم ما زالت بعض أعمدته ظاهرة عند تدقيق النظر في جدرانها، أما حالتها الخارجية فرغم ترميمها عدة مرات، ولو أن ما يلفت النظر هو المنظر الداخلي لهذا المبنى أو الحجرة بتعبير أدق، إذ تبدو مليئة بأكوام من الوساخة التي يبدو أنها تجاهد في بلوغ السقف من فوقها.

إننا لن نضيف الكثير لوصف هذا المكان الذي لن نقبل قضاء ليلة واحدة به، رغم ما قد يقدمه من إغراءات لزواره من العرب لأننا نفضل فعلاً قضاء ليلة كاملة تحت المطر بدل النوم به ساعة واحدة.

يملك شيخ البلاد المنزل الذي نقيم به، فهذا الرجل الذي يحترمه جميع الذين يعرفونه أتاح لنا فرصة التعرف على العديد من وجهاء المدينة الذين تمكنـا من الحصول منهم علـى بعض المعلومات الخاصة بالإقليم، وبعض الموضوعات الخاصة ببعثتنا.

يقطن بنغازي قرابة ألفا نسمة، جزء هام منهم من اليهود والعبيد، ولو أن عددهم يختلف تبعاً لظروف انتقال بعضهم إلى المناطق المجاورة عندما تسمح الظروف المناخية بذلك، حيث يقيمون خيامهم أو يسكنون أكواخاً من جريد النخيل عادةً.

ومع أن يهود المدينة جنس مضطهد، إلا أنهم يسعون دوماً وراء جمع الثروة كما هو الحال عادةً في الأقطار الإسلامية، إذ يكونون طبقة التجار الرئيسية، هذا إلى جانب امتهانهم للحرف الهامة أيضاً، الأمر الذي يمكنهم من التغلب على دفع ما يفرض عليهم من أتاوات مقابل ما يملكونه من مال أو عقارات، ومع ذلك تظل بيوتهم أنظف، وأجود في تأثيثها من أغلب السكان المسلمين إذ لم نزر أحد منازلهم إلا ونراهم جميعاً منهمكين في عمل ما يعود عليهم بالفائدة، إضافة إلى كونهم ودودين ومؤدبين، ويبدون راضين بالحال الذي هم فيه، وهو ما يثبت كيف أن التعود يمكن له أن يجمع بيننا وبين الشرور التي تبدو لغير من اعتادوا عليها أمراً غير محتمل.

فطاقة نفاذ الصبر التي ميزت يهود برقة في الماضي قد اختفت ربما بسبب نجاح ممارستها، ذلك أن الفقر لا يزال اللعنة الوحيدة التي لن يخضعوا لها بهدوء، ومع ذلك فإن تجارة بنغازي ليست كلها حكراً على اليهود، إذ بجانب البـي الذي يعتبر التاجر الأول، هناك بعض التجار المحترمين من المسلمين ولو أن حالة السوق لا تسمح سوى بتلك السلع القليلة المطلوبة من البدو كالمسامير المختلفة، ورصاص البنادق، وقطع الصوان، التي تعرض جميعها على ألواح خشنة عند أبواب متاجر بعض الحرفيين من العرب حيث

يخضع التعامل فيها لعديد من المساومات وكأنها أثمن أنواع البضائع.

يتمثل إنتاج برقة أساساً في الحبوب والصوف والمينتيكا Menteca التي يعدها التجار للتصدير عن طريق المراكب التي تحضر خصيصاً لهذا الغرض ولا تتعرض لمضايقات اليونانيين إضافة لملاءمتها لعمليات النقل بدل المراكب المحلية.

تشكل الماشية إضافة إلى ما سبق ذكره جزءاً هاماً من صادرات بنغازي، إذ تتردد على مينائها العديد من السفن المالطية وبعض السفن الأخرى لهذا الغرض أثناء أشهر الصيف، وعموماً تعتبر تجارة المواشي حرفة مريحة إذا توافرت لها الظروف المناسبة وبالذات فيما يتعلق بهبوب الرياح الملائمة، وسرعة عمليات الشحن، ولو أن مواجهة العديد من المصاعب الطارئة كهبوب الرياح القوية الضارة، أو ما يصيب المراكب من عطل، أو تحميلها بطاقة أكبر من حمولتها الاعتيادية إلى أمور يتضاءل معها عائد الربح إن لم يكن الخسارة الحقيقية الممثلة أساساً في إنفاق العديد من الحيوانات بسبب العطش أو الاختناق أو الإصابات البالغة لشدة الازدحام، أو حتى بسبب الغرق في بعض الأحيان.

تساق الماشية من المناطق المجاورة حيث يتراوح سعرها ما بين ستة إلى ثمانية دولارت للرأس حيث ينتهي بها المطاف إلى قرابة ثمانية عشر دولاراً للرأس في جزيرة مالطا، ومعلوم أن الظروف الجوية الملائمة قد تدفع بالكثير من الربابنة إلى نقل كل ما يستطيعون توفير مكان له مما يؤدي إلى إلحاق الضرر بها، وبالذات تلك المحمولة في الطابق الأسفل من السفينة، الأمر الذي يؤدي إلى ضياع أعداد كبيرة منها.

إن ما شاهدناه بأنفسنا على سفينة من هذا النوع يجعل منا شاهد إثبات على مثل هذه الممارسات البشعة التي تتعرض لها هذه المخلوقات التي انتزعت من مراعيها الفسيحة على الهضاب القريبة، وحشرت في هذه السفن

وكأنها علب كبريت، فقد كان علينا أن نرحل في واحدة من هذه السفن عندما تركنا الساحل الليبي، إذ كان الميناء خالياً من أي سفينة أخرى عدا واحدة من هذا النوع، إنها باختصار عملية بشعة ويمارسها أناس لا هم لهم سوى الربح رغم علامات الرحمة التي قد تظهر على وجوه بعضهم أحياناً.

قدم لنا الشيخ العديد من معارفه وبالذات بعض من يتمتعون بإحساس وروح مرحة وبإمكانهم فعلاً ترك عمل يفيد غيرهم، إذ قضينا معهم بعض الوقت الممتع وكان بإمكانهم تزويدنا بالكثير من المعلومات عن الجزئين الشرقي والجنوبي من بلادهم، وهو ما تبينت لنا فائدته فيما بعد، ولو أن أغلبهم يخجل من الجهر بآرائهم فيما يتعلق بالأمور السياسية مع أنهم يتكلمون بصراحة عن جشع ونهم البي محمد رغم ما قام به من جهد لتحويل البلاد إلى حالة الطمأنينة التي تعيشها اليوم، ووفر للمدينة تلك الإجراءات التي أعطتها حالة الأمن التي تنعم بها إذ كثيراً ما تحدثنا عن حالة الحرب القائمة بينهم وبين اليونانيين فقد أفصحوا مراراً بسؤالنا عن الجانب الذي سنقف معه إذا حلت بالميناء بعض سفن اليونان المعادية.

كان ردنا متفقاً مع آرائهم ويلقي قبولهم، فموقف الإنجليز التقليدي مع الباب العالي طرق آذانهم من قبل، حتى أنهم باتوا يلقبوننا بالأصحاب أو الحلفاء، الأمر الذي لا يجد قبولاً لدى الطبقات الدنيا فقد وصلتهم أخبار غير مؤكدة عن انتصار اليونانيين الذين قاموا بتعذيب السجناء، وأثار الذعر بينهم، إذ بدأوا يتوقعون هجوماً شرساً للقضاء عليهم. حلت في هذه الأثناء السفينة المغامرة إضافة إلى وصولنا نحن وغموض الهدف من رحلتنا، إضافة إلى توتر الأعصاب، وأثار احتمال تحقيق ما سمعوه من شائعات خاصة بعد أن رأوا مخطط ميناء المدينة والمناطق المجاورة، الأمر الذي رفع من أسهم إمكانية عملنا وتحالفنا مع اليونانيين ضدهم.

كانت أذهانهم مشحونة بمثل هذه التصورات في الوقت الذي تكونت

فيه مع الأسف، وقبل أفول الشمس مباشرة، بعض السحب الداكنة اللون المنخفضة عند الأفق وتراءت لهم بالتالي وكأنها سفن مبحرة وهو ما أثار رعب الجميع الذين تصوروا أنها أسطول الأرمادا. لم يكن بالإمكان إقناعهم بأن المظهر الذي تراءى لهم لا يعدو أن يكون مجرد وهم إذ سرعان ما أرخى الظلام سدوله وعم الفزع كل أجزاء المدينة، وأخذ الرجال في إعداد أسلحتهم والتجمع في أماكن محدودة، في حين أخذت النسوة والأطفال يهرولون من حولهم، وقد أخذ منهم الفزع وهم يصرخون لقد أتى المسيحيون لقتلنا واغتيالنا!!.

بدأ الضجيج يعلو قرب باب منزلنا الذي تحول بسرعة إلى مركز للصخب، إذ تجمع العديد من العرب وهم في حالة غضب وهياج، وبدأت الهتافات ضد النصارى. نعم كان الموقف حرجاً، وكان على أي مسيحي غير مسلم لو تصادف وجوده في الشارع أن يصبح في موقف حرج، وربما خطر أيضاً إذ بالفعل ما كان على أخ نائب القنصل وزوجته الذي تصادف مرورهما بالقرب منا سرعة الهروب واللجوء إلى منزلنا رغم أنه من الموالين ومحبوب جداً من المواطنين جميعاً.

كان بودنا العمل كأطراف لحل النزاع إلاَّ أن تعرض أبوابنا للقذف بالحجارة والطوب، اضطرنا لتسليح أنفسنا والدفاع عن منزلنا حتى النهاية إذا ما واصل العرب هجومهم علينا.

شق الشيخ محمد وأخوه مع بعض رفاقهم طريقهم خلال تجمع الرعاع، وحالوا بالتالي دون هجومهم علينا، ولو أننا علمنا بأن أحد أصدقاء الشيخ قد ضرب حتى وقع مغشياً عليه لوقوفه للدفاع عنا قبل بلوغه مكاننا.

احتد النقاش وعلا الصراخ والضجيج وبسرعة ظهرت إشاعة مفادها نزول اليونانيين على الشاطىء مما دفع بالجميع بالإسراع نحوهم وبنادقهم مصوبة، ولكن دون أن يعلم أحد على من تطلق هذه النيران، وهكذا تجمع

حشد من الناس ينتظرون هجوم الأعداء عليهم.

انقضت عدة ساعات ولا أثر للعدو المرتقب، وبسؤال بعضهم عن السبب وراء كل هذا الصخب والاستعداد لم يتبين أحدهم جواباً مقنعاً، الأمر الذي دفع بهم إلى التقهقر والانصراف تدريجياً ولم يعد أحد يسمع عن ذلك الغزو الكاسح الذي أثار كل هذا الانفعال، وهنا كان على ضيفنا أخ القنصل، بعد قضاء كل هذا الوقت، الاستعداد للعودة هو الآخر ليوفر لزوجته بعض الراحة حيث قررنا مرافقته خوفاً عليه لارتدائه ملابس أوروبية، وببلوغنا منزله عرفنا أن أخاه نائب القنصل قد اضطر هو الآخر لإغلاق أبوابه خوفاً على حياة أسرته في الوقت الذي ظلوا فيه مشغولين عليه. وهكذا انتهى ما بدأ بسبب تافه تحولت المدينة بكاملها من أجله إلى حالة من الفوضى هددت حياة سكانها من المسيحيين.

يلاحظ المرء من خلال ما حصل النقص والحاجة الملحة للنظام، فقد أسرع كل واحد إلى أين لا يدري لا لشيء سوى لرؤية الآخرين يفعلون الفعل ذاته تاركاً بذلك أسرته وممتلكاته تحت رحمة أولئك الذين قد يداهمونه، ذلك أن عدة رجال كان بإمكانهم احتلال المدينة والسيطرة عليها، إذ كانت بدون من يقف في طريقهم فعلاً.

إن ما حصل معنا كان الشيء الوحيد الذي أقلق راحتنا لبعض الوقت من سكان هذه المدينة الذين لا بد لنا من الاعتراف بأن ما تم فعلاً إنما جاء نتيجة لجهلهم وخوفهم ولا علاقة له مطلقاً بعداوة متعمدة ولا شعور بالكره نحونا. ففي كل المناسبات الأخرى كانوا دوماً ميالين للمساعدة ومؤدبين ولا يبخلون بما يمكنهم تقديمه.

أما بخصوص السلوك والملابس فلم نجد فيهم ما يختلف عن غيرهم من العرب عامة، وبالتالي فلا داعي لتكرار الحديث حول موضوعات سبقتنا أقلام أخرى للحديث عنها باستفاضة.

يعلم الجميع مدى اعتمادهم على فعالية، إذا جاز لنا التعبير، التعاويذ والأحجبة والعلاج العائلي وبعدهم عن طلب المساعدة الطبية إلا بعد قيامهم بتجريب ما اعتادوا عليه من علاج، وفشلهم في النهاية، إذ رأينا تجربة من هذا النوع حيث كان زميلنا السيد كامبل واقفاً مع بعض الرفاق ذات مرة أمام المنزل حين تقدمت نحوه سيدة وأمسكت بكلتا يديه وهي تتوسل إليه لمساعدتها في علاج ابنتها المريضة جداً وطريحة الفراش، الأمر الذي دفع به لمرافقتها، حيث وجد الفتاة ملقاة على الأرض وفي حالة تعب شديد بينما كانت أختها تبعد عنها أسراب الذباب التي تملأ الحجرة.

كان حلقها متورماً ولا تستطيع التنفس إلا بصعوبة بالغة، فقد كان الموت فعلاً على مرأى منها، إذ مرت على مرضها تسعة أيام كاملة، وتعاني من حمى التيفود بينما كانت الأحجبة تعلو بعض أطرافها.

حضـرت الأم مضطـرة ، إذ لم يجد العلاج السابـق شيئاً ، ومع أن حدة الحمى قد خفت قليلاً ، إلا أن الفتاة كانت منهكة فعـلاً ، وبدأت أعراض الموت تظهر عليهـا ، الأمر الذي لم يجد معه دواءنـا نفعاً رغم العناية التي حظيت بها فقد تمكن منها المرض وبهدوء أسلمت روحها إلى الأبد.

سقط ابن الشيخ محمد مريضاً دون علم لنا به، ومع أن والده رجل عاقل إلا أنه أبقى عليه في حجرة مغلقة بعد أن أفرد عليه كومة من الألحفة دون أن يخبر السيد كامبل بالأمر الذي ما إن علم به حتى أسرع لتقديم خدماته التي تم رفضها بحجة أن إرادة الله لا راد لها وأن مصيره إذا كان له ليصل لنهايته فلا أحد يستطيع فعل شيء تجاه ذلك، ومع كل ذلك حاولنا إقناعه بقبول تدخل السبد كامبل الذي ما إن مرت عدة أسابيع على تدخله حتى أخذ الغلام في كسب صحته وعاوده الشفاء مرة أخرى بعد أن كان مريضاً جداً بالحمى هو الآخر. والواقع أن ما قام به الزميل كامبل في عديد المرات قد

عاد عليه بالشهرة، وبالذات بعد أن أجرى عدة عمليات جراحية نالت إعجاب الجميع.

كما أقنع السيد كامبل أحد المصابين بداء الاستسقاء بإجراء عملية حضرها العديد من أصدقائه الذين صرخوا بانفعال حاد، وهم يرون الماء يجري من جوفه، وبالمناسبة تعد أمراض الدونتاريا والكبد من الأمراض الشائعة في المدينة، أما أمراض الرمد فأقل حدة وانتشاراً مما هو عليه الحال في كل من طرابلس ومصراته، وخلافاً للحال مع الأمراض الجلدية المنتشرة بين السكان الحضر والبدو أيضاً، بل وفي جميع أطراف الساحل الإفريقي الشمالي، وبالمناسبة يعتقد أهالي برقة بأن سبب انتشار هذا المرض يعود إلى تربيتهم للماشية، مع أن السبب الحقيقي إنما يعود إلى الطعام والماء غير النظيفين اللذين يتعرضان لتناولهما أحياناً أو حين الاستحمام بالماء القذر.

تبين الواقعة التالية وتشرح جانباً من الشخصية العربية وأحكامها المسبقة، إذ حدثت في سقيفة منزلنا حيث يجتمع بعض مشائخ العرب إذا سمحت لهم الحالة الجوية، حيث كان الحديث منصباً على نساء إنجلترا ومدى ما يتمتعن به من جمال، الأمر الذي ترك أثره الواضح على بعض الحاضرين الذين كانوا في لهفة لسماع المزيد عن هذا الجمال حيث أخرج أحدنا من جيبه صورة صغيرة تصادف أن تكون شبيهة بفتاة جميلة.

وزعت الصورة على الجميع مع إصرار مقدمها على أن كل امرأة إنجليزية هي نسخة من جمال وأناقة هذه الفتاة، الأمر الذي أثار حالة من الذعر بين هؤلاء الرجال الذين لم يتعودوا على مثل هذه المناظر التي ما إن أمعن النظر إليها أول المشاهدين حتى تراجع إلى الوراء خجلاً وارتباكاً وهو ما تم مع جميع الحاضرين، فقد كان الفتاة السيئة الحظ ترتدي فستاناً قصيراً، بينما نزلت خصلات شعرها على جبهتها وكتفيها.

لا يبدو هناك شيئاً غريباً وملفتاً للنظر بهذا الشكل من إظهار جزء من

جمال المـرأة، الأمر الذي لن يشكل ما يدعو إلـى الفزع، ولو أن الأمر لن يكون بهذا اليسر بين قوم لا يسمحون ولو بنظرة خاطفة لعين أنثى من وراء حجابها في الوقت الذي يرون فيه عيباً وجهها العاري أمامهم دون خجل أو حياء منها، وبالفعل فإن كل من شاهد هذه الصورة احمر وجهه وأسرع بإخفائه في الوقت الذي ضحكنا نحن من قلوبنا، وعادت بنا الذاكرة إلى التفكير فيما عساه أن يحدث، ولو أن فتاة عربية محجبة الوجه وعارية الساقين والقدمين قد ظهرت فجأة وسط جمع من الرجال الإنجليز!!.

مر وقت قبل أن يعود الرجال إلى حالتهم الأولى بعد هذه الصدمة حيث طلبنا إعادة النظر إليها بحجة عدم وجود ما يثير كل هذا الانفعال من منظر بريء لا يجب أن يقيم له المؤمن الحق كل هذا الوزن، فمثل هذه المناظر ولو كانت حقيقية لا تنقص من كبرياء الرجال، وهو ما دفع الشيخ محمد إلى وضع هذه الصورة في جيبه بحجة عرضها على زوجاته حيث احتفظ بها لمدة ثلاثة أيام كاملة قبل إعادتها إلى صاحبها.

إننا نغامر بالقول فيما يتعلق بالنساء العربيات، رغم أن الاعتدال ليست صفتهن المميزة، بأنهم لن يتجرأن مطلقاً في ارتداء ملابس تثير مثل كل هذا الاستغراب من أصدقائنا، كما أنهن لن يؤمن مطلقاً بأن نساء أوروبا بملابسهن هذه لن يتجرأن مطلقاً بالظهور أمام الجنس الآخر بدون جوارب وحذاء، أما فيما يتعلق بالرقص مع الرجال ومسك أيديهن، فسينظرن إليها على أنها آخر مراتب عدم الاحتشام في الوقت الذي يمثل رقصهن مرتبة لا تقبلها أي امرأة أوروبية محترفة.

ستكون تجربة مفيدة للغاية يقوم بها متحف التاريخ الطبيعي لرؤية أيهما ستحتاج لإقناع أكثر فاعلية: المرأة العربية بدون حجاب أو الإنجليزية بدون حذاء وجوارب، في الوقت الذي لا نحتاج فيه لأي إقناع عن أيهما أكثر تحضراً، أما فيما يتعلق بنا فنحن لا نرى أيهما أقل حشمة، الظهور في المكان

العام بسيقان وأرجل مكشوفة، أم كشف الوجه والذراعين والرقبة، أم أنها أكثر حشمة فعلاً أن تغطي الوجه بدل أن تتركه على حاله الطبيعي! إننا نرى أن الحشمة إنما تتمثل في تغطية الوجه بدل الرجلين مع إدراكنا أن تجربة الخروج بدون حجاب قد تبنتها أكثر الأمم شفافية وأن عادة ارتدائه لا تعني في الحقيقة أنها لا تتمشى مع الطيش ونقص في الشعور الحقيقي.

سبق القول بإقامة بنغازي على موضع برتيشي البطلمية وسابقيها هسبيرديس التي تعود إلى تاريخ أقدم، ومع ذلك فإن بقايا قليلة فقط تظهر اليوم على السطح وتثير اهتمام النحّات أو المهندس المعماري، أو هواة دراسة الآثار، فبرنيتشي اختفت في الحقيقة والواقع من على سهل بنغازي الجميل الذي أقيمت فوقه، أو حلت محلها مدينة عربية سمتها القذارة وبنيت في الواقع على التربة التي تغطي الآثار التي لا زالت مدفونة تحتها.

فإقامة بنغازي في موضع المدينة السابقة، قبل التغيرات المناخية أو بسبب عنف أعدائها هي السبب الأساسي في اختفاء المدينة القديمة، ذلك أن الأحجار التي استخدمت في بنائها كانت ضخمة جداً وعجز العرب عن استعمالها إلا بعد تكسيرها إلى قطع صغيرة قبل نقلها من الأماكن التي تم حفرها فيها.

فكم من عاصمة عريقة تم دمارها من قبل مثل هؤلاء البرابرة، ومع ذلك فإن الإقرار بعدم وجود منزل واحد في المدينة إلا وقد استعملت في بنائه بعض المواد الأثرية، إلا أنها تفتقد جميعاً إلى الطابع المعماري الملفت للنظر، ويشد الانتباه رغم ذلك.

كان الوقت متأخراً بالنسبة لنا لإنقاذ تهشيم حجارة كبيرة ممتازة الصنعة قام بإحضارها أحد الشيوخ لاستعمالها في بناء منزله الواقع خارج المدينة، حيث قام خدمه بتحطيمها وغمر أطرافها في الوحل المستعمل في بناء المنزل، والواقع أن بقايا واسعة الانتشار من تلك المخلفات الأثرية لا زالت

منتشرة على عمق لا يزيد عن قدمين من سطح السهل حيث يقوم أصحاب المباني الجديدة بتأجير بعض العمال للتنقيب عنها وإعدادها لتنقل بواسطة الإبل والحمير إلى المكان المطلوب، مما يعني أن مخلفات أثرية هامة قد ضاعت بهذه الطريقة، ولو أن احتمال بقاء أخرى مماثلة لا يزال قائماً، كما هو الحال مع تلك الركامة الترابية الواقعة على الشاطىء إلى الشمال والشمال الشرقي من المدينة، موضع إحدى المدن القديمة، حيث يتم العثور على العديد من النقود والأحجار الثمينة بعد انجرافها إلى الشاطىء بفعل الأمطار، حيث يتسابق الأهالي للبحث عنها وبيعها للأجانب المقيمين فقد اشترى أحد أقارب القنصل الإنجليزي مجموعة رائعة بمبلغ قدِّر بستة آلاف دولار رغم حداثة استقراره في بنغازي.

خضعت مدينة برنيتشي لإصلاحات هامة زمن الإمبراطور الروماني جوستينيان الذي قام بالخصوص بتعزيز بناء أسوارها، الأمر الذي يبدو غريباً، إذ كيف لها أن تتلاشى كلية. لقد سبق لنا القول باختفاء المدينة مما يجعلنا نلاحظ قلة ما بقي من أسوارها الصلبة فوق أرض السهل مما يجعل تحديد امتدادها أمراً في غاية الصعوبة قبل إجراء الحفريات اللازمة، إذ من المحتمل أن برنيتشي قد اقتصر امتدادها يومئذ على امتداد بنغازي الحالية لأن البحيرة الملحة إلى الجنوب منها ستمنع امتدادها في هذا الاتجاه، كما أن الأرض في الاتجاه الشرقي تبدو منخفضة جداً مما يسمح بغمرها بمياه البحر الذي تتسرب مياهه عبر الكثبان الرملية الشاطئية في هذا الاتجاه أيضاً.

وبما أن مياه المدينة من النوع الرديء فإن احتمال تزويدها قديماً بمياه عذبة يظل أمراً محتملاً باستعمال قنوات تنقل مياه بعض العيون الواقعة نصف ميل باتجاه الشرق، كما أن وجود بقايا صهاريج تربطها قنوات مبنية بالحجارة قرب الشاطىء دليل على قبول هذا الاقتراح.

فرحنا كثيراً عند اكتشافنا للمحاجر التي استخدمت في بناء كل من

برنيِتشي وربما هيسبريدس أيضاً، فقد كنا على يقين من وجود الكثير جداً من المقابر، إلا أن آمالنا قد تبخرت إذ لم نعثر سوى على اثنتين أو ثلاث حجرات رغم أن منظرها لا يوحي أبداً أنها أعدت لغرض الدفن.

تبدو الأشجار والشجيرات النامية في هذه المحاجر وكأنها قد ضربت جذورها بطريقة جيدة، كما هو الحال على جوانب الصخور مما يعطي الانطباع بتحول هذه الجهات إلى أماكن برية وغير مأهولة وذات طابع مميز يستحق رسمه على لوحات.

إن الإشارة إلى الصخور الموجودة في هذه المحاجر لا يعني تلك التي ترتفع فوق السطح تبرر ما نعني به تلك القائمة بشكل عمودي أسفل السطح والتي لا يمكن رؤيتها حتى يتم الاقتراب منها.

كما توجد بجانب هذه المحاجر حفر مميزة ذات تكوين طبيعي قرب المدينة، إذ تتكون من تربة ممتازة ذات سطح مستو بامتداد عدة مئات من الأقدام محصورة بين حواف منحدرة ولو أنها عمودية في معظم الأحيان، من صخور صلبة ترتفع أحياناً إلى علو يقرب من ستين إلى سبعين قدماً قبل الوصول إلى حافة السهل.

حملت تربة هذه الفجوات عن طريق المياه بعد نزول الأمطار الغزيرة حيث يقبل العرب على زراعتها، وهكذا فإن من يمشي في هذه المناطق سيجد نفسه فجأة أمام حقل مزهر في الخفاء وفي أبهى الصور أيضاً وعلى عمق ظاهر تحت قدميه، ومحمي من جميع الجهات بجدران من أحجار صلبة تبدو مستحيلة الاجتياز.

تترك هذه البقع الصغيرة المنعزلة والمحمية من تدخل بني الإنسان بما يتوفر لها من حماية طبيعية آثاراً نفسية في غاية البهجة والسرور، وهو ما يذكرنا بتلك القصص الجغرافية التي تسمح لأبطالها بالتجول وراء حدود الحقيقة والمعقول حيث تقفل الأبواب أمام باقي بني البشر.

يمكن للمرء المشي البطيء حول حافة واحدة من هذه الفجوات مع تدقيق النظر في البحث لإيجاد بعض الأجزاء الأقل بروزاً وحدة من غيرها حتى يصل إلى الحديقة في النهاية ولكن مع عدم تذكر وصف إسكيلاكس لحدائق هيسبريدس البديعة والأكثر شهرة طبعاً التي يصفها بأنها بقعة محصورة تنتهي جميع اتجاهاتها على بعد خمس ميل إنجليزي، مليئة بأشجار الفاكهة من مختلف الأنواع وغير قابلة للوصول إليها من جميع الجهات، وتقع حسب روايته على بعد ستمائة وعشرين إستيدياً (أو خمسين ميلاً جغرافياً) من ميناء برقة، وهي المسافة التي تتفق تماماً مع موقع طلميته، والمسافة بينها وبين هيسبريدس، كما أن شهادة بليني محددة أيضاً فيما يتعلق بتحديد موقع هيسبريدس بالقرب من برنيتشي، إذ يقول. . . غير بعيد عن مدينة برنيتشي يقوم نهر الليثون والحديقة المقدسة حيث يقال بوجود موقع حدائق هيسبيريدس. هذا بالإضافة إلى أن بطليموس قد قصد نفس المكان حين قال بأن الحدائق إنما تقع إلى الغرب من سكان برقة.

إن اسم هيسبيريدس نفسه يدفعنا لتحديد مكان الحدائق قرب مدينة بنغازي لأن الهسيبريديين هم أوائل سكان هذا القسم من برقة، وبما أن هيسيبريدس كان الاسم القديم لمدينة برنيتشي التي بنيت بنغازي في موضعها، وهو الاسم الذي كان الإغريق يعرفونها به بحكم كونها أقصى مدن المنطقة تطرفاً نحو الغرب.

افترض السيد جوسيلين Gosselin وآخرون أن الحدائق المشار إليها لا تعدو أن تكون تلك الواحات أو الجزر الخضراء التي علقت بأذناهم وسط الصحارى الرملية، الأمر الذي يبدو مقبولاً في ظل غياب المعلومات المحلية الأكيدة.

كما أن المعلومات التي وصلتنا عن صحراء برقة من كتابات المؤرخين العرب تقودنا للافتراض بأن المنطقة التي تحمل هذا الاسم، والتي لا تضم

أرض برقة اليوم بما فيها إقليم البتابوليس، ولكن مع كل المنطقة الواقعة بين طرابلس والإسكندرية، لا تزيد عن إقليم مقفر من الرمال ولا توفر سوى القليل جداً من الأرض القابلة للفلاحة.

إن بإمكاننا التخيل في ظل مثل هذه الأحاسيس، إمكانية وقوع العديد من الكتاب المحدثين ضحية لمثل هذه التصورات التي تدفع بهم عند البحث وتحديد أماكن الحدائق الغناء في مثل هذا الإقليم الشاسع الذي تكسوه الرمال عند تلك البقع التي توجد بها الواحات أو الجزر الخضراء، ومهما كان الأمر علينا الاعتراف بأن مكان هذه الحدائق قد حدده العديد من الكتاب في مناطق مختلفة من الساحل الإفريقي مما يجعلنا نقف حائرين لإيجاد صيغة للتوفيق بينها. فالأخبار المتعلقة بهذه الأماكن المفضلة مبالغ فيها ومتنافرة مما يصعب معه الجمع بينها ويجعلنا نفكر أحياناً باعتبارها أماكن خيالية لا محل لها سوى في مخيلة الشعراء ومن على شاكلتهم، ومع كل هذا لا يجب القول من وجهة نظرنا بأن اختلاف المواقع المحددة لحدائق الهسيبريدس يعني الإشارة إلى مواقع جغرافية غير محددة أشرنا إلى تفاصيلها المنقولة من سكيلاكس التي تبدو دقيقة مما لا يجيز رفضها، إضافة إلى أن موقعها كما حدده كل من بطليموس وبليني يتلاءم مع ما قال به اسكيلاكس، علماً بأن الدكتور ديلا إتشيلا ذكرنا بأن ما عناه سكيلاكس هي الأراضي المرتفعة لبرقة التي يحدد موقع الحدائق فوقها.

وأكثر من هذا فإن طبيعة الأرض حول برنيتشي (بنغازي) تتفق مع رواية سكيلاكس، وأن الأماكن مثل تلك التي وصفها بدقة هي ما يمكن وجوده في المنطقة التي قال بوجود الحدائق بها. إن خصوصية طبيعة الأرض، كما رأينا، ميزة تخص المنطقة لأننا لا نعلم مكاناً آخر على الساحل الشمالي لإفريقيا يملك نفس خصوصيات التربة مع ملاحظة أننا لا نشير لأي من تلك الحدائق السفلية كتلك التي وصفها سكيلاكس لجهلنا ما يناظر امتداد ما جاء في وصف الكاتب لها لأن جميع ما رأيناه منها يقل امتداد قطرها عن خمس الميل

التي ذكرها سكيلاكس، فالأماكن التي تطابق هذا الوصف مليئة بالمياه شبه العذبة، وتتخذ شكل البحيرات الصغيرة.

تبين لنا بأن بعض الفجوات التي سبق وصفها قد تحولت إلى بحيرات ذات حواف عمودية وأن مياهها عميقة، وأن مستوى المياه في البعض منها يبعد كثيراً عن حواف المنخفض ذاته، بينما يكون مستواه على عمق لا يقل عن عشرين قدماً، وأنها جميعاً تعلو عن مستواها العادي بقليل أثناء الفصل المطير وأن نوعيته جيدة.

توجد إضافة إلى كل هذا بعض الكهوف قُرب بنغازي، إذ يبلغ عمق أحدها قرابة ثلاثين قدماً تحت مستوى السهل، وبه كمية كبيرة من المياه التي يقال بجريانها إلى مسافة بعيدة أسفل تكوينات سطح الأرض، فقد تبين اتخاذ أحداها شكل حجرة واسعة تحت الأرض تتخذ بعض جوانبها شكلاً رأسياً بارتفاع ظاهر.

لم نستطع التقدم في هذا الكهف لما به من مياه تبدو ضحلة قرب الحافة ثم تأخذ في العمق تدريجياً مع ازدياد الظلمة التي لم نتمكن معها من رؤية النهاية لضعف وسيلة الإنارة التي نحملها، ومهما كان الأمر قررنا البحث عن مركب صغير لاستعماله في اكتشاف هذا الكهف الذي حدثنا البـي خليل عنه وعن محاولتهم اكتشافه عن طريق استعمال إحدى المراكب رفقة أحد حراسه واضطرارهم للعودة بعد وقت قصير خوفاً من ضياع طريقهم خاصةً وأن عمق الماء حسب تأكيده لا يقل عن ثلاثين قدماً.

بعثت هذه الأخبار فينا روح المغامرة، ودفعت بنا إلى البحث المتواصل عن مركب يلبي الغرض ولكن دون جدوى، وهو ما حدا بنا إلى إعادة الكرة بعد الرجوع من منطقة الجبل عن طريق استعمال بعض قطع الخشب كما كان يفعل السندباد. . . ولكن لماذا الانتظار، إذ من يقول إنه يملك الغد؟ وهكذا وبدون ضياع للوقت، وتجنباً للبحث عن فرصة أخرى قررنا البدء في إعداد

ما نحن بحاجة إليه حتى نقرر تحديد امتداد هذا النهر العجيب، غير أن التعليمات جاءت لتنهي إقامتنا قبل إنهاء أبحاثنا سواء في المدينة أو في إقليمها خاصة أن إقامتنا في بنغازي حين العودة إليها لن تكون كافية.

جاء هذا الخذلان كصفعة لنا، رغم أنه ليس الخذلان الوحيد، لأنه بالفعل الشيء الذي حزّ في نفوسنا وأسفنا له كثيراً، ربما أكثر مما يستحق، لأن المجهول يترك دوماً انطباع الأمل في الوصول إلى تأكيد حقيقة القوة التي تحيط به وأدت إلى خلقه في الأصل.

نحن على دراية تامة بموهبة العرب والأتراك في الإسهاب بغض النظر عن الطبقة الاجتماعية المنتمية إليها، وهكذا فإن الاعتقاد بدون تحفظ على كل ما جاء في رواية البـي خليل يظل قائماً رغم أننا لا نرى سبباً يقف حائلاً دون ذلك لعلمنا المسبق بطبيعة المكان.

حدد الجغرافيون نهر الليثي أو لاثون (Lettre or Tathon) قرب حدائق أسبيريدس بالقرب من مدينة هيسبيريدس، فإسترابو يصفه كنهر يفيض في مرفأ هيسبيريدس، أما بطليموس فيضعه ما بين برنيتشي وأوسينوى Aesinee، في حين يصفه بليني كنهر رائع قرب برنيتشي، أما سكيلاكس فيقول بوجود نهر أكيوس Acceus في مكان مشابه، ومعلوم أن نهر الليثي نهر يفترض أنه أضاع نفسه أسفل الأرض التي يعود إليها مرة أخرى (كنهر النيجر) في مكان آخر.

إن ما نلفت نظر القارىء إليه في هذا الخصوص، هو ما إذا كان هذا المجرى المائي السفلي الذي يمكن القول بفقده لذاته أسفل السطح، هو مورد أو مصدر نهر الليثي الذي نتحدث عنه، وأن العين الصغيرة التي تصب في مياه البحيرة قرب المدينة هي ذاتها مرحلة إعادة ظهور نفس النهر في ذلك المكان الذي حدده بدقة الجغرافي إسترابو بميناء هيسبيريدس أو ميناء برنيتشي في وقت لاحق.

فوجود المجرى المائي السفلي في المنطقة ما بين الجبل والبحيرة التي

تتصل بميناء بنغازي يقف إلى جانب النتيجة التي تفيد بأن مجرى المسيل يأخذ اتجاهه صوب البحيرة، أو بمعنى آخر الاتجاه من المنطقة المرتفعة صوب الأقل ارتفاعاً، ولو أن مجرد اكتشاف مجرى صغير قرب الميناء ينتهي إلى البحيرة المشار إليها، لا يعني بالضرورة تأكيد وجود اتصال بينها وبين المجرى المائي السفلي موضوع حديثنا في الوقت الذي لا نملك دليلاً قاطعاً بأنهما لا يتصلان ببعضهما، وفي نفس الوقت يمكننا القول بأن ثبات نفي الاتصال بينهما لا يعني أن الأقدمين لم يفترضوا اتصالهما أيضاً.

إن اختفاء مسيل الليثي وظهوره مرة ثانية يمكن اعتباره ضرباً من المجاز الشعري، إلا أن وجوده في المكان الذي حدد له، ككتلة كبيرة من المياه المنسابة يدعونا للإيمان بجانب ما أكدوه، وأن نبحث للتعرف على المجرى الباطني مع ذلك الذي قيل بوجوده، ذلك أن الاعتماد على ما تركه الجغرافيون والمؤرخون يظهر لنا نهراً يعرف بالليثي في المكان الذي توجد به كتلة المياه، وأن الاسم الذي أطلقوه على ذلك النهر يعني ترجمته المختفي أو غير المنظور. ومهما كان الأمر يبقى احتمال أن يكون ليثي الأقدمين، ومجرى الأقدمين السفلى قرب بنغازي هو ذاته، وأنه نفس النهر.

لقد قال استرابو بتفريغ الليثيون مياهه في ميناء هيسبيريدس، ونحن بإمكاننا اليوم التعرف على نبع صغير يجري بالفعل نحو البحيرة المتعلقة بالميناء المشار إليه، إن وجود النبع الباطني بين الميناء وحافة الجبل يعني أن جزءا على الأقل من مياهه إنما تصلها عن طريق التسرب من الجهات المرتفعة من حولها، وهو ما يحمل على الاعتقاد بوجود اتصال ما بينهما، ولو أن فرضية أن يكون النبع الصغير المتصل بالبحيرة يعني استمرار اتصال الليثي أو لا تبقى قائمة مع وجود سبب كاف للاعتقاد بأن الأقدمين قد تخيلوا ذلك فعلاً.

لقد تحولت العديد من الأنهار الهامة إلى مجرد مسيلات لسبب أو

لآخر، وعموماً فإن التغيرات والتحولات التي طرأت على منطقة الساحل الإفريقي الشمالي، كفيلة بتغيير نهر الليثي إلى مجرد نبع صغير يفيض في بحيرة بنغازي.

فمياه البحيرة مالحة وقد تجف تماماً في الصيف، أما النبع الصغير فتطفو مياهه على بعد أمتار فقط من البحيرة عبر قناة عريضة نسبياً قد يحسبها البعض طريقاً تقود من وسط البحيرة إلى الأرض الرملية التي تحدها، علماً بأن مياه النبع جيدة وتترك تياراً واضحاً في مياه البحيرة.

تساءل الكثير من المعلقين عما إذا أراد إسترابو القول بأن مياه نهر الليثي تفيض في البحيرة أو في ميناء هيسبيريدس، أن تشابه كتابة كلمتي البحيرة والميناء يعطي لهذا التساؤل معنى، وبالذات إذا عرفنا أن تغير حرف واحد هو السبب في هذا الالتباس، ومع هذا يظل غياب مرجع موثق لا لبس فيه مدعاة لإعطاء الرأي الأخير حول مثل هذه الأمور مرهوناً بإجراء تقصي الأمور في أماكنها.

سبق لنا القول باتصال ميناء بنغازي بالبحيرة الملحة، وعليه فإن احتمال انتقال مراكب الأقدمين من واحد منها إلى الآخر، أمرٌ قائمٌ زمن إسترابو، مما يعني في الواقع جواز اعتبارهما جسماً واحداً.

كان النبع ينتهي بمائه إلى هذه البحيرة، وعليه فإن افتراضها بأن تكون بقايا الليثي فإن ما قاله إسترابو يصبح مؤكداً بالمشاهدة الفعلية لهذا المكان. أما في حالة شكنا حول هذه النقطة يتحتم علينا ترك الحديث كلية حول هذا النهر، أو على الأقل التخلي عن إعادة ظهوره سواء في البحيرة أو في ميناء هيسبيريدس لعدم وجود عين أخرى تفيض مياهها في أي منهما.

أراد إسترابو من استعمال كلمة البحيرة حسبما نعتقد، تأكيد أن الميناء والبحيرة التي دعاها تحت تريتونس Tritonis المقام عليها معبد فينوس Venos كانا شيئاً واحداً.

توجد على إحدى حواف البحيرة، التي لا زالت متصلة بميناء بنغازي، نقطة أكثر ارتفاعاً من غيرها، مـا زال بها آثار مبنى قديم، والملفت للانتباه أن هذا النتوء الذي يختفي الآن شتاءً فقط لا بد أنه كان محاطاً بمياه أوفر مما هي عليه اليوم، فقد كانت مياه الميناء أعمق وكانت البحيرة ذاتها تستقبل المراكب عبر مكان اتصالها بالميناء، مما يظهر معه ذلك النتوء أو بقعة الأرض المرتفعة وكأنها جزيرة شهدت بالفعل بناء معبد فينـوس وهو ما عناه إسترابو، ونميل نحن إلى الأخذ به.

أما بخصوص اسم تريتونس الذي أضفى على البحيرة، فإننا في حيرة من أن تكون البحيرة التي أشار إليها إسترابو كانت تعرف فعلاً بهذا الاسم، أم أنه خلط بينها وبين بحيرة تريتونس بالاس Tritonis Palus في خليج سرت الصغرى التي تضم جزيرة هي الأخرى حسب رواية هيرودوت.

ومع ذلك ومهما كان الاسم الحقيقي لبحيرة برنيتشي التي نجاهد لمطابقتها لبحيرة تريتونس التي ذكرها إسترابو، فإنها تبدو لنا مطابقة جداً لتلك البحيرة التي تحمل نفس الاسم الذي يذكره.

وعليه فإننا نقترح أن تصبح التريتونس ذات العلاقة، والبحيرة التي تتصل الآن مع ميناء بنغازي هما شيء واحد ونفس البحيرة التي كانت يوماً عميقة بما فيه الكفاية وتسمح لمراكب الأقدمين باستعمالها، وكان بها جزيرة بني عليها معبد فينوس على تلك المنطقة المرتفعة القريبة من حافتها الآن حيث يوجد بقايا مبنى قديم يمكن مشاهدته، وأن النبع الصغير العذب المياه ينتهي إلى نفس البحيرة، ويمكن أن يكون بقايا نهر الليثي عند إسترابو، في مكان عودة ظهوره واتصاله مع ميناء هيسبيريدس، وأن المجرى السفلي في الكهف الواقع بين البحيرة وحافة الجبل، يمكن أن يكون مصدر مياه هذا النهر.

أما إذا أضفنا احتمال القول بأن تلك الحدائق التي أشرنا إلى بعضها،

هي ذاتها حدائق هيسبريدس فإننا نكون بذلك قد أشرنا إلى كل ما جذب انتباهنا وشدنا إليه قرب مدينة بنغازي تاركين الحكم عليها لمن هم أهل للحكمة أكثر منا.

يبدو أن اسم ابنة ماجاس Magas الإمبراطور الروماني، المدعوة برنيتش التي تم زواجها من بطليموس فيلاديلفاس Ptolenuy Philadet Phus هي التي أعطت اسمها وغيرت اسم المدينة القديم هيسبيريدس إلى برينتشي، والغريب في الأمر أن المؤرخ والكاتب ميلا Mela الذي عاش في منتصف القرن الأول، وبعد انقراض اسم أسرة ماجاس، تحدث عن المدينة باسمها القديم هيسبيرس خلافاً لباقي مدن برقة، في الوقت الذي يستمر فيه استعمال اسم برنيتشي زمناً طويلاً بعد ميلاً، ميلبني هو الآخر يذكر المدينة باسمها القديم هيسبيريدس.

وهكذا يبدو أن اسماً كهذا يحمل رائحة الشعر يصعب نسيانه على المغرمين بالأدب ذلك أن بطليموس قد رأى بعد انقضاء قرن كامل على ميلا، عند حديثه عن برنيتشي أنها هي التي كانت تعرف بهسبيريدس ما قد يعني أن الاسم القديم لا يزال أكثر شهرة من الاسم الحديث.

ولكن يا له من حال فقد توارى اسم هيسبيريدس وبرنيتشي مع ظهور اسم حفيدتهما بنغازي كما أن السكان الحاليين بهذه القرية ـ إذ يصعب علينا وصفها بالمدينة، القذرة التي جلست فوق أنقاض تلك المدينتين ـ لا يملكون فكرة أن مدينتهم اليوم كانت بالفعل شيئاً آخر، فالعربـي الذي يجمع محصول الحبوب، أو فاكهة من إحدى تلك الحدائق التي ملأت أخبارها الحوليات الأثرية لا يحلم بشيء عدا عائد الربح الذي يمكن أن يجنيه، لأنه فعلاً لا يعرف شيئاً عما كانت عليه حال مستوطنته هذه، وفي هذا الخصوص يروي المؤلفان عن القزويني الجغرافي العربـي، خرافة مفادها أنه مر بمدينة كبيرة مزدحمة بالسكان، وبسؤال أحد أبنائها عن مؤسسها رد عليه منفعلاً هذه مدينة

قديمة جداً، ولا علم لنا بمدى وجودها فقد كان أجدادنا جهلة كما هو حالنا، وفي زيارة ثانية لنفس المكان بعد خمسة قرون لم أر أثراً للمدينة وبسؤال أحد سكان الريف وهو يحصد البرسيم عن المدينـة وكم انقضى من الوقت على هدمها وتخريبها.

ما هذا الهراء الذي تسألني عنه، فهذه الأراضي لم تكن شيئاً آخر غير الذي تراه. لماذا أعدت سؤاله ألم تكن هنا مدينة ضخمة وكثيرة السكان. لم نر شيئاً من ذلك، رد الرجل إذ لم يذكر لنا ذوونـا شيئاً من هذا القبيل.

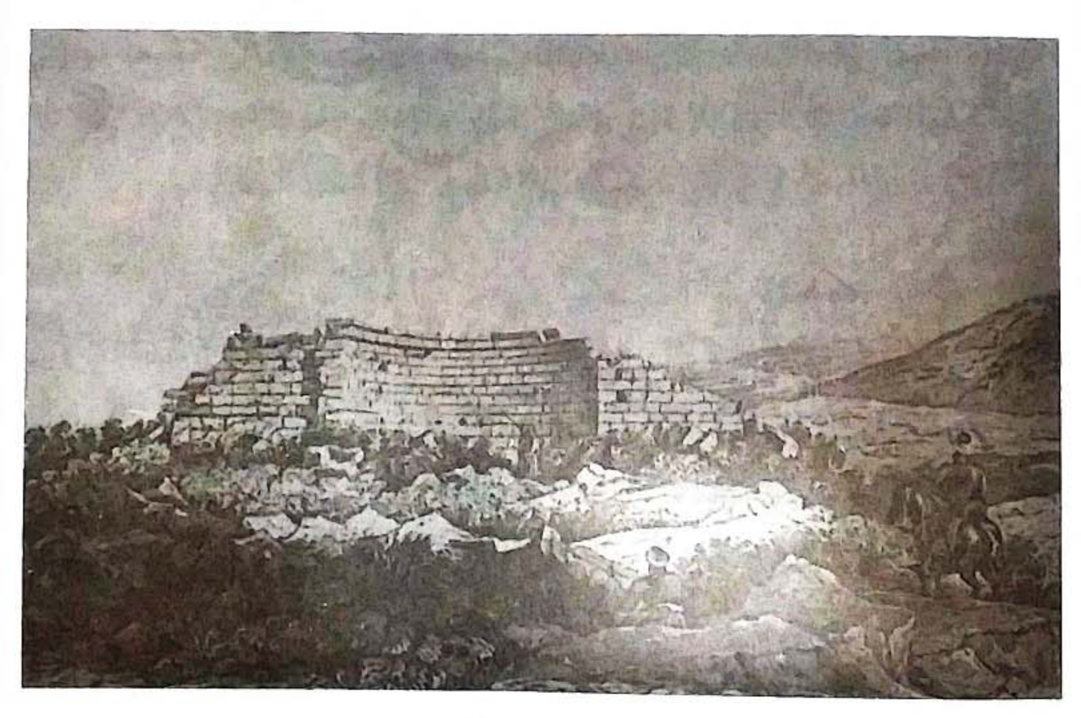
انقضت خمسة قرون أخرى حين مررت بنفس البقعة التي بات البحر يغمرها، وبرؤيتي لبعض البحارة سألتهم منذ متى غرقت المنطقة؟!.

يا لها من غرابة، أجاب الرجال، أن يسألنا رجل في مثل مظهرك مثل هذا السؤال، فالمكان كان دوماً على حاله التي هو عليها الآن، إذا قلت ألم تكن هناك أرض يابسة في مكان البحر الحالي؟ بالتأكيد لا رد البحارة فلم نسمع آباءنا يتحدثون عن شيء كهذا.

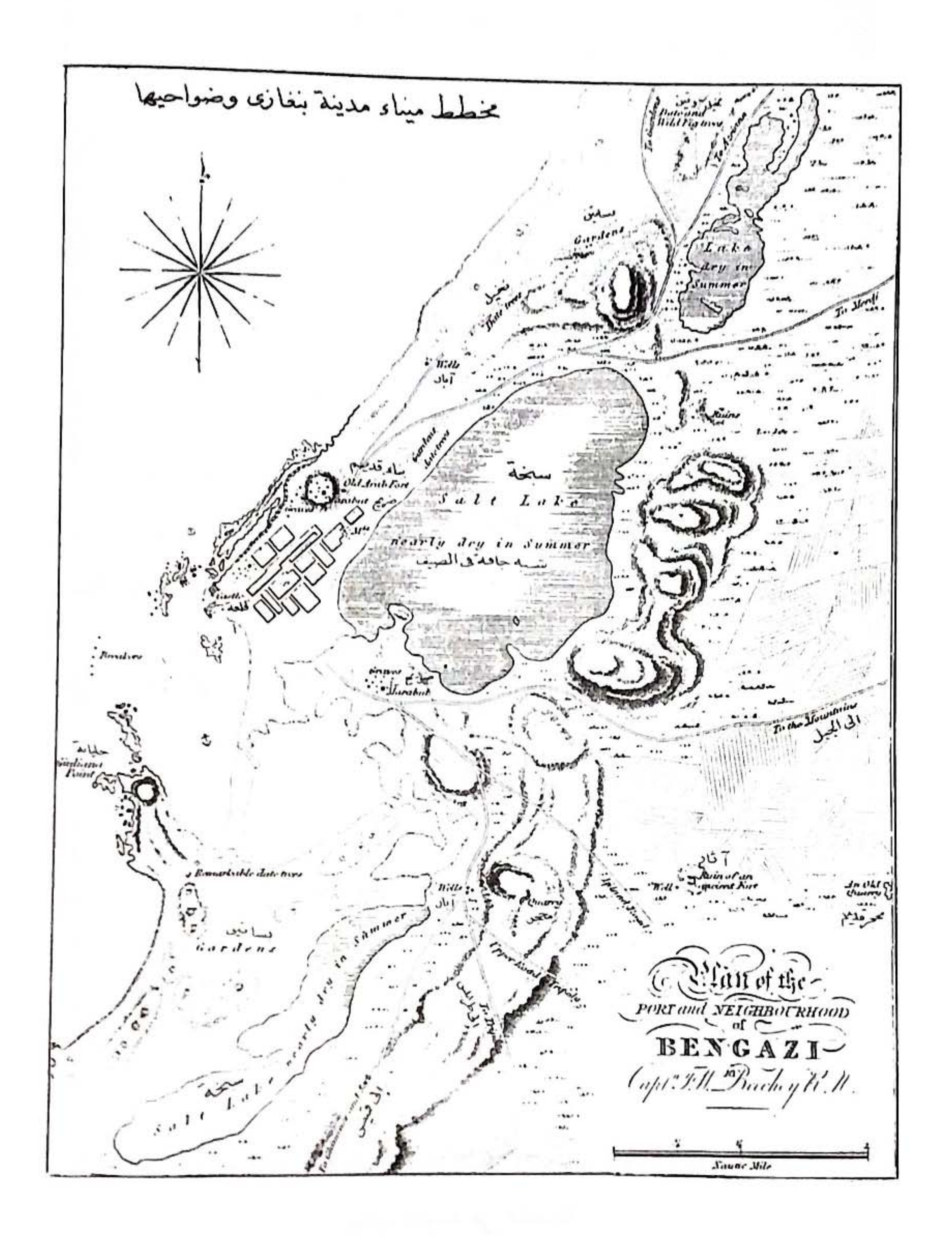
مررت بالمكان مرة أخرى، بعد فترة انقضاء نفس المدة، إلا أن البحر كان قد اختفى، وبالاستفسار من رجل قابلته، عن زمن هذا التغير الذي حصل، رد الرجل بنفس الجواب الذي سمعته من الآخرين، وفي النهاية مررت على ذات المكان بعد مرور خمسمائة عام، فوجدت به مدينة مزدهرة، وسكاناً أكثر عدداً وثراءً ويقطنون بيوتاً فاخرة لا تقارن بتلك التي رأيتها لأول مرة... وعن سؤال مواطنيها عن بداية نشأتها أخبروني بأنها فقدت نفسها في ظلمة الماضي.. ليست لدينا أية فكرة، فأجدادنا يعرفون عن نشأتها أكثر منا.



بقايا بعض المخلفات الأثرية في طلميتة



بقايا كنيسة في طلميتة



مخطط ميناء مدينة بنغازي وضواحيها
Plan of the PORT and NEIGHBOURHOOD of BENGAZI
Salt Lake
nearly dry in Summer
Old Arab Fort
Gardens
Lake dry in Summer
To the Mountains
Remarkable date trees
Quarry
Ruins
Nautic Mile

الفصـل الثانـي عشـر

لم تعد أرض هيسبيريدس تنتج تلك الأنواع المختلفة من الثمار كتلك التي كانت تنتج أيام ازدهارها، ولو أن شجرتي النخيل والتين لا زالتا تنتجان كميات وفيرة، علماً بأن السبب لا يعود إلى تغير طبيعة الأرض بقدر ما هو بسبب الإهمال ونقص العناية في هذا المضمار.

تكون ثمار النخيل (التمور) جزءاً أساسياً من مؤونة العرب مما لا يسمح لهم إهمال اتخاذ الاحتياطات الضرورية لضمان نموها وجني محصولها، ولو أن أشجار التين التي ينمو جلها دون رعاية، وتعهد لا تنتج ما يعتد به من ثمار لا يرقى حجمها ولا طعمها إلى الحد المطلوب.

لا يخفى على أحد له إلمام بمبادىء التاريخ الطبيعي انقسام هذين النوعين من الأشجار إلى فصيل مؤنث وآخر مذكر، وأن ثمارها ستكون جافة ولا طعم لها دون تلقيحها عن طريق الذكر.

اكتشفت هذه الحقيقة أو الخاصية منذ زمن طويل، وتناولتها أقلام مختلف الكتاب عند ذلك الوقت مع اختلاف بسيط يتعلق بطريق تحقيق هذا الفعل، فالأسلوب الذي وصف فيه المؤرخ بليني طريقة اللقاح بين أشجار النخيل لا تزال هي السائدة حتى يومنا هذا، إذ يؤخذ جزء من زهرة الذكر ويلحق مباشرة ببداية أزهار ثمار الأنثى، أو برش بعض مسحوق زهرة

الذكرعلى بداية تفتح زهرة الجنس الآخر، وفي هذا الخصوص يعتقد أن شجرة (ذكّار) واحدة تكفي تلقيح (تذكير) أربعمائة نخلة أنثى.

تم وصف هاتين الطريقتين من قبل بليني الذي تحدث عن هذه الشجرة وأنواعها العديدة بطريقة مفصلة ودقيقة للغاية، إضافةً إلى ما ذكره بالتفصيل عن ارتباطها بالتربة الرملية، وولعها بالمياه، وعدم قدرتها على النمو الجيد خارج نطاق الأقاليم الحارة الجافة، وخاصة أوراقها ولحاءها، والتميز الظاهر بين الذكر والأنثى منها.

لا تختلف ملاحظات الكتاب عن التمييز بين الذكر والأنثى عن تلك التي حددها المؤرخ الروماني بليني، ولعل أغرب ما قيل عن هذا الموضوع ما جاء في تلك الحكاية التي نقلها إيراني عن عربـي من اليمامة، حيث قال: أملك مزرعة بها نخلة اعتادت إنتاج محصول وافر، إلا أن فصلين قد انقضيا دون أن تثمر شيئاً، مما جعلني أرسل في طلب شخص له دراية كاملة برعاية النخيل ليكشف لي سبب فشلها... اتصال غير سار، قال الرجل بعد تفحصها السريع، هو السبب الوحيد الذي أثناها عن الإثمار. صعد الرجل جذع النخلة، وبتطلعه في جميع الجهات رأى ذكر نخل غير بعيد حيث أردف قائلاً إنه السبب في عدم إثمار شجرتي، ونصحني بإحضار بعض مسحوق زهرته ورشها على أغصانها، وهو ما قمت به، وكانت النتيجة أن عادت نخلتي كما كانت.

لا تحظى شجرة النخيل في أوروبا بشيء خلافاً لحالها في آسيا وإفريقيا، فقد ذكر القزويني باعتقاد المسلمين بأنها شجرة تخص الأقطار التي تمارس فيها شعائر الإسلام فعلاً، ثم مضى ينقل عن الرسول ﷺ قوله: «أكرموا شجرة النخيل فهي عمة آبائكم». وفي هذا تعظيم لمنزلتها، إذ خلقت من بقايا الطين الذي خلق آدم منه، وفي ليبيا كثيراً ما يخاطب الآباء أبناءهم عن عمتهم النخلة تذكيراً لهم على وجوب مراعاتها.

تتكاثر أشجار النخيل أساساً بزرع شتلات صغيرة تنزع من أمهاتها، وهي عملية إذا تمت حسب الأصول وتم تعهدها بالماء فإنها ستثمر خلال العام السادس أو السابع خلافاً لتلك التي تزرع نواتها إذ لن تثمر قبل مرور ستة عشر عاماً. ليس هناك أكثر من هذا لزراعة النخيل مع ضرورة مداومة ريها كل أربعة أو خمسة أيام، وأن تنزع غصونها السفلى كلما بدأت تسقط أو تذبل تاركة مكانها كأدراج السلم لتسلقها إما لتلقيحها أو لتشذيبها أو لجمع ثمارها، الأمر الذي يعمل على تنظيم نمو هذه الشجرة الطويلة الجميلة ويساعد أيضاً على احتفاظها بلونها الأخضر البهيج.

توجد مجموعة من الهضاب الرملية إلى الشمال الشرقي من بنغازي، حيث تنمو أشجار النخيل مكونة مع بعضها أهم ما يلفت النظر في هذا الاتجاه، حيث يقطن بعض العرب البائسين أخصاصاً من جريد النخيل حول بعض المساحات الصغيرة من أرض مزروعة محاطة بالتين الشوكي، حيث لعب استعمال السماد الطبيعي وتحلل مخلفات المزروعات مع الرمال إلى ظهور نوع جيد من التربة تستعمل لإنتاج بعض الخضراوات كالطماطم والفلفل الأخضر والدلاع والباميا.

لا أحد يملك هذه الأراضي، ذلك أن ملكية أي من هذه القطع الصغيرة المزروعة تعود إلى مستغلها الأول الذي عليه خدمتها بعد فصلها عن الرمال القريبة والذي يتحتم عليه قلب الأرض ثم فرشها بطبقة من مخلفات النباتات التي يعود لتغطيتها بخليط من الرمل والسماد ثم بذرها مع المحافظة على ريها من عدد من الآبار، التي لا يزيد عمقها على بضعة أقدام.

يؤدي استعمال هذه الطريقة البسيطة إلى تحويل الأرض إلى تربة منتجة رغم رداءة المياه ومسامية التربة، الأمر الذي يجعلهم يفضلونها عن استغلال التربة الجيدة القريبة تجنباً للمشاق التي يتطلبها تنظيفها من الحجارة المبعثرة فوقها.

أدى توقف نزول المطر، وتحسن صحة المقدم بيتشي التي حالت بينه وبين السفر في المدة القريبة الماضية، إلى عودتنا إلى منطقة كركورة لاستكمال جزء الساحل بينها وبين بنغازي مع الإشارة إلى أن اثنين من رفاقنا قد قاما بزيارة طلميتة حيث عادا منشرحين لما شاهداه في هذا الجزء من إقليم البنتابوليس.

واجهتنا في الطريق إلى كوكورة متاعب جمة بسبب هبوب رياح جنوبية لافحة محملة بسحب من الأتربة التي تعيق النظر، وتلهب الجسم، وبانتهاء مهمتنا عدنا إلى المدينة حيث تبين أن كل شيء قد أصبح معداً وجاهزاً بفضل همة وحيوية المقدم كوفن Cuffin الذي بقي في بنغازي للإيفاء بهذه المهمة.

غادر البي خليل أثناء غيابنا عن مدينة بنغازي إلى سهل المرج، حيث نصبت خيام حاشيته من أجل جمع الضرائب المستحقة على المواطنين من بدو المنطقة مما يتطلب وقتاً وجهداً، علماً بأن اتفاقاً بيننا وبين معاليه قد تم إقراره بشأن تكليف الشيخ حدود، شيخ برقة، لإعداد وتجهيز الإبل لنقل حاجياتنا، الأمر الذي اضطرنا للبحث بصعوبة عن بديل لها والانطلاق يوم السابع عشر من إبريل قصد توكرة، وطلميتة وشحات.

يخترق الطريق ما بين بنغازي إلى توكرة فطلميتة منطقة خصبة وجميلة، ولو أن جزءاً قليلاً منها هو المزروع فعلاً، مما يسمح بوصفها سهلاً تغطيه الشجيرات المزهرة الممتدة ما بين خط الساحل وحضيض الجبل الذي يشكل الحد الشمالي لمنطقة برقة، ويأخذ في الضيق كلما اتجهنا صوب طلميتة حيث تقترب السلسلة الجبلية من مياه البحر.

تبلغ المسافة بين هذه السلسلة وبنغازي قرابة أربعة عشر ميلاً، كما سبق ذكره في حين أنها لا تزيد على ميل واحد عند توكرة، وبهذا تصبح المسافة الكلية للسهل ما بين بنغازي وطلميتة سبعة وخمسين ميلاً جغرافياً، وبالمناسبة تغطي الأشجار الكثيفة المختلفة حافة الجبل مثل الصنوبر بمختلف

أنواعه، والعرعار الذي توجد منه أعداد كبيرة، بالإضافة إلى العديد من الشجيرات الأخرى.

تخترق الطريق العديد من الأودية والمسيلات المائية التي تنمو على حوافها هي الأخرى الشجيرات والحشائش، ونظراً لاختفاء أي نوع من الكباري فإن اجتياز بعض هذه الأودية يشكل صعوبة إن لم تكن استحالة تامة في الفصل المطير كما هو واضح من أثر فعل التعرية المائية التي تحمل معها العديد من الأشجار والأحجار بمختلف أنواعها وتلقي بها في هذه المجاري.

تظهر بعد حين وآخر مناطق واسعة مكشوفة بين الأشجار مما يعني إمكانية استغلالها للفلاحة، ولو أن جلها مغطى الآن بالحشائش المتنوعة حيث يمكن تمييز نسبة عالية من الشوفان الذي ينمو تلقائياً.

تنتشر عدة أبراج متينة البنيان فوق هذا السهل وباتجاهات مختلفة كتلك التي ذكرها الجغرافي العربـي الإدريسي الذي أطلق عليها كافف Cafef والتي تبعد نحو أربعة أميال عن البحر وتوجد شرقها مجموعة من الأشجار كما يذكر هذا الجغرافي. يبعد هذا البرج أو القلعة قرابة خمسة عشر ميلاً عن بنغازي ولا تبعد كثيراً عن البحيرات التي ذكرها نفس الكاتب غير بعيد عن قلعة كافف التي يفصلها عن البحر حاجز رملي يسير باتجاه خط الساحل كما حدده هذا الجغرافي.

ذكر الإدريسي بعذوبة مياه هذه البحيرات التي لم تعد تتمشى مع هذا الوصف حالياً، والتي يطلق عليها السكان اسم الزيانة التي أشار إليها سيلّاريوس وحددها قرب أدريانا Adriana الواقعة بين بنغازي وأرسينوى أو توكرة، حيث تظهر بعض المخططات الأرضية وبالذات للمنازل السكنية، على بعد ثلاثة أرباع الميل من هذه البحيرة.

بلغنا برسس عند غروب شمس اليوم التالي، وكانت هناك مجموعة من الآبار وبقايا مبنى قديم لم يكن بالإمكان وضع أي تصور له قبل إجراء الحفريات الضرورية.

تحتل برسس سهلاً خصباً توجد به بعض مخيمات البدو، وتبعد نحو واحد وثلاثين ميلاً عن بنغازي، وستة أميال عن مدينة توكرة، وعلى نحو خمسة أميال من حضيض الحافة وعلى بعد ميل ونصف من ساحل البحر، أما إلى الشمال الغربي منها فتوجد بقايا مبنى أثري آخر لا يزال محتفظاً بطابعه ويبدو أنه كان جزءاً من مدينة قديمة لا زالت بها بقايا بعض الأقواس كمداخل للبيوت التي لا زالت جوانب بعضها قائمة بارتفاع قد يقرب من عشرة أقدام عن مستواها الحالي، ولو أنها تبدو جميعاً كجزء من حقل تنمو به العديد من أنواع الشجيرات والأعشاب، أما المباني فقد تعرضت فيما يظهر لاستعمال البدو مما يحتم صيانتها قبل إظهار طابعها التي كانت عليه.

حذرنا المواطنون ونحن نشق طريقنا وسط الأعشاب والشجيرات المحيطة بهذه المخلفات المعمارية من الثعابين الكثيرة السامة جداً، في الوقت الذي لم نشاهد فيه سوى اثنين منها كان أولهما داكن اللون، ويبلغ طوله خمسة أقدام، في حين كان الثاني أصغر حجماً، علماً بأن العرب يطلقون اسم المبنى Mabny أو Mabhy على هذا المكان الذي يبدو أنه تعريب لكلمة نابولي Napoli أو نيابلس Neapolis.

حدد بطليموس موضع نيابلس بين مدينتي توكرة وطلمية، أما مابلي فتقع نحو ثمانية أميال إلى الشمال الغربي من توكرة، مما يعني عدم تطابق موضعها مع المدينة التي يبدو أن اسمها يدل عليها. كما نلاحظ في نفس الوقت أن الموضع المحدد من قبل بطليموس لمدينة نيابلس، لا تظهر به أية مخلفات تدل على بقايا مدينة، ولأننا لا نعرف أية مدينة عرفت تحت أي اسم آخر احتلت موضع مابلي، وإن تشابه الاسم مع Nably التي يمكن أن تكون التهجئة العربية أمر لا يمكن استبعاده.

تظهر ما بين برسس والبحر بقايا قلعتين فوق قمم هضاب رملية قرب الشاطىء فشلنا في الوصول إليهما بسبب السبخة الممتدة بجانب الهضاب

وفصلهما بالتالي عن الأرض المزروعة.

تعتبر المنطقة حول برسيس ومابلي جيدة الإنتاجية أينما تمتد زراعتها، إضافة إلى تباين أعشابها وشجيراتها التي تظهر فيها بعض أشجار التين.

يبلغ عرض السهل في هذا الموقع نحو ستة أميال، ويبدو مظهره العام من خلال تلك الخيام التي تظهر معالمها من خلال الشجيرات الصغيرة والأرض المزروعة التي نصبت الخيام حولها، مؤشراً قوياً على ما يتمتع به المرء من دعة واطمئنان.

وجدنا السكان في منتهى الكرم وتقديم يد العون فقد ضل أحدنا طريقه وانتهى به المطاف إلى خيام أحدهم الذي ما كان منه إلا القيام بواجب الضيافة المعتاد لديهم، إذ قام بذبح خروف لإعداد العشاء الذي استغرق ساعتين كاملتين قامت خلالها الأم والزوجة وبناتها إلى جانب الزوجة الثانية التي أعدت وجبة سريعة قبل تجهيز الوجبة الرئيسية.

بدت الطبيعة أكثر بهجة إلى الشمال الشرقي من برسس بنحو ستة كيلومترات حيث بدت لنا بقايا آثار أكثر أهمية من التي سبقت لنا رؤيتها. إنها بقايا مدينة قديمة محاطة بالكامل بأسوار غير عادية في متانتها وسمكها وتربطها بعد كل حين أبراج مربعة، ويتم الدخول إليها عن طريق بوابتين أحكم تشييدهما، وتقابل إحداهما الأخرى على الجانب الغربي والشرقي من سور المدينة.

تقع مدينة توكرة Teuckira، قرب البحر في هذا الجزء من السهل وتبعد نحو أربعة أميال عن حضيض الحافة، وقد أقيم جزء منها إلى جانب جزء من أسوارها على أرض مرتفعة قليلاً خلافاً للباقي المقام على منسوب السهل، كما أقيم جزؤها الغربي حول محجر، وهو ما ينطبق على جزء من طرفها الشرقي، الأمر الذي عمل على تعميق فعالية تحصينها، علماً بأن المنطقة خارج السور وفي الاتجاهين الشرقي والغربي قد استخدمت هي الأخرى

بمثابة محاجز وانتهى بها الأمر إلى أن تصبح مدافن للسكان الأوائل لهذه المدينة، ذلك أن تحوير جوانب هذه المحاجر إلى قبور ليس بالأمر الشاق خاصة وأن مثل هذا الأمر كان بمثابة العرف في هذا الجزء من شمال إفريقيا، هذا وتضم جدران هذه المحاجر إضافة إلى جدران الأسوار الداخلية للمدينة رموزاً للكتابة الإغريقية.

يعود تاريخ هذه المدينة، إحدى مدن برقة، إلى تاريخ قديم حيث غير البطالسة اسمها إلى أرسينوى Arsinoe، ثم تغير الاسم إلى كليوباترس Cleopatrs، ولو أن كنيتها الأصلية تمكنت من الصمود، الأمر الذي لا زالت تعرف به لدى العرب حتى الآن.

أخبرنا المؤرخ بروكوبيس Procopius بقيام الإمبراطور جوستينيان بترميم أسوار المدينة التي لا زالت في حالة جيدة مما يوضح مدى صلابة بنيانها الذي استخدمت فيه قطع كبيرة جداً من الحجارة التي يبدو أن بعضها استخدم في تشييد مباني أقدم عمراً كما تدل على ذلك النقوش الموجودة عليها.

لا نعلم الكثير عن تاريخ هذه المدينة التي لا شك أنها شكلت واحدة من مدن البتابوليس، ومع أنها مقامة على الشاطىء الذي تصل مياهه إلى أطرافها الشمالية، إلاَّ أنها فشلت في القيام بوظيفة الميناء لعدم قدرتها على توفير أي نوع من الحماية للمراكب بسبب طبيعة موقعها الذي حال دون ظهور أي أثر للمرافىء الطبيعية أو الصناعية فيها.

تظهر معالم انتشار المسيحية واضحة في بقايا الكنيسة الجميلة ربما بسبب تعصب الإمبراطور جوستيان لهذه الديانة، كما هو الحال في المنشآت المماثلة ضمن أراضي ممتلكاته الواسعة.

يبدو أن السيد بروس Pruce قد خلط بين هذه المدينة وطلميتة عند حديثه عن أسوارها الكاملة التي تعلوها بعض النقوش الإغريقية في الوقت

الذي لا توجد فيه أسوار حول طلميتة باستثناء البوابة التي تظهر أنها كانت متصلة بأسوارها التي لم يعد لها أثر الآن سوى بعض بقايا أساساتها وبارتفاع قدم واحد فوق منسوب الأرض من حولها.

كما أضاف السيد بروس بعدم وجود شيء يذكر لا في أرسينوى أو في برقة مما يجعلنا في حيرة من أمرنا لمعرفة أية أماكن أراد الإشارة إليها، وهنا يمكننا القول بأن جميع ما أمكننا الحصول عليه عن هذه المدينة مدون في نهاية هذا الفصل، وأننا سنتوقف عن أي ذكر لها ونواصل حديث رحلتنا.

توجد الكثير من الآبار الممتازة المياه التي لا يلجأ العرب لاستعمالها إلا نادراً محافظة عليها لفترة الصيف، أو عندما يتم استهلاك مياه الآبار الأخرى خاصة، وأن المدينة لا يقطنها أحد في غير هذا الوقت حين تتحول القبور الملائمة إلى مستقر للعرب خلال فترات زيارتهم لها أثناء الصيف موفرة بذلك مكاناً أخف حدة في حرارتها من سكنى المناطق المكشوفة.

داهمتنا، كما في كركورة، رياح السيروكو اللافحة، مسببة تعرض أحد حراسنا رغم قوة بنيته وحيويته إلى الإصابة بالحمى واضطراره للتوقف عن مواصلة الرحلة التي تمكن من اللحاق بها عند طلميتة.

تفصل بين توكرة وطلميتة مسافة ثمانية عشر ميلاً جغرافياً عبر طريق يسير بمحاذاة الساحل ثم يأخذ في الاقتراب من حافة الجبل تدريجياً، وتمتاز تربة المنطقة بالجودة، كما يظهر ذلك من زراعة أغلب مساحة هذا السهل الذي تقتصر ظهور الأشجار به على حافة الهضبة أو حول مجاري المسيلات المائية التي تقطع الطريق التي يلفت النظر بالقرب منها وقبل بلوغ طلميتة، وجود قبر مربع الشكل مقام فوق صخرة تم قطعها من محجر قريب، يأخذ شكل المربع هو الآخر، والملفت للانتباه أن هذا القبر يعطي الانطباع بأنه قلعة أو برج يشد الانتباه قبل بلوغ المدينة، إذ يمكن مشاهدته من على مسافة بعيدة.

افترض الدكتور ديلا إتشيلا عن هذا المعلم الفريد أنه قبر سابع حكام البطالمة المدعو Physion الذي بناه خصيصاً ليكون قبراً له، ومع مجاراتنا لرأي الدكتور حول الغرض الذي أقيم هذا النصب من أجله، إلا أننا نؤكد أنه لم يكن قبراً لشخص واحد وإنما لعائلة كبيرة دون تمييز لأي من أفرادها عن الآخرين، ومع أن مدخل المبنى كانت به نقوش تحكي قصة نزلائه وألقابهم إلا أنها أزيلت عمداً فيما يظهر لفشلنا رغم الجهد في تحديد هوية أي من الحروف، مما يخولنا الافتراض بأنه مخصص فعلاً لعائلة لها مركزها من البطالمة، لعدم وجود مثيل آخر له في كامل المنطقة المحيطة بالمدينة.

يمثل المعلم الثاني الملفت للنظر عند الاقتراب من المدينة تلك البوابة التي بقت كقوس نصر رغم اتصاله السابق بسورها، وببلوغ قمة البقعة التي أقيم هذا القوس فوقها، تظهر بقايا المدينة ممتدة في عدة اتجاهات فوق هذا السهل الجميل الذي أقيمت فوقه والمنحدر تدريجياً صوب البحر، حيث تبدو كأنها قد شغلت مساحة ميل مربع فوق موضع قلما يمكن اختيار أفضل منه على هذا الجزء من ساحل برقة.

أقيم الميناء في أغلب أجزائه بفعل يد الإنسان ذلك أن جزءاً واحداً فقط هو الذي ساهمت الطبيعة في تحديد معالمه التي لا تزال ظاهرة رغم الرمال المتراكمة فيه.

لا زالت بقايا المسرح الروماني ومسرحين آخرين ظاهرة للعيان قرب مخلفات أحد القصور، التي ما زالت منه ثلاثة أعمدة قائمة، أما المسرح الروماني فقد بنى فوق محجر كبير حيث تم نحت جزء من المقابر إلى جانب تلك التي تم بناؤها ولم يكن بالمستطاع نحتها.

تغطي الفسيفساء أرضية القاعة الرئيسية في القصر التي يوجد أسفلها مجموعة من الأقواس الكبيرة المتصلة معاً والتي يصلها الضوء والهواء عن

طريق حجرة القصر الكبيرة فوقها.

تظهر الوديان أو المسيلات التي تكون الحدود الشرقية والغربية لطلمية، وبالذات على الجانب الغربـي برية وفي منتهى الرومانسية تماماً كمثيلاتها في كل من سويسرا ومنطقة سافوي، ومع أن تشابه الطبيعة في برقة مع ما ذكرناه لا يتمتع بنفس الامتداد، إلا أنها مع ذلك تظل تتمتع بذات الخاصية التي تخلب الألباب مما يدعونا للمجازفة بالقول بأن من يعرف السفر في الجهات الأولى ثم يلقي به فجأة في الوادي الشرقي لطلمية دون أن يخبر بمكان وجوده، فإنه لن يخطر بباله مطلقاً بوجوده في واحد منهما، إذ لن يفكر أبداً أنه في إفريقيا، تلك النقطة اللافحة الحرارة والرملية المظهر التي يخافها الأوروبيون. ومهما كان الأمر فإننا لن ننسى البهجة والسرور اللذين لمسناهما في كل خطوة لنا في هذا الوادي خاصة مع ما هناك من جديد من المعالم التي تبرز دون حجاب في هذا المنتجع الباسم.

اجتزنا منطقة حافلة بما يثير الدهشة والانتباه في طريقنا من بنغازي إلى طلمية مما أنسانا تلك المستنقعات المقفرة والأرض الموحشة التي لم نشاهد فيها سوى شجرة واحدة في مسافة أربعمائة ميل. إن هذا التباين الصارخ في مظهر الطبيعة لا يمكن له أن يكون السبب وراء ظهور واديّ طلمية بهذا المظهر الأخاذ بقدر ما هو تعبير عن الطبيعة نفسها بخلق بقع لا يمكنها الوقوف عاجزة عن خلق ما يشد الخيال تعبيراً عن عظمة تلك المناظر الرومانتيكية الخلابة، إذ هناك العديد من أنواع الجبال التي يمكن الشعور والإحساس بها ولكنها تظل وراء محور الوصف ومنها الشعور ببهجة الإحساس بالمنظر الرومانسي قلما بقت حائلاً عن إعطاء مزيد من الوصف للوادي الشرقي لطلمية أكثر من القول بأنه يأخذ في الارتفاع التدريجي من ساحل البحر حيث يزداد اتساعاً خلال غابات الصنوبر والشجيرات المزهرة التي تفقد نفسها عند منطقة تقسيم المياه على الهضبة التي تبدو وكأنها حاجز من أشجار الصنوبر التي ينطلق بعضها إلى عناق زرقة السماء فوقها.

تمثل زيادة اتساع المجرى إضافة إلى تعميق جماله الذي يزداد مع كل ثنية أو التواءه أثناء تتبع صعوده نحو قمة الجبل حيث يفقد نفسه، فالممر قد تعوقه الأشجار التي تلقى بأغصانها تاركة فسحة ضيقة أسفلها، ما إنْ يتم تخطيها حتى يجد المرء نفسه وسط فسحة خضراء تحيطها أشجار الصنوبر من كل جانب التي ما إن تصل إلى نهايتها حتى يقابلك منظر جديد يجعلك في حيرة من أمرك من أجل المفاضلة بينها، وهو ما يدعونا للاعتراف بالإحساس بأن الليل قد أرخى سدوله عند أول زيارة لنا لهذا الوادي قبل غروب الشمس فعلاً، وأكثر من هذا دوام إحساسنا بالحسرة والأسف بأن وقتنا لا يسمح لنا بمزيد من الوقت للتمتع بهذا الجمال بعد كل زيارة.

تظهر بين الأشجار على حافتي الوادي العديد من القبور الإغريقية والرومانية المفتوحة التي توجد قريباً منها أحياناً كراسي حجرية، كأنها عملت خصيصاً لاستعمالها من قبل أرواح الموتى الذين لا بد أنهم كانوا يعشقون هذه الربوع، الأمر الذي دفعنا إلى الأمل في قضاء أيام عديدة متجولين في هذه البقاع الباسقة، ولإعداد رسومات توضيحية لبعض هذه القبور مع التطلع للعثور على أية نقوش حيث تحتم علينا الانطلاق مواصلين رحلتنا إلى سيريني محطتنا الرئيسية للبحث وتقصي الحقائق مع تصميمنا على العودة لإتمام ما بدأناه من رسومات للمعالم الرئيسية للمدينة القديمة وهو ما تم إنجازه بالفعل.

يوضح مخطط المدينة دقة وصواب اختيار مكانها، إذ تقع واجهتها على البحر في حين يقوم مجرى وادي على حافتيها التي لا تزال تقوم عليهما بقايا بعض القلاع لصد الهجمات المفاجئة، أما الممر الوحيد الذي يمكن بلوغها من خلاله في اتجاه حافة الجبل فقد تم تحصينه عن طريق جدار منيعة وأكثر من هذا فإن المدينة بكاملها كانت محاطة بسور يمكن تقفي آثاره لمسافة طويلة، ويسير في اتجاه موازٍ لحافة الجبل ثم مع حواف المسيلات حتى

البحر، كما تظهر المخلفات بقايا كبارى على جوانب جميع الأودية لا تزال آثار واحدة منها في حالة مقبولة.

كما توجد إضافة إلى هذا عدد من القلاع المنتشرة على أجزاء متفرقة داخل السور وخارجه مما يضيف المزيد من جمال المدينة وتحصينها، وعموماً فإن حالة المدينة في الجوانب الأخرى تعتبر جيدة فمع انحدارها التدريجي من حضيض الحافة إلى الجنوب تمتعت بالحماية من الرياح الجنوبية، وتمتعت في ذات الوقت بنسيم البحر المنعش.

وفي الحقيقة لا يوجد مكان واحد على طول ساحل شمال إفريقيا ما بين طلميتة وطرابلس يمكن مقارنته بموقع الأولى لا من حيث جمال الطبيعة ولا من حيث الملاءمة أو الحماية باستثناء لبدة.

ومع هذا علمنا أن المدينة قد عانت كثيراً في وقت من الأوقات من نقص المياه، وهو ما اضطر سكانها إلى ترك منازلهم والانتشار في مختلف الاتجاهات، حتى تم ترميم وإصلاح قنوات المياه وصهاريج المدينة من قبل الإمبراطور جوسينيان حيث استعادت سابق نشاطها خاصة وأن طلميتة لا تتوفر بها أية ينابيع مما يعني في الواقع أن الاهتمام برعاية صهاريجها وقنوات المياه بها يصبح من الأمور الضرورية وهو ما يظهر فعلاً، ذلك أن مثل هذه المنشآت الحيوية لا زالت في حالة أكثر جودة من باقي المباني الأخرى كما هو الحال مع خزانات المياه الواقعة أسفل الحجرة الرئيسية بالقصر الذي سبقت الإشارة إليه، والتي يبدو أنها كانت توفر حاجة المدينة من المياه كما تدل على ذلك بقايا القناة التي تخرج منها، خلافاً لتلك التي تقود إليها من الجبال والتي لا زالت تحمل كميات من المياه لا زال العرب يستغلونها رغم الإهمال الواضح الذي لحق بهذه القنوات، وبالمناسبة كانت مياه هذه الخزانات عند وصولنا باردة وجيدة جداً.

كانت جل أرضية المدينة مرتعاً للعديد من النباتات البرية التي لا يقل

طولها عن أربعة أو خمسة أقدام مثل القطيفة والبابونج، إضافة إلى بعض الرقع المزروعة بالحبوب، خلافاً لحالة عزلتها التي لم تفلح فيما يبدو في جلب الحيوانات البرية للعيش فيها باستثناء القليل جداً من ابن آوى والضباع التي خرجت في الليل للبحث عن الماء، إلى جانب بعض الطيور وبالذات من البوم والخفافيش.

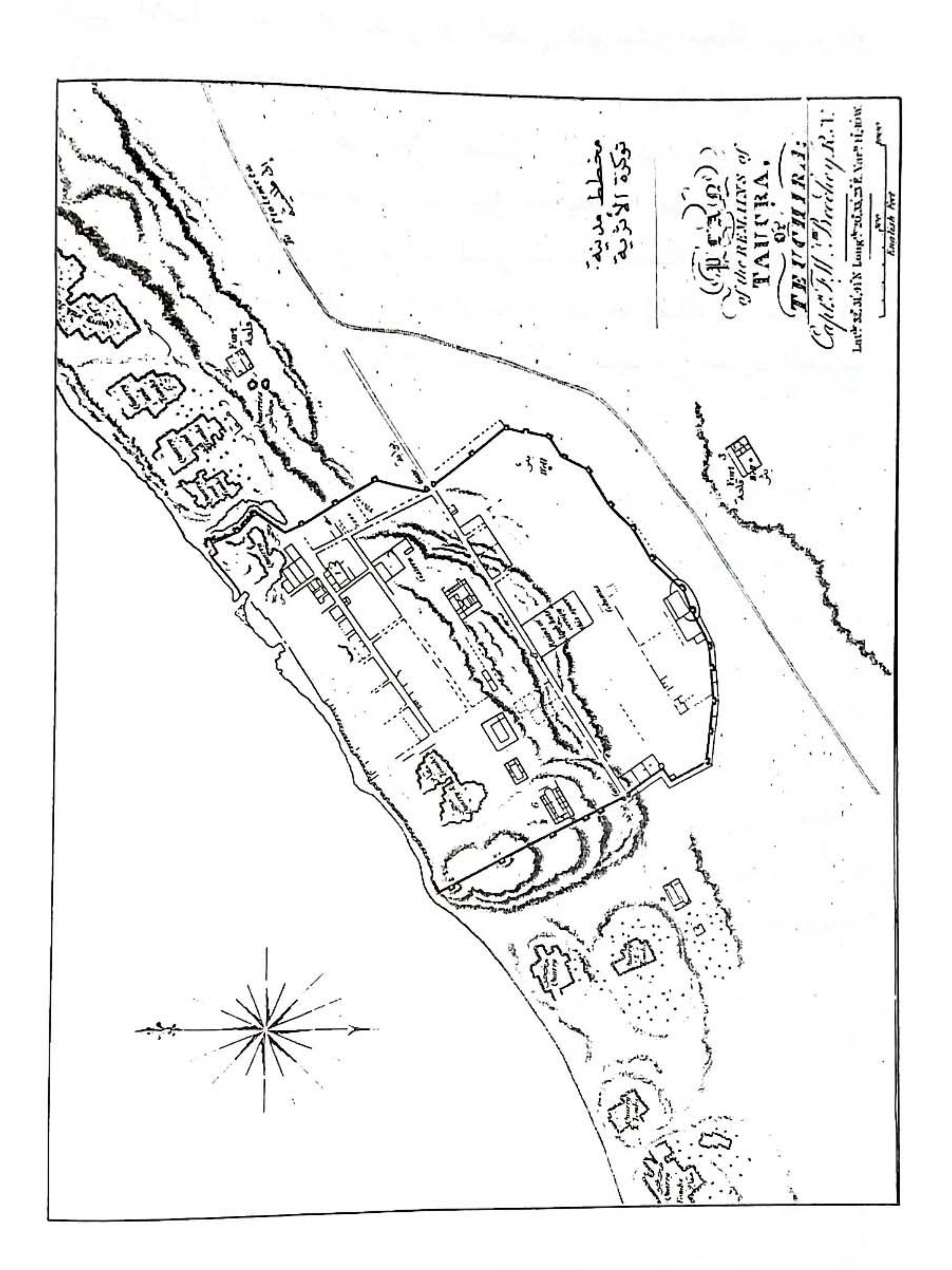
إن إغراءات من هذا القبيل يصعب مقاومتها، فالاختلاف البين بين حالة القفر والسكون التي تميز حالها اليوم، وبين النشاط والحركة التي طبعتها ظروفها أيام غناها وعظمتها تحت حكم البطالمة وأيام سادة روما، يقدمان دليلاً يحز في النفس عن عدم ضمان استمرار عظمة الإنسان أينما كان.

كان بودنا أن يكون هذا الجمع البهيج من النباتات في مكان غير مكانه، ذلك أن دخوله والتنقل وسطه من مكان لآخر لاستطلاع المدينة لم يكن بالأمر الهين خاصة بعد تلك الأمطار التي هطلت ليلاً وأعاقت سير حركتنا هي الأخرى. . . ومع ذلك فقد تغير كل شيء عند عودتنا من شحات حين أخذت حرارة الصيف تؤتي آثارها، إذ لم تعد هناك ورقة ولا ساق وتحول اللون الأخضر إلى بني غامق فقد تم حصد الحبوب بل ونقل محصولها أيضاً، وبدت الآثار عارية على انفراد ترنو إلى عيون الناظرين وتم بذلك إفساح الطريق لممارسة عمل له منغصاته هو الآخر.

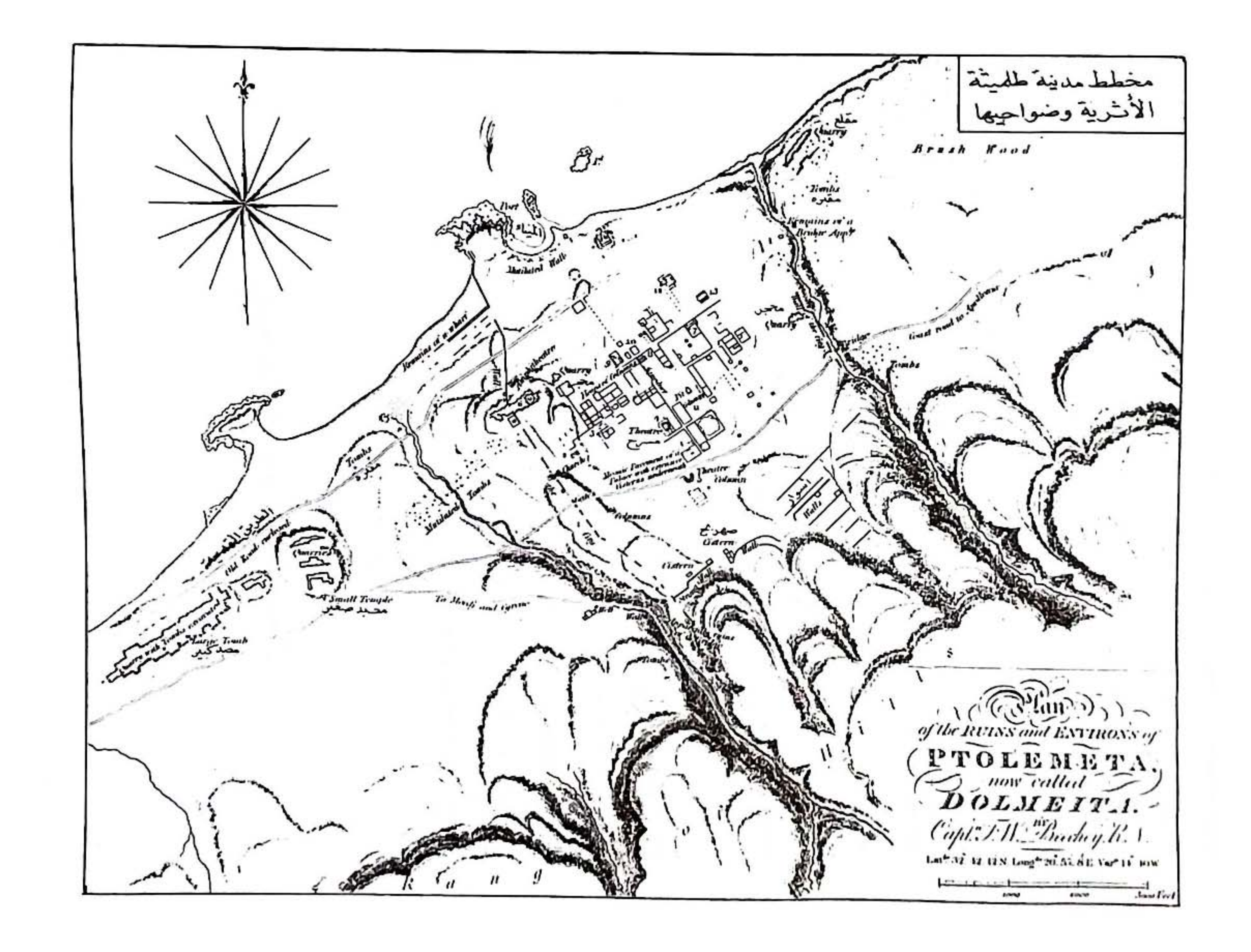
لقد أشرنا في حديث عام لحالة المنطقة ما بين بنغازي وطلميتة، وعلينا الآن العودة لتقصي آثارنا وإلقاء الضوء على بعض الآثار التي قابلتنا بشيء من التفصيل، ومنها قصر الطويل الذي يمثل مبنى مربع الشكل طول ضلعيه قرابة ستة وثلاثين وعشرين قدماً على التوالي، ويتم الدخول إليه عن طريق باب وحيد في منتصف ضلعه الطويل الذي شهد إضافة نافذة في تاريخ لاحق لتوفير الضوء للطابق العلوي، وبالمناسبة يبدو أن المبنى بكامله قد أضيف إليه سور متين البناء، ولكن لا أثر لأي مدخل به مما يمنع الدخول إلى باب

المبنى الأصلي ويفسر أن القصر أو الحصن كان بمثابة محطة للجند قام الإمبراطور جوستنيان بترميمها.

هذا بالإضافة إلى عدة قلاع حصينة أخرى لا تبعد كثيراً عن المبنى الأول وغير بعيد عن حضيض حافة الجبل مما يعطي الانطباع بقيام محطات للاتصال بين بنغازي وباقي جهات الجبل بما فيها طلميتة، وأكثر من هذا توجد بعض صهاريج الأقواس ذات الأحجام الكبيرة، إضافة إلى عـدة مبانٍ أخرى بعضها منحوت في الأرض إلى جانب العديد من مخازن الحبوب الأرضية.



مخطط مدينة
توكرة الأثرية
Plan
of the Remains of
TAUCRA,
or
TEUCHIRA;
Capt. F.W. Beechey R.N.
English Feet
To Ptolemeta
Fort
قلعة
Well


مخطط مدينة طلميثة
الأثرية وضواحيها
Plan
of the Ruins and Environs of
PTOLEMETA,
now called
DOLMEITA.
Brush Wood
Tombs
Quarry
Theatre
Walls
Cistern
Small Temple
Remains of a wharf
Port
To Merdj and Cyrene
Great road to Apollonia

الفصل الثالث عشر

أتى الدمار على كل شيء تقريباً داخل أسوار مدينة طلمية التي نالها الخراب، وتحولت إلى مجرد أكوام من الآثار الخربة الأمر الذي عاق إمكانية تحديد مخططها، الذي يحتاج إلى عمل وجهد شاق لإزالة هذه الأكوام المهشمة التي تبين بجلاء أن المدينة قد نالها الخراب المتعمد، وأن صلابة أسـوارها قد حالت دون إضافتها هي الأخرى إلى هذا الكم الهائل من الوحل.

عوضت الحالة الجيدة لهذه الأسوار ذلك الفاقد والخسارة التي لحقت بالمدينة من الداخل إذ يمكن فعلاً اعتبارها من أفضل الأسوار التي لا زالت على قيد الحياة من الأسوار الحربية التي أقامها الأقدمون، إذ أخبرنا المؤرخ بروكوبيس بأن أسوار طلمية قد أعاد الإمبراطور جوستينان ترميمها بطريقة مثلى علماً بأننا نجهل تاريخ إقامتها أصلاً، ولو أن متانة وصلابة بنائها يوضحان أنها سابقة على عهد البطالمة، ولو أن انتظام عملية البناء هذه تمنعها في ذات الوقت من نسبتها إلى عهد قديم، حيث يبدو عدم الانتظام سمة مميزة للفترات التاريخية الأولى، مما يوضح أنها قد بنيت فعلاً عندما أصبحت هندسة البناء معلماً متعارفاً ومتفقاً عليه، وبالخصوص فيما يتعلق بتوفير كل من الوقت والنفقات عن طريق استعمال الأحجار الضخمة ذات

الأوزان الكبيرة التي لا تحتاج إلا لكميات محدودة جداً من الإسمنت إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

استُخدم إلى جانب هذه الأسوار القوية عدد من الأبراج بلغ عددها ستة وعشرون لتوفير المزيد من الحماية، إضافة إلى بوابتين ذواتي دعائم متصلة بالسور، تواجه إحداهما الأخرى من الشرق والغرب ممثلتين في المكانين الوحيدين اللذين يمكن ولوج المدينة عن طريقهما، إضافة إلى كل هذه التحصينات صممت أبراج الحائط الجنوبي على نمط أكبر من غيرها زيادة في أخذ الاحتياط والحذر، علماً بأن سور المدينة الشمالي المواجه للبحر قد تلاشى تقريباً بفعل التعرية البحرية وارتفاع منسوب مياه البحر ذاتها.

قدر الدكتور ديلا إتشيلا طول سور المدينة بما يقرب الميلين، إلا أن قياسه أثبت أن المسافة الفعلية لا تزيد على ميل ونصف، وفي هذا الخصوص نؤكد أن أبراج السور التي وصفها المعني بأنها دائرية الشكل لا ينطبق على الواقع لأنها فعلاً مربعة.

توجد العديد من النقوش الإغريقية على جدران السور الداخلية، وهنا أيضاً لا ترانا مبهورين بالوصف الذي أطلقه عليها قائلاً بأنها تحكي القصة الكاملة لهذه المدينة. لقد أجهدنا أنفسنا في البحث غير أننا لم نعثر سوى على حفنة من الأسماء التي ما كان ليخطر على بالنا تدوينها لولا إصرار الدكتور الذي دفع بنا إلى إظهار ما أشار إليه على أنه قول لم يجانبه التوفيق أيضاً.

تضم القبور المنحوتة بالقرب من طلميتة عدداً كبيراً من الحروف الإغريقية التي لا توفر هي الأخرى سوى أسماء وتواريخ لأقطار وأزمنة مختلفة، وأن أكثر ما حصلنا عليه منها من معلومات أن أسماء الشهور المصرية كانت مستعملة هنا أيضاً.

دفنت العديد من القبور بما في ذلك القديمة منها تحت أكوام من

الرمال المنقولة حيث يحتمل العثور على تواريخ أقدم كما هو الحال مع إزالة تلك الأكوام التي تعلو معظم أجزاء المدينة ذاتها، الأمر الذي لا يمكن تحقيقه والقيام به في ظل ظروف زيارة خاطفة كهذه.

لم نعثر في أي من المقابر المنحوتة التي دخلناها على ما يلفت الانتباه، إضافة إلى خشونة بنائها مقارنة بالمقابر المصرية، أو قبور شحات وبالذات فيما يتعلق بمظهر النقوش المدونة عليها، ذلك أن أغلب هذه المقابر إنما تتكون من حجرة واحدة. نحتت جوانبها الثلاث كأماكن لوضع الجثث التي نعتقد أن جلها كانت تحرق، وأن الرماد المتبقي منها هو الذي يحفظ في القبر، أما الأخرى فكانت تدفن كاملة ربما بعد تحنيطها، الأمر الذي يجعلنا أمام مزيجٍ من طريقتي الدفن اليونانية والمصرية وهو ما ليس بالأمر الغريب، ذلك أن عادة حرق الموتى كثيراً ما كانت تمارس في أجزاء مختلفة من قبل سكانها الإغريق رغم أننا لم نعثر على ما يدل على طريقة التحنيط ذاتها، أو نعثر على جثث محنطة سواء في طلميتة أو في توكرة، كما لم نعثر على الأواني الزجاجية التي استخدمت في حفظ الرماد.

إن رطوبة الجو المفرطة شتاءً لا بد لها من العمل على هدم وتحلل الجثث بعد نزع غطاء القبر أو حين يتم فتح الحجرات التي تضمها، ولكن مع ذلك فإن الأمر يبدو غريباً، إذ كيف لا تبقى بعض أطراف العظام وسط هذه المقابر، وهنا لعلنا نذكر القارىء بأن جل هذه القبور يستخدمها العرب للإقامة بها بعض الوقت، ولحفظ ماشيتهم أيضاً، مما عمل على إلقاء كل ما بها إلى العراء وتعرضها للتلف بالتالي، تماماً مثلما حدث للأواني الزجاجية وتلك المصنوعة من الفخار التي لا بد أن نساء العرب قد استعملنها حتى تهشمت وألقى بها حيث تعرضت للردم سواء تحت الرحال أو أسفل مياه البحر، مما يعني اختفاء كل أثر كما هو الحال مع الجثث ذاتها مع الإشارة إلى أن عملية الدفن كانت متشابهة لدى الإغريق ولدى الرومان أيضاً، إذ كثيراً ما توجد أسماء مواطني الفريقين داخل حجرة الدفن الواحدة.

تمثل الكنيستان المسيحيتان داخل سور طلميتة أهم المعالم القائمة التي أمكن التعرف عليها في مدينة بنيت شوارعها في شكل مربعات تتقاطع مع بعضها عند زوايا قائمة، ولو أن طريقاً عريضاً يخترقها واصلاً بين البوابتين الشرقية والغربية، وبغض النظر عن التفاصيل فإن المدينة كانت تضم العديد من المباني الضخمة التي تلاشت معالمها وسط هذا الزحم الهائل من الآثار المهشمة التي أفلح الوندال في القضاء عليها كأفدح ما يكون النهب والانتقام، إضافة إلى ما لحقها من ضرر نتيجة تعصب وجهل من أتوا بعدهم، حيث تحولت إلى ما هي عليه الآن بعد أن كانت مدينة محصنة يبلغ محيط سورها الذي يأخذ شكل المربع نحو ثمانية عشر ألف قدم مما يعني أن محيط المدينة كان في حدود أقل قليلاً من ثلاثة أميال ونصف وأن طولها من الشمال إلى الجنوب يبلغ نحو ميل وأن عرضها من الشرق إلى الغرب كان في حدود ثلاثة أرباع الميل.

لاحظ السيد ديلا إتشيلا أن مخلفات هذه المدينة مصرية النشأة وهو ما لا نتفق معه فيه لفشلنا في تلمس أي تشابه يقود إلى النمط المصري في فن العمارة، إذ ليس منها ما يخرج عن الطابع الإغريقي أو الروماني، ذلك أن كثرة الزخارف غير الضرورية التي ميزت طابع البناء المتأخر عند هاتين الأمتين، يختلف كلية عما هو موجود لدى المصريين، فالطابع المصري برغم تعدد زخارفه، أقيم على مبادىء ثابتة إذ لا يوجد شيء بينها لا يحمل معنى في تلك الفترة التي تميزت بدقة الصنعة، فالنسبية والبساطة قلما يعتدي عليهما في مباني مصر أو في منطقة النوبة، ذلك أن تعدد واختلاف طابع الزينة عليها لا يعمل مطلقاً على اضطراب الشعور العام، أو يبعدها على إضفاء طابع العظمة لدى الناس.

إذ كلما كان الشكل العام والأجزاء الكبيرة من المبنى بسيطة المظهر ومتناسقة مع بعضها، فإن كثرة الزخارف لا تؤدي الطابع العام، وهو

المعمول به في هندسة البناء المصرية، فإن الأثر الذي ينعكس على الذاكرة يكون مبهماً للجميع قبل أن يكون لها الوقت الكافي لتلاحظ ما قد يكون هناك من خصوصيات. الأمر الذي ينطبق على الهندسة القوطية التي رغم كثرة تفاصيلها فإنها لا تنقص من بساطتها وعظمتها أو حتى من مهابتها.

أما عندما تحول الحديث عن المظهر العام للمبنى إلى ما يخص الأقسام الصغرى، فإن أي جزء مهما كان صغيراً يصبح له معنى، إذ قلما يوجد جزء من الزخرفة في الفن المصري أو القوطي وكانت لنا رغبة في إزالته من مكانه، فكثرة الزخارف تضفي على المظهر العام بريقاً يعمق من آثارها، كما أن البساطة تعمل نفس الفعل، خلافاً للفترة المتأخرة حيث أصبحت كثرة الزخارف التي لا تحمل معنى الطابع السائد لدى الإغريق والرومان مما بات يضفي جواً ثقيلاً على التفاصيل واختفاء طابع البريق على المظهر العام. فالأشكال العامة ليست مهمة في حد ذاتها حتى تخلق إحساساً مقبولاً، إذ يصبح إجراء التعديلات لإصلاح الخطأ أمراً صعباً من خلال تعديل الديكور وإجراء عمليات الزينة.

إن هذا لا يعني اختفاء أمثلة للذوق الرفيع في طلميتة، بقدر ما يعني أن جزءاً هاماً من مبانيها قد أنشىء عندما أصبح المكان مستعمرة رومانية، إذ لم نتمكن من العثور على مباني أقدم عمراً من العصر البطلمي عدا بعض القبور.

الفصل الرابع عشر

أنهينا عند بلوغ طلميتة اتفاقاً مع أصحاب الإبل على أن تحل محلها أخرى اتفقنا بشأنها مع الشيخ حدود، شيخ برقة الذي سيعمل مرافقاً لنا حتى حدود المنطقة الخاصة بسلطة باشا طرابلس.

لحق بنا في طلميتة ابن الشيخ حدود المدعو أبو بكرة، وبعد أربعة أيام على وصولنا أحضرت الإبل من منطقة الجبل، وبدأنا الرحيل إلى سيريني، يوم السابع والعشرين من إبريل سالكين طريق المرج: السهل الخصب الواقع على الحافة الواقعة إلى الجنوب من طلميتة.

بدأنا بعد اجتياز جزء من الطريق قرب الساحل التي سبق ترددنا عليها، صعود وادٍ يشد الألباب غربي طلميتة باتجاه المرج، إذ بمجرد صعود الطريق الضيق الذي يلف القلعة بدأ المنظر يضفي مزيداً من الجمال رغم صعوبة الممر الذي لولا تعود جمالنا على السير في مثل هذه المناطق لسبب لنا مصاعب جمة.

بدت حافتا الوادي مغطاة بأشجار الصنوبر، وأشجار الزيتون، ومجموعات مختلفة من نباتات الغار المتداخلة مع أنواع الشجيرات ذات الرحيق التي ملأ عبيرها المنطقة إلى جانب مئات الشجيرات المزهرة، وأنواع عديدة من الورود البرية المتناثرة حول أشجار العرعار، إنه فعلاً منظر لن

يتوانى الأوروبيون في الإعجاب به، خلافاً للمسافر في إفريقيا الذي لن يسعد بمثل هذه المناظر إلا نادراً، وهو ما ينعكس ربما في إبداء إعجابنا وتهليلنا بأكثر من اللازم.

أضافت صعوبة الطريق مسحة اهتمام على المنظر العام، كما أن مزج ما يشبه شجيرات الحدائق وهي مزهرة، أكثر مما سبق لنا رؤيته في مناخ المناطق الشمالية، وسط أجراف شديدة الانحدار أضفى لمسة تناسق على تكويناتها الجرداء التي أثمرت تمازجاً لأفكار متباينة.

إن السماح لأنفسنا بالانغماس في الحديث عن طبيعة هذه المنطقة سينسينا متابعة خط رحلتنا، لذا فمن الأفضل متابعة هذا الموضوع لأن المناظر التي تتابعنا واحدة تلو الأخرى على كامل الطريق من طلميتة حتى المرج لا تعدو أن تكون حلقة متصلة من الجمال.

بلغنا قمة الهضبة بعد ساعة من بداية صعودنا، حيث قابلنا عربياً أسمر الملامح قدم لنا مشكوراً عسل خلية نحل من إنتاج المرتفعات القريبة، وبالمناسبة كان هذا العربي الذي تتفق ملامحه ولهجته أيضاً مع أول إنسان نقابله. كما قابلنا بعد قليل بعض خيام العرب المتناثرة وسط الشجيرات حيث جاء بعضهم للاستفسار عن الغرض من رحلتنا وبسرعة تبين أنهم يحملون مميزات المظهر واللهجة التي لفتت انتباهنا عند مقابلة الرجل الذي قدم لنا العسل، إذ يحمل جميعهم استقلالية التصرف مع البساطة إلى جانب قدر كبير من المرح والتسلية.

لقد أكرموا وفادتنا على أفضل ما يكون، وقدموا لنا المأوى والمرطبات، ولم نكن نرغب في شيء أكثر من قضاء أسبوع معهم لا نفعل شيئاً سوى التمتع بجمال وروعة منطقتهم، غير أن المتعة والواجب لا يلتقي أحدهما بالآخر، فالراحة والاسترخاء اللذان بودنا الانهماك فيهما لا يقدمان شيئاً يحقق أغراض مهمتنا، فالمنظر الذي يتراءى لنا من القمة لم يكن أقل

بهجة عن تلك التي أدخلت السرور على نفوسنا، ونحن في طريقنا إليها، إنها أقل عزلة من الوادي، ومع ذلك تملك ما يكفي من توجيه الاهتمام إلى المنطقة الممتدة أمامها بما فيها من تلال وأودية فقدت نفسها وراء الأفق: إذ توفر مناطق المرعى إلى جانب الرقع المزروعة منظراً أخاذاً تتخلله مجتمعات صغيرة من الأشجار والشجيرات المزهرة المختلفة الأنواع، فقد كان كل شيء من حولنا أخضراً ومبتسماً أينما اتجهت أنظارنا.

دخلنا بعد مغادرة خيام البدو وادياً في منتهى الجمال عند اتجاهه بين الشمال الشرقي والجنوب الغربـي، وبعد مسيرة ثلاث ساعات أخرى اجتزنا خلالها بعض الهضاب وأودية شاعرية يعجز المرء عن وصفها وصلنا إلى سهل المرج حيث يختلط المرعى مع الأراضي المزروعة فوق رقعة أرضية منبسطة ذات طول واضح يحدها من على الجانبين سلسلة هضاب تكسوها الأشجار وعلى بعد نحو خمسة أميال من بعضها، وتمتد على مرأى البصر من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربـي.

تتجمع المياه المنحدرة من الجبال المحيطة بالسهل في برك وبحيرات في مناطق مختلفة من هذا الوادي الفسيح، موفرة بذلك مصدراً مائياً خلال الصيف لقبائل البدو التي تفد إليه، ومع أن سلسلة الهضاب التي سبق وصفها بأنها تحيط به وتعطيه مظهر الوادي، فإن علينا إعادة الذاكرة بأنها واقعة على سلسلة جبلية ذات ارتفاع ملحفوظ.

يتحتم علينا قبل الإشارة إلى ما يمكننا ذكره عن مدينة برقة والمنطقة المحيطة بها، التعرض لبعض الحوادث التي واجهتنا خلال إقامتنا في المرجع التي لم يكن في حسابنا البقاء فيها تطلعاً للوصول إلى سيريني في أقرب وقت، إلا أن أصحاب الإبل رفضوا ذلك بحجة أن أبو بكرة لم يتفق معهم سوى على مرافقتنا إلى هذا المكان فقط، وبما أن المعني كان قد انطلق صوب الجهة الأخرى من السهل حيث أقام البـي خليل خيامه منذ عدة أيام

قرب ضريح ولـي مشهور، وبما أننا لا نملك دليلاً يخالف ما قال به مرافقونا فقد أمرنا بنصب خيامنا، اعتقاداً بأننا لن نتوصل إلى اتفاق ينهي حالة الخلاف هذه، وانطلقنا بدورنا نحو البي على أمل أن يقوم بتوفير بديل لنا يمكننا من مواصلة الرحيل صبيحة اليوم اللاحق.

استقبلنا البي كعادته بالترحيب والبشاشة مؤكداً بأن حاجتنا ستكون جاهزة في اليوم التالي مضيفاً باحتمال حضور الشيخ حدود الذي سيتولى مسؤولية مرافقتنا إلى شحات.

لم تظهر الإبل في الموعد وبات علينا العودة إلى خيام البـي الذي كانت خيمته غاصة بمشائخ البدو الذين يبدو أنهم في نقاش حاد لا علاقة له بإقناعهم بتوفير ما طلبناه منه بالأمس، فقد أصروا على عدم قبول تأجير جمالهم بأقل من ثمانين دولاراً للواحد وفي هذا مبالغة قصوى مما دفعنا للرفض واقتراح ثلاثين دولاراً كبديل عن طلبهم اعتقاداً بأن العرض سيهدىء من أعصابهم كما جرت العادة.

انقضى نصف اليوم الأول ولم نتوصل إلى اتفاق رغم وعد أبو بكرة باستعداده لعمل كل ما من شأنه تذليل أية صعوبات أمامنا، إلا أنه لم يفعل شيئاً من هذا القبيل، وأن الأمر ليس في حاجة لجهد خاص لنعرف أن العملية مدبرة، وأن البـي خليل إما أنه لم يكن قادراً على فعل شيء يرضينا، أو أنه هو شخصياً طرف آخر في هذه الخطة التي بدا جلياً أن أبو بكرة هو محركها الرئيسي ومن صنعه أيضاً، إذ لم يذكر لنا شيئاً عن أية صعوبات في طلميتة فقد كان جمّالـو بنغازي على استعداد لمرافقتنا إلى سوسة لو لم نتوصل إلى اتفاق معه.

كان مبلغ الثمانين دولاراً الذي طالب به جميع المشائخ وأراد أبو بكرة منا دفعه مجرد غطاء لتبيان عدالة مطلبهم خاصة وأنه شخصياً لا يملك جمالاً لتأجيرها، وأن البـي خليل ما كان يريد التدخل لمنع صديقه من تحقيق بعض

الربح على حسابنا (علماًبأن المسلمين عموماً لا يقرون مطلقاً مثل هذا التصرف الذي لا يمت للأخوة بشيء) خلافاً للعرب الذين يقدمون خدماتهم لبعضهم البعض في مثل هذه الحالات دونما إحساسٍ بالحرج خاصة وأن بعض إبلهم قد تصاب من جراء تناوِلها لنبات السيلفيوم الذي قد يؤدي إلى إنفاقها.

قررنا بعد أن تبين لنا أن جميع المؤشرات تقف ضدنا، تجربة سبيل آخر، ذلك أن ابتزاز العرب لا يعرف الحدود إذا تبين لهم رضوخك لما يطالبون به، يتمثل في تجهيز اثنين من الرفاق للسفر السريع إلى درنة ومخاطبة البـي محمد بتوفير الإبل التي نحتاجها والتي لن يتوانى في الإيفاء بها بالسرعة الممكنة.

نجحت الخطة كما توقعنا في الوصول إلى حل ملائم، رغم إقرارنا العزم على الوصول بخطتنا إلى النهاية، فقد اتفقنا مبدئياً على نقل أحد خيامنا وبعض المؤونة والعودة إلى طلميتة لإنجاز بعض الأعمال الضرورية، انتظاراً لوصول جمال درنة خاصة وأن المسافة لا تزيد على ساعات فوق طريق نعرفها ولن نخطئها.

تبين أبو بكرة عزمنا على المضي قدماً فيما ننوي عمله مما اضطره إلى تقديم نفسه عارضاً أربعين دولاراً، إلا أننا التزمنا بالمبلغ الذي سبق لنا عرضه مع إمكانية رفعه خمسة دولارات أخرى مما حدا به لقبول العرض الجديد وبسرعة أعد كل شيء وانطلقنا تاركين المرج صباح اليوم التالي قبل وصول الشيخ حدود إذ تم شفاء حارسنا الموفد من بنغازي حيث تولى مع أبو بكرة قيادة القافلة.

أرسل إلينا البـي خليل في المرج عدداً من الخراف التي أعددنا بدورنا بديلاً عنها رداً للجميل مع تقديم خالص شكرنا لأمين سره أيضاً.

أوضحنا بأن مياه حوض المرج تتجمع في مستنقعات أو أحواض في

جهات مختلفة من السهل فقد تبين أن مبادلة هذه المياه بمياه الآبار والصهاريج لم يغير نوعية المياه التي حصلنا عليها، إذ اتضح بسرعة أن المياه الجديدة ليست نظيفة كما يجب أن تكون وأن طعمها لا يتطابق مطلقاً مع المياه العادية، فقد اتضح لنا بكل جلاء بعد قليل استعمال هذه الأحواض لا من أجل الشرب فقط وإنما للغسيل والاستحمام أيضاً.

لقد اتضح أن الوظيفة الأخيرة ممثلة في الاستحمام الذي ندر أن يلجأ العرب إلى ممارسته إنما يمثل أهم هذه الاستخدامات بالنسبة لأهلها لأسباب تعمدنا غض النظر عنها لأنهم لا يرقون إلى مرتبة الشخصيات المميزة التي تتلاءم مع ملامح أرضهم الشاعرية.

لسنا على استعداد لإقرار أن الأسباب الداعية للغسل من أجل الطهارة لم تكن موجودة في الماضي في ظل مناظر خلابة كهذه، وأن عدم الإشارة إليها بالتفصيل لم يكن لسبب سوى لعدم تلاؤم ذكر التفاصيل مع عقلية أجدادنا!.

إن كثرة استحمام البدو في هذه الأحواض لم يأتِ نتيجة إغراء حبهم للقيام بذلك بدرجة تفوق ما يقومون به عادة بقدر ما يشعرون به من تخفيف ألم مرض جلدي، لا داعي لذكره، خاصة وأن مثل هذا المرض لا يقتصر عليهم وحدهم لأنه ينتشر فعلاً بين سكان المنطقة ما بين بنغازي ودرنة إما نتيجة لعدم وجود علاج فعال له أو لأنهم لا يأخذون الحيطة لتجنب الإصابة به، ومهما كان الأمر فإن الآلام التي يشعرون بها لا بد أن تكون مرهقة بشكل كبير وهو ما ينعكس على ملامحهم التي لا تبدو مقبولة ولا تتمشى مع جمال الطبيعة من حولهم، لأنها بالفعل من أجمل ما رأيناه ولو أنها فشلت في طبع مميزاتها لا على عادات ولا تقاليد ولا ملامح سكانها لمجرد أنهم مصابون بمرض جلدي لا يتوافق ظهوره مع مجتمعات الرعاة.

لم نعد نشعر بضرورة ملء قربنا من مياه هذه الأحواض التي تبين لنا

مختلف استعمالاتها، ولو أن العرب من حولنا لا يرون سبباً كافياً للإقلاع عن شربها رغم إدراكهم للحقيقة.

يوجد قرب وسط السهل ضريح قديم يدعى سيدي أرحومة الذي تقوم إلى الجنوب الشرقي منه على بعد عدة أميال مخلفات مدينة صغيرة أخبرنا البـي خليل ببنائها من قبل رجل شريف بحيث لم يعد ظاهراً منها إلا القليل ولم نتمكن من تقصي آثارها.

يمكن اعتبار السهل الواسع أو وادي المرج، لأن كلاً منهما يفي بالآخر، منطقة تحتل جزءاً من الإقليم الذي دعاه الأقدمون برقة، وهنا علينا قبل متابعة الحديث عن رحلتنا، يستحسن التذكير بتلك الملاحظات غير الدقيقة عن تلك المدينة الشهيرة التي حملت نفس الاسم.

حدد المؤرخون العرب وجغرافيوهم أيضاً حدود منطقة برقة بتلك الأرض التي لا تشمل كامل برقة فحسب، وإنما كل الرقعة الأرضية ما بين مصراته والإسكندرية في الوقت الذي تبدأ فيه حدودهما الفعلية ما بين أسفل خليج سرت ودرنة، أو كما قيل لنا أيضاً حتى الحدود التي تنتهي عندها سلطة باشا طرابلس، في الوقت الذي تنتهي فيه منطقة برقة عند القدماء عند الحدود الغربية لمنطقة الهيسبيريدس.

نال ميناء برقة، حسب الأسطورة، اسمه بتوليماس Ptolemais في الوقت الذي يؤكد فيه كل من إسترابو وبليني أن اسم المدينة الأخيرة وبرقة هما في الواقع اسمان لمدينة واحدة، في الوقت الذي ميز فيه بطليموس برقة عن بتلوليماس، بينما وصف سكيلاكس برقة بوقوعها على بعد مائة إستيديا عن البحر مما لا يبقى مجالاً لإمكان اعتبارهما مكانين مختلفين.

وبما أن المسافة التي ذكرها سكيلاكس من الميناء إلى مدينة برقة محددة انطلاقاً من البحر، يتحتم علينا النظر إلى المدينة الثانية (مفترضين صحة الرقم ـ مائة إستيديا ـ وهو ما لا شك فيه) في مكان ما من سلسلة الجبال التي تحد

الإقليم ما بين بنغازي وطلميتة من الجنوب، مما يعطي إمكانية تحديد موضعها في مكان ما من سهل المرج، وربما في الطرف الجنوبي الشرقي الذي سبقت الإشارة إليه.

تواجهنا في هذا الشأن صعوبات تتعلق بأخبار مدينة برقة، ذلك أن جل هذه الروايات تحمل في العديد من الوجوه ما لا يجعلها قابلة للأخذ بها وبالذات فيما يخص تحديد مكانها بالقرب من المنطقة الجبلية وبالذات في حضيضها وليس في المنطقة الجبلية ذاتها.

حددت المسافة بين برقة والساحل في مكان ما على سلسلة الجبال المذكورة التي لا يوجد بها مكان يبعد نحو مائة إستيديا من الساحل عدا تلك الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بنغاي، ولهذا فإن افتراض مدينة برقة في ذلك المكان سيكون افتراضاً لا معنى له لأنها ستصبح والحالة هذه على بعد خمسين ميلاً من مينائها، في الوقت الذي لن يزيد بعدها عن تسعة أميال من ميناء برنيتشي الجيد.

هذا في الوقت الذي حدد فيه الإدريسي عدة مسافات إلى ومن مدينة برقة التي تبعد عن العقيلة عشر محطات أو سفر عشر أيام، أما المسافة بينها وبين الإسكندرية فتبلغ واحداً وعشرين محطة أو ما يوازي خمساً وخمسين ميلاً، أما المسافة بين رأس مصراته إلى برقة فتبلغ خمسمائة وثمانين ميلاً.

ومع أن الإدريسي قد ذكر المسافة بين عدد من المحطات على جميع الطرق المشار إليها، وبالذات مصراته الإسكندرية، ومصراته برقة، إلا أن تغير العديد من الأسماء وعدم مطابقتها لما هو موجود فعلاً جعلنا نتغاضى عنها لأنها لن تخدم موضوع الحديث تماماً كما هو الحال مع أرقام المسافة الكلية.

أما الرواية العربية الثانية التي تستحق الإشارة إليها، فهي تلك التي نقلها الجغرافي أبو الفدا عن مؤلف آخر حيث يقول:

أخبرنا بوجود جبلين يتبعان برقة التي تنتج تربتها الممتازة العديد من المحاصيل، وعدد من الينابيع الممتازة المياه، وعدد من المناطق المزروعة، لهذا فإن المواد الغذائية رخيصة في جميع الأوقات إلى جانب النبيذ الذي يقوم الأهالي بتصديره إلى جانب القطران إلى مصر، إضافة إلى أعداد كبيرة من الماشية.

يشير هذا الحديث إلى كل من منطقة برقة وإلى المدينة التي تحمل نفس الاسم التي يصفها نفس المؤلف بأنها واقعة في سهل فسيح، تميل تربته إلى الاحمرار، ويحميها سور من زمن الخليفة المتوكل أي منذ عام 240 هجرية.

كما يصفها مؤلف عربي آخر نجهل اسمه بقوله: «تقع مدينة برقة في منطقة تحمل تربتها ومبانيها اللون الأحمر، وأن ملابس سكانها تحمل نفس اللون أيضاً، ثم يمضي ليقول... على بعد ستة أميال من مدينة برقة يوجد جبل، ولكن دون أن يحدد الاتجاه، ثم يواصل حديثه... المواد الغذائية متوفرة طوال الوقت ورخيصة، كما أن الماشية تزداد أعدادها باضطراد لوفرة المرعى، وأن جل ما يذبح منها في مصر يعود إلى هذه المنطقة... كما أن الآجر والقطران والعسل تصدر هي الأخرى إلى مصر، مع ملاحظة أن القطران ينتج في مكان قريب على الجبل يصعب الوصول إليه، بل يستحيل الصعود إليه عن طريق الخيل... كما يوجد بها قبر الولي بوشعيفة أحد صحابة الرسول ﷺ وتعرف في اللغة اليونانية باسم البنتابوليس التي تعني المدن الخمس حسب قوله: ثم يمضي واصفاً المنطقة بأنها مكان لإنتاج العديد من الفاكهة، إضافة إلى أن جزءاً هاماً منها تغطيه نباتات العرعار، وأن سكانها ينتمون إلى قبيلة لواته التي تختلف عن بقية القبائل العربية الأخرى.

كما وصفت برقة بأنها مدينة ذات أبعاد متوسطة وحدود ضيقة، واشتهر عنها بأنها تحمل نفس اسم تربتها التي تستعمل بعد خلطها بالزيت لعلاج

الأمراض الجلدية، ولها خاصية اللون الأحمر، أما إذا ألقيت في النار فإنها تنفث دخاناً له رائحة الكبريت.

توضح جميع الإشارات السابقة تناولها تحديد الخصائص التي تتلاءم كلية مع ما هو موجود فعلاً، ومع ذلك فإن إجماعهم الذي ما كان له لينطلق من غير أن تكون لكل منهم فكرة عن مكان ما، إلاّ أنهم لم يفلحوا في تحديد ذلك المكان بدقة يمكن لنا الاعتماد عليها.

وعليه، فإن الطريقة الوحيدة للتوفيق بين ما ذكره العرب وبين المسافة التي حددها سكيلاكس بين هذه المدينة والبحر، هو الافتراض بأن الكتاب العرب إنما أرادوا القول بوقوعها في منطقة سهلية داخل حدود المنطقة الجبلية، مما يعني أن سهل المرج الفسيح هو البقعة المؤهلة لقيام هذه المدينة التي نتحدث عنها.

إن تحديد مكان سهل المرج بالنسبة لطلميتة، التي سبق تحديدها كميناء قديم لمدينة برقة مكان ملائم جداً لهذا الافتراض، فالواديان اللذان يشكل أحدهما طريقاً جيداً، يقود إليه مباشرة من طلميتة، وأن المسافة بين أي مدينة تقام عليه ستتلاءم تماماً مع تلك التي ذكرها سكيلاكس.

إضافة إلى أن مميزات التربة التي حددها الكتاب العرب، يمكن ملاحظتها في تربة هذا السهل التي تتميز فعلاً باللون الأحمر، كما أنها تعمل على اتساخ الملابس لمن يجلسون فوقها.

كما أن ما ذكر عن وجود جبل يبعد ستة أميال عن برقة، إلى جانب ذلك الوصف القائل بأن الجبال التي تحيط بالسهل تبعد هي الأخرى مسافة ستة أميال عن بعضها.

وأكثر من هذا فإن العسل متوفر في الأودية التي تقود إلى سهل المرج مثلما هو الحال مع تلك التي تقود إلى برقة، كما أن العرب لا يزالون يمارسون عادة استخراج الصمغ من لحاء بعض الأشجار الذي ربما يكون

ما أشارت إليه عبارة القطران التي سبقت الإشارة إليها.

إن هذه الأدلة تبقى غامضة، ومع ذلك فإن غياب الدليل الدافع يجعلنا مطمئنين لتقبلها كفكرة تؤيد أن المرج هي السهل الذي عناه الكتاب المذكورون، مع القول بأن ذلك لا يعني بالضرورة القول بأن المدينة التي وصفوها ببرقة هي ذاتها مدينة برقة القديمة.

تعددت الخصوصيات المنسوبة إلى منطقة برقة مثل الينابيع العديدة والتربة الممتازة، وأعداد الماشية، وأشجار الفواكه المختلفة التي يمكن ملاحظتها جميعاً في مناطق المرتفعات، مما لا يترك مجالاً للشك إنها هي ذاتها الجهات التي أشارت إليها كتابات العرب، فبرقة تعني لدى هؤلاء الكتاب إقليم شاسع ناله الدمار تحت ولاية القاضي الأكبر وحاكم مصر وبرقة، اليازوري زمن الخليفة المستنصر بالله، مما اضطر معه أهله لتركها والهجرة إلى مصر وبعض الجهات الأخرى، حيث استقر بعضهم في الإسكندرية التي تعرضت بدورها لوباء الطاعون، وما نجم عن ذلك من عودة الكثيرين من سكان برقة التي عادت إليها الحياة من جديد.

يبدو أن مدينة برقة لم تكن تحظى بأهمية خاصة زمن العرب خلافاً لحالها في العهد القديم حين مثلت المدينة الثانية بعد سيريني أيام الإغريق حيث تواصلت أهميتها إلى عهد البطالمة، حيث يبدو أنها قد أخلت الطريق أمام مدينة بلتولومانيس Plotamains.

كان سكانها مشهورين مثلما هو الحال مع أهل سيريني بمهارتهم، وترتيبهم للخيول والعربات. ومعلوم أن هذا الإقليم ظل يشتهر بخيوله الممتازة التي ظلت سمة ملازمة لبرقة زمن الحكم العربي، ولو أنها تدهورت نتيجة لسبب لا نعلمه حيث حلت خيول الجزيرة العربية محلها في هذا المقام.

حكى هيرودوت أصل قصة نشأة مدينة برقة التي دعاها بارشي فقد ذكر

بتأسيسها من قبل أخوة الملك أركيسيلادس، ملك سيريني، ربما في تاريخ لا يبعد عن عام خمسمائة وخمسة عشر قبل الميلاد، الذين تركوا أخاهم الملك نتيجة لخلاف بينهم، وليقيموا في مكان آخر من المنطقة حيث بنوا المدينة التي أطلق عليها يومها، كما هو الحال اليوم بارشي.

في حين افترض آخرون أن نشأة مدينة برقة إنما يعود لأصل فينيقي أو ليبـي، فقد اعتبر اسم برقة اسماً فينيقياً له شهرته على ساحل إفريقيا الشمالي كما قال بذلك سيلاسي إيتاليكاس Silacy Italicas وآخرون، إذ اعتقد بأن أصل مؤسسيها يعود إلى مدينة قرطاج كما لمح بذلك المؤرخ سيرفيس Serevius مما يعطي إمكانية أن برقة Barca، أخ ديولوسي Diolo's الذي رافقها إلى إفريقيا مع بعض أبناء قومه، أقام فيها ومن ثم أعطى الاسم للمدينة ومنطقتها وهو ما عرفتا به بعد ذلك فالمدينة قد اجتيحت فيما بعد من قبل الفرس تحت قيادة القائد أمسيس Amasis بعد محاصرتها لمدة طويلة وشاقة حيث أرسل عدداً من سكانها كسجناء للإقامة في منطقة تدعى باكتريا Bactria التي اشتقت اسمها منهم.

تُرك أحفاد باتوس دون مضايقات يعيشون في المدينة التي استمرت مزدهرة حتى إقامة مدينة Ptolemais على موضع الميناء القديم، حيث هاجر السكان إليها بغية ممارسة التجارة لتحسين أوضاعهم.

الفصل الخامس عشر

انطلقنا صباح يوم التاسع والعشرين، تاركين سهل المرج في طريقنا إلى سيريني عبر طريق شقت بصعوبة على الهضبة المطلة على السهل، حيث تبين بجلاء أننا نسلك طريق العربات التي استعملها الأقدمون، إذ لا زالت بقايا آثار تلك الوسيلة واضحة المعالم، ومع مواصلة السير ونزول أسفل الهضبة بلغنا بقعة جميلة المنظر تعرف بسهل بوغراطة حيث تقوم بقايا عدد من الآبار الأثرية التي استعملنا مياهها لري جيادنا.

تابعنا سيرنا في منطقة هضبية المظهر مغطاة بمختلف أنواع الأشجار حتى وادي الجريب Hareebe ذي المنظر الخلاب المكسو بأشجار الزيتون، ومياه عذبة يمكن الحصول عليها من بئرين قريبين من بعضهما، كما مررنا خلال اليوم التالي بعدد من مجاري الأودية الخلابة المزروعة في معظمها إلى جانب العديد من أشجار الصنوبر والأرز، والخروب، وقاتل أبيه، والسرو، وغيرها من الشجيرات اليانعة بما فيها الورد الأبيض والأحمر وعدد من الشجيرات المزهرة ذات الرائحة العطرة، مما يؤكد صدق روايات الأقدمين عن تلك الروائح العطرة وزيت الورد الذي كانت سيريني أحد أهم مراكز إنتاجه، وعموماً تمتاز طبيعة الإقليم بالتباين الواضح مما يجعله يستحوذ على النظر، وبالذات مع بقايا تلك القلاع الرابضة فوق بعض القمم القريبة، ومع

ذلك فإن صعودنا أو هبوطنا لجوانب بعض الهضاب كان يحتم علينا شد الانتباه إلى المخاطر التي تفرض نفسها وبالذات على ترك جيادنا التي لاقت صعوبة بالغة في تحركها وأدى إلى سقوط بعضها، مما اضطرنا إلى خلع أجزاء من أضلافها.

طلب إلينا مرافقنا عند اجتياز منطقة تكسوها الأشجار، السير جماعة خوفاً من إطلاق النار عليه، الأمر الذي لم نثبت صحته ودفع بنا إلى عدم الأخذ به بعد ذلك، إذ لم يتعرض أي منا لما يعكر روعة جمال المنطقة.

أقمنا خيامنا في الليلة اللاحقة في منطقة المرقد Margad قرب صهريج قديم حصلنا منه على حاجتنا من المياه التي يبدو أنها كانت تزود حاجة القلعة القديمة القائمة على الهضبة التي تقوم بجانبها بعض خيام العرب، وما يملكونه من قطعان الضأن والذين أظهروا حسن استقبالهم بتزويدنا ببعض الحليب واللبن رغم تأكيد مرافقينا بأنهم غير راضين عن اجتيازنا لأراضيهم.

تابعنا تقدمنا فوق أرض لا تختلف في مظهرها العام عن تلك التي مررنا بها يوم أمس باستثناء تحول حالة الطريق إلى الأسوأ مما اضطرنا لقيادة جيادنا لكامل منتصف الطريق تقريباً، ومع ذلك فقد نشب خصام بين أحد خدمنا وبين أبو بكرة الذي تظاهر بالغضب من سوء الإساءة إليه، وانتهز الفرصة التي قلّما يتوانى العرب عن أخذ زمامها، ليخبرنا بمدى حاجتنا واعتمادنا عليه، وأنه لن يمكث معنا أكثر مما فعل، وأسرع لامتطاء جواده والانطلاق، حيث لحق به بقية رفاقه تاركين الإبل دون رعاية، الأمر الذي سيدفع بنا للحاق بهم، ورجائهم العودة لمباشرة أعمالهم المعتادة.

حاول أبو بكرة مرات عديدة إقناعنا بأن السكان غير راضين بل استشاطوا غضباً من وجودنا داخل أرضهم، ليظهر مدى الحماية التي يوفرها لنا، وأن مغادرته ستثير رعبنا وسط بيئة لا يرحب بنا أهلها إضافة إلى جهلنا التام بالطريق، الأمر الذي زاد من خيبة أمله بعد أن تبين أن أحداً لم يلحق به في

محاولة لإصلاح ذات البين خاصة بعد أن عزمنا على مواصلة الرحيل وأداء المهمة على خير ما يكون، الأمر الذي رأينا من خلاله ضرورة عودة هؤلاء الذين عادوا بالفعل وباشروا مباشرة سابق أعمالهم وكأن شيئاً لم يحدث تماماً كما توقعنا، وبدون أي تعليق منا في كلتا الحالتين وكأن الأمر لا يعنينا في شيء.

عاد أبو بكرة إلى سابق سلوكه، بل وأخذ رفاقه يولون عناية أكبر بالإبل حيث بلغنا مجموعة من خيام العرب عند اقتراب الليل حيث أقمنا خيامنا في نفس الوادي غير بعيد عنهم وسط سحر الطبيعة.

هبت خلال اليومين السابقين رياح جنوبية حدت من سرعتنا وأقلقت راحتنا، وبالذات أثنا ساعات النهار، ولو أنها تحولت مساء اليوم الثالث لتقلب الموازين فقد حملت معها بعض زخات المطر التي انقطعت منذ مدة.

يسود المنطقة الواقعة بين المرقد وجرينا Grenna الاسم المتداول بين العرب لمدينة سيريني، مظهر تضاريس تشكل الهضاب سمته الأولى إلى ما قبل المدينة، حيث تأخذ الأشجار في التناقص الواضح وتتحول معظم الأودية إلى مناطق مزروعة بالشعير، في حين باتت الهضاب تشكل مراعي جيدة للماشية.

لاحظنا في اليوم التالي لمغادرة سهل المرج نبتة يبلغ ارتفاعها قرابة ثلاثة أقدام، وتشبه إلى حد كبير نبات الشُوكران المعروف بعصيره السام أو الجزر العربـي، وبالسؤال اتضح أنها نبات ضار بالإبل التي تأكلها، وأن ملامسة جزء من عصيرها للبشرة سيؤدي إلى التهابها.

تشبه هذه النبتة نبات السيلفيوم القديم من عدة وجوه بمقارنتها مع سيلفيوم القدماء المصور على بعض قطع النقود لمدينة سيريني، إلا أن ساقها أقل سمكاً وزهراتها أكثر.

تختفي النبتة المشار إليها في بعض أجزاء الطريق ما بين المرج وسيريني

كلية، إلا أنها سرعان ما تظهر وبغزارة وبالذات في مناطق المراعي حتى أوشكنا على بلوغ المدينة، حيث أخذت في الظهور بشكل ملفت للنظر ولو أنها عادت للاختفاء مرة ثانية، الأمر الذي لم يعد يدفعنا للالتفات إليها ومتابعة أمرها، ولكن مع عزمنا على تقصي أثرها بين أوراق الكتاب القدماء لاحتمال كونها ما تحدثت عنه النصوص بالأسيربيتم Laserpitum أو السيلفيوم الذي أمكن جمع بعض الملاحظات عنه خلال فترات تاريخية مختلفة.

أكد هيرودوت انتشار السيلفيوم في المنطقة الواقعة ما بين جزيرة بلاتيا وبداية سرت الكبرى، أما المؤرخ سكيلاكس Scylax فتحدث عن انتشاره غربي الجزيرة السابقة، حيث المناطق المنتجة للسيلفيوم بما في ذلك كل المناطق الخصبة من برقة وحتى حدود الصحراء حيث ينتهي السيلفيوم أيضاً، أما ثيوفراستس فيلاحظ هو الآخر وجود السيلفيوم في منطقة برقة، ولو أن معظم إنتاجه يأتي من منطقة الهيسبيريدس في المناطق المجاورة لسرت الكبرى.

ينمو السيلفيوم، كما هو الحال، في تلك البيئة التي أشرنا إليها، وسط الحشائش في أراضي المراعي حيث تتسابق الضأن إلى أكله بعد شم رائحته وهو ما يدفعها إلى محاولة اجتثاث جذوره التي تأكلها بنفس الشراهة كما فعلت مع الأزهار والسيقان، الأمر الذي كان يدفع بالعديد من الرعاة إلى محاولة بذل جهودهم لإبعاد ضأنهم عن مناطق نموه التي كثيراً ما يلجأون إلى إقامة سياج حولها منعاً من تمكنها من الوصول إليه.

ومعلوم أن السيلفيوم كان معروفاً في العديد من جهات آسيا، وفي بعض أجزاء القارة الأوروبية أيضاً، ولو أن سيلفيوم برقة أو سيريني بمعنى أدق، كان الأكثر شهرة، إذ كوّن بالفعل جزءاً هاماً من تجارتها كما جاء في العديد من الروايات، فقد أشار بليني إلى توالي تقلص المتوفر منه في

الأسواق حتى كاد يختفي كلية لولا تلك الساق التي قدمت كهدية للإمبراطور نيرون كدلالة لعظمة أهمية ذلك النبات قبل انقراضه، أما إسترابو فيؤكد أن تعرض المنطقة لوصول القبائل البربرية، كان السبب وراء تلاشي هذا النبات إذ لجأ أولئك القوم، نكاية في المنطقة وأهلها، إلى اجتثاث هذا النبات من جذوره مما أتى عليه في النهاية، وألحق بالمنطقة خسارة مادية كبرى.

سبق لنا ذكر السيلفيوم وعصيره عند الحديث عن تلك التجارة المحظورة التي كانت قائمة في مدينة شاراكس، في منطقة سرت حيث كان تجار قرطاجة يقدمون النبيذ كبديل للحصول عليها رغم معارضتنا لما قال به الدكتور ديلاً إتشيلا الذي اعتبر العصير وحده كمادة للتبادل التجاري، وفي هذا خلاف لما ذكره أغلب المؤرخين القدماء الذين أكدوا أيضاً أن العصير (Laser) كان يجني من الساق ومن الجذور أيضاً كما هو واضح من أقوال كل من ثيوفراستسوس وبليني.

كما يتضح من أقوال الكاتبين السابقين أن ساق السيلفيوم كانت تشكل مادة غذائية ويتم أكلها بعدة طرق، الأمر الذي أشارت إليه المصادر الفارسية أيضاً التي ورد في أحد نقوشها، ما يشير إلى أوزان محددة لكل من العصير والنبات كلاً على حدة، ومع ذلك فإننا لن نغامر بإعطاء شكل محدد للعصير، رغم أننا نؤكد بأن كلاً من الساق والجذر كانا يؤكلان كما نفعل نحن بالكرافس.

وصف ثيوفراستوس نبات السيلفيوم بأنه نبات حولي ذو جذور كبيرة وسميكة، أما ساقه فتشبه نبات الفيرولا وله نفس السمك، في حين تشبه الأوراق التي سماها ماسبيتام Maspetium أوراق البقدونس، أما البذور فعريضة ولها شكل يشبه أوراقه.

أما ما جاء على لسان بليني فهو ما نقله عن ثيوفراستسوس رغم حديثه عما أمكنه جمعه من معلومات عن هذا النبات في عهده من ذلك قوله إن هذا

النبات الشهير الذي سماه الإغريق السيلفيوم كان موجوداً في برقة، وأن عصيره المسمى لاسر، كان بمثابة عقار ذائع الصيت لمميزاته العلاجية التي جعلت منه نباتاً باهظ الثمن.. ثم يمضي ليؤكد اختفاء هذا النبات من برقة منذ مدة نتيجة لقرار أصحاب الأرض ترك حيواناتهم من ضأن وماشية تناوله كعلف مباشرة بدل مباشرة جنيه وتصنيعه محققين بذلك عائداً أكبر من مزاولة العملية الثانية، الأمر الذي أتى عليه بالتدريج ولم يعد له أثر يذكر سوى تلك الساق التي أرسلت إلى الإمبراطور نيرون، وهو ما أتاح ظهور عصير السيلفيوم الفارسي، الأقل درجة وجودة من ذلك الذي كانت برقة مركز إنتاجه وتجارته.

كما تخبرنا النصوص القديمة عن الثلاثين رطلاً من السيلفيوم المحفوظة بخزينة روما، إضافة إلى مائة وإحدى عشر رطلاً من عصير السيلفيوم التي استعان بها القيصر مع ما لديه من ذهب وفضة في التغلب على المصاعب التي واجهته أثناء الحرب الأهلية، وفي هذا دلالة لا غبار عليها على أهمية عنصري السيلفيوم في الحياة العامة.

ظهر السيلفيوم لأول مرة في برقة حسب رواية بليني نتيجة لنزول مطر فجائي شبيه بالقطران عم كامل المنطقة المحيطة بحدائق هيسيريدس وحدود سرت الكبرى الشرقية في العام السابع قبل تأسيس مدينة سيريني التي أنشئت بعد 143 عاماً من تأسيس روما.

ثم يمضي بليني مواصلاً حديثه، نقلاً عن الكتاب الإغريق، بالقول بامتداد منطقة نبات السيلفيوم لمسافة ألف إستيديا، وأنه نبات بري لا يقبل الزراعة والعناية به، وهما أمران يدفعان به إلى التقهقر صوب الصحراء، رغم محاولة الأقدمين الحفاظ عليه بمنع الضأن والماشية من رعيه رغم شغفها به وبحثها عنه علماً بأنه يسبب لها نوعاً من الإسهال في بداية الأمر ولو أنه سرعان ما يصبح غذاء وعلفاً ممتازاً يسهم في إضفاء مزيد من السمنة عليها

إلى جانب إعطاء لحمها نكهة لا تقاوم، أما عندما تكون مريضة فإن أكله يسرع إما في شفائها وهو الغالب، أو القضاء عليها تماماً، ومهما كان الأمر فإن تناول هذا النبات كان فيما يبدو ملائماً فقط لتلك الحيوانات التي اعتادت عليه في أرض برقة، تماماً كتلك النبتة التي سبقت الإشارة إليها لأنها بالفعل قد تكون مميتة للإبل الغريبة عن المنطقة بالذات، الأمر الذي حدا بابن الشيخ حدود للمطالبة بأجر مرتفع لجمالهم في منطقة المرج، تحسباً لتناول هذا النبات وضياعها بالتالي، وهنا لعلنا نذكر القاريء بأن الجمال التي نقلتنا إلى المرج كانت مكممة خوفاً عليها هي الأخرى من العثور على هذا النبات الغريب، ومن ثم تعرضها للضياع.

أما فيما يتعلق بآثار هذا النبات على بني الإنسان فإن الحديث لن ينتهي بالسرعة التي قد تخطر على الذهن، وهنا قد نشير باختصار إلى تقديم سكان سيريني هذا النبات إلى ملكهم باتوس الأول على اعتبار أنه أهم ما تنتجه بلادهم وهو ما تمثل في ضرب صورته على عملتهم المعدنية.

إن مقارنة النبتة التي أشرنا إليها (الدرياس) مع صورة نبات العملة القديمة يظهر تشابهاً واضحاً، وهو نبات يافع وسيقان غضة وقبل أن تتفتح زهوره.

يتفرع الطريق بعد قليل من مغادرة المرقد إلى جزئين باتجاه سيريني الأول منهما الواقع إلى الشمال من الثاني، هو الطريق القديم حيث لا تزال بقايا الأبنية ظاهرة على جانبيه، كما تبين لنا حين العودة من سيريني، أما الطريق الجنوبي، الذي اختاره أبو بكرة، لمرافقتنا من المرج إلى جرينا، خوفاً وتحسباً لما قد يلاقيه من ثأر قديم إذا قدر له اجتياز الطريق الأول المستعمل فعلاً.

قابلنا بعض مخلفات القلاع الحصينة في طريقنا إلى سيريني، أما بعد صعود المنحدر إلى الشمال من وادي (Roskasaishecta) فقد وجدنا أنفسنا

أمام أعداد لا حصر لها من القبور عند ضاحية المدينة، فمن المعروف أن قبور الأقدمين كانت غالباً في أماكن خارج أسوار مدنهم، إذ بدت كما هو الحال مع مدينة بومبي وغيرها، منتشرة على طول الطريق الواصلة إليها.

دأب سكان سيريني على دفن موتاهم لمدة تزيد على أربعة وعشرين قرناً لتبيان مدى ضخامة عددها وبقائها كشاهد عيان لإقامتها من الحجارة سواء المبنية منها فوق سطح الأرض، أو تلك المحفورة داخل الصخر نفسه، إلاّ أن ما يحز في النفس هو تآكل جلها أو تعمد تحطيمها خاصة وأن جميعها قد تم فتحها، وعليه فإن حجم المواد المهشمة وبعثرتها على أرض المنطقة يمكن تخليه بيسر خلافاً لإعطاء وصف له.

أخذ الطريق بعد هبوطنا إلى سهل سيريني ينحني بين القبور وبقايا المعابد وحواف المحاجر التي نحتت على جوانبها القبور لمسافة تزيد على ميل ونصف اجتزنا في بعض أطرافها أرضـاً صلبة عن طريق حفرها، إضافة إلى ظهور آثار عجلات العربات في نقاط من هذه الطريق الصخرية.

يقود مثل هذا الطريق، إلى جانب طرق أخرى عديدة، إلى المدينة حيث تبدو القبور على جانبيها وكأنها منازل سكنية، يعمها الصمت الذي يبدو وكأنه انعكاس مباشر للحزن والكآبة التي قد يهون انعكاس أثرها أمام تنوع واختلاف النمط المعماري، ومخططات وأحجام هذه القبور التي حظيت بالعناية والجهد الفائق في إعطائها صورتها النهاية، تماماً كما هو الحال مع تلك التماثيل النصفية والتماثيل التي تبدو مبعثرة في كل مكان تقريباً ولا يزال بعضها يحمل بعض النقوش الإغريقية والرومانية، إلى جانب الملامح والملابس لكل من مواطني الدولتين وحسب زمن إعدادها أيضاً.

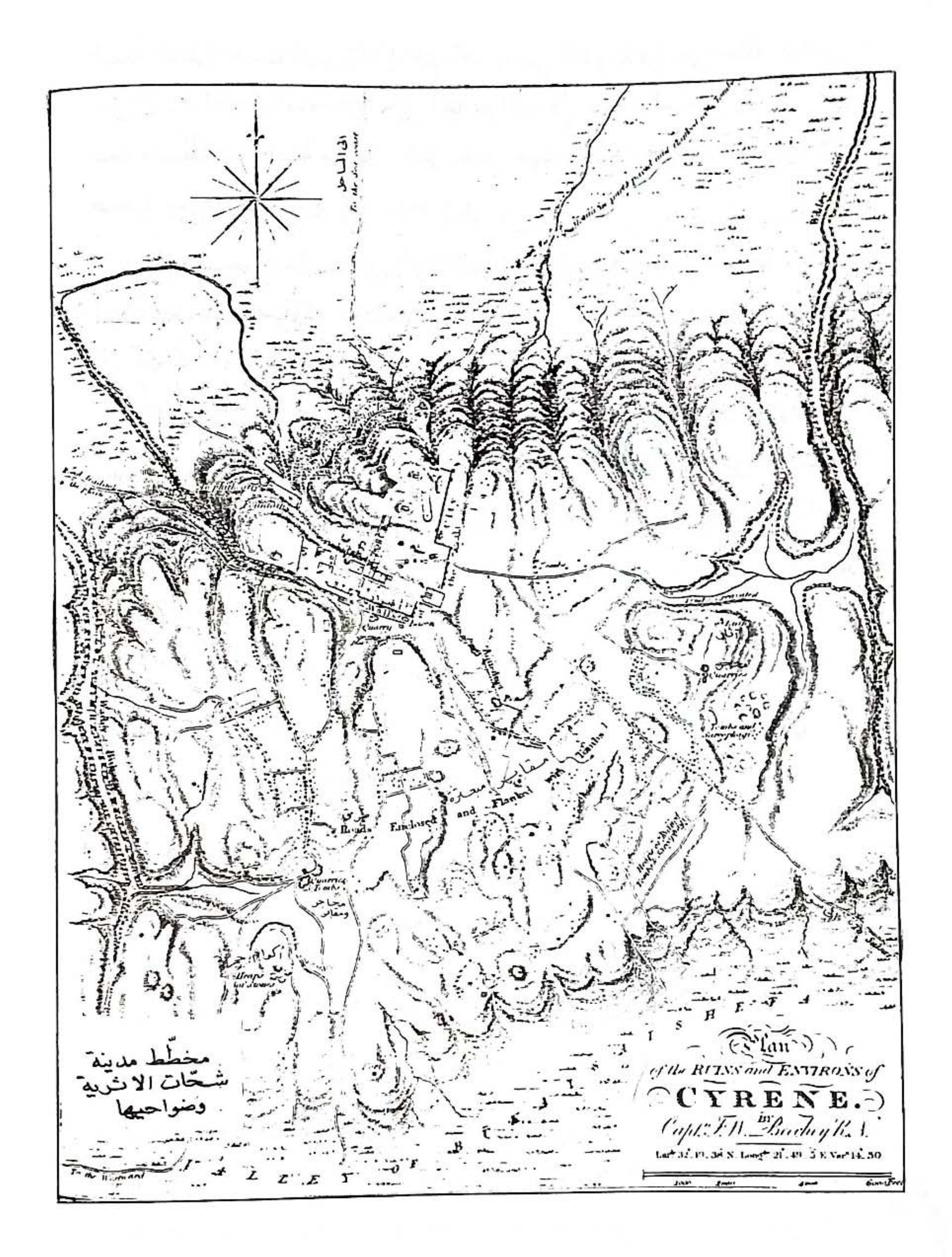
كان المنظر يشدنا إلى الوقوف وإمعان التأمل حسب أهمية ما يستدعي انتباهنا، إلاّ أن اقتراب الليل دفع بنا إلى مواصلة التقدم تاركين لمرافقنا الخاص حرية اختيار المكان المناسب، وهنا بزغ الذوق الإفريقي لتحديد

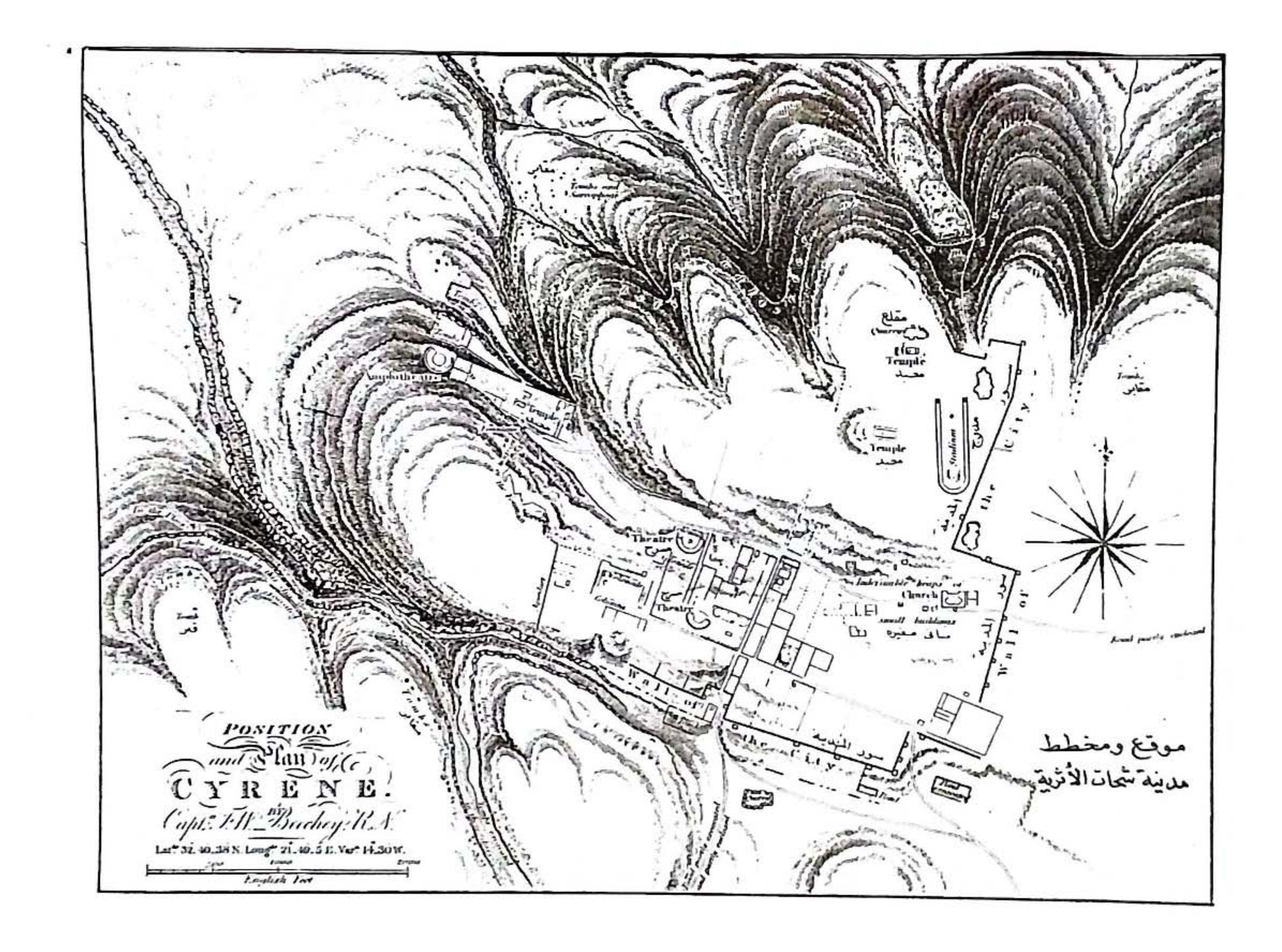
البقعة المثلى حسب تصورنا، إذ لم يكد يمضي تقدم يذكر على حافة الوادي حتى تبينت لنا بقايا قناة مائية حين أخذ مرافقنا في هبوط المنحدر إلى أن بلغ بقعة منبسطة غير بعيدة عن بقايا مبنى ظاهر حيث اتضح وجودنـا عند حضيض صخرة عمودية تبينا خرير ماء متدفق منها.

لم يعد هناك ما يستدعي إنهاك المزيد من قوة جيادنا التي أنهكها التعب فعلاً، إذ أسرعت بدافع من غزيرتها لتروي غليل ظمئها من مياه العين النقية الباردة.

لم نكترث كثيراً من روعة ما حولنا من آثار رغم عشقنا البالغ لها، إذ علينا أن نعترف والأسى يعلو جباهنا، أننا لم نختلف هذه المرة عن حيواناتنا المنهكة، إذ أسرعنا جميعاً لننهل من مائها العذب قبل أن نولي احترامنا للمكان الذي تندفع منه.




Plan of the RUINS and ENVIRONS of CYRENE.
by Capt. F.W. Beechey R.N.
مخطّط مدينة
شحّات الاثرية
وضواحيها


POSITION
and Plan of
CYRENE.
by
Capt.n F.W. Beechey R.N.
موقع ومخطط
مدينة شحات الأثرية
Wall of the City
سور المدينة
Stadium
مدرج
Temple
معبد
Quarry
مقلع
Theatre
Church
small buildings
مباني صغيرة
Tombs
مقابر
Amphitheatre

الفصل السادس عشر

ليس من عادة العربي الاهتمام بأداء وظيفة الدليل حتى إذا وجد نفسه مضطراً لذلك، ومع ذلك فإن حارسنا ما إنْ أطفأ ظمأه وترك العنان لجواده ليشرب كما شاء حتى أخذ يحدد ويشير إلى ما رآه من عجائب تلائم ذوقه بادئاً بإحاطتنا علماً بأن مياه العين ليست مياهاً راكدة كمياه الآبار التي رأيناها في جهات مختلفة، لأنها بالفعل مياه جارية كمياه النهر تماماً، وتوفر مصدراً كافياً ودائماً حتى في أشد فصول العام جفافاً.

كان نطق مرافقنا للمقطع الأخير من حديثه وكأنه حديث خبير بالآثار يشير إلى قطعة عملة نادرة أو حجرة كريمة ضمن ما بحوزته، وكأنها الوحيدة التي يتم العثور عليها من هذا النوع معتبراً إيانا في ذات الوقت وكأننا لا نختلف كثيراً عن العامة والرعاع الذين ما إنْ انتهى من حديثه الذي يحمل عين الحقيقة، حتى اتجهنا نحو الجبل الذي يدفع بهذه المياه، والدخول إلى الحجرة المنحوتة لنبدأ فحص اتصالها مع المجرى.

تبين أن القناة قد تم نحتها في تجويف الصخر لمسافة طويلة، وأن ارتفاعها يقرب من خمسة أقدام فوق مستوى سطح الحجرة، وأن المياه تتدفق منها بسرعة لتنصرف عبر شلال صغير إلى حوض أعد لهذا الغرض عند مستوى قاعدة الحجرة، ومنها إلى الخارج.

تتكون القناة من تجويف يبلغ متوسط ارتفاعه نحو أربعة أقدام، وعرضه ثلاثة أقدام، علماً بأن جوانبها وسقفها مسطحة خلافاً لقاعدة المجرى التي تأخذ أشكالاً غير منتظمة بفعل قوة واستمرارية فعل المياه.

أجاب مرافقنا عند سؤاله عن مدى طول هذه القناة في ثنايا هذه الصخرة، وإلى أين تنتهي، بأنه لا يستطيع قول أكثر من أن أحداً لم يصل إلى نهايتها، وأنها معروفة لدى الجميع بأنها مثوى ومستقر للحيوان.

إن تصديق الجزء الأخير مما سمعناه لا محل له بيننا، وبدأنا فحص هذا الممر الغاص بقدر ما سمح لنا به ضوء النهار الذي تبينا من خلال استمرارية هذه القناة مما دعانا للتوقف مع تصميمنا على انتهاز أقرب فرصة ممكنة لاكتشافها حتى النهاية في ظل توفير وسيلة مناسبة للإنارة.

توجد على أحد جوانب الشلال حجرتان منحوتتان، أو بالأحرى حجرة واحدة مقسمة إلى جزئين يقوم في إحداهما حوض يقع أسفل سطح الحجرة، ويبدو كأنه كان في الأساس متصلاً بالمجرى عن طريق فتحة صغيرة في الصخرة التي تعلوه مباشرة، علماً بأن تلك المياه قد توقفت وبات الحوض جافاً اللهم إلا من مياه الأمطار التي تصله خلال الشتاء، حيث يبدو أن هذا الخزان أو الحوض كان مخصصاً لخدمة الرهبان المسؤولين عن قدسية هذه العين.

يقوم في مواجهة العين تقريباً ما يمكن وصفه بالمدخل الرئيسي حيث عثرنا على لوحة مقسمة إلى جزئين يظهر أنها سقطت من على المدخل، وعليها رسوم ثلاث إناث ملتحمات الأيدي وكأنهن يؤدين رقصة مقدسة، وبما أن هذه اللوحة كانت ملقاة على وجهها على الأرض، فإن تفاصيلها الدقيقة لا تزال ظاهرة مما يضفي مسحة من الجمال على هذا الاستعراض البديع.

أقيم رواقان فيما يبدو أمام العين حيث تراكمت التربة التي نقلتها مياه الأمطار من على حافة الهضبة التي لا بد أنها ملأت جميع الحجرات القريبة،

مما يسمح بالعثور على أشياء هامة إذا تم التنقيب في هذه المنطقة وفي غيرها من المناطق العديدة الأخرى.

تظهر بقايا العديد من المباني أمام العين التي يصعب تحديد طبيعتها إذا لم تكن لها علاقة باستقبال وتوزيع المياه على أنحاء المدينة التي يظهر أنها كانت تحجز في الأصل ثم ترفع بالضغط الجانبي إلى علو كافٍ يسمح بتوزيعها إلى مختلف أجزاء المدينة التي يفوق مستواها منسوب العين ذاتها، ولو أن تحديد الأسلوب والطريقة التي تم تحقيق هذا الفعل عن طريقها يظل خارج ما يمكن لنا اقتراحه.

إن بقايا قناة مائية لا تزال ظاهرة على حافة الهضبة التي تنحدر صخورها عمودياً إلى العين، حيث تواصل امتدادها في الاتجاه المضاد إلى حافة الوادي، حيث يتدفق مجرى آخر عذب المياه، فقد لاحظنا عند الوادي الأخير هذا بقايا مباني مما يجعلنا عند الظن بأن القناة المائية المذكورة كانت تمر عبر مجراه، ومن ثم توزع على الأراضي الزراعية خارج حدود المدينة، أما اليوم فإن المياه التي تجري في هذا الوادي إضافة إلى مياه العين فإنها تجد طريقها عبر المنطقة السهلية القريبة، ومنها إلى البحر دون الاستفادة منها عدا ما توفره من ظمأ للماشية وأسيادها.

تحتل حجرات العين المنسوبة إلى أبوللو، التي يبدو أنها المكان الذي أرشد إليه الليبيون مؤسسي سيريني من الإغريق، في هذا الفصل في العام قطعان الضأن والماعز، كما هو الحال مع كامل المنطقة أمامها حيث تكثر أعداد الماشية التي تستهويها جميعاً تلك المياه المنسابة أمامها، خلافاً لوقت وصولنا إذ لم يكن هؤلاء الدخلاء قد حلوا بالمنطقة بعد، فقد كنا نقضي وقتنا في منتهى الغبطة والراحة ودون أن نقابل مخلوقاً واحداً عدا رفاقنا أثناء النهار، أو بعض من أبناء آوى والضباع في الصباح الباكر أو في المساء التي تفر هاربة كلما اقتربنا منها.

هبطنا بعد شفاء غليلنا من الماء وحب الاستطلاع عند مكان العين، بعض أقدام إلى بعض المخلفات الأثرية التي تنتشر فوق رقعة أرضية منبسطة حيث تبين أنها بقايا معبد دايانا الذي لم يبق منه سوى مخططه، فقد تداعت جميع أعمدته التي دفنتها التربة.

يقع وراء مخلفات هذا المعبد حائط متين البنيان تمثل قمته امتداداً للأرض المنبسطة من حوله، وذلك حفاظاً على التربة من الانجراف بحكم الانحدار الفجائي للأرض، وما يمكن أن يتبع ذلك من انجراف مياه الأمطار للتربة القريبة ولقواعد المباني القريبة أيضاً، فهذا الحائط الذي يبدو ظاهراً للعيان من المنطقة الواقعة أسفله كان خطاً دفاعياً ممتازاً يستحيل الاقتراب منه من الجهات الواقعة أسفله.

تنتهي مياه العين إلى قمة هذا الحائط مكونة شلالاً يخلب الألباب، وهي تندفع من خلال أغصان الأشجار الملاصقة لهذا السور وهي في طريقها إلى السهل.

تنحني الأرض فجأة بعد بضع خطوات من السور المشار إليه حيث أقيم حائط متين آخر، تنحدر بعده الأرض بشدة، وهكذا مرات عديدة حتى تنتهي أخيراً إلى حضيض الجبل.

تقوم سيريني على حافة سلسلة من الهضاب يبلغ ارتفاعها قرابة ثمانمائة قدم تنحدر على شكل مدرجات متتالية، حتى تنتهي عند المنطقة السهلية التي تكون قمة حافة ثانية أسفلها.

توجد منطقة منبسطة، عند حضيض الحافة العليا التي بنيت سيريني فوقها، تضفي عليها الأشجار وتلك الرقع المزروعة شعيراً وقمحاً إلى جانب نباتاتها الطبيعية مسحة من الجمال، انعكاساً للونها الأخضر طوال العام، إلى جانب مجاري العديد من المسيلات التي تغطي الأشجار حوافها المنحدرة من أعلى الحافة في طريقها إلى البحر.

تمتد هذه الرقعة الأرضية باتجاه الغرب والشرق وإلى الحد الذي تنتهي الرؤية عنده، أما في اتجاه الشمال فتمتد لمسافة تقرب من خمسة أميال تنتهي بعدها بانحدار فجائي نحو البحر.

تغطي الأشجار الكثيفة الحافة الأولى الممتدة على طول ساحل برقة وتقطعها كما هو الحال عند طلمية وغيرها من الأماكن، العديد من المجاري المائية الخلابة التي تزداد روعة كلما اقتربنا من البحر.

يقدر ارتفاع الحافة الأولى بنحو ألف قدم مما يعطي مدينة سيريني الواقعة على الحافة العليا ارتفاعاً يقرب من ألف وثمانمائة قدم فوق منسوب البحر الذي يشكل منظراً غاية في الروعة عند مدينة سيريني عندما تكون السماء صافية.

شكل السديم أو الضباب بعد بلوغنا سيريني ولعدة أيام متتالية إضافة إلى جهلنا إمكانية رؤية، البحر حاجزاً حال دون تمكننا من رؤيته وهو ما تم بالفعل بمجرد أن شاح ذلك الضباب الذي أظهر أمامنا منظراً ساحراً يمكن القول بأنه واحد من تلك المناظر التي تلتصق بالذاكرة، ولا يمكن تدوينها، لأنها ستظل حاضرة في الذهن بعد سنوات طويلة وكأنها ماثلة فعلاً أمام العين.

لن ننسى أبداً رد الفعل الأول لهذا المنظر حين تراءت لنا فجأة الأرض الممتدة من حضيض الجبل بأشكالها وسماتها التي تخلب الذاكرة وتشد الذهن عند انحدار تلك الهضاب البعيدة صوب البحر الذي ينتهي عند خط طويل لا انفصام فيه يمكن ملاحظته عند الأفق.

إن جهلنا بتلك القوى التي تشكل عناصر الوصف هو الذي حال دون استخدامها في هذا المقام حتى نحرك في أذهان القراء ذات الانطباع عن موقع هذه المدينة الفذ، وما أحدثه من أثر في نفوسنا، ومع ذلك فإن لمحة واحدة بالعين المجردة يظل أكثر قيمة في بعث وتحريك الشعور الناجم عن المنظر

الخلاب، أكثر من أي وصف يمكنه إثارة المشاعر، وتلك الانطباعات التي لن يقدر الزمن على إلقاء ظلاله عليها مثلما تفعل الكلمات على ذاكرة من تحاول إثارة شعورهم، الأمر الذي يدعونا عن قناعة بإزاحة النظر عن هذا المنظر من أمامنا، ومواصلة وصف خاصية فريدة على الجانب الشمالي لمرتفعات هذه المدينة.

ذكرنا أن جانب الجبل أو الهضبة ينحدر في الاتجاه الشمالي نحو السهل فجأة ولكن على عدة مراحل واحدة تلو الأخرى حتى تنتهي عند بداية السهل في حضيض الجبل، الأمر الذي حدا بالسكان الأقدمين إلى محاولة استغلال هذه الظاهرة باستغلال هذه الحواف الفرعية في توفير ما هم في حاجة إليه من طرق أمكن عن طريقها ربط هذه الدرجات مع بعضها كما تدل على ذلك آثار العجلات التي تركت بصماتها ظاهرة، الأمر الذي مكن مستعملي تلك العربات من التمتع بتلك المناظر التي حاولنا إعطاء القراء وصف لها.

يبدو انحدار الهضبة عمودياً عند معظم هذه الدرجات مما سهل عملية نحتها قصد استغلالها كمقابر حظيت ببذل جهد وذوق في إعدادها مما زاد من روعة المنظر.

هبطنا بعد مغادرة عين أبوللو ومعبد دايانا لنأخذ طريقنا حول هذه المدرجات أو المصاطب بصعوبة خلال الشجيرات الكثيفة، حتى وصلنا إلى أكثر هذه المقابر وضوحاً على هذه الطرق الملتوية، ذلك أن القبر الواحد إنما يتكون من حجرة واحدة تقبع في نهايتها مقابل المدخل واجهة نحتت في الصخر اللين بمنتهى الانتظام وجمال التنفيذ، وعموماً هناك تنوع واضح في ترتيب وتنظيم هذه القبور من الداخل التي حظيت عموماً ببذل جهد في إعدادها، ولو أن بعضها قد يصل إلى حد الإعجاب بها، فقد عثرنا في بعضها على بقايا رسومات تاريخية أو مجازية بحتة أو أشياء تصور حياة الرعاة وكلها ذات مستوى فني رفيع.

تختلف أحجام القبور المنحوتة على الواجهة الشمالية، إذ يبدو واضحاً أن بعضها أكبر من الأخرى التي يظهر أنها بمثابة قبور جماعية في حين تمثل الأخرى قبوراً لعائلة واحدة، كما عثرنا في حالتين على قبور واسعة تضم كلاً منها تابوتاً من الرخام الأبيض مزخرفاً بزهور مما يجعلنا نعتقد بأنها رومانية.

سبقت الإشارة إلى وجود بقايا قناة مائية على حافة أحد الأودية في الجهة الغربية من المدينة، فهذا الوادي الذي يشكل مجرى مائياً مياهه في غاية العذوبة، يعكس هو الآخر منظراً في غاية الروعة، إذ ينحدر مجراه تدريجياً باتجاه البحر وتغطي حافتيه مجموعة متنوعة من الأشجار، حيث تبين أن حافته الغربية مشكلة هي الأخرى من عدد من المصاطب كتلك التي سبقت الإشارة إليها على الواجهة الشمالية لهضبة سيريني ذاتها، وأنها قد نحتت بها هي الأخرى قبور مشابهة حيث المياه المتدفقة، علماً بأن بعض الحواجز قد أقيمت على الحواف الخطرة من تلك الطرق منعاً للانزلاق نحو قاع الوادي، كما تدل على ذلك بقايا أحد هذه الحواجز البالغ ارتفاعها نحو ثلاثة أقدام.

تشكل حواف هذا الوادي ذات الانحدار الواضح مناطق ذات كثافة عالية من مختلف أنواع الأشجار والشجيرات المزهرة والمتسلقة، مما يجعلنا لا نمانع مطلقاً من اختيار هذا الوادي ليكون المقر الأخير لنا ولو أن هذه الرغبة سرعان ما تلاشت ونحن نواصل السير فوق هذه الطريق المحفوفة حقاً بالمخاطر، رغم روعة جمال المنظر الذي استعضنا عنه بتفضيل السير قريباً من حافة الصخر بدل التطلع إلى تلك الروعة الساحرة قرب الجانب الآخر.

تظهر العديد من بقايا المباني قرب هذا المجرى حيث يظهر أن المياه كانت تحتجز وتجمع بغية رفعها إلى ارتفاع واضح، كما هو الحال مع مياه عين أبوللو، حتى يمكن توزيعها على المنطقة المجاورة رغم فشلنا في تحديد الكيفية التي كانت تتم عن طريقها، وهل كان هناك اتصال بين هذه المياه

المسحوبة إلى أعلى وبين مياه العين التي كانت تزود القناة القائمة على حافة الوادي.

تمثل المياه الجارية في هاتين الحالتين مصدراً دائماً، مما يستحقان معه الجهد والإنفاق اللازم للحفاظ عليه رغم أن منسوبهما لا يلائم نقلهما إلى المدينة الخالية من السكان أو الأراضي القريبة منها، ومهما كان الأمر تشكل دراسة بقايا المباني الغريبة، إلى جانب الإلمام بمبادىء ميكانيكا الهايدرولوجيا من دراسة هذا الموضوع أمراً شيقاً، الأمر الذي لا نملك وسائل تحقيقه لافتقارنا لهاتين الميزتين.

يظهر على مسافة تقل عن ربع ميلين من بداية هذا الوادي بمياهه الجارية مسيل آخر ينبع من الصخر القائم على حافته الغربية مكوناً حوضاً تنساب منه المياه، حيث يمكن مشاهدة بقايا بعض المباني التي يكاد تكدس وتراكم التربة يأتي على ما بقي منها وتحولها بالتالي إلى أرض تغطيها الحشائش والشجيرات، وباتت بالتالي مرتعاً للأغنام وأبقار الرعاة، التي تقوم النسوة والأطفال برعايتها بمشقة بالغة، مما يدفع بنا إلى مساعدتهم في الكثير من الأحيان، وللحق تتمتع نساء العرب باختلاف طبقاتهم بالصبر وحسن الطباع ولو أن بعض الصفات الأخرى كالتفاهة والغيرة وحب الاستطلاع تظل من الصفات المميزة لجميع النسوة أينما وجدن، من ذلك مثلاً أن الإجابة على أسئلتهن تحتاج منا لقضاء يوم كامل، ومع ذلك كن دائمات الدعاء للّه برعايتنا والحفاظ علينا.

تدور إحدى حواف أو مصاطب هذا الوادي حول الصخرة لتقود بدورها إلى وادٍ آخر أعرض قليلاً، وبه بعض القبور المنحوتة من الصخر هو الآخر، وهنا علينا الإشارة إلى خلو جميع القبور التي رأيناها وما أكثرها، من أية نقوش تحدد هويتها وتاريخها، مما يعني إمكانية نقشها على ألواح منفصلة تعرضت للضياع أو لتراكم مكونات التربة وانهيار أجزاء من حجرات القبور

ذاتها، إضافة إلى انهيار العديد من فتحات مداخلها والمعابد التي كانت بداخلها.

رأينا في اليوم الأول لوصولنا تمثالاً من المرمر للجزء العلوي من سيدة ثم فصل رأسه وألقى به قريباً من أحد القبور المنحوتة في الصخر، وبسؤال بعض الأعراب الذين لحقوا بنا عن الجزء المفقود تظاهروا بجهلهم بالأمر، إلا أنهم سرعان ما طلبوا مقابلاً لذلك ما إن تم الاتفاق عليه حتى اندفع أحدهم إلى القبر القريب ليحضر معه رأساً مهشمة فقدت كل قيمة لها.

إننا نأسف لهذه الظاهرة المتمثلة في قطع وتهشيم العديد من الرؤوس البالغة الدقة والجمال، أملاً في نقلها إلى بنغازي أو طرابلس وبيعها هناك، وهنا وجدنا الفرصة لتأكيد القول بأننا لن نشتري شيئاً تم بتره حديثاً، وأننا سنرفع الأمر إلى البـي محمد في درنة كلما علمنا بحدوث شيء من هذا القبيل إلى ممتلكاته.

تحظى القبور المنحوتة، وتلك المقامة في أغلب ضواحي المدينة ببالغ اهتمامنا وإعجابنا، مما يستغرق بضعة أشهر لإنهاء إعداد رسوم ومخططات لإبرازها على الأقل، إذ بني بعضها على هيئة معابد، رغم استحالة وجود إثنين منها على نفس النمط والشكل عاكسة بذلك منظراً ملفتاً للنظر وفي غاية الجمال سواء داخل المدينة، أو في ضواحيها خاصة لدى المهتمين الذين باستطاعتهم تحديد أمثلة لهندسة البناء الإغريقية والرومانية عبر فترات تاريخية مختلفة بدءاً بتلك الفترة المبكرة من تاريخ هذه المدينة، وأوج ازدهارها ومن ثمة إلى فترة تدهورها مع المستوطنين من الرومان عند أفول تلك الإمبراطورية.

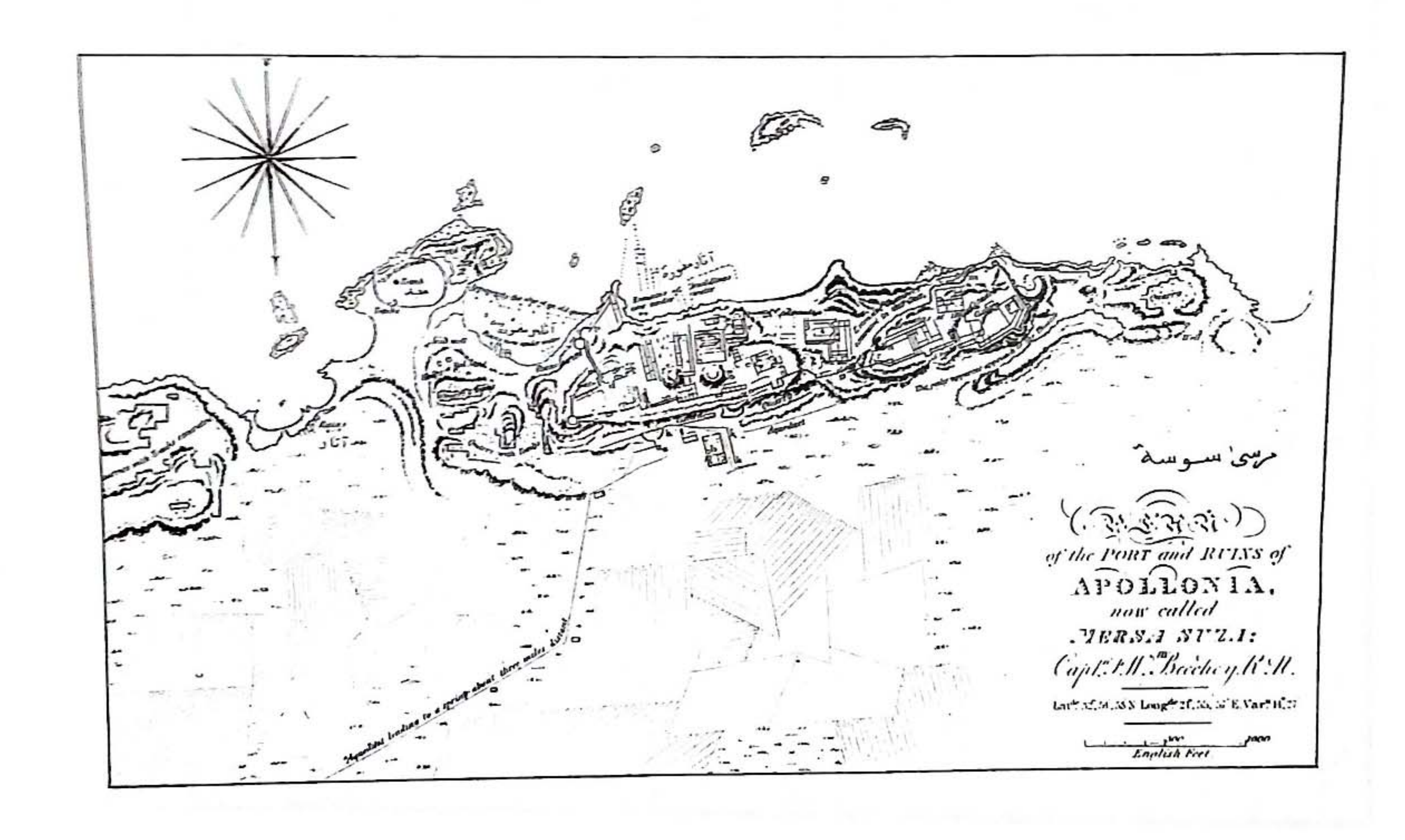
تقسم القبور الكبيرة عادة عند منتصفها بجدار على طول المدفن، حيث توضع الجثث واحدة فوق الأخرى بعد تغطية مكان الجثة الأولى بغطاء من المرمر أو الحجارة.

لا ينفك بدو المنطقة وأطفالهم عن العبث بما يعثرون عليه من تماثيل سليمة، الأمر الذي حدا بنا إلى ردم ما نعثر عليه وإزالة أي أثر قد ينبىء عن وجودنا في مكانها، كما أخذنا جانب الحيطة بعدم إبداء الاهتمام اللازم حين نشعر أننا مراقبون، فقد تبين لنا العبث بكل شيء يسترعي انتباهنا.

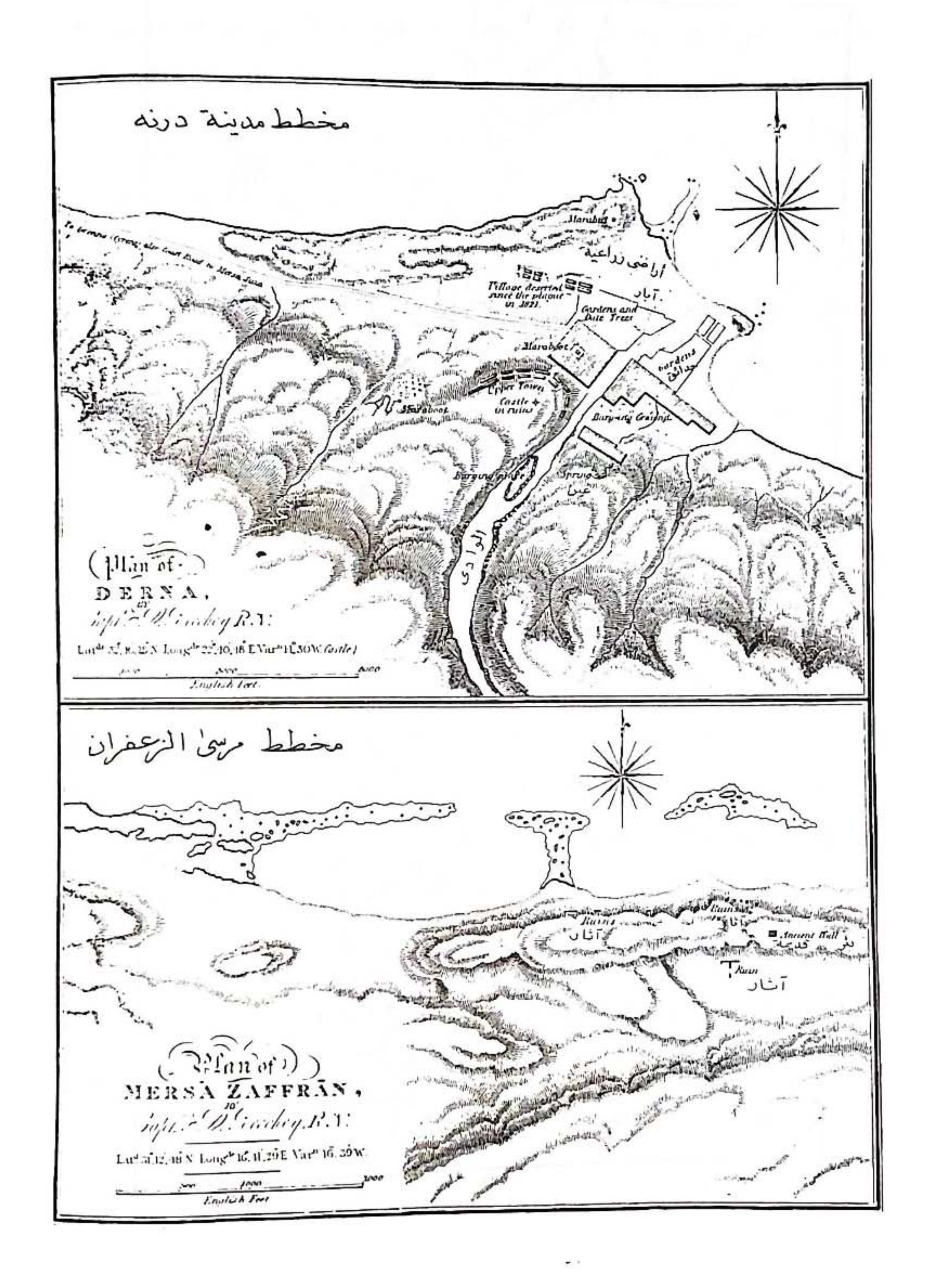
يظل احتمال دفن جثث الموتى كاملة من العادات المتبعة في سيريني وغيرها من مدن البتابوليس، مما يجعل منها حالة من الحالات النادرة التي تجمع بين عادات أهل سيريني والمصريين، ذلك أن إعادة حرق الموتى وحفظ رمادها كانت عادة متداولة بين سكان برقة وغيرها من الولايات الإغريقية، ومع ذلك لم نعثر على أية بقايا للجثث أو للرماد في أي من القبور التي نعرفها باستثناء واحد منها فقط، حيث عثرنا على رجل وقدم في حالة جيدة.

أزيلت الأشجار من منطقة سيريني، مما سهل اختيار مكان مناسب لإقامة خيامنا قرب مركزها الذي يتحتم تسوية ما به من حشائش لتسهيل تحركاتنا وإقامتنا أيضاً، ذلك أن أحداً لم يأت لزيارة المكان بعد انتهاء الموسم المطير، ومع ذلك ظلت كميات الندى تعوق تحركنا السهل قبل منتصف النهار من خلال تلك الممرات التي أخذت تتضح معالمها ومع دوام استعمالنا لها خلافاً لباقي الجهات الأخرى، التي ظلت مخلفات العشب تحجب ما بها من آثار متناثرة حتى أوشك اليأس يدب إلى قلوبنا فقد فشلنا في العثور على ما يلفت الانتباه عدا العين والمقابر.

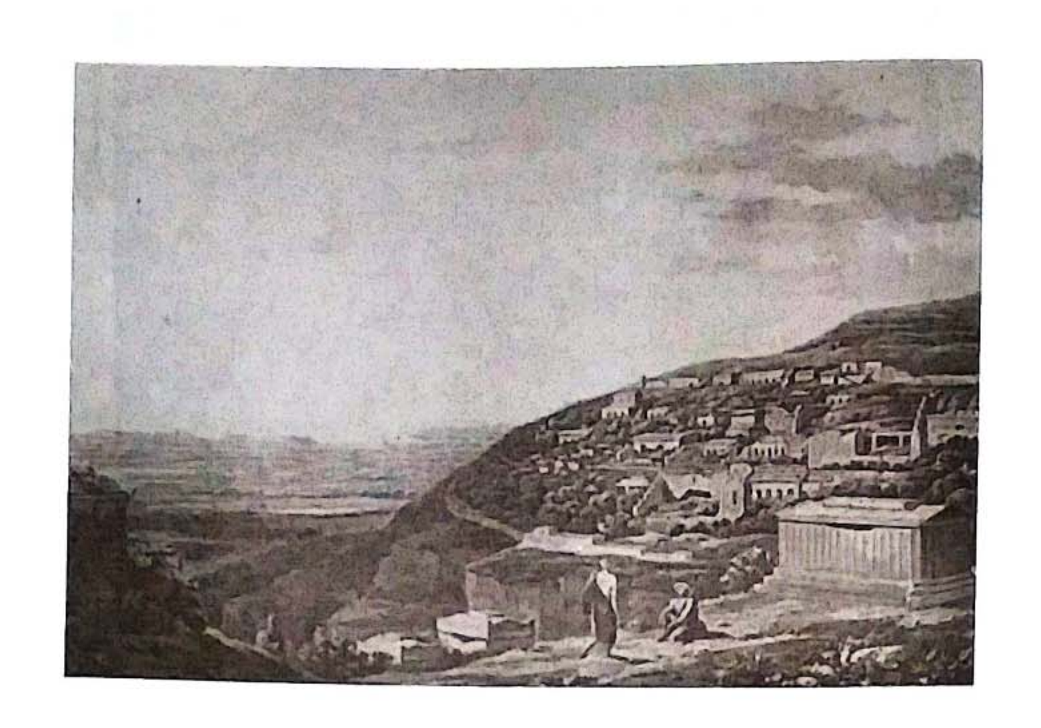
وهكذا مع استمرار تعرضنا للبلل أخذت قائمة ما يلفت انتباهنا تزداد، إذ تبين أننا نقيم غير بعيد عن المسرحين، وأشياء أخرى كثيرة ظلت تشغل بالنا وتستغرق وقتنا.



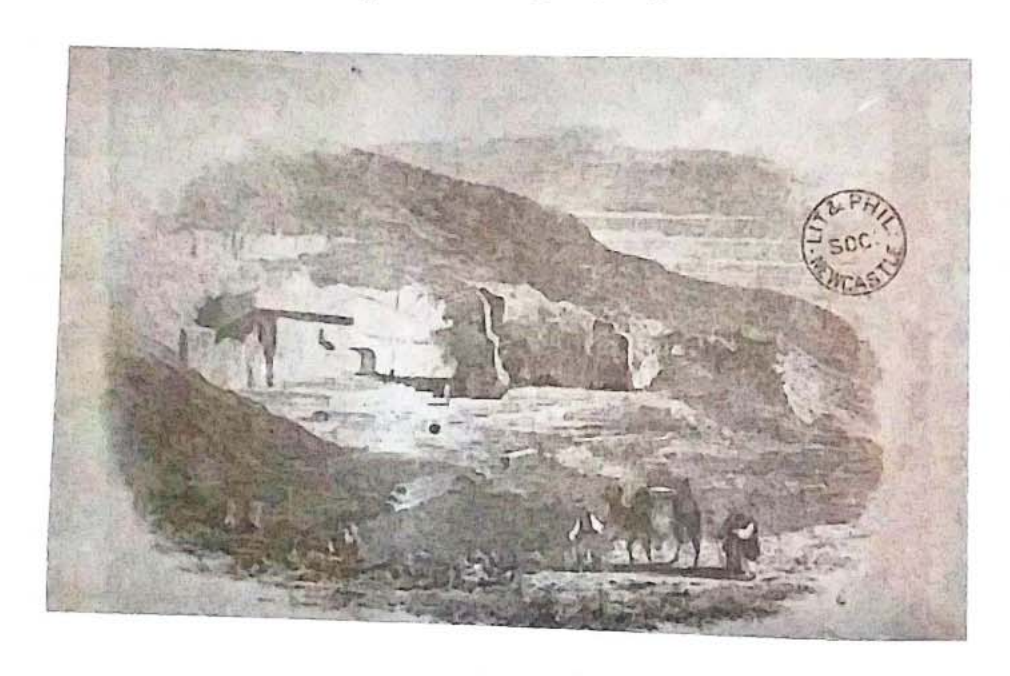
مرسى سوسة
of the PORT and RUINS of
APOLLONIA,
now called
English Feet



مخطط مدينة درنه
Marabut
أراضي زراعية
Village deserted since the plague in 1821.
آبار
Gardens and Date Trees
Marabut
Gardens
حدائق
Upper Town
Castle in ruins
Marabut
Burying Ground
Spring
عين
الوادي
Plan of DERNA,
Lat. 32°.46'.22" N. Long. 22°.40'.18" E.
English Feet.
مخطط مرسى الزعفران
Ruins
آثار
Ancient Well
آثار
Ruin
آثار
Plan of MERSA ZAFFRĀN,
Lat. 31°.12'.48" N. Long. 16°.11'.29" E. Var. 16°.39' W.
1000
2000
English Feet



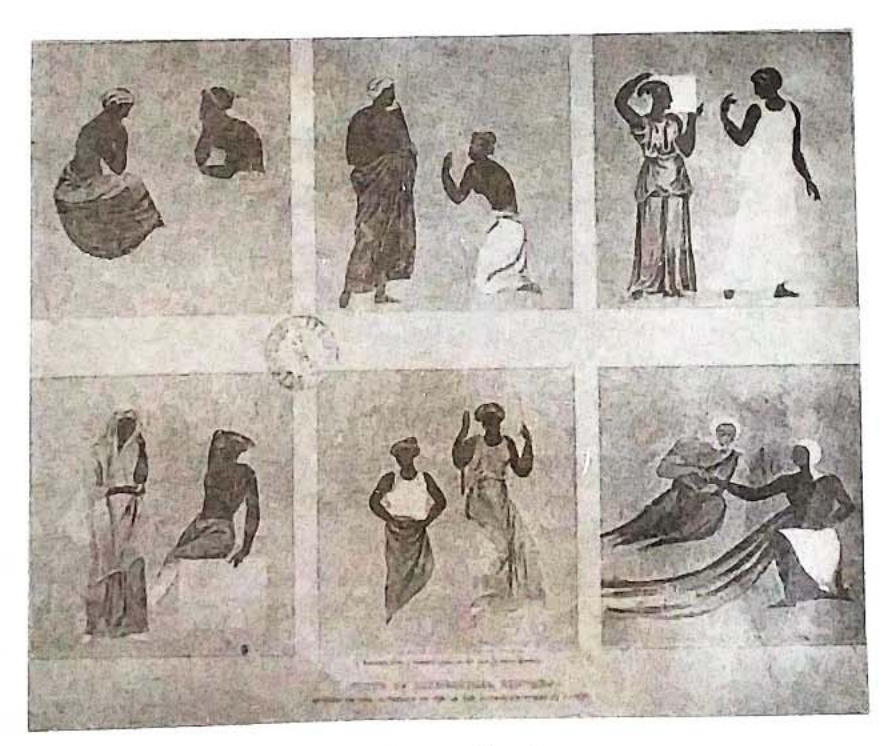
منظر لجزء من مقابر سيريني



عين أبـوللـو ـ سيريني



وادي سوسة



رسوم على أحد مقابر سيريني

الفصل السابع عشر

انقضت ثلاثة أسابيع على وجودنا في سيريني، قمنا خلالها بجانب الاستطلاع بإعداد الكثير من المخططات والرسومات لبقايا أهم ما بها من آثار حين وصلتنا من نائب القنصل في درنة أخبار مفادها وصول السفينة الملكية أدفنيشر، وبما أننا في لهفة للحديث مع الربان سميث، تركنا السيد كامبل في رعاية خيامنا وانطلقنا نحو الشرق آخذين طريق الصفاف حيث تظهر العديد من مخلفات المباني دخلنا بعدها منطقة صخرية لا تلفت الانتباه باستثناء بعض المزروعات المبعثرة وسط الشجيرات إلى أن وصلنا منتصف النهار إلى مكان يعرف تريت Tereet ظهرت به بعض مخلفات القلاع والقبور والمعابد إلى جانب بعض خيام العرب، وصلنا بعدها بساعتين إلى محطة أثرية ثانية تعرف بلملودة حيث ظهرت خيام العرب مرة أخرى لتشابه طبيعة الأرض، التي أخذت تتحول إلى أرض هضبية أكثر مما كانت عليه في السابق حتى وصلنا عند الخامسة إلى منطقة القبة التي ظهرت بها هي الأخرى بعض بقايا الأبنية، وأهم من ذلك عين ماء جارية لم نتوقف عندها طويلاً، فقد بات المساء يسرع خطاه مما اضطرنا إلى مواصلة السفر لبلوغ بيت ثامر Beit Thamer حيث أقمنا خيامنا في وقت متأخر من الليل بقرب عين جيدة المياه محاطة بجدار غير بعيد عن هضبة أقيمت فوقها قلعة قديمة.

تبين لنا من خلال تكرار وتعدد بقايا المباني على طول هذا الطريق إضافة إلى ظهور آثار عجلات العربات في بعض الأحيان، أن الطريق الذي نسلكه هو ذاته الذي كان مستعملاً بين سيريني ودارنس درنة الحالية.

واصلنا رحيلنا صباح اليوم التالي باتجاه جنوبي شرقي ثم شرقي بادئين بصعود ممر صخري رديء، استغرق أربع ساعات بين أشجار الزيتون والتنُّوب الكثيفة إلى أن بلغنا حافة الهضبة الفاصلة بيننا وبين سهل درنة التي يشكل هبوطها أشق مراحل رحلتنا، ذلك أن واجهة الجبل جرداء وخالية من أي نبات، بل وملساء كالزجاج في العديد من الأماكن، وأكثر من هذا يكون انحدارها عمودياً مما لا يجعلها آمنة كطريق، الأمر الذي جعلنا نتعجب من الوسيلة التي بلغنا بها السهل سالمين، وفي الحقيقة ليس هناك ما يدل على وجود طريق أو حتى ممر يمكن إتباعه وبالذات بالنسبة للجياد التي أنهكت فعلاً وتحملت من المشاق ما لا يمكن لغيرها تحمله رغم تعودها على السفر المضني في المناطق الرملية، أو خلال الممرات الجبلية، ومع تكرار سقوطها إلا أنها لم تصب بأذى يمنعها من مواصلة السفر بعد توقف مناسب استعداداً لجمع قوتها المنهكة وتوتر أعصابها حيث انطلقا بجوار البحر مواصلين تقدمنا نحو درنة التي بلغناها عند المساء، ومع ذلك لم نحاول ضياع الوقت، إذ اتصلنا بالربان سميث الذي كانت سفينته راسية بالميناء وعلمنا منه بتمكنه من الانتهاء من مسح خط الساحل ما بين درنة والإسكندرية.

بنيت مدينة درنة الواقعة عند مصب وادٍ عريض، فوق منطقة منخفضة ممتدة من حضيض حافة جبلية جرداء على مسافة ميل ونصف من البحر تقريباً، فوق موضع مدينة دارنس القديمة، علماً بأن المكان يخلو اليوم من أية مباني تشد الانتباه باستثناء توفر المصدر المائي (المطلب الأساسي لأية مدينة ضمن مناطق المناخ الحار) وملاءمة موقعها عند مصب الوادي الذي بنيت عليه أجزاء منها.

تمتاز بيوت درنة بجودتها عن تلك الموجودة في بنغازي، إضافة إلى أنها محاطة بحدائق تنتج الكثير من العنب، والدلاع والتين والموز، والبرتقال، وغيرها من الفواكه، إلى جانب إحاطتها بسياج من أشجار النخيل التي تضفي على المدينة طابعاً جمالياً خاصاً وتوفر الظل لراحة قاطنيها.

ينبثق مسيل مائي ممتع للنظر من الصخر أعلى المدينة ليأخذ طريقه عبر عدة شوارع موفراً المياه اللازمة لري الحدائق، وحقول الحبوب في الجهات المحيطة بها، وفي الحقيقة توفر مصادر درنة لها من المميزات ما يجعلها في مكان مرموق على غيرها من المدن الواقعة تحت سيطرة الباشا، فقد عرفنا أن سكانها يقومون بإعداد واستهلاك نوع من النبيذ الجيد رغم تحريم الإسلام لذلك.

يمتد الوادي الذي أقيمت المدينة عند مصبه لمسافة طويلة، وبعمق ظاهر في المنطقة الجبلية، حيث تظهر بعض الحدائق في المناطق التي تسمح تربتها بنمو بعض الأشجار، ذلك أن كميات هائلة من المياه تتدفق عبر المجرى نحو البحر، مما يجعل اختراق بعض أجزائه العميقة مستحيلة الاجتياز، الأمر الذي يترتب عليه في السنوات الغزيرة الأمطار فصل جزئـي المدينة عن بعضها، خلافاً لفصل الصيف حين تجف المياه ويتحول مجرى الوادي تبعاً لذلك إلى سوق تعج بالحركة.

لا يشكو الأفارقة عادةً من الصعوبات التي تسببها لهم كثرة المياه في بعض الأحيان، لذا ترانا لا نشك في قبول سكان درنة فقدان جزء من مدينتهم كل شتاء بدل منعهم من التمتع برؤية كميات هائلة من هذا السائل الحيوي، والإحساس بملكيتهم كميات منه لا يدرون ماذا يفعلون بها.

وزعت مياه العين على شوارع المدينة حسب علمنا، من قبل بـي سابق من مواليد مصر، عرف عنه إنفاق مبالغ طائلة على تجميل وتحسين أوضاعها بما في ذلك إقامة مسجد أنيق ورحب في مركزها، مع الإشارة إلى أن شوارع

المدينة في مجملها ضيقة وغير منتظمة، وتكاد تخلو من مخلفات القذارة، تلك السمة المرتبطة عادةً بالمدن العربية والذوق العربـي، ولو أن بهجة حدائقها تضفي عليها ما يجد من أثر ما يبدو بها من مساوىء وبالذات إذا تذكرنا ذلك الأثر الناجم عن كثرة أشجار العنب التي تغطي معظم الجدران والمنازل وطرقها المسقوفة، بل وكل جزء منها، مما يخلق منها مكاناً مميزاً يبعث الراحة في النفوس، رغم إمكانية تعرضها للدمار لفقدان إمكانيات الدفاع عنها بحراً وبراً.

تقع المقبرة الرئيسية على ضفة الوادي الشرقية، وتتميز بضريح فريد مقام على أربعة أقواس تضم قبراً مبنياً من الإسمنت المطلي بالجير، في الوقت الذي تظهر فيه بقايا قلعة على حافة الهضبة أقيمت منذ بعض الوقت من قبل الأمريكيين، ولو أن مدافعها قد ألقي بها جانباً وباتت القلعة ذاتها مجرد كومة من الأنقاض، ومع ذلك فقد اتخذناها مكاناً لتحديد حساباتنا الخاصة بتجديد إحداثيات المدينة الجغرافية نظراً لموقعها المميز الذي يهتدي به البحارة في هذه المنطقة.

تمثل بعض الحجارة الكبيرة وبقايا الأعمدة المستخدمة في تشييد المنازل العربية، كل ما يمكن رؤيته والعثور عليه من مخلفات مدينة درنة القديمة، إضافة إلى عدد من القبور المنحوتة في صخور الهضبة في الطرف العلوي من المدينة.

أما ما يعرف بالميناء الذي يوفر بعض الحماية للسفن الصغيرة عندما يكون اتجاه الرياح من الشمال الغربـي إلى الجنوب الغربـي ذلك أن هبوبها من الشمال أو من الشمال الشرقي يعيق بل ويمنع بقاءها خلافاً لفترة الصيف حين ترسو بعضها لنقل الحبوب والصوف والماتيكا الممثلة لأهم صادرات المنطقة.

خلّف الوباء بدرنة مآسي رهيبة كما تدل على ذلك أعداد المنازل

المهجورة حولها، ففي العام قبل المنصرم نقل إليها هذا المرض اللعين عن طريق الإسكندرية مسبباً أعداداً كبيرة من حالات الوفاة التي خفت وطأتها نتيجة لتلك الإجراءات السريعة التي قام بها البـي، من ذلك حرق ملابس جميع الذين تعرضوا للإصابة إلى جانب تنظيف وتهوية المنازل، والعمل على تنظيف جميع الشوارع من كل ما من شأنه المساهمة في نقل هذا الوباء الذي لعبت الحالة الصحية الجيدة لمعظم السكان، واستمرار تدفق المياه بجل شوارعها إلى تكاثف آثار تلك الاحتياطات الوقائية التي أدت إلى التخلص منه، رغم ما سمعناه من ممارسة الكـي بالنار التي عزيت إليها شفاء العديد من الحالات.

تمثل درنة مقر إقامة البـي محمد، الابن الأكبر لباشا طرابلس وحاكم المنطقة الممتدة ما بين الحدود المصرية ومنطقة سيدي رافع الواقعة على مسيرة قرابة يوم غربـي جرّنـة، فهذا الحاكم معروف بنشاطه وسرعة انفعاله وإعلانه العصيان عن سلطة والده واضطراره إلى الالتجاء إلى مصر ذات مرة، كما يعرف عنه تهوره وحبه للجاه والسلطة، مما مكنه من إنزال الهزيمة بالقبائل العربية التي غزت الإقليم وفرضت أتاوات على سكان المدينة المسالمين، غير أن إقدامه وتصرفاته كانا مقرونين بالعنف والفظاعة مما لا يسمح ولا يجيز لنا إعطاء مبررات لها، إذ كثيراً ما نسبت إلى هذا الأمير الفظاعة والتهور، وهما أمران لا نجد كيف نوفق بينهما وبين صفاته النبيلة التي ينسبها الكثيرون إليه، رغم سابق إدراكنا أن مثل هذه الحالات من الحالات المألوفة عند الرجل الواحد من سكان شمال إفريقيا، فمنهم القاسي والمسامح، محب المال والمسرف، المحافظ والمبذر، الكريم والبخيل، المنشرح والمخادع، المخلص والخائن، هادىء الطباع والفاسق، وباختصار كل شيء عدا الجبان والشجاع.

أقمنا في منزل السيد ريجانيني Regignani المعين من قبل القنصل في طرابلس الذي طلب إليه منذ وقت توفير الإقامة المناسبة، علماً بأن الباشا قد

خاطب ابنه طالباً منه تقديم مساعدته وحمايته لنا، ومع أن البـي محمد كان خارج المدينة لجمع الضرائب والأتاوات، إلا أننا والحق يقال لا نملك أي سبب للشكوى فيما يتعلق بما قدمناه له من طلبات، كما نؤكد على ما قدمه لنا ممثل القنصل من كريم الرعاية واللطف، رغم ضعف تأثيره بسبب معتقده الديني الذي كثيراً ما عرضه للإهانة شخصياً.

ودَّعنا بمرارة أحد رفاقنا من الضباط الشباب الذي انضم إلينا في طرابلس من بحارة السفينة المغامرة، وقام بمساعدتنا على خير وجه وبروح مرحة، كما ودعنا الربان سميث ورفاقه الذين حظينا بينهم بكل عناية وتقدير والذين ما أنهينا معاملاتنا معهم حتى استدعوا للإبحار، وهكذا ما أن أبحرت المغامرة حتى عدنا نحن إلى خيامنا.

غادرنا درنة يوم الثاني من يونيه سالكين الطريق المحاذي للشاطىء باتجاه أبوللونيا ومنها إلى سيريني مارين بالهيرة (Elhyera) عبر أرض صخرية منبسطة بها بئر عذب الماء لا يبعد عدا عدة أقدام عن البحر، إلى جانب بقايا قلعة فوق مرتفع صغير إلى أن أقمنا خيامنا للمبيت عند منطقة رأس بوجبارة الذي يكون مع درنة خليجاً كبيراً تظهر به ثلاثة نتوءات صخرية، أما حافة الهضبة التي يتراوح بعدها عن البحر ما بين ميل وميل ونصف، فتبدو مقطعة بأودية عميقة يتواصل امتدادها حتى الشاطىء، الأمر الذي يجعل اجتياز الطريق في غاية الصعوبة في كثير من الأحيان.

يعكس السفر ما بين درنة وأبوللونيا زيادة كثافة الغطاء النباتي، فمن منطقة تكاد تكون مقفرة إلى أخرى بها بعض الشجيرات الصغيرة التي تسرع الخطى نحو أشجار أكبر سرعان ما تكسو الهضبة بكاملها وتصل إلى حافة البحر.

واصلنا سيرنا في اليوم الثالث بجانب البحر ولكن في طريق مغاير للأول، إذ تمتد بعد ميلين غربـي بوجبارة حافة الهضبة لتنتهي عند مياه البحر

تقريباً بانحدار عمودي شكل اجتياز حافته لجيادنا وجمالنا مشقة بالغة.

كما لاحظنا عند حضيض الصخرة التي ترتطم بها مياه البحر نتوءاً صخرياً ممتداً في شكل شبه دائري، يمكنه توفير بعض الحماية لبعض السفن الصغيرة التي يمكن جرها على شاطئه الرملي عند الضرورة.

وصلنا بعد ثمانية أميال من رأس بوجبارة، إلى وادٍ عميق تتوفر به أكبر كمية من المياه رأيناها في إفريقيا، يعرف بوادي الأثرون، حيث تغطي حواف الوادي مجموعة كثيرة من أشجار الصنوبر، والسرو، والزيتون التي يجري بينها نهر سريع رغم ما به من جزيرات تغطيها الأشجار المزهرة، أما على جانبي المجرى فتظهر بعض الرقع الخضراء المختلفة الأحجام التي ألقينا بأنفسنا على واحدة منها تحسباً لقليل من الراحة وإشباع ظمئنا من مياه نقية باردة.

إنها بقعة تسر النظر وغاية في الجمال حتى لا ترانا نذكر أروع منها في أي مكان، وبالذات في مناخ حار حين يصبح جمال المنظر ثنائي الأثر.

دخلنا منطقة خضبة مزروعة بالحبوب يبدو أنها مأهولة، بعد صعود حافة الوادي المقابلة حيث ظهرت أيضاً بعض بقايا المباني المهدمة التي يبدو أنها مكان مدينة أثرية صغيرة يظهر موضعها تلاؤماً واتفاقاً مع مدينة الأثرون Enthon التي تحدث عنها بطليموس، الأمر الذي يؤكده تشابه الاسمين حسب ظننا.

تغير اتجاه الطريق نحو الغرب بعد ترك هذه البقعة الرائعة ليسير عند حضيض الهضبة عبر منطقة تم زرع بعض جهاتها، وغطت أشجار الصنوبر الجزء الباقي، علماً بأن الطريق ما انفكت تتعرض للقطع بواسطة العديد من الأودية التي يصعب علينا تحديد أكثرها جمالاً، وأي منها أكثر عرقلة للسير.

بلغنا رأس الهلال الذي يشكل خليجاً يمتد لمسافة ميل تقريباً حيث يمكن للسفن الكبيرة أن تجد ملاذاً للحماية من الرياح الشمالية أو الجنوبية

الشرقية ليلاً، ففي هذا المكان حدد سيلّاريوس موضع محطة بحرية ومدينة تبدو بقاياها ظاهرة حتى اليوم، مما يؤكد قيام مدينة في الزمن الغابر، في الوقت الذي يقوم فيه الميناء الحالي كدليل قاطع على وجود محطة بحرية مما يتلاءم مع الجزء الأخير من هذا الوصف. كما تظهر بقايا قلعتين على الهضبة إلى جانب بئر منحوت في الصخر غير بعيد عنها، هذا عدا العديد من بقايا القلاع الأخرى وأسوار متينة قرب محاجر قطع الصخور مما يشير إلى تأكيد الرواية السابقة، علماً بأن هذا الجزء من خط الساحل هو المكان الوحيد الذي يمكن رؤيته من شحات التي تبعد عنه بنحو أربعة عشر ميلاً.

حدد بطليموس موضع المحطة البحرية على الحافة الغربية لهذا الرأس، رغم فشلنا في العثور إلى ما يثبت ذلك، علماً بأن منطقة رأس الهلال تكون مع بوجبارة في الجنوب الشرقي خليجاً كبيراً، كما يشترك مع رأس راسات Rasat في الشمال الغربي في تكوين خليج آخر يقع مرسي سوسة في وسطه.

قمنا بشراء جدي وبعض الحبوب من عربي كان في غاية الأدب والكرم أيضاً، إذ قدم لنا هدية من الكسكسي دفعنا لمرافقنا بديلاً عنها إضافة إلى ثمن ما ابتعناه منه، إلا أن صاحبنا غض النظر عن دفع مستحقات الرجل التي لحسن الحظ تم اكتشافنا لها، حيث قمنا بمجرد بلوغنا سيريني بإرساله إلى درنة التي بعثت لنا ببديل عنه، وللعلم كان موسى مرافقنا الأول مصرياً ولا يتوانى في إظهار سمو نباهته عن جميع من حوله من أهل البلاد، ومع أنه جميل الصوت ويعشق الغناء، إلا أننا سئمنا من تكرار أغانيه التي لا تحمل في الواقع أي معنى.

كان الوقت متأخراً جداً عند بلوغ أبوللونية ولم نقابل إنساناً واحداً على الطريق الذي تقطعه العديد من الأودية التي خلفت آثاراً ظاهرة على جيادنا، فقد أُخبرنا في رأس الهلال بضرورة وجود بعض خيام العرب ومياه وفيرة، إلا

أننا لم نقابل أياً منهما رغم مشقة البحث، مما اضطرنا إلى حفر بئر في الرمل، إلا أن مياهه كانت غير مستساغة ولا يمكن شربها وضاعت بذلك مجهوداتنا سدى خاصة وأن الجو كان حاراً جداً خلال النهار، وبذلنا جهداً غير عادي في مساعدة جيادنا على تخطي واجتياز العديد من الأودية الوعرة، مما أنهك قوانا قبل بلوغ نهاية الرحلة، حين تحقق فشلنا في العثور على الخيـام وإمدادنا بالمياه بالتالي.

عدنا إلى خيامنا وقربنا لا يزيد ما بها من ماء عن لتر واحد ثم تقسيمه على ثمانية أشخاص، وخلدنا إلى النوم رغم شعورنا بالإحباط حتى طلوع شمس نهار اليوم التالي على أمل الاتجاه إلى سيريني التي نعلم أنها لا تزيد عن سفر نصف يوم، ومع ذلك ظل سوء الطالع يلازمنا ذلك أن لا الحارس ولا صاحب الجمل يعلمان شيئاً عن الطريق، ومع ذلك رأينا بحكم معرفة موقعنا أننا لن نخطىء الطريق إذا ما تم عثورنا على أي مسار يمكن أن يقودنا إلى الاتجاه المطلوب.

بدأ الرحيل، وتم الانطلاق عبر عدد من الممرات التي انتهت جميعاً عند الأشجار غير بعيد، الأمر الذي استنفد جزءاً من يومنا ولم يعد يسمح لنا بالعودة إلى رأس الهلال لصعوبة اجتياز الأودية بعد غروب الشمس، مما جعلنا نقرر صعود الهضبة ذاتها بعد فشلنا في العثور على طريق يخترقها.

إن بلوغ قمة الهضبة سيوفر لنا منظراً عاماً ويحدد لنا طريقنا بالتالي، غير أن الأمر لم يكن بهذه السهولة ذلك أن الصعود يتطلب اختراق أشجار كثيفة، والسير فوق صخرة ملساء أنهكت الجياد بعد مسيرة عدة ساعات قبل الوصول إلى القمة، التي ظهرت أمامها قمة أخرى لا تقل صعوبة في بلوغها عما عانيناه في الوصول إلى الأولى.

ظهرت في هذا الوقت الإبل التي اتخذت طريقاً مغايراً على الجانب

الآخر من الوادي، مما جعلنا نفرح لهذا الانتصار وبلوغ الطريق الصحيح رغم استحالة الوصول إليهم إلا بعد تقفي أثر طريقنا السابق، الأمر الذي كان مستحيلاً هو الآخر لعدم قدرة جيادنا على تحقيقه، مما يعني ضرورة مواصلة المشوار الذي استغرق أربع ساعات كاملة حين أمكن الوصول إلى القمة الثانية، وبات حتماً التوقف لبعض الوقت خشية على ضياع جيادنا المنهكة فعلاً التي لم تذق قطرة ماء واحدة خلال اليومين السابقين، إضافة إلى حرارة الجو وخشونة الأرض.

لم يتغير شيئاً ببلوغنا القمة الثانية هذه، فالأشجار لا زالت تحجب المنظر من أمامنا، ولا أثر لطريق يمكن إتباعها مما اضطرنا لصعود بعض الأشجار عسانا نجد ما يحدد لنا الاتجاه نحو سيريني، ولكن دون جدوى مما يعني أننا لا زلنا في شك، وكان علينا إرسال مجموعة سيراً على الأقدام، إذ لعلها تعثر على فتحة يمكن لنا استغلالها، الأمر الذي باء بالفشل هو الآخر تحسباً من ضياع البعض أو تعرض البعض الآخر للخطر، مما يلزمنا بالبقاء سوية ومواصلة السير بغض النظر عن النتيجة التي أتت صدفة وعلى بعد مسافة قليلة حيث تبين بعد مسافة أنه الطريق الصحيح الواصل بين أبوللونيا وسيريني التي ظهرت لنا بعد وقت لم يطل كثيراً، إذ سرعان ما تبين لنا أننا قرب العين التي بدت أبهى وأكثر جمالاً مما كانت عليه في السابق، كما اتضح أن إبل القافلة الأخرى لم تصل بعد خلافاً لتوقعاتنا وفي هذا ما دفعنا لإرسال اثنين من رجالنا مع قربة ماء للبحث وتقصي الحقيقة التي ظهرت بوصولهم سالمين مباشرة بعد غروب الشمس.

جاء تأخرهم نتيجة لوصول طريقهم الأولى إلى نهايتها عند حضيض الصخرة التي سمعوا عندها صوتاً يشبه الطاحونة صادراً من مكان ما يعلو رؤوسهم حيث تبين لهم بعد أن استرقوا السمع صوتاً نسائياً ينبثق من على جانب الصخرة التي تبينوا عند النظر إلى فتحة بها فتاتين جميلتين تنظران إليهما من خلال تلك الفتحة المربعة على ارتفاع يقرب من مائة وخمسين قدماً

ولا يمكن بلوغها لا من الأسفل ولا من الاتجاه المقابل ولا من أي اتجاه كان.

طلب خدمنا بعد أن هدأ روعهم، بعض الماء إلا أنهم أخبروا بعدم توفره في المنزل، في الوقت الذي سئلوا فيه عن خط سيرنا، وعما إذا كنا من ضمن أفراد المجموعة الإنجليزية المقيمة في جرنا، كان جواب رجالنا بالإيجاب ذاكرين لهما أننا فقدنا طريقنا، وهنا سألت إحدى الفتاتين عن عدد المجموعة، خمسة عشر منهم اثنان في جرنّا، أما الباقون فهنا في الغابة غير بعيد عن هذا المكان، هكذا جاء رد خدمنا الذين رأوا في ذلك وسيلة للدفاع ولإخفاء ضعف مجموعتنا، فقد رأوا في ارتفاع هذا المأوى وعزلته انطباعاً يثير القلق ولا يمكن ربطه بالأمانة والدوافع السلمية.

وهكذا ما أن أخبرت الفتاتان رجالنا بأن الطريق التي يبحثون عنها تقود فعلاً إلى المنطقة السهلية حيث يقوم والداهما بجمع محصولها حتى أسرعوا بالعودة لتقفي أثر الطريق المشار إليه، وهم في منتهى القلق بما قد يفاجئون به في الطريق من جيران مرعبين، إلا أنهم فوجئوا بإحدى الفتاتين تنادي عليهم وترمي لها بحبل جلدي طالبة منهم ربط قربتهم إلى نهايته التي سرعان ما سحبتها وتوارت بها بعض الوقت، وهم في دهشة من أمرهم حيث عادت لتلقي بها إليهم وبها أكثر مما يروي ظمأهم حيث واصلوا مسيرتهم، بعد أن قدموا للفتاتين خالص شكرهم، إلى أن حلوا بيننا بعد غروب الشمس بقليل.

أسرعنا عند بلوغ سيريني بالسؤال عن تلك المياه التي أخبرنا بتوفرها في أبوللونيا حيث تأكد لنا وجود عين بالفعل لا تبعد كثيراً عن المنطقة لوجودها داخل مجرى الوادي ولا يمكن مشاهدتها بيسر، رغم مشاهدتنا لجزء من القناة المائية القديمة في ذلك الاتجاه، وكانت لدينا بالفعل الرغبة في استطلاع الوادي بحثاً عن ذلك المصدر، إلا أن عدم وجود مياه جارية تخترق المنطقة السهلية أو في جزء الوادي القريب دعانا للاعتقاد بعدم

استمرار وجودها إضافة إلى قصر الوقت الذي يسمح لنا بالبحث عن مصدر نحن نعلم جيداً توفره في مكان لا يبعد كثيراً.

دفعنا هذا الاكتشاف الذي ضمنا عن طريقه توفير ما نحن في حاجة إليه بالإسراع في العودة والرجوع المبكر من أجل البقاء حتى نهاية شهر رمضان الذي لا يسمح فيه للمسلمين لا بالأكل ولا بالشرب طالما ظلت الشمس فوق الأفق، مما يعني أن ما نقوم به من حفريات في سيريني سيستمر ولكن ببطء أكثر مما هو عليه الآن، خاصة أن ما قمنا به في أبوللونيا لم يتجاوز مرحلة الاستطلاع العام، الأمر الذي يعني في الواقع كامل استكشافها وإعداد الخرائط اللازمة لها.

جاء لزيارتنا ونحن نستعد للرحيل الشيخ آدم مبعوثاً من البـي محمد لتقديم خدماته مما دفعنا للطلب منه مرافقتنا إلى أبوللونيا لا للحيلولة دون ما قد يحدث من تدخلات، وإنما للاستفادة من مركزه المرموق في المناطق المجاورة.

لم نقابل بعد أي فرد في مكان إقامتنا أو في الضواحي القريبة عدا فتاتي الصخرة المقيمتين بين أعشاش النسور، ذلك أن قبائل البدو لا يملكون مقراً محدداً، وإنما يتحركون حسبما تمليه عليهم الظروف، مما يوضح استحالة تحديد الفترة التي يمكننا بقاؤها دون التعرض للمضايقات بين هذه الأطلال، الأمر الذي أدى إلى انضمام هذا الشيخ إلينا حيث غادرنا يوم السابع من يونيه قاصدين أبوللونيا.

تهبط الطريق بمحاذاة حافة الصخرة التي تقوم عليها سيريني إلى حضيضها حيث يأخذ اتجاهاً شمالاً شرقياً عبر منطقة شبه مستوية وفي غاية الخصوبة مارة ببقايا قرية أثرية ما زالت بعض معابدها باقية للعيان على جانبـي الطريق، حيث يعود اتجاه الطريق إلى الشمال وسط غطاء كثيف من الأشجار فوق أرض هضبية يواصل بعدها امتداده على حافة مرتفعة بين واديين عميقين

حتى يصل إلى حافة الجبل المطلة على أبوللونيا حيث ينحدر بشكل واضح إلى أن ينتهي إلى السهل الساحلي غير بعيد عن موضع الميناء.

قام الأقدمون برصف كامل هذا الطريق عدا الجهات التي تم شقها في الصخور، حيث لا زالت آثار عجلات العربات تبدو جلية للعيان، إضافة إلى بناء قبور على جهات كثيرة من جانبيه التي يبدو أنها كانت محصنة بالعديد من القلاع لا زالت بقايا بعضها واضحة قرب حافة الهضبة القريبة من الساحل، وأكثر من هذا تمتاز المنطقة بجمالها، ففي جزئها القريب من سيريني تم قطع الأشجار وأعدت أرضها للفلاحة لخصوبتها الفائقة، تليها أرض مضرسة تغطيها الشجيرات المزهرة التي تزداد كثافتها كلما اقتربت من قمة سلسلة الهضاب، حيث تختفي وسط غابات الصنوبر التي يتواصل امتدادها حتى خط الساحل.

وفي هذا الخصوص يبدو أن المنطقة الفاصلة بين الأرض الزراعية قرب الحافة العليا، وبين منطقة الأشجار الكثيفة كانت مخصصة للمباني السكنية بما فيها الفيلات ومساكن الريف، كما تدل على ذلك بقايا مخططات بعض المباني المبعثرة التي لا يمكن تصنيفها كقبور أو كتحصينات عسكرية.

لاحظنا في طريقنا إلى أبوللونيا العديد من الحجرات المنحوتة في الصخر كتلك التي تقطنها الفتاتان على الجانب الغربي من طريقنا وعلى ارتفاع عدة مئات من الأقدام وفي أماكن تبدو مستحيلة الوصول إليها، حيث تتبين أنها مساكن فعلية لعائلات بكاملها، تهبط وتصعد إليها عن طريق الاستعانة بالحبال.

كان الوقت متأخراً ساعة بلوغنا سهل أبوللونيا، فقد كانت الطريق شبه مظلمة بسبب كثافة الأشجار التي عاقت تحديد الطريق وحدت من الرؤية، وبالذات في تلك الأجزاء الشديدة الانحدار التي يتحتم علينا قيادة خيولنا فيها حين فوجئنا بصوت ضبع كبير جاثياً فوق صخرة كبيرة قرب حافة الطريق.

حاول أقربنا إليه إطلاق نار مسدسه إلا أنه توقف من هول ذلك الصوت الذي ردت عليه أصوات شبيهة أخرى، وبكل هدوء ترك صاحبنا مكانه وأخذ يسير ببطء في اتجاه الهضبة وكأنه غير راضٍ عن وجودنا، بينما لزمنا الصمت حتى توارى عن الأنظار وتمكنا من بلوغ السهل دون ما يثير القلق.

اعتدنا سماع عواء الثعالب ولم نعد نحفل لسماعها أو الخوف منها رغم إسراعنا أثناء الليل بالذات، لتجهيز مسدساتنا التي لم نستعملها لهذا الغرض بعد، فهذه الحيوانات رغم كثرتها في كل منطقة الشمال الإفريقي، لا تمثل خطراً يذكر سوى مع الضأن أو الدواجن أو إذا كانت أعدادها كبيرة، أما خلاف ذلك فلا تسبب أضراراً بالغة، إذ يعمل العرب على وقاية حيواناتهم منها بتربية الكلاب وللحق كثيراً ما تبين لنا أننا نقف على مقربة منها قبل أن تنهض وتولي الأدبار، مع أنها تتحول إلى أشرس ما يمكن إذا هوجمت أو جرحت.

نهضنا مبكراً للتأكد من مكان العين بالسير قرب بقايا القناة القديمة التي بدت وكأنها تنتهي عند بداية الوادي إلا أن الشيخ أشار إلى نقطة على طرف الهضبة حيث تم توجيه العين إليها تحسباً لما قد تحمله مياه الأمطار الغزيرة شتاءً من أحجار إلى مجرى الوادي ذاته، الأمر الذي دفع الأقدمين إلى بناء قناة جانبية مبطنة بالإسمنت تحسباً من جرف المياه التي تصلها عبر مسيل يبعد مسافة ميل ونصف، حيث يبدأ تدفق المياه من الصخر الواقع أعلاه على هيئة شلال صغير ينحدر من ارتفاع خمسمائة قدم غير بعيد عن مغارتين تحدثنا مع بعض سكانهما حين أطلوا على الوادي بعد سماع أصواتنا، ومع إبداء رغبتنا في زيارة سكنهم، إلا أنهم لم يكترثوا لذلك، مما جعلنا نكتفي بتلك التحية، وانصرفنا للتطلع إلى الأجزاء السفلى من الوادي التي تغطيها الأشجار الكثيفة من الصنوبر والزيتون والخروب مضيفة على المنطقة منظراً آخاذاً.

تعرف مدينة أبوللونيا الواقعة أسفل خليج مفتوح بين رأس الهلال ورأس السم، على شاطىء البحر فوق مرتفع يشكل ربوة ذات امتداد طولـي عند نهاية سهل خصب يمتد شرقاً وغرباً ويبدأ من حضيض الحافة الجبلية لمسافة ميل ونصف وينتهي عند ساحل البحر، بسوسة الحمام لكثرة أسراب الحمام البري التي تتردد عليها.

يبلغ طول المدينة التي كانت محاطة بكاملها بسور منيع أقيمت عليه أبراج مربعة على ثلاثة من أضلاعه، وأخرى دائرية ذات حجم أكبر على الجهة الأخيرة قرابة ألف قدم في طولها، ويتجاوز عرضها خمسمائة قدم، وبما أن هذا السور قد أقيم على منحدر الهضبة فقد استأثر بصلابة بنيانه قبل انتظام امتداده وهندسته مع الحرص على بناء قدر كبير من الأبراج التي لا يفصلها عن بعضها أكثر من ثمانين ياردة، علماً بأن البرجين الدائريين المقامين عند الطرف الشمالي الشرقي من السور قد أقيما على أساس أكثر متانة من غيرهما، كما تدل على ذلك بقاياهما التي لا زالت صامدة أمام أثر التعرية البحرية، علماً بأن البحر قد غمر أجزاء كبيرة من الأرض في الاتجاهين الشمالي والشمالي الشرقي لاختفاء جل أطراف السور في هذيـن الاتجاهين مع الإشارة إلـى أن الطرف الشرقـي من المدينة يبدو نظراً لارتفاعـه النسبي، أنه قد تم تحصينه بالكامل، إذ عمل جدار السور مضاعفاً من حيث السمك وبارتفاع أعلى كثيراً من الجهات الأخرى، ذلك أن بعض ما بقي من أجزائه يفوق ارتفاعه ثلاثين قدماً. كل هذا إلى جانب المحاجر العميقة التي لا تزال ظاهرة في هذا الجزء وفي بعض الجهات الأخرى، وهنا لا ننسى أيضاً أن جميع بوابات المدينة من النوع الصغير الحجم، وجيدة التحصين ويبلغ عددها ستة بوابات على الجانب الجنوبـي من سور المدينة، إلى جانب واحدة أخرى على الجانب الغربـي.

يوجد محجر كبير مقابل البوابة الرئيسية على الطرف الجنوبـي، تبدو

جوانبه عمودية، إضافة إلى قلعة كبيرة متينة الجدران غير بعيـد عن بقايا القناة المائية التي كانت تزود المكان بحاجته من الماء الفرات من تلك العين التي تبعد مسافة نحو أربعة أميال.

طغت مياه البحر على جزء كبير من ساحل أبوللونيا ولهذا فمن الصعب التكهن بمدى الحماية التي كان يوفرها ميناؤها، ذلك أن الساحل مستقيم، مما يعني أن الجزيرة الصغيرة الواقعة شمال المدينة والنتوءات الصخرية إلى الجنوب الغربـي منها كانت بمثابة عامل الحماية الوحيد، الأمر الذي حدا بنا إلى التفكير في إمكانية قيام اتصال بينها في الماضي إلا أننا تبينا عمق المياه الفاصلة بين هذه الجزيرات والنتوءات الصخرية القريبة منها مما لا يسمح بتحقيق مثل هذا الاعتقاد ذلك أن عمق المياه وبهذا الشكل ما كان ليسمح ببناء مثل هذا الحاجز الذي سيتعرض للجرف نتيجة لشدة الأمواج أثناء فترات هبوب الرياح.

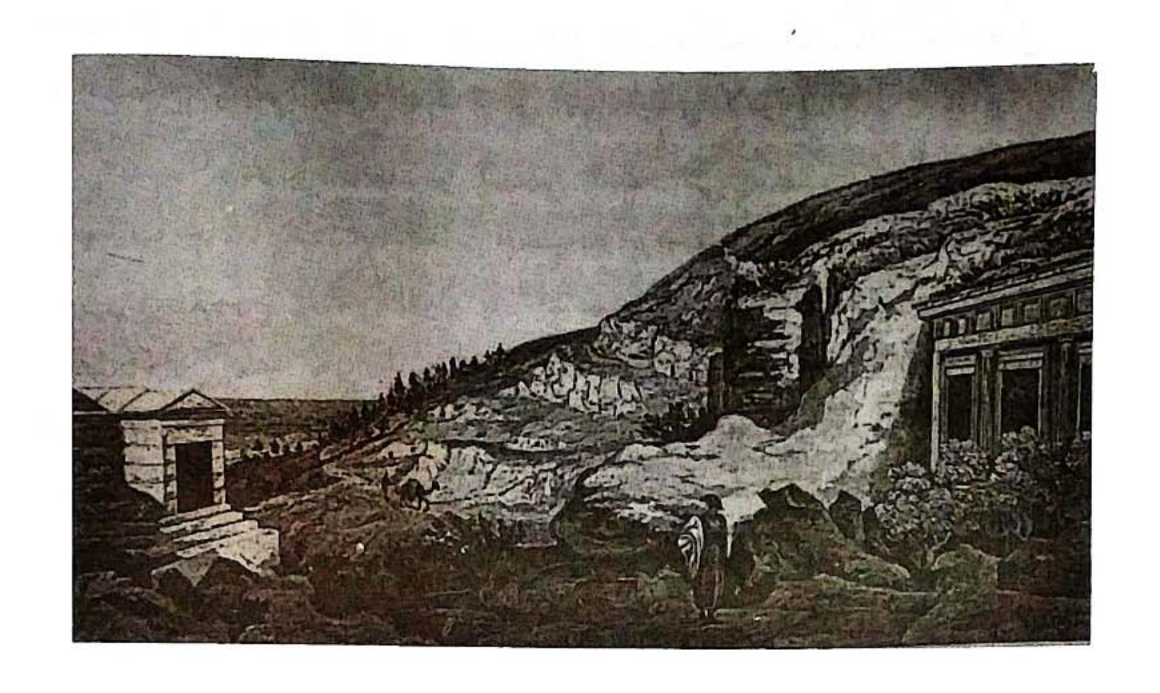
إن إقامة حاجز بهذا الشكل سيجعل من هذا الميناء مرفأ ممتازاً، وهو ما لم يتحقق أبداً مما يعني أن المراكب كانت ترسو جنوب الجزيرة مباشرة أو أنها كانت تجر إلى المصيف ذاته.

لا تزال بقايا العديد من المباني وبالذات بقايا الأرصفة مغمورة تحت مياه البحر بعمق عدة أقدام بدءاً من منطقة الشاطىء، كما أن بعض المحاجر المنحوتة في الصخر شمال شرقي المدينة تظهر مغمورة هي الأخرى، هذا بالإضافة إلى العديد جداً من القبور التي تمتلىء بمياه البحر عندما تشتد الأمواج مثلها مثل تلك الصهاريج الكبيرة شمال شرق المدينة التي كانت تزود المراكب بحاجتها من المياه العذبة التي تصلها عن طريق القناة المائية التي تزود كامل حاجة المدينة.

أشرنا في العديد من المرات إلى طغيان مياه البحر على مناطق مختلفة على طول الساحل ما بين طرابلس وبنغازي، إضافة إلى تلك المناطق التي

ذكرها بعض الكتاب بخصوص الساحلين التونسي والجزائري، وفي هذا الخصوص توفر سواحل أبوللونيا مثالاً لا غبار عليه فيما يتعلق بتقدم مياه البحر نحو الجنوب، حيث لا تزال بعض الأرض المرتفعة التي أقيمت عليها واجهة المدينة تتعرض للانهيار بسبب فعل التعرية البحرية، تماماً كما حصل مع المسرح الرئيسي الذي أزيلت بعض أجزائه بفعل الأمواج.

تضم أبوللونيا العديد من المباني العامة التي يصعب ذكرها وتحديد مخططاتها جميعاً باستثناء الكنائس المسيحية، ومخلفات مبنى هام في الجانب الغربي، وعموماً يمكن القول بأن الأعمدة الرخامية الجميلة التي كانت تضفي طابعاً خاصاً على تلك المباني الفخمة دليل قاطع على مدى ما أنفق على استيرادها وإقامتها من مناطق بعيدة كساحل البحر الأحمر حيث توجد العديد من أشكال الرخام المستعمل في هذه المدينة رغم بعد المسافة.



بعض قبور سيريني عن قرب

الفصل الثامن عشر

لا تتأتى الإشارة عن خط الساحل الواقع ما بين رأس السم ودرنة إلا بملاحظة أن اسم هذا الرأس، بغض النظر عن كيفية ظهوره، لا يعرف اليوم عند عرب المنطقة، أو على الأقل الذين تحدثنا إليهم، فقد وصف السيدان بروس والدكتور شو هذه الرأس بوقوعها في المنطقة الداخلية التي حددها الأول بما يبعد بمسافة خمسة أيام بينما زاد الثاني مسافة يوم آخر إلى الجنوب من بنغازي.

يعني اصطلاح الرأس في اللغة العربية النتوء أو الطرف البارز وهو ما تم الاتفاق عليه وتم استعماله في الخرائط الحديثة، إلا أن المكان المشار إليه من قبل السيدين المذكورين لا علاقة له بخط الساحل، إذ يبعد مسافة سفر أيام كاملة جنوبي مدينة بنغازي، وأكثر من هذا ترجم بروس الاسم خطأ إلى حنفية السم، وليس رأس السم ربما لسبب نوعية المياه المختلفة التي وجدها في مياه تلك العين الممزوجة بطعم الشب، مما لا يجعلنا قادرين على التوفيق بين اختلاف موقع العين للرأس المشار إليه، بقدر إشارتنا إلى ما يتردد من خرافة حول أصلها المتحجر، فقد نقل عن أحد الشخصيات ممن شغل وظيفة مبعوث لطرابلس، في لندن قوله أمام جمع كبير من ذوي الشأن. . . توجد مدينة كبيرة دائرية الشكل عند رأس السم بها عدد من الطرقات والمتاجر

وقصر فخم، إضافة إلى أشجار الزيتون والنخيل وأشجار عديدة أخرى تحولت كلها إلى أحجار ذات لون أزرق، إضافة إلى عدد من الرجال الذين يمارسون تجارتهم وأعمالهم الأخرى، إلى جانب أولئك الذين يحملون مختلف البضائع والخبز في أيديهم هذا بالإضافة إلى النسوة وهن يرضعن أطفالهن أو يقمن بأعمال أخرى.

كما يمكن مشاهدة رجل، عند الدخول إلى القصر، ممتد على سرير من الحجارة ورجال الحرس المسلحين واقفين عند الأبواب، في الوقت الذي لاحظ فيه بعض الناس العديد من الحيوانات مثل الكلاب والقطط والفئران وقد تحولت إلى حجر من اللون الأزرق.

يعكس هذا الوصف بدون شك الحديث عن مدينة أثرية بما فيها من تماثيل ومباني كساها الخيال العربي الخصب وجهل بعض زوارها، مظهراً يتلاءم مع طبيعة هؤلاء الناس، وعليه ربما تكون إحدى مدن البنتابوليس وبالذات سيريني لكثرة تماثيلها، وهي المدينة المقصودة بهذا الوصف لاعتقادنا بأن أغلب الذين سافروا في الأقطار الإسلامية لا بد وأنهم قد تعرضوا لسماع مثل هذه الحكايات التي لعب الجهل واستعمال الخيال مع إضفاء سمات لا أساس لها من الواقع.

أما الدكتور شو فقد جمع شجاعته، كما قال هو بذلك، وانطلق في رحلة شاقة وخطرة إلى حمام ميسكوتين Meskouteen في نوميديا بناءً على روايات بعض العرب الذين أكدوا له بما لا يدع مجالاً للريبة، وجود عدد من الخيام وأنواع مختلفة من الماشية تحولت إلى أصنام حجرية.

تأكد للمعنى بمجرد بلوغه المكان بأن ما سمعه لا يعدو ضرباً من الخرافات ولا أساس له من الصحة عدا في أفكار ومخيلة من نقلوا أخبارها، أما الأجسام المتحجرة في رأس السم فلا تستحق إضفاء أي وزن عليها كما اتضح من سابقتها.

كما تعرض النقيب سميث لخيبة أمل مماثلة، حين صدق رواية شاهد عيان ممثلاً في سلطان فزان، ما حكاه إليه حيث حزم أمره على القيام برحلة إلى قرية قرزة نورد تفاصيلها كما خطها هو بقلمه وتكرم بالسماح لنا بنقلها إلى القارىء.

أثناء قيامي بالتنقيب في لبدة الكبرى، أخبرني أحد الشيوخ الذي تعود على التردد لزيارتي، بأن فرصتي في العثور على تماثيل سليمة، تكمن في البحث عنها داخل البلاد مبدئاً بعض الملاحظات الغامضة حول هذا الموضوع الذي كنت اهتم به كثيراً وقتها.

قابلت أثناء عودتي إلى طرابلس، السيد المكنى سلطان فزان، الذي عاد لتوه من إحدى الغزوات في الداخل، إذ أخبرنـي بأه قد مر خلال الشهر المنصرم بمدينة أثرية تعرف الآن بقرزة، وبها العديد من المباني الكبيرة إلى جانب أعداد كبيرة من التماثيل تجعلها وكأنها مدينة مأهولة فعلاً.

تركت هذه الرواية إلى جانب ما سمعته عنها في مناسبات عديدة، لدي انطباعاً بأنها مدينة رأس السم الشهيرة التي تحدث عنها بضبابية كلاً من بروس وشو، وأثارت في نفسي بالتالي رغبة جامحة في تصحيح آرائهما.

انطلقت رفقة السيد وارينجتون، لديوان الباشا آملاً في الحصول على إذن بزيارة المنطقة، وهو ما لم يبخل به إذ تم فعلاً الحصول على الموافقة على هذا الطلب مع ملاحظة قوله بضرورة الذهاب إلى الجبل رفقة بعض الحراس ومن ثمة استطلاع ما يجب عمله، ذلك أن ابنه الأكبر، بـي بنغازي، كان في صراع مع والده الذي تجنب قيام الابن بالقبض واحتجازي مع القنصل العام الإنجليزي، وطلبه مقابلاً للإفراج عنا قد لا يكون بمقدور الباشا تحقيقه، كما أظهر رغبته في قيام كل من سيدي العموري صهر الباشا، وقريبه سيدي محمد بمرافقتنا، وأكثر من هذا تفضل الباشا بمنحنا تذكرة مرور تخولنا حق الحصول على ما نريده دون مقابل رغم أننا لم نقم باستعمالها، إذ نقوم دائماً

بدفع ما نطلبه أو أن ندفع هدية مقابلاً لذلك لأن القيام بخلاف هذا التصرف قد يسيء إلى زوار المنطقة مستقبلاً.

«غادرنا طرابس يوم الثامن والعشرين من شهر فبراير عام 1817 م، قبل طلوع الشمس، رفقة السيدين المشار إليهما، وحماية ستة وعشرين من الفرسان، وبعض الإبل حيث اتجهنا بعد مسيرة بعض الوقت في منطقة الساحل الخصبة صوب الجنوب باتجاه الهضاب، حيث قام مرافقونا قبل نهاية السهل، بتحيتنا بإطلاق بنادقهم من على ظهور جيادهم المسرعة، وبمواصلة سيرنا وصعودنا الهضاب القريبة، تبين أن المنطقة الواقعة وراء قلعة صرارة Srara تبدو مهملة كما هو حال ملابس ومعدات سكانها التي تبدو أقل تنوعاً وأهمية عما هو عليه الحال في المنطقة السهلية.

«مررنا يوم الثاني من شهر مارس بقلعة قديمة تدعى قصور قصب في سهل فروسا Frossa التي عثر فيها منذ نحو ثلاث سنوات على كنز من قطع ذهبية وأخرى فضية، فشلت رغم محاولاتي في العثور على أي منها، إذ أخذت جميعاً إلى منطقة طرابلس، حيث أعيد صهرها وتلاشى كل خبر عنها.
يمر الطريق بعد هذا السهل فوق منطقة قاحلة حيث وصلنا في منتصف اليوم التالي إلى وادي بني وليد حيث كان أعيان ووجهاء المنطقة في استقبالنا ومرافقتنا حتى وادي زمزم، ومع أن المسافة قصيرة ولا تتعدى خمسة أميال إلا أن قطعها كان شاقاً بحكم طبيعة أرضها الصخرية التي تشبه مخلفات اللاقا فوق منطقة بركانية تعلو سطحاً من الحجر الرملي من الزمن الجيولوجي الثالث، وعليه فإن مظهر كآبة هذه التلال يجعل منظر وادي بني وليد بما فيه من بيوت وحقول، وأشجار نخيل منظراً فريداً، وبالذات مع تلك الضوضاء التي صاحبت وصولنا إليه.

«تتكون بني وليد من عدة قرى بنيت بيوتها من الوحل على حافتي وادٍ خصب يبلغ طوله عدة أميال تحيط به حواف صخرية يصعب اختراقها. أما

وسط الوادي فقد تحول إلى مجموعة من حدائق الزيتون، التي تزرع بها أيضاً بعض الحبوب والخضراوات، ومع أن الوادي تغمره المياه خلال فصل الشتاء، إلا أن ممارسة عملية الري تعتمد على مياه آبار عميقة جداً تتطلب جهداً خاصاً خلال فصل الصيف الطويل.

تقطن الوادي قبيلة ورفلة التي يبلغ عدد سكانها نحو ألفي نسمة يعيشون في الدرجة الأولى على ممارسة العمل الزراعي ورعي الماشية ذلك أن تعدين النترات لا تسهم في اقتصادهم بما يعتد به، ومهما كان الأمر، يصنَّف هؤلاء القوم بأنهم صعاب الشكيمة وشجعان ومحبُّون للعمل ولو أنهم لا يتصفون بالأمانة إضافة إلى قسوة قلوبهم.

أعدت القلعة لاستقبالنا كما وفرت كميات من علف الحيوانات، وبالمناسبة فهذه القلعة عبارة عن مبنى كبير غير متناسق البنيان أقيمت قرب أجمل منطقة في الوادي، ووفرت لها وسائل الحراسة من جميع الجهات، على اعتباره الحصن الأول، إذ قسمت إلى عدة أقسام، وبها أسطبل جيد، ومساحة واسعة، إلا أن المياه لا تتوفر بها بيسر، ومع ذلك فإن أسوارها لم تعد بطريقة مثلى وغير قادرة على حمل المدافع.

«بمقابلتي لعدد من الناس الذين عادوا لتوهم من المنطقة التي أنوي بلوغها، أعدت عليهم تساؤلاتي فيما يتعلق بالتماثيل الموجودة هناك حيث ردوا جميعاً بالإيجاب، إذ ستكون هناك صور لرجال، ونساء وأطفال وخيل ونعام أيضاً في حالة ممتازة، وبما أن الانطباع لدى هؤلاء القوم بأن هذه التماثيل ما هي إلا صور حقيقية نالتها لعنة الله، كان تساؤلهم ينصب حول أهليتي في نقل أي منها بعد تعرضها لغضب القوة الإلٰهية التي حولتها إلى هيئة أصنام عقاباً لها على ما ارتكبته من آثام.

انطلقنا بعد أن انضم إلينا يوم السادس ثلاثة من مشائخ المنطقة، وخمسة وعشرون من الجنود الانكشاريين، ومثلهم من الإبل المحملة بالماء

والشعير والخيام فوق منطقة هضبية جرداء باتجاه الجنوب حيث بلغنا خنافيس في اليوم التالي.

وجدنا قافلة قادمة من فزان عند البئر اشترينا منها بعض تمور واحة سوكنة، إضافة إلى بعض الجراد المجفف، وللحق تعرضنا لمعاناة شديدة من قبل أسراب القراد التي أقلقت راحتنا وجيادنا أيضاً ودفعت بنا لمواصلة السير عبر وادي تازا الذي يبدو قابلاً للتطوير رغم الإهمال الذي يبدو عليه، إذ لاحظت أشجار الطلح، إلى جانب أنواع عديدة أخرى، التي يجني منها نوع من الصمغ الجيد، كما وصلنا عند المساء إلى بئر مياهها غير مستساغة رغم عمقها الشديد ونالت مع ذلك مباركة أحد المرابطية التي دعاها ببئر زمزم الذي بات اسماً للوادي الواقعة فيه أيضاً وينتهي عند خليج سرت إلى الجنوب قليلاً من تاورغاء.

تحتم علينا من أجل نصب خيامنا حرق مخلفات النباتات الموجودة في محاولة للخلاص من أنواع العنكبوت الخطرة التي أفلحنا في تجنب عدة لسعات منها بقتلها لمجرد رؤيتها، وبما أن قرزة مصدر تلك القصص الذائعة لا تبعد عن خيامنا سوى عدة أميال، لم أتمكن من النوم شوقاً للوصول إليها، الأمر الذي دفعني للنهوض مبكراً والانطلاق نحوها عبر عدد من التلال حين وقع نظري على بعض آثارها.

تبينت بسرعة مدى خطأ بعض الكتاب بحديثهم عن ينابيع ذات مياه باردة وكثبان رملية متحركة في منطقة جبلية جرداء، لا تظهر بها سوى كتل من الإحجار الرملية والجيرية العارية تقطعها فروع وادي زمزم، ومع أنني لم أسمح لخيالي بالانطلاق إلى مستوى تلك القصص المشوقة التي سمعتها، إلا أنني شعرت بخيبة أمل لمجرد رؤية بعض المنازل السيئة التصميم والصنعة الحديثة نسبياً على حافة ربوة صخرية، وبعض القبور غير بعيد وراء مجرى الوادي التي ظهر من فحصها أنها مختلطة الطابع وينقصها الذوق، وبالذات فيما

يخص ما ظهر عليها من رسوم لبعض المحاربين والصيادين، والإبل، والخيل، وبقية الحيوانات الأخرى، فرسوم بني الإنسان والحيوانات أيضاً قد نحتت بطريقة مخجلة وتترك انطباعاً سيئاً لدى الناظر.

يوجد عبر مجرى الوادي المهمل باتجاه الجنوب الشرقي أعداد من قطعان الظباء، وبعض النعام غير بعيد عن أربعة قبور أخرى لا تختلف في شيء عن الأولى عدا كونها مزيجاً من فن العمارة المصري والإفريقي، إذ يبدو أنها أقيمت في هذا المكان بالذات لإضفاء هذه السمة على كامل المنطقة، وبتدقيق فحصها لم أجد عدا ثلاث نقوش لا أهمية لها خاصة وأنها مفتوحة ربما للبحث عن كنز ما.

أحضر لي بدوي يعيش في المنطقة ميدالية نحاسية كبيرة، وجدها بين هذه الأطلال، ومع أن القبور قد ظلت بدون تشويه يذكر بسبب العوامل الجوية، إلا أنها لا تحمل في الواقع ما يثير الانتباه وتحولها بحكم قربها من الطريق إلى فزان حيث يجد المسافرون فرصة للراحة، إلى منطقة زاهية الألوان، ومحلاً للترحم على أرواح الذين حلت بهم اللعنة من المسلمين وتحولوا إلى أصنام بالتالي.

تقع قرزة قرب بعض التلال الجرداء المعروفة باسم Garatilia ويتضح من نقص مصدر الماء بها ومظهرها الكالح وسمتها التي لا تثير مشاعر الراحة والاطمئنان أنها ما كانت لتمثل شيئاً عدا كونها نقطة أو محطة عسكرية كغيرها من النقاط المحيطة بمنطقة سرت.

ومع أن الوادي كان مستغلاً ومزروعاً بدرجة أكبر مما هي عليه حاله اليوم كما تدل على ذلك الأشجار العديدة التي يمكن ملاحظة بعضها كالطلح والسرو وغيرها، إلا أنني فشلت في العثور على مخلفات لأي طرق أو قنوات مائية لهذه المدينة التي تمكنت من تحديد موقعها الجغرافي عند خط عرض 16َ 07َ 31ْ وخط طول 50َ 40َ 14ْ درجة.

كـان بودي مواصلة رحلتي إلى تاورغاء ومصراتة ومنها إلى لبدة، إلا أن انتماء بعض مرافقينا وجزء من إبل القافلة إلى بنـي وليد اضطرنا إلى العودة عن طريقها حيث تبين انتظار العديد من سكانها لعودتنا، ومعرفة آرائنا عن مدينة قرزة المتحجرة التي يبدو أنها أصابتهم بالكدر، خاصة بعد معرفتهم لجلبنا بعض العينات من حجارتها، وتبينهم بالتالي بديهية إمكانية نقلها وتحريكها من أماكنها.

هكذا جاءت نتيجة النقيب سميث إلى المدينة المتحجرة وخيبة أمله من تلك الأوصاف التي سمعها من الأتراك ومن العرب أيضاً الذين كثيراً ما يضفون أوصافاً من خيالهم لما يريدون وصفه والحديث عنه. أما فيما يخص رأس السم عند كل من بروس وشو، فإنه من الصعب جداً تحديد المكان الذي أشارا إليه، إذ سبقت الإشارة إلى أن هذه التسمية لا محل لها اليوم عند سكان المنطقة الذين تحدثنا إليهم، مما يدعونا إلى الاعتقاد بأن واحدة من مدن التبتابوليس هي المدينة المعنية في تلك الروايات المحلية المبالغ فيها ونقلها عنهم بعض الكتاب رغم أن المسافة المقدرة بمدة خمسة أو ستة أيام جنوبـي بنغازي لا يمكن أن تتطابق مع أي من مواقع هذه المدن الخمسة، ومع ذلك يظل هذا الافتراض هو الأقرب رغم تداول قصة طابعها الخيال الجانح.

نعود الآن لمواصلة أخبار رحلتنا لننهي ما بدأنا تدوينه عن مدينة أبوللونيا.

إن الحديث عن مخطط المدينة يؤكد حقيقة أن الجزء الأكبر من سورها لا يزال قائماً، وأننا لم نر مثالاً جيداً لتحصينات قديمة كما هو الحال هنا، ذلك أن هذا السور قد تم تحصينه بإقامة أبراج مربعة بعد كل ثمانين ياردة تقريباً، وأن بواباتها قد حددت مواضعها في تلاقي زوايا السور مع القلاع مما يجعلها أقل عرضة للاستعمال في حالة الحصار، علماً بأن البرج أو القلعة

الواقعة في الطرف الجنوبي الغربي قد أقيمت كما هو الحال مع البرجين الواقعين في الطرف الشمالي الغربي، على هيئة دائرية، إضافة إلى أن البرجين الآخرين قد صمما ليكونا أكبر حجماً وأشد صلابة خوفاً من أثر التعرية البحرية.

أما على الجانب المقابل فلم يعد ثمة وجود يذكر سوى لقواعد إحدى القلاع وجزء من السور القديم قرب الشاطىء، الأمر الذي يعطي فكرة عن حدود هذه المدينة في هذا الاتجاه.

أما على الطرف الجنوبي خارج سور المدينة فتوجد بعض المباني الكبيرة وبالذات تلك التي تبدو كقلعة ذات أجنحة لإقامة الجند، غير بعيد عن أحد بوابات المدينة الرئيسية، ومع أننا لا نجزم بإمكانية تحديد تاريخ معين لإنشاء جل المباني، إلا أننا نؤكد أنها رومانية الأصل، وأن الكنائس إنما تعود لزمن الامبراطور جوستنيان رغم عدم ورود ذكر لها ضمن قائمة المعابد التي أمامها.

توجد في المحاجر المحيطة بالسور التي أريد لها أداء وظيفة الخنادق الدفاعية، العديد من القبور المنحوتة التي نالها التآكل والعبث. كما توجد على الجزيرتين المقابلتين للمدينة بعض الحفريات وبقايا مبانٍ، وبما أننا لا نملك مركباً معنا، وليس بالإمكان العثور على أي منها في المنطقة، إذ لم تستغل أبوللونيا في التاريخ الحديث كميناء، لم نتمكن من تحديد طبيعة ما أشرنا إليه، علماً بأن هاتين الجزيرتين، رغم ضآلة حجمهما، إلا أنهما يوفران حماية كبيرة من آثار العواصف الشمالية، رغم صغر المنطقة المحمية التي يوفرانها، التي نعتقد بإمكانيتها بتوفير ملجأ لسفن الأقدمين.

أنهينا بحلول يوم عشرين خطة عملنا في أبوللونيا رغم الصعوبات العديدة، ومع ذلك لا زلنا بحاجة لإقامة أطول لاستجلاء بعض الأمور وبالذات قرب المسرح الكبير، حيث نتوقع العثور على العديد من التماثيل،

أما خارج السور وبالذات على الجهتين الغربية والجنوبية، فإن التنقيب سيكون بكل تأكيد عملية شيقة، وأكثر من هذا فإن الواقع يؤكد أن جميع المناطق العسكرية في منطقة البنتابوليس ستكون مثار دهشة المنقبين ورجال الآثار، فعلى الطريق ما بين هذه المدينة ودرنة توجد العديد من القرى الأثرية، والمحطات العسكرية التي كان بودنا الوقوف عندها، أما على الطريق ما بين أبوللونيا وسيريني فهناك الكثير جداً مما يشغل البال ويدعو إلى البحث وتقصي الأمور.

إن نقل أشياء ثقيلة من ميناء أبوللونيا يبدو أمراً في غاية الصعوبة لضحالة مياه مرفئها وعليه، فإن الإقدام على عملية كهذه إنما يأتي عن طريق نقلها براً إلى بنغازي أو درنة، ولو أن الأمر سيصبح غير عملي بسبب العديد من مجاري الأودية العميقة وخطورة الممرات الجبلية التي تعترض الطريق.

ترك بعدنا عن سيريني مدة أسبوعين تحولات هامة فيما يتعلق بالمنظر الخارجي، فقد بدت التلال عند عودتنا تعج بالمواطنين وما لديهم من إبل وحيوانات أخرى نتيجة لندرة وشح مصادر المياه في المناطق الداخلية التي تدفع بالسكان البدو إلى النزوح إلى المنطقة الجبلية وحول مدينة سيريني، وبالذات حيث توفر العيون مصدراً دائماً للحياة إضافة إلى حصاد ما لديهم من حبوب، وأكثر من هذا اختفاء تلك الحشائش الخضراء التي كانت تشكل عقبة في إجتيازها، بعد أن أتت عليها الماشية، الأمر الذي طبع المنطقة بمظهر مغاير نتيجة لحرارة الشمس اللافحة، التي عملت هي الأخرى على تحويل ذلك المنظر الأخضر الزاهي إلى لون بني باهت، وارتفع الزئبق مشيراً إلى سبع وتسعين درجة فهرنهايت، الأمر الذي لم نعهده من قبل في هذه المدينة خاصة وأن درجة الرطوبة كانت عند حدود خمس وخمسين درجة فقط، الأمر الذي جعلنا نشعر بجفاف الجو وما يسببه لنا من ضيق.

وبالمناسبة تبين أن درجة الحرارة المشار إليها، كانت كما هي في نفس

اليوم في جزيرة مالطا نتيجة لهبوب رياح جنوبية حارة، ومع ذلك يمكن ملاحظة أن درجة الحرارة العالية في شمال إفريقيا لا تسبب تلك الآثار المكروهة مثلما هو الحال في النطاقات المدارية الأخرى، وأنها لا تشكل ظاهرة غير صحية كما يحدث في النطاقات المناخية الرطبة ومع ذلك فإن أثر الشمس، وبالذات عند غير المعتادين عليها قد يؤدي إلى ما يعرف بضربة الشمس مما يلزمهم بتوفير أغطية لرؤوسهم.

لقد تبين لنا إمكانية التحرك كامل اليوم لإنجاز أعمالنا دون الإحساس سوى بما يمكن التعبير عنه بالضيق لأن المصاعب الحقيقية إنما تتمثل في انعكاس أشعة الشمس على الأعين والشفاه من الحجارة البيضاء التي نتحرك حولها والتي يمكن أن تتسبب في أضرار فعلية للنظر.

لم نشاهد سوى عدد قليل جداً من الثعابين والعقارب في كامل منطقة البنتابوليس بما في ذلك المناطق الأثرية منها، عكس الحال مع الحراريش التي تكثر في الأراضي المزروعة وفي مدينة سيريني بالذات.

تمكنا بعد العودة إلى هذه المدينة التي بات بإمكاننا الانتهاء من مخططاتها الأرضية بيسر بعد أن أتت الحيوانات على جل الحشائش وبالذات قرب المسرحين القريبين من خيامنا، فقد تبين لنا وجود العديد من التماثيل التي لا تزال في حالة ممتازة ومنها رأس أمون وتمثال كليوباترا وآخر لبريتشي، هذا بالإضافة إلى وجود تماثيل عديدة أخرى تمثل قمة الفن الإغريقي والروماني، غير ناسين حقيقة أن سيريني رغم انضوائها تحت الحكم الروماني، إلا أنها ظلت مستوطنة بونية في الواقع، الأمر الذي يعكس روعة وجمال فن النحت والزخرفة اليونانية.

يمثل طريق العودة من أهم المسرحين إلى المدينة، ضرورة أخذ تلك الطريق الذي يسير بمحاذاة حافة الهضبة الوعرة حيث تم حفظ التربة من الانجراف ببناء أسوار متينة، حيث أقيمت على الواجهة الشمالية من الهضبة

أسفل المدينة مجموعات كبيرة من القبور تأخذ هي الأخرى في الهبوط حتى تبلغ مستوى السهل عند حضيض الحافة.

أما قمة الهضبة فيشغلها جزء من المدينة حيث تبدو مجاري خمسة أودية كبيرة تغطيها أشجار الصنوبر في طريقها نحو الانحدار شمالاً باتجاه المنطقة السهلية[1]، حيث يمكن الحصول على المياه الجيدة من العديد من العيون الجارية.

أما الملعب الرياضي فيقوم في الجانب الشرقي قرب المعبد الكبير وغير بعيد عن سور المدينة، ومع أن أغلب أجزاء هذا الميدان تحتاج إلى تنقيب للكشف عن ملامحه العامة حيث يقدر طوله بما يقرب سبعمائة قدم في حين يبلغ عرضه نحو مائتي قدم جزء منها منحوت في الصخر القريب غير بعيد عن سور المدينة الجنوبي، علماً بأن قلاعها المربعة قد أقيمت على أجزاء مختلفة من سور المدينة، وأن عددها يزداد كلما كانت هناك مناطق منخفضة يسير معها السور.

زودت سيريني بعدد من الصهاريج داخل السور حفاظاً على توفر حاجتها من المياه بملئها بمياه العين عن طريق قناة أقيمت خصيصاً لهذا الغرض، فهذه الخزانات الثلاث الكبرى المقامة في الجزء الغربي من المدينة صممت على شكل زاوية قائمة بحيث تم نحت بعض أطرافها في صخور الهضبة، وبنيت الأجزاء الأخرى بحجارة كبيرة منتظمة الحواف وبمنتهى الدقة والعناية، ومع أن الدكتور ديلا إتشيلا ذكر بأن النقوش بواقع حرف واحد على كل حجرة ليست حروفاً يونانية، وأنها تنتمي إلى لغة غير معروفة، إلا أن الواقع يؤكد فشل المعنى، ربما لنقص في الإضاءة ووجود بعض المياه بها قد حالت بين تأكيد أن كل حجرة منها تحمل رمزاً محدداً يشبه بعضها الحروف

(1) للحصول على مزيد من البيانات حول أهم المخلفات الأثرية في هذه المدينة، يمكن الرجوع إلى (ص ص 528 ـ 556) من أصل الكتاب.

الإغريقية، وأنها لا تزيد عن كونها رموزاً لما يمكن تسميته لغة المحاجر، وأنها إغريقية كدلالة واضحة عن أصل بناء هذه الخزانات التي تمثل مورداً احتياطياً قد يلجأ إليه عند الضرورة.

وهنا يمكننا أن نؤكد أن الجنوب الشرقي من المدينة هو بؤرة الحي السكني لهذه المدينة، التي توجد خارج شوارعها بعض المباني العامة الهامة وسط حقول القمح حيث يقوم أحد الأعراب بحصادها مبدياً في نفس الوقت استغرابه من فحص بعض المخلفات المتناثرة دون فائدة تذكر.

يحمل الرجل بندقية وعلى استعداد دائم لاستعمالها تحسباً لما قد يواجهه، فهذا الرجل البدوي لا يختلف عن نظيره الألباني أو ذلك القاطن في جزيرة كورسيكا اللذين لا يتحركان بدون سلاحهما، حيث تظل عمليات الثأر مدعاة لحمل السلاح للدفاع عن النفس في أي وقت، وفي أي مكان حيث يتحتم عليه تحمل أعباء أخطائه وأخطاء أفراد أسرته.

استخدمنا اصطلاح بدوي رغم أن المعني كان يقوم بجني القمح، إلا أنه في ذات الوقت عربـي متجول، ولا يزور المكان إلا موسمياً وبالذات خلال أشهر الصيف، فهذه المدينة لا يتردد عليها أحد ثلاثة أرباع العام إلا الثعالب والذئاب، ذلك أن البدو الذين يأتون إنما ينصبون خيامهم في الأراضي الواطئة جنوبـي المدينة.

يوفر موقع سيريني لولا ارتفاعه وما يختص به من حياة عشبية ومصدر مائي متجدد طوال العام مما يجعل منها قبلة لجميع القبائل الرحل طوال الوقت، غير أن طبيعة العربـي رغم ما يتصف به من نشاط جعلت منه واحداً من أكسل أجناس البشر الذين جمعتنا بهم علاقة، فهو مستعد للتنازل عن أي ميزة ظاهرة مقابل بذل أي جهد للحصول عليها وصيانتها مما يجعله على اقتناع بأن سيريني رغم ما تملكه من مميزات فإنها لا تساوي عناء الصعود والهبوط لما حولها من هضاب مقابل سقي حيواناته في أماكن غير مناسبة له شخصياً.

إن جلّ بقايا آثار هذه المدينة التي كانت فعلاً جميلة في يوم من الأيام لا يعدو أن يكون أكواماً من الخراب، وإن قبورها لا زالت تمثل مثالاً صادقاً للفن الإغريقي الأصيل، كما أن إعطاء مخططات لنصف عدد المتوفر منها يحتاج لقضاء سنوات كاملة لإنجازه لاعتقادنا الراسخ بأن أي باحث أثري يملك روح البحث الأصيل وله ولع بالنواحي الجمالية، فإنه سيجد نفسه معسكراً سنوات عديدة في هذه المنطقة.

وللحق فإننا لم نقض وقتاً أمتع من جمع تفاصيل ما أمكننا جمعه من هذه القبور، كما لن ننسى مطلقاً نزعات السرور والغبطة التي مررنا بها عند بدء تعاملنا مع هذه الأمثلة الرائعة من الفن الإغريقي.

إن العيش في هذه المدينة زمن ازدهارها كان بالتأكيد متعة لا حدود لها، وعليه فإننا نشعر بالخجل من تلك المرات العديدة التي أحسسنا فيها بالغيرة والحسد أيضاً من أولئك الذين تمكنوا من الحفاظ على مبانيها في حالة من الكمال، واستطاعوا المحافظة على هذه البقع الخلابة التي كانوا يقفون عليها.

إننا لن نترك هذه المدينة دون الإشارة إلى تلك القناة التي تكون العين الرئيسية التي حالت ظروفنا عن محاولة اكتشافها حتى نهايتها إلا في اليوم السابق لمغادرتنا باتجاه بنغازي.

تتكون هذه القناة في الصخر الذي يزود المجرى بالماء المتدفق خلال ممر غير منتظم لمسافة ربع ميل جغرافية، وسقف ملساء في الجهات التي لم يتمكن تيار الماء رغم قوته من إزالتها في حين تغطي قاع المجرى قطع من الصخور المغطاة بطبقة من الطين تجمع حولها وحول حواف المجرى ذاته الذي يبلغ متوسط ارتفاعه نحو خمسة أقدام، وهو ارتفاع سبب لنا بعض المضايقات، واضطرنا إلى الزحف، الأمر الذي حال دون قيامنا بفحص دقيق في ظل استحالة توفر كميات مناسبة من الضوء والتمكن من الوقوف إضافة

إلى برودة الماء، علماً بأن هناك بعض الجهات القليلة يمكن للإنسان الوقوف عندها وتنفس الصعداء من أثر الزحف على الركبتين، علماً بأن متوسط عرض هذه القناة إنما يتراوح ما بين ثلاثة إلى أربعة أقدام خلافاً لتلك الجهات التي يمكن الوقوف عندها، إذ يبلغ عرض معظمها قرابة ستة أقدام مع تأكيد حقيقة أن معظم الجدران تعلوها طبقة من الطين الذي لولاه لكان تتبع هذا المجرى أمراً شاقاً.

تحتم علينا نظراً لعدم انتظام خط سير المجرى أخذ القياسات مرات عديدة، مما يلزمنا التوقت لأخذ القياس بين كل مرة وأخرى، حتى تمكننا في نهاية المطاف من الحصول على قياس قريب جداً من الواقع.

قبل نهاية القناة بنحو أربعين قدماً، أو قرابة ألف وثلاثمائة قدم من بدايتها عند حضيض الصخرة، تضيق بشكل ملحوظ يمنع تقدم أي إنسان إلا إذا زحف على يديه وركبتيه حتى يصل إلى منطقة أو فتحة لا يزيد قطرها على قدم واحد، حيث يصبح استمرار الزحف أمراً مستحيلاً.

لاحظنا بعد بدء رحلة استطلاعنا داخل مجرى هذه القناة أن الطين الذي تجرفه المياه معها قد التصق بعضه على جوانب القناة التي تحول ملمس بعض جوانبها إلى ملمس ناعم باستعمال راحة اليد حيث تراءى لنا ظهور ما يشبه الحروف الهجائية لجهلنا بقيام أي أوروبي قبل الدكتور ديلا إتشيلا بزيارة هذا الممر خاصة، وأن الأخير قد أقر أنه لم يخط سوى بعض خطوات داخل هذه القناة.

زادت حيرتنا وذهب بنا الاعتقاد إلى أن يكون بعض رفاقنا قد سبقونا إلى ولوج هذه العين المقدسة، أو أن يكون أحد الأعراب قد دفعته غزيرة حب الاستطلاع، وأراد تحدي أبراج الجنون التي تقطن داخلها، إذ لم يدر بأذهاننا مطلقاً أن تلك الحروف عميقة الجذور في التاريخ هي الأخرى، الأمر الذي تحقق لدينا بعد أن تم فحصها بدقة وعناية أنها نقوش إغريقية وأن

بعضها موجودة على معظم الجدران منذ ما يزيد على خمسة عشر قرناً، علماً بأن أحداً من سكان المنطقة لن يجرأ مطلقاً لدخول هذه القناة لاعتقادهم الجازم بأنها محط رحال للأرواح الشريرة.

إن استمرار المحافظة على بقاء هذه النقوش يمكن إرجاعه إلى رطوبة الممر المائي هذا، وإلى عزلته المطلقة، التي أسهمت في المحافظة على بقاء الطين عالقاً في مكانه إلى جانب عدم تردد الدخلاء، وتجنب لمسها أو النيل منها ولو بطريق الخطأ، ومع ذلك لم نكن نتوقع مطلقاً وجود كتابات أو نقوش على مادة سريعة التأثر، أو أنها ستبقى في مكانها مدة طويلة كهذه وتظل محافظة على حالها منذ زمن كتابتها وبقائها كذكرى.

كان بعضها رومانياً حسبما توضحه تواريخها، ومع أننا لم نستطع جمع حقائق أخرى من تلك التي تمكنا من قراءتها عدا أن راهباً قد تم تنصيبه عند هذه العين عندما تحولت سيريني إلى مستعمرة رومانية، إذ كثيراً ما يتردد اسمه بعد تدوين اسم الزائر، رغم أن جلها قد تم رسمها أو كتابتها برأس حادة أو عن طريق أحد الأصابع مما يجعل من قراءتها، في ظل كمية محدودة من الإضاءة، عملية صعبة.

كما لاحظنا وجود بعض الكتابة العربية التي لم نهتم كثيراً بتدوينها لانشغالنا بالنقوش الإغريقية، إذ ربما نجد ما يلقي بمزيد من الضوء عن تاريخ حفر القناة، أو أية أمور هامة أخرى.

كما ظهرت في أحد النقوش الإغريقية إشارة إلى الإلٰه أبوللو، القوة التي أعطت هذه العين قداستها، ومع ذلك لم نتمكن من قراءة ما يلقي بمزيد من الضوء لعدم قدرتنا على فك معظم رموزها التي لا تزيد معظمها عن مجرد خدوش أو خربشة.

وبغض النظر عن أي شيء، دأبت هذه العين تشكل موضوعاً يدعو إلى الاستغراب، وربما مهابة ووقاراً دينياً أيضاً بعد ضم الإقليم إلى الحكم

الروماني، ومع ذلك كان همنا إمكانية تحديد تاريخ لحفر أو شق هذه القناة إذ لم يكن بالإمكان تحديد تاريخ معين لبداية تكوينها، أو ما إذا تم حفرها في مرة واحدة أو في أزمنة مختلفة.

انقضت عدة ساعات منذ بداية ولوجها حتى العودة إلى مدخلها مرة أخرى، حيث تجمع سكان المنطقة ليروا بأنفسهم هذه الواقعة التي أصابتهم بخيبة أمل لا حدود لها، إذ لم تصب اللعنة أحداً بما يأتي على حياته رغم الجنون التي تتخذها ملاذاً آمناً لها.

لم يسعنا إلا الضحك من المنظر الذي كان عليه حال كل واحد منا، فقد كانت أجسامنا من الرأس حتى القدم مغطاة بطبقة من الطين البني الذي لم نتمكن من إزالته رغم سرعة جريان الماء.

قضينا بقية اليوم في إنجاز الترتيبات استعداداً للسفر صباح اليوم التالي إلى بنغازي، خاصة وأن النقيب بيتشي والمقدم كوفن Coffin قد سافرا منذ فترة من أجل بلوغ مالطا وتأجير مركب لنقل التماثيل التي رأينا نقلها إلى أبوللونيا لتسهيل مهمة نقلها، ومع ذلك فقد تبين للزميلين بمجرد بلوغها مدينة بنغازي وجود مجموعة من الرسائل كان من بينها واحدة من وزارة الخارجية التي طلبت ضرورة تعديل خطتنا، والإقلاع عن مواصلة عملنا.

وبما أن الوقت لم يكن ملائماً لتوفر أية مراكب في ميناء بنغازي، فقد عملا جهدهما لضمان مكان لنا على آخر ما تبقى منها، كما قاما بإرسال عدد من الإبل إلى مدينة سيريني لتعود بباقي متاعنا بما فيها ما لدينا من خيام.

أمضينا فترة الانتظار في إنهاء مخططات مباني وقبور سيريني، وتلك الخاصة بالقناة التي قررنا منذ لحظة الوصول إليها أول مرة، ضرورة اكتشافها حتى النقطة التي يمكن بلوغها، وهكذا كانت لحظة الفراغ الأولى مخصصة لها في اليوم السابق لمغادرتنا.

الفصل التاسع عشر

أخبرنا هيرودوت بأن باتوس، أحد مواطني جزيرة ثيرا أشار عليه وحي معبد ديلفي بالسفر رفقة بعض أبناء جزيرته إلى ليبيا حيث وصلوا بالفعل إلى جزيرة لا تبعد كثيراً عن ساحل إفريقيا واستقروا بجزيرة بلاتيا عامين عادوا بعدها لاستشارة الراهبة الشابة Pythio عن تحركاتهم اللاحقة بعد أن عجزت هذه الجزيرة (بومبا الحالية) عن الإيفاء بما كان في ذهن الآلهة، وهو ما اضطر باتوس ومن معه من نقل مقر إقامته إلى منطقة أزيرس Aziris على الساحل الإفريقي مقابل الجزيرة الأولى حيث استقروا مدة ست سنوات أخذوا في التحرك بعدها إلى منطقة جديدة أفضل حالاً وأدعى للاستقرار حسب نصيحة جيرانهم من الليبيين الذين رأوا نقلهم إلى منطقة الجبل المسماة إراسًا حيث باشروا في إقامة مدينة سيريني.

ليس هناك ما هو مدون تاريخياً عن باتوس عدا ما سبقت الإشارة إليه، وتلك القصة المتعلقة بتلك اللكنة التي يعاني منها، والتي دفعته لزيارة المعبد لأول مرة بحثاً عن علاج لها، فقد كان يتجول وحيداً ذات يوم حين اندفع نحوه أسد أثار فزعه لدرجة دفعته للصراخ بشكل أثار رعب الأسد، وأجبرته على التواري من شدة الهلع، وبسرعة تبين باتوس أن صراخه المفاجىء قد حمل معه أسباب ما كان يعاني منه من صعوبة في النطق، إضافة إلى توليه

منصب الملك مدة أربعين عاماً خلفه بعدها ابنه أركسيلادس الذي لا يعرف عنه سوى القليل خلال مدة ولايته التي امتدت فترة ستة عشر عاماً.

استمرت أعداد الإغريق دون زيادة تذكر أثناء ولاية الملكين السابقين خلافاً لمجيء الملك باتوس الثالث الملقب بالميسور Properous حيث تم وصول أعداد إضافية منهم لم يعد بإمكانها العيش على الأراضي التي سمح لهم الليبيون بها، مما اضطرهم لمحاولة الاستيلاء على بعض الأراضي الجديدة عنوة كما هو الحال مع الزعيم الليبي (Adicrom) الذي تم نزع جزء هام من أرضه.

أساء هذا التصرف إلى الليبيين الذين استعانوا بالمصريين الذين أعد ملكهم Apries حملة لمساندة الليبيين، الأمر الذي علم به سكان سيريني فاستعدوا للأمر وحشدوا جيشهم قرب العين التي أطلق عليها هيرودوت تيستا Theste وتمكنوا من إلحاق هزيمة نكراء بالمقاتلين المصريين الذين لم تنج منهم إلا حفنة قليلة حملت معها أخبار هزيمتها.

بدأ الخلاف يدب بين سكان سيريني من الإغريق منذ الفترة التي سبقت مجيء باتوس الثالث الذي انشق عنه أخويه وتركا مع أتباعهم المدينة كإعلان عن تبرئهما من أخيهما الملك حيث استقر بهم الأمر لتأسيس مدينة برقة بعد أن سيطروا على المنطقة.

دأب مؤسّسا مدينة برقة بعد كسب ود القبائل الليبية، وكرد فعل تجاه أخيهما في إثارة نار الفتنة بين الليبيين وسكان سيريني وهو ما دعا ملك سيريني لمحاربة أخويه وأتباعهما، إضافة إلى القبائل الليبية التي رأت من جانبها جر الملك إلى المنطقة السهلية حيث يمكن النيل من جيشه بسهولة أكبر من منازلته فوق الجبل، وتظاهروا بالانسحاب شرقاً حيث تعيش باقي القبائل الليبية التي تغطي كامل المنطقة ما بين سيريني ومصر.

اقتفى جيش باتوس الثالث أثرهم في محاولة لقطع دابرهم، إلا أن

ما تم كان العكس، إذ انهزموا شر هزيمة بعد أن تركوا سبعة آلاف من خيرة جنودهم موتى في ساحة المعركة.

كانت الخسائر فادحة والعاقبة وخيمة على الملك الذي ما إن عاد إلى عاصمته، حتى تم خنقه من قبل أخيه الذي لم يعمر طويلاً هو الآخر، إذ قامت زوجة الملك بقتله انتقاماً لزوجها.

خلف أركيسلادس هذا باتوس آخر ذكر هيرودوت إصابته بالعرج، إلا أنه حاول عن طريق العديد من الوسطاء إدخال الطمأنينة إلى المنطقة ولكن دون جدوى، الأمر الذي استمر كسمة ظاهرة لزمن طويل تعرضت البلاد خلاله لحلقة متصلة من عدم الاستقرار لحقت مدينة برقة التي تعرض ملكها للقتل في السوق العام.. إذ تحولت مدينة سيريني بعد وفاة الإسكندر إلى لقمة سائغة لجميع المغامرين حتى سلمها القائد أوفيللاس Ophellass إلى البطالة، إذ حكمها ماجاس Magas مدة خمسين سنة كاملة، وظلت بذلك جزءاً من امبراطورية البطالمة إلى أن تنازل عنها Apion عن طيب خاطر للرومان الذين رأوا أن تظل مدنها محكومة بقوانينها الخاصة، الأمر الذي أدى إلى اختلال الأمن وسادتها الفوضى، وبدأ الصراع على تسيير دفة الأمور بها حتى تحولت منطقة برقة بكاملها إلى مقاطعة رومانية بعد وفاة Apion بعشرين سنة أو عام ستة وسبعين قبل ميلاد المسيح، حيث اتحدت المنطقة لفترة من الزمن مع جزيرة كريت.

وباختصار فإن أزهى فترات سيريني كانت أيام حكم أسرة البطالمة، إضافة إلى فترة القرنين أو ربما الثلاثة التي سبقت حكم هذه الأسرة، إذ كانت مدينة سيريني تمثل قمة روعة الفن الإغريقي وغزارة الأدب.

دمرت أجزاء كبيرة من سيريني على يد الرومان عندما حاول سكانها إعلان العصيان على الحكم الجديد الذي ما لبث أن أعاد بناء الأجزاء المدمرة التي يبدو أنها لم تشمل المعابد التي لا تزال تحتفظ بطابعها الإغريقي الذي

يظهر جلياً هو الآخر في العديد من القبور.

فقد ازدهرت الفلسفة والأدب بشكل ظاهر في سيريني، وظهر منها مفكرون عظام أمثال Aristippns مؤسس طائفة الفلسفة الفورانية، وغيره من الـــرجـــال أمثـــال Gallimachus و Erataithemes و Aristippus الصغيـــر و Anniceris وعديد غيرهم.

لم تعمر سيرني فيما بعد طويلاً بعد إدخال المسيحية إلى شمال إفريقيا، إذ وصفها Synesivs بأنها كتلة من الركام ذلك أن نقل مركز البطرياركية إلى طلميتة قد يكون مؤشراً على تدهور تام لأحوال هذه المدينة، التي كانت في منتهى الجمال والروعة ذلك أن بقايا الكنائس المسيحية في مرسي سوسة وطلميتة يمتازان من جميع الوجوه عن تلك التي تم العثور عليها في سيريني ذاتها إضافة إلى أنها أحدث نشأة.

سلكنا في طريق العودة إلى بنغازي طريقاً مختلفاً عن طريق وصولنا فقد مررنا على مناطق غنية في حياتها النباتية، إضافة إلى إنتاجها الغزير من الحبوب، حيث لاحظنا بقايا العديد من المباني وبالذات فوق قمم الروابي المتناثرة.

وجدنا في منطقة الجناين Jenain، على بعد ساعتين تقريباً من سيريني، بئرين أثريين ممتازي المياه غير بعيد عن بعض القبور، كما بلغنا بعد سفر ساعة أخرى قبر الولـي سيدي رافع، الحد الفاصل بين إقليمي درنة وبنغازي، حيث توجد بعض الآبار، إلى جانب بعض مخلفات المباني التي تواصل ظهورها على طول الطريق إلى بيراسا Birassa حيث ازداد عددها بشكل ملحوظ مما يدل على أنها موضع أثري وهو ما لا يدع مجالاً للشك لدينا بأن كامل المنطقة التي سلكناها اليوم كانت مكاناً مأهولاً بشكل ملحوظ، إذ تظهر بقايا الأرصفة بشكل متقطع إلى جوار بقايا العديد من القبور الشبيهة بتلك الموجودة في سيريني، هذا بالإضافة إلى تحصين جميع المناطق ذات الأهمية بإقامة أبراج حولها.

تنتهي الأرض المنبسطة عند وادي الجريب ويبدأ انحدار خطر عند مجرى الوادي الذي اضطررنا معه لأخذ الحذر والحيطة تحسباً لوقوع جيادنا بدءاً من تلك القلعة الحصينة، التي تشرف على مدخل الوادي وكامل المنطقة القريبة.

تشكل حافتا الوادي هبوطاً فجائياً لمسافة قد تزيد على خمسمائة قدم حيث تظهر العديد من المغارات التي يتم الوصول إليها باستعمال الحبال التي لا ينسى سكانها جرها داخلها بمجرد الانتهاء من استعمالها. علماً بأن هذا الوادي يستمر في الدوران لمدة ساعتين خلال غابات من الصنوبر التي يزيد قطر بعضها عن قدمين مشكلة بذلك أكبر أشجار هذه الأنواع التي رأيناها مع ملاحظة أن معظم أشجار بطن الوادي تبدو بدون لحاء نتيجة فعل جريان المياه أثناء الشتاء، إذ بسرعة يتبين المرء تكدس كميات منه وسط مختلف أنواع الحجارة التي يحملها التيار معه، الأمر الذي دفع بالأقدمين إلى تحديد طريق يعلو قاع الوادي بمحاذاة حافة الهضبة، مما اضطرهم إلى قطع الصخور التي تعترضهم لوصل الطريق التي لا زالت الأرصفة تبدو ظاهرة في بعض أجزائه.

ينتهي وادي الجريب في طرفه الغربي بمجرى عريض وجميل لا نبالغ وصفه بأنه أجمل وادٍ رأيناه، حيث تقوم بقايا قلعة واسعة يطلق عليها Beliggiolem يزيد ارتفاع ما تبقى من جدرانها على أربعين قدماً، حيث يمكن للناظر مشاهدة العديد من الأودية الأخرى، الممتدة حتى نهاية الأفق الأزرق ورؤوس غابات أشجار الصنوبر التي تغطي المنطقة.

تبعد هذه القلعة مسافة سفر يوم كامل من سيريني أو على أكثر تقدير سفر يوم ونصف يبدأ الطريق عندها في الدوران حول عدد من الأودية المتتالية التي قـل أن يلاحظ اختلاف بيّن بينها حتى صعدنا تلة صعبة قادتنا إلى منطقة المرقد Margad حيث أقمنا ليلة في طريقنا إلى سيريني.

غير مرافقنا أبو بكرة اتجاهه فجأة نحو الجنوب، تجنباً للمرور عبر هذه

المنطقة تحسباً لملاقاة أقارب رجلين قام هو بقتلهما، وأخذ ثأرهم بالتالي. عرفنا هذه القصة من رفاقنا الذين سبقونا في الرحيل إذ أخبرهم أحد سكان المنطقة، مما مكننا من إدراك حقيقة تلك الطريق الدائرية الصعبة التي سلكناها في الطريق إلى شحات، فقد تبين لنا دوام حمله بندقية قصيرة على كتفه، إضافة إلى السلاح المعتاد، مما يفسر المخاطر التي يواجهها والتي لم نتبينها إلا الآن، فقد أدى تغير اتجاه الطريق قضاء يومين إضافيين، الأمر الذي لم نأسف له أبداً لتمكننا من رؤية مناطق ما كان بالإمكان الوصول إليها قبل بلوغ المرج حيث وجدنا البـي خليل الذي لم يتمكن بعد من جمع كامل ما جاء من أجله.

هبطنا من سهل المرج إلى طلميتة التي وصلها النقيب بيتشي قبل يوم واحد عن طريق توكرة بعد أن ترك السيد Coffin في بنغازي لاستكمال إجراءات رحيلنا، ولنعمل سوياً لانهاء مخططات هاتين المدينتين حين توجب علينا مغادرتهما والوصول إلى سيريني، وبالفعل قضينا ثلاثة أيام في طلميتة انطلقنا بعدها إلى توكرة التي لم يسعفنا الحظ بالبقاء فيها سوى يوم واحد، واصلنا رحيلنا بعده إلى بنغازي التي غادرناها بعد ظهر يوم الخامس والعشرين من شهر يوليه باتجاه مالطا.

إننا لن نستطيع إنهاء أخبار رحلتنا هذه دون التعبير بكل وضوح وصراحة عن عظيم وخالص شكرنا إلى الضباط الذين رافقونا في هذه الرحلة بما فيها من صعاب ومشاق، والذين ظلوا مع كل ذلك منشرحي الصدر وصبورين وأدوا خدمات جليلة سهلت تقدم هذا العمل وإنجازه، وإلى المقدم كوفن Coffin على وجه الخصوص، كمتطوع لمرافقتنا، فله جزيل العرفان فيما بذله من جهد فائق في ضبط مسار طريقنا الذي ما كان له ليكون بهذه الدقة.

النهـايــة

ملحق

(1) ملاحظات عن الوضع الراهن لموانـىء المنطقة ما بين طرابلس ودرنة

رأينا إضافة إلى ما سبق تدوينه عن شواطىء سرت وبرقة، ضرورة إدراج وصـف مختصر عن هذه الموانـىء، وما يتوفر بها من إمدادات، كما هو موضح على الخريطة التي تم إعدادها برصد أبعادها من زوايا مختلفة على الساحل ذاته مع الاستعانة بملاحظاتنا القليلة، وقياس الأبعاد بين ثلاث نقاط متباعدة تم ضبط أماكنها بدقة مسبقاً من قبل الربان سميث.

تمثلت أجهزتنا نتيجة لصعوبة النقل والتنقل، في مجموعة صغيرة، ومحدودة العدد أيضاً ومنها تيودولايت، وألة سدس Seytante وتلسكوب، وبوصلة، وجهاز كرونوميتر Chronometer، وسلسلة وعدد من الأشرطة. لذا يستحسن أن نشير قبل الدخول في وصف هذه الموانىء، إلى حقيقة أن المنطقة ما بين طرابلس وخليج بمبة تخلو بالكامل من أي ميناء يصلح للاستخدام العسكري، رغم إمكانية العثور على بعض نقاط الرسو المحمية من بعض أنواع الرياح.

طـرابلـس: يتوفر بطرابلس ميناء محمي، يتراوح عمق مياهه ما بين أربع إلى ست قامات، توفر له سلسلة من النتوءات الصخرية في الشمال

الشرقي من المدينة، إلى جانب بعض الأقاصير Shools غير بعيد عن نقطة كالوسيا Calosia Point حماية خاصة، رغم أن الأمواج العاتية قد تندفع من الشمال بين النتوءات الصخرية مشكلة خطورة بالغة على السفن الصغيرة.

ومهما كان الأمر يتطلب دخول الميناء الحيطة الكاملة تجنباً للارتطام ببعض الصخور الواقعة وسط المدخل حيث يتراجع عمق المياه إلى ثلاث قامات فقط الأمر الذي يستدعي الاستعانة بمرشد قبل ولوج الميناء الذي يمكن الحصول فيه على المواد الغذائية الطازجة إلى جانب الفواكه، والخضراوات والماء العذب.

تاجوراء: تظهر نقطة تاجوراء بعد إبحار سبعة أميال شرقي طرابلس حيث يمكن التعرف بيسر على تلك النقطة من خلال تجمع أشجار النخيل حول القرية.

يوجد ما بين تاجوراء إلى رأس Sciarra منطقة صحراء رملية يخترقها واديا الرمل ومسيد حيث تتوفر المياه طول السنة، أما إلى الشرق من هذا الرأس فيأخذ الساحل في الارتفاع ويبدو على شكل نقاط صخرية أو رؤوس تحصر بينها خلجاناً رملية.

تقترب الحافة الجبلية المكونة لامتداد سلسلة جبال ترهونة من البحر بمسافة لا تزيد على ثمانية أميال، ثم تأخذ في الاقتراب مباشرة بعد ضريح سيدي عبد العاطي حيث تواصل امتدادها في خط يكاد يوازي الساحل إلى أن تنتهي جنوب غربي مصراته ببضعة أميال، علماً أن هناك العديد من القلاع المشيدة على بعض قمم هذه الحافة الجبلية، التي تعتبر قلعة المرقب أهمها وأكثرها وضوحاً.

لبدة: تكون الحافة الجبلية الحد الغربي لسهل لبدة العظيم حيث تقوم أطلال المدينة القديمة قرب الساحل رغم أن جلها قد تعرض لتراكم الرمال مع أنها لا تبعد بأكثر من ثلاثة أميال غربي تجمعات النخيل التي

يمكن ملاحظتها بسهولة من البحر.

لم يعد يظهر من ميناء لبدة شيء يذكر إذ تم ردمه بالفعل ومع ذلك يمكن استعمال مرسى صغير غربي الأطلال بحوالي ميل ونصف حيث يمكن للسفن الرسو به عدا في فترات هبوب الرياح الشرقية، هذا وتوفر منطقة الساحل هذه أنواعاً جيدة من الأسماك إلى جانب قطعان الضأن، والفواكه والخضراوات، وبعض الحبوب التي يمكن الحصول عليها جميعاً بأثمان أقل مما هي عليه في طرابلس.

رأس الطابية: يقوم رأس الطابية جنوب شرق أطلال لبدة بسبعة أميال، فهذا الرأس عبارة عن نتوء صخري يبلغ ارتفاعه نحو أربعين قدماً حيث يمكن لبعض المراكب إيجاد الحماية المؤقتة في مرسي أوقرة Ugrak بالقرب منه.

مرسى زليتن: يكون الساحل بعد رأس الطابية، خليجاً يمتد حتى رأس زليتن الذي يكون امتداداً أو نتوءاً صخرياً لا تزال بعض صخوره تبدو مغمورة بمياه البحر غير بعيد عن خط الساحل، حيث يظهر قرب الرأس مرفأ صغير بات يعرف باسم مرسى زليتن رغم ضآلة حجمه وعدم قدرته على توفير الحماية ولو للمراكب الصغيرة أثناء هيجان البحر، علماً بأن هذا المرسى يقع على مسافة ميل ونصف غربي أحد الأضرحة المقام على أعمدة صغيرة من الرخام قرب الساحل.

هذا ويمكن الحصول بيسر وبأسعار معتدلة في زليتن على الأغنام والدجاج، والزبدة، والزيت والفواكه والخضراوات إلى جانب الماء العذب، علماً بأن المدينة لا تبعد كثيراً عن المرفأ ويمكن الوصول إليها باجتياز بعض الهضاب الرملية التي يتواصل امتدادها شرقاً باتجاه مصراته.

أما شرقي زليتن فيأخذ الساحل طابعاً صخرياً قد يتخذ مظهر الجروف الواضحة في بعض الأحيان، أما عند منتصف المسافة تقريباً بين رأس زليتن،

ورأس مصراتـه فتظهر وسط تجمعات النخيل، قرية أُنشئت عند حضيض بعض الهضاب الرملية خلافاً لتلك النتوءات الصخرية العديدة في مياه البحر غير بعيدة عن خط الساحل مكونة كلاً من مرسى زريق والقصور Gussur اللذين لا يوفران أي نوع من الحماية ذلك أن مرسى زريق لا يزيد عدد سكانه على مائة مواطن، وبالتالي لا يمكن توقع الحصول على شيء عدا بعض المياه.

يأخذ طابع الساحل الصخري بعد انتهاء منطقة الهضباب الرملية في طرفها الشرقي، في الارتفاع حتى يبدو قبل الوصول إلى مدخل خليج سرت بأربعة أميال، وكأنه مكون من ثلاث صخرات كبيرة تبدو وكأنها جزر فعلية، علماً بأن الصخرة الشرقية منها هي ما يكون رأس مصراته، أو رأس السيفالاس عند إسترابو.

مدخل خليج سرته: تشكل بداية مدخل خليج سرت رأساً صخرية محدودة الارتفاع تقوم خلفها تجمعات أشجار النخيل المنتشرة بين التلال الرملية المنخفضة، أما إلى الجنوب وعلى بعد ميل واحد فيقوم ضريح الولـي بو شعيفة الذي أعطى اسمه إلى الخليج الذي يطل عليه، وفي هذا الخصوص يؤكد السيد لواتير Luatier بإمكان توفير مكان مناسب لرسو المراكب في هذا الخليج الذي يزيد عمق مياهه على ست قامات حيث تعيش أعداد كبيرة من الأسماك التي يمكن صيدها باستعمال الشباك العادية.

مصراتـه: تقوم مدينة مصراته على بعد ميلين جنوبـي رأس مصراته التي يحكمها أحد الأغوات الذي يفضل تقديم هدية رمزية له تسهيلاً لمهمة التزود بكل ما يحتاج إليه من زاد، وفواكه وخضراوات ومياه عذبة.

أرار: تقوم شجرة نخيل وحيدة على بعد نحو عشرة كيلومترات جنوبـي ضريح بو شعيفة، وكأنها حارس يطل على ساحل رملي منخفض يعرف بأرار، وكإشارة أيضاً إلى مكان ذلك الحاجز الصخري Bank الممتد لمسافة

فرسخ من الشرق إلى الغرب أسفل مياه الخليج على عمق يبلغ سبعة عشر قدماً.

يتحول الساحل بعد ترك أرار والاتجاه جنوباً، إلى ساحل منخفض جداً ورملي ويخلو مما يعكر صفو الملاحة الساحلية، هذا وتمتد سلسلة هضبية محدودة الارتفاع بمحاذاة الساحل الذي يتراوح بعده عنها ما بين ميل واحد وثلاثة أميال، مع ملاحظة أن بعضها تكسوها الحشائش التي تجد فيها بعض قطعان الماعز والضأن بعض ضالتها من العلف مشكلة بذلك المادة الوحيدة التي يمكن اقتناؤها قبل بلوغ منطقة الزعفران باستثناء حطب الوقود الذي يمكن العثور عليه بكثرة من مخلفات السفن التي تدفع بها الأمواج إلى الشاطىء.

قصـر الجبـة: يمثل هذا القصر الأثر الأول الواضح بعد ترك منطقة أرار، رغم أنه لا يعدو مبنى عربياً مقام على أرض مرتفعة تم اختيارها بدقة، على بعد نحو أربعة أميال من الساحل. وكما في المنطقة السابقة يبدو الساحل منخفضاً جداً مما يحتم الابتعاد عنه أثناء هبوب الزوابع، إذ يبدو وجود عائق ما يصيب المراكب، كما تدل على ذلك بقايا السواري وغيرها من حطام المراكب الملقاة على الشاطىء.

ومهما كان الأمر لم نلاحظ قبل بلوغ منطقة الجريد عند خط عرض ″27 ′23 °30 شمالاً أية علامات خطر داخل مياه البحر التي أخذت ترتطم بشدة عند بعض الأقاصير على بعد نحو ميل وربع من خط الساحل.

يأخذ خط الساحل بعد الجريد اتجاهاً شرقياً رغم بقائه منخفضاً ورملياً مع ظهور بعض الهضيبات قريباً منه.

هذا ويتحتم على المراكب عند منطقة جيراف Jiraff أخذ كامل الحذر من الأقاصير الخطيرة التي ترتطم عليها مياه البحر بقوة كبيرة، أما إلى الشرق من المكان الأخير فإن طبيعة الساحل تبدأ في التبدل إذ تحل الصخور بدل

الرمال، وتبدو الأرض هضبية الطابع ومغطاة ببعض العشب، كما هو الحال مع تلك الهضباب العالية التي تنمو فوقها بعض الشجيرات، وتشرف مباشرة على الساحل حيث يوجد مرسى الزعفران.

مرسى الزعفران: يمكن للمراكب اللجوء إلى هذا المرسى طلباً للحماية مهما كان اتجاه الرياح، مع تأكيد حقيقة صعوبة التعرف على موضع هذا المرسي الذي لا يوجد ما ينبىء عن مكانه سوى جزء من سور مبني أوشكت الرمال على ردمه رغم محاذاته لخط الساحل، وللعلم يمكن للمراكب الحصول على حاجتها من اللحم مع كمية ضئيلة من الخضراوات وما تحتاجه من ماء عذب وبالذات في المنطقة الواقعة خلف الهضاب مباشرة حيث تظهر بعض خيام العرب، في الوقت الذي تمتد فيه هذه الهضاب عدة أميال شرقي الزعفران حيث يأخذ خط الساحل في التغير لكثرة ما بات يوجد به من هضاب صخرية قد يصل ارتفاع بعضها إلى نحو خمسين قدماً مغطاة بالحشائش والشجيرات الصغيرة إلى أن تنتهي بعد نحو أحد عشر فرسخاً شرق الزعفران حيث يعود خط الساحل ليصبح رملياً ومنخفضاً، ويتراجع امتداد الهضاب الرملية إلى الجنوب، علماً بأن هذه المنطقة تضم بعض الخلجان الصغيرة التي من أهمها وأكثرها توفيراً للحماية بغض النظر عن اتجاهات الرياح، ذلك المرسى الموجود في منطقة الهَّامة Hamma التي تتوفر بها هي الأخرى بعض المياه الجيدة قرب خط الساحل، وبالمناسبة توفر الأرض القريبة مجالاً جيداً للصيد رغم أننا لا نوصي بذلك دون توفر رعاية يعتد بها.

تتحول طبيعة الساحل بعد خمسة أميال شرقي الهامة، إلى منطقة هضبية، ولو أنها تعود مرة أخرى إلى طابعها الأول ممثلاً في ساحل منخفض تشكل الرمال مظهره العام، باستثناء منطقة صغيرة حيث يوجد رأس الهويجر Hawyjer الذي يعطي الانطباع بأنه قصر قديم في الوقت الذي لا يعدو أن يكون صخرة قائمة عند مدخل خليج يدعى بن جواد حيث يمكن للسفن توفير الحماية من الرياح الشرقية وتلك القادمة من اتجاه الغرب.

بـن جـواد: يبلغ ارتفاع قلعة بن جواد ستين قدماً ويبدو أنها كانت محصنة بما فيه الكفاية مع الإشارة إلى أن بقايا هذه القلعة أو الحصن لا ترى من البحر، وبالمناسبة ورغم وجود مرسى صغير غير بعيد عن الصخرة، إلا أن رسو المراكب يشكل خطورة بسبب تلك الرمال الناعمة التي يجلبها الوادي خلال الفصل المطير، مع الإشارة إلى أن سلسلة الهضاب الممتدة من منطقة بوسعيدة لا يزيد بعدها عن الساحل في هذه المنطقة سوى بضع مئات الياردات، ولو أنها تأخذ في التراجع إلى نحو ميل أو أكثر قليلاً عن الساحل.

يأخذ خط الساحل من بن جواد في الانخفاض رغم وجود بعض الخلجان الرملية الصغيرة المحصورة عادة بين تكوينات صخرية منبسطة قد تمتد داخل مياه البحر إلى مسافة ميل أو أكثـر دون أن يزيد ارتفاعها على قدم فوق سطح الماء.

تظهر شرقي بن جواد بنحو ستة عشر فرسخاً مجموعة من الهضاب الرملية العالية التي توجد إلى الجنوب الشرقي منها هضبة مشهورة تعرف بجبل الله، وعموماً فإن الإبحار قرب خط الساحل يجب أن يتم بحذر لتجنب العديد من الجزيرات الصخرية التي من أهمها وأخطرها جزيرة بو شعيفة الواقعة على بعد نحو ميل ونصف من الساحل حيث يوجد بئران مياههما جيدة في المنطقة المعروفة بسكارين Seckerine الواقعة عند الطرف الجنوبـي للخليج، وبالتحديد عند خط عرض 0̃0 1َ6 3̊0 شمالاً.

ومع أن الساحل رملي بعد هذه المنطقة حتـى رأس البريقة إلا أن طبيعته تغلب عليها انتشار الهضاب، وللحق يمثل رأس البريقة المنطقة الوحيدة في كامل منطقة سرت التي يمكن إطلاق كلمة ميناء عليها رغم تدخل الإنسان بتوفير الحماية الصناعية له.

يمكن التعرف من بعد على البريقة عن طريق الهضاب الرملية العالية الواقعة خلفها، أما عند الاقتراب منها فإن المؤشر يتحول إلى تلك الكومة من

الأطلال الواقعة فوق قاعدة صخرية عند الطرف الغربي من المرسى.

يمكن الرسو الآمن على الشاطىء الرملي داخل هذه المنطقة مهما كان اتجاه الرياح، كما يمكن الحصول على ما يحتاج إليه من تموين من مخيمات البدو خلف الهضباب الرملية، كما يمكن الحصول على كمية كبيرة من السمك في أغلب الأحوال، علماً بأن المياه ليست جيدة إذ يغلب عليها طعم السلفا، ومهما كانت الظروف إلا أننا لا نوصي بالاقتراب من هذا المرسى خلال فترات الجو العاصف لكثرة النتوءات الصخرية أمام الساحل الذي يصعب الاقتراب منه أثناء هبوب الرياح الشمالية.

يأخذ خط الساحل في الاتجاه الشمالي الشرقي بعد البريقة ويتميز بارتفاعه النسبي لكثرة الهضاب قريباً منه، مع ظهور بعض الرؤوس أو النتوءات الصخرية التي أقيم على بعض منها بعض القلاع التي تحول معظمها إلى أنقاض، كما تظهر في أحيان أخرى بعض مجاري الأودية، وبعض الجروف والمنحدرات الصخرية، أو بعض الهضاب الواضحة الارتفاع مثل تلك المعروفة بعلم المريش التي شاهدنا من على قمتها ارتطام مياه البحر على بعض الصخور على بعد نحو ثلاثة أميال من خط الساحل غير بعيد عما عرف بجزيرة جارة Gara.

تقع هذه الجزيرة على بعد نحو أربعة أميال ونصف من خط الساحل، وتبدو واضحة رغم شدة تضرسها، وعموماً تتميز هذه المنطقة البحرية بعدم تجانس مستوى قاعها كما يتضح من ارتطام مياه البحر مع ما يوجد من ركامات ونتوءات صخرية وبعض الجزيرات مما يعيق الملاحة ويتطلب اليقظة مع الإشارة إلى أن الساحل هنا رملي ومنخفض حيث توجد بعض الآبار رغم رداءة مياهها.

كـركورة: يكون خط الساحل عند كركورة منعطفاً أو خليجاً صغيراً، ويمتاز بانخفاضه وطبيعته الرملية مع ظهور العديد من الهضيبات التي تكسو

بعضها شجيرات صغيرة غير بعيد عن الساحل، علماً بأنه يمكن التعرف على كركورة من خلال بعض الهضاب الرملية العالية المشرفة على الساحل الذي يمكن إيجاد مكانين شبه محميين وبالذات الشمالي منهما حيث يمكن لجوء المراكب إليهما طلباً للحماية وبالذات من الرياح الشمالية أو الشرقية، هذا ويمكن العثور على بعض المياه الجيدة بين آبار الكثبان الرملية التي لا يستساغ لسوء الحظ طعم معظمها.

من كركورة إلى بنغازي: يمتاز الساحل بين كركورة وبنغازي بانخفاضه وطبيعته الرملية، وبارتفاع تدريجي للأراضي المجاورة التي تكثر بها الحياة العشبية، مع ظهور العديد من بقايا القلاع الخربة غير بعيد عن الساحل، والتي من أهمها تلك الموجودة بقمينس، ومهما كان الأمر يتحتم أخذ الحيطة عند الاقتراب من بنغازي تجنباً للعديد من الحواجز وبالذات جنوبي منطقة جوليانا على بعد ثلاثة أرباع الميل من خط الساحل.

بنغازي: تقع بنغازي عند المدخل الشرقي لخليج سرت، ويمكن التعرف عليها من خلال رؤية تجمعات أشجار النخيل على أساس أنها التجمع الوحيد لهذه الشجرة قبل درنة. أما عند الاقتراب من المدينة فإن ضريحاً أبيض أقيم فوق منطقة مرتفعة نسبياً قرب الساحل، وقصراً مربع الشكل عند مدخل الميناء سيعملان على إقرار أنها مدينة بنغازي.

تسود الرياح الشمالية الشرقية المنطقة نهاراً خلال أشهر الصيف حيث تخبو سرعتها أثناء الليل، ويقال إن تأثير هذه الرياح يمتد لمسافة أربعين ميلاً من الساحل مما يحتم على السفن المتجهة إلى بنغازي المحافظة على اتجاهها الشرقي للاستفادة من هذه الرياح ولتجنب ما قد ينجم عنها من تيارات قوية مندفعة نحو الخليج.

يتكون ميناء بنغازي من الصخور البارزة بين منطقة القصر ورأس جليانة، إلى جانب تلك النتوءات وسلسلة الصخور الممتدة غير بعيد عن

مدخل الميناء تاركة ممراً ضيقاً على جانبيها مما يجعلهما ممرين خطيرين، ويجب أخذ كامل الحيطة عند بلوغهما، وعموماً يمكن القول بأن عمق المياه في هذا الميناء يزداد بمقدار قدمين خلال الشتاء عن منسوبها أثناء الصيف.

يواجه ميناء بنغازي سرعة تراكم الرمال به، إلى جانب كميات الطمي التي تحملها مياه الأمطار التي تغمر المدينة كل عام، الأمر الذي حد من استعماله ذلك أن المراكب لا يمكنها استعمال أي من أجزائه عدا المنطقة التي دأبت على استعمالها مراكب الباشا منذ أربعين عاماً.

زود القصر بمدافع على جوانبه الشمالية والجنوبية والشرقية في الوقت الذي يخلو جانبه الغربي من أية تحصينات رغم أنه أكثر الاتجاهات خطورة بالنسبة للسفن القادمة نحوه، علماً بأن القصر يضم تسعة مدافع مشكلة بذلك جميع المدافع المتوفرة بالمدينة مع الإشارة إلى أن جدرانه لم يعد بإمكانها حمل هذه المدافع مدة أطول، هذا ويمكن للسفن الحصول والتزود بما تحتاجه بكل يسر مما هي في حاجة إليه وبالذات لحوم البقر والضأن والدجاج والفواكه والخضراوات والمياه الجيدة.

من بنغازي إلى بمبة: تمتد على طول الساحل ما بين المنطقتين سلسلة جبلية يتراوح ارتفاعها ما بين ثمانمائة إلى ألف ومائة قدم، وتبعد عن بنغازي بمقدار ثلاثة عشر ميلاً ونصف، وخمسة أميال عند توكرة، وإلى ميل ونصف عند طلميتة في حين تقترب جداً من البحر عند رأس السم.

يسير خط الساحل بدءاً من بروز صخري على بعد أربعة أميال ونصف شمال شرقي بنغازي، منخفضاً ودون ارتفاع يذكر مقروناً بطبيعة رملية تاركاً أرضاً تكسوها الشجيرات حتى حضيض الجبل.

توكرة: تقف آثار هذه المدينة فوق بروز أرضي ينتهي إلى البحر على شكل جرف يجعل من رسو المراكب أمراً في غاية الصعوبة باستثناء فترات الطقس الجميل، علماً بأن المنطقة لن يكون بإمكانها إمداد المراكب بشيء

يذكر عدا بعض المياه، مع الإشارة إلى أن الأعشاب والشجيرات تقترب كثيراً من خط الساحل.

طلميتـة: يمكن التعرف على طلميتة عن طريق قبر كبير مربع الشكل قرب الشاطىء، إضافة إلى مخلفات أثرية فوق الهضاب مباشرة إلى الشرق منه، حيث يوجد بعد ميل واحد خليج صغير يمكنه توفير الحماية الملائمة للمراكب اللهم في الأوقات التي تهب فيها الرياح موازية لخط الساحل، فهذا الخليج القريب من رأس أو نتوء صخري يعتبر الخليج الأول بعد القبر المشار إليه، علماً بأن الحصول على المياه باستثناء تلك التي توفرها بعض الصهاريج غير مضمون.

مرسى سوسة: يقع مرسي الحمام، مكان أبوللونيا القديمة، على حافة خليج كبير طرفاه عند رأس الهلال ورأس السِّم، وتقع آثار المدينة القديمة فوق مرتفع أرضي قريب من المصيف ويمكن ملاحظتها بسهولة من البحر.

ورغم وصف السكان المحليين لهذا الموضع بالمرسى نتيجة للتعرج البسيط الذي أصاب خط الساحل، إضافة إلى إدراكنا لاستخدامه كميناء في القديم، إلا أننا نجد أنفسنا عاجزين على اعتباره ميناء يمكن للسفن الحالية استعماله والتردد عليه مع التأكيد بأن المراكب الصغيرة تستطيع توفير الحماية لها بالرسو خلف تلك الجزيرات المواجهة للساحل.

يمكن للبحارة أمام هذا الجزء من الساحل ملاحظة درجتين واضحتين تعلو الواحدة منهما الأخرى للمنطقة الجبلية القريبة، فالدرجة العليا تقوم حسب قياساتنا على ارتفاع ألف وتسعمائة، واثنين وثلاثين قدماً فوق سطح البحر، أما الثانية فتوجد على ارتفاع ألف وخمسة وخمسين قدماً، هذا وتقوم مدينة سيريني على الحافة العليا التي تأخذ في الانحدار التدريجي باتجاه الشرق حيث تلتحم مع الدرجة الثانية عند رأس بوجبارة.

الأوديـة: تقطع السلسلة الجبلية المشار إليها مجموعة كبيرة من الأودية

التي يمتد بعضها لمسافات كبيرة نحو الداخل وينمو في العديد منها أعداد من أشجار الصنوبر الصالحة لصناعة السواري الصغيرة، خلافاً للعدد المحدود من هذه الأشجار في وادي الجريب التي يمكن إعداد السواري الكبيرة منها، وبالمناسبة يعتبر الوادي الذي ينتهي عند رأس السم أكبرها، وهنا علينا الإشارة إلى وجود العديد من الصخور البارزة فوق سطح الماء قرب الساحل في المنطقة الممتدة ما بين رأس السم ورأس الهلال.

رأس الهلال: اكتسب هذا المكان اسمه من هيئة الهضبة التي تشكل صورة الهلال مع أن رأس الهلال لا يعدو أن يكون نتوءاً صخرياً يمتد لمسافة ميل ونصف عند حضيض الهضبة متخذاً الشكل المشار إليه حيث يوجد في طرفه الشرقي خليج يمكن للمراكب استخدامه بغض النظر عن اتجاه الرياح.

هذا ويتكون الساحل ما بين رأس الهلال وبوجبارة من نطاق صخري خالٍ تماماً من أي مكان لرسو المراكب عدا في منطقة رملية صغيرة غربي بوجبارة بنحو ميلين، مع ملاحظة وجود مجرى مائي جيد ينحدر صوب البحر عند منطقة الأثرون في منتصف المسافة تقريباً بين رأس الهلال وبوجبارة التي يواصل امتداده منها وحتى مدينة درنة بمظهر صخري مع تضاؤل عدد الأودية، وابتعاد حضيض الهضبة عن خط الساحل.

كما توجد ثلاث جزيرات على بعد ميلين من الساحل إلى الغرب من درنة بمسافة ثمانية أميال، مما يتطلب أخذ الحيطة مع ملاحظة ضآلة عدد السكان في هذه المنطقة.

درنـة: تقع مدينة درنة عند مصب واد كبير حيث يمكن ملاحظة تجمع أعداد وفيرة من أشجار النخيل التي يمكن اعتبارها معلماً لتمييز هذا المكان، الذي يمكن الاستدلال عليه أيضاً بذلك القصر المتهدم المقام على حافة الهضبة المطلة على المدينة غربـي مجرى الوادي، هذا إلى جانب ذلك الضريح المقام قرب الشاطىء على مسافة ميل من المدينة.

يوجد على بعد ميل ونصف من ساحل المدينة حاجز يمكن للمراكب الصغيرة استعماله مؤقتاً طلباً للحماية من الرياح الشمالية الغربية، والجنوبية الشرقية خلافاً للظروف التي تهب فيها بسرعة ومن اتجاهات أخرى، وعموماً يمكن الحصول على حاجة السفن من السلع التموينية والفواكه والخضار، والمياه الغذية دونما عناء يذكر، أما اللحوم فمتوفرة ورخيصة الثمن ذلك أن ثمن رأس الماشية لا يزيد على تسع دولارات، في الوقت الذي لا يتجاوز سعر الخروف الممتاز دولاراً واحداً.

يحكم درنة وما حولها البي محمد، الابن الأكبر لباشا طرابلس، الذي يوفر تقديم هدية بسيطة، وإطلاق النار تحية له مردوداً لا يجب غض النظر عنه.

تعتبر درنة مدينة غير محصنة فباستثناء قلعة قديمة معطلة المدافع على الساحل الرملي، وتلك التي كانت قائمة في القصر على الهضبة وألقيت أرضاً بعد أن علاها الصدأ هي الأخرى هي كل ما يمكن للسفن أن تخشاه إضافة إلى نار بعض البنادق القديمة الخاصة بالمواطنين.

هذا ويتوفر أفضل مكان لرسو السفن شرقي أشجار النخيل قرب الخليج الرملي شرقي الضريح بما يقرب من نصف ميل، مع الأخذ في الاعتبار تلك الصخور التي على المراكب أخذ كامل الحيطة والحذر منها، لذا يفضل لجوء ربابنة المراكب إلى الاستعانة بمرشدين للقيام بإجراءات السلامة مع الإشارة إلى أن مرشدي ميناء درنة يفضلون أثناء الجو العاصف، القيام بواجبهم بالوقوف قريباً من القصر ملوحين بطرف جرودهم يمنة وشمالاً، ومع أن مثل هذه الطريقة قد لا تعجب جميع الربابنة الذين عليهم في مثل هذه الحالات، البقاء خارج الميناء حتى تتحسن الظروف الجوية، خاصة وأن اجتياز الممر الضيق وتجنب النتوءات الصخرية يصبح أمراً في غاية الصعوبة عند اضطراب البحر، وبالذات مع هبوب الرياح الشمالية الغربية التي تعمل على رفع منسوب المياه بأكثر من قدمين خلافاً للرياح الشمالية الشرقية التي لا تكاد تترك أثراً يذكر على منسوب مياه الميناء.

(2) ملاحظات القدماء على العمليات البحرية ومعدلات إبحار سفنهم في الفترات المختلفة

يبدو جلياً بخل الطبيعة على منطقة سرت بتوفير أي مرافىء أو موانىء، الأمر الذي لا يزال ينطبق على حالتها حتى اليوم إذ لا مكان يمكن لسفن الوقت الحاضر استغلاله بنجاعة في هذا الخصوص، كما يبدو واضحاً من النظر إلى الخريطة المرفقة، التي تبين بجلاء فشل الطبيعة في توفير ملاذ أمين لأي من أنواع السفن في أي جزء منه. ومع ذلك فإن مرافىء الأقدمين لم تكن بالضرورة قائمة في الجهات التي تسمح ظروفها الطبيعية بتوفير الحماية إذ كثيراً ما نجدها قائمة في الجهات التي تحظى بعيوب واضحة في هذا المضمار، إذ أقحم أولائك القوم ومنذ تلك الفترة المبكرة الجانب الإبداعي لتعويض تلك المميزات التي شحت الطبيعة في إرساء قواعدها في مثل تلك الجهات حيث تم إقامة موانىء في مناطق ما كان بالإمكان ظهورها فيها، وفي هذا الخصوص أفلحت أقلام عديد من الكتاب القدماء في إعطاء وصف دقيق لمختلف طرق بناء تلك المرافىء التي يراعى في اختيار مواضعها التشبث بما يمكن أن يهيأ بداية لعمل يؤمل منه تحقيق الفكرة مثل اختيار بقعة أو بروز يوفر بعض الحماية على أحد جوانبه مما يسهل معه الانطلاق لبناء حاجز مقابل له حسب الطريقة المعروفة لديهم، والممثلة في إقامة حاجز عن طريق استخدام الحجارة الخشنة المخلوطة بالإسمنت المكون من مزيج من الرمل والحجر الرملي بنسبة اثنين إلى واحد، مع المحافظة على أن يكون المظهر العام شبه دائري وتثبت على جوانبه وعند مدخله أيضاً حبال أو سلاسل

مدهونة بالقطران، وعلى أن تقام على جانبيه قلاع قوية لإقامة الجند إضافة إلى بناء منـارة كانت تعرف باسم فاروس Pharos المشتق من اسم الجزيرة الصغيرة عند مدخل النيل حيث تم بناء أول منارة ومنها انتقل استعمالها إلى اللغتين اليونانية والرومانية.

كانت السفن عادة تبقى في الميناء، أو مربوطة بسلسلة من مكان قريب، أو بحط خطافها داخل أقسام الميناء الداخلية تأميناً لزيادة سلامتها، وفي العادة كانت معظم الموانىء تضم إلى جانب المنشآت السابقة الذكر أماكن للعبادة، وأخرى للهو أو للإقامة والخدمات الأخرى، كما تحصن أغلب الموانىء أثناء فترات الحرب أو تحسباً لها، بإقامة خنادق حولها، أو بإقامة سور على شكل نصف دائرة يحيط به من الجانب الأرضي، مع إقامة قلاع وبوابات منيعة، وفي العادة تجر المراكب على الشاطىء حيث يقيم الجند خيامهم قريباً منها كاحتياط إضافي.

بنـاء السفـن: اختلفت طريقة بناء مراكب الأقدمين كثيراً عن حالها اليوم، كما أن سرعتها كانت أقل بكثير من أقل الأنواع المستعملة في زماننا، ومع أن سرعة إبحار تلك السفن قد اختلفت كثيراً إلّا أن سرعة بعض مراكب العهد الروماني كانت معقولة جداً، فقد كانت طريقة صناعتها خالية من أصول الصنعة، وملاءمة الغرض أيضاً وأكثر من ذلك كان جلها يفتقر إلى المتانة وقوة الاحتمال إلى جانب المظهر والزخرفة إذ لم يزد أغلبها عن جمع عدة ألواح خشبية مع بعضها بطريقة تمنع تسرب المياه، وأكثر من هذا كان بعضها لا يمثل سوى جذوع أشجار محفورة بطريقة خاصة. علماً بأن بعض المواد الأخرى باستثناء الخشب قد استخدمت في بناء بعض سفن تلك الفترة المبكرة مثل أوراق البردى المصري، وجلود الحيوانات التي كانت تشكل المادة الأساسية الأولى لصناعة مثل تلك السفن التي استعملت للملاحة النهرية في كل من مصر والحبشة.

ومع الوقت أخذت سفن ذلك العهد تأخذ طابعاً مميزاً لا فيما يتعلق بأحجامها فقط بل وفي طريقة صناعتها، والمعدات التي تستعملها، وباختصار يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من سفن الأقدمين ممثلة في سفن النقل والحرب والعبور؟ حيث أخذ كل نوع يندرج إلى أنواع فرعية، فسفن النقل كانت تأخذ شكلاً دائرياً قصد توفير مكان فسيح للتخزين، في الوقت الذي كانت فيه السفن الحربية أكثر طولاً بالنسبة لأحجامها كما هو حالها اليوم، أما سفن العبور فكانت في مكان وسط بين النوعين.

إدارة السفـن: وكما اختلفت طريقة بناء السفن يومها، كان هناك اختلاف أيضاً في إدارتها، فالسفن الحربية كانت تعتمد في تحركها، باستعمال المجاديف، ولو أن بعضها قد يستعين بالأشرعة الأمر الذي أتاح لها حرية الحركة، ومكنها من المناورات السهلة وبالذات أثناء هبوب الرياح الخفيفة أو المعاكسة لاتجاهها الأمر الذي يختلف مع النوعين الأخرين اللذين اعتمدا أساساً على استعمال الأشرعة أو جرها من قبل نوع آخر باستعمال الحبال، كما في حالة سفن النقل، مع الأخذ في الاعتبار أن استعمال الأشرعة أو التجذيف أو الجر كانت مستعملة أحياناً مع أنواع السفن الثلاث المشار إليها.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المجاذيف لم تكن موضوعة كما يتخيل البعض، على نفس المستوى في أجزاء مختلفة من السفينة، ولا في وضع عمودي فوق بعضها، وإنما بوضع المقاعد التي يجلس عليها المجذفون وراء بعضها مع ارتفاع تدريجي وكأنها سلالم شرط أن تضم الدرجة الثانية مجاذيف أطول من الأولى وهكذا، فقد كانت بعض سفن تلك الآونة بيضاوية الشكل وأن شكلها المائل إلى الطول قد تأخر لبعض الوقت حتى أن البعض يرى بأن هذا التحول في المظهر العام قد جاء كإشارة إلى السفن الطويلة التي يروي أنها كانت تجذف عن طريق خمسين مجذافاً التي يعتقد بأنها أبحرت لأول مرة ما بين مصر واليونان وأن صناعتها دخلت الأخيرة عن طريق مصر.

الحمولة القصوى لبعض السفن: أخذت بعض سفن تلك الفترة تزداد حجماً مع توالي زيادة عدد المجاذيف المستعملة التي وصلت في بعض الحالات إلى أربعة آلاف مجذاف حتى بات منظر تلك السفن لا يختلف كثيراً عن حجم الجبال العائمة أو بعض الجزر أو قصور ضخمة تقف شامخة وسط الأمواج.

تحتاج سفينة الأربعة آلاف مجذاف، إلى أربعمائة بحار للقيام بأعباء السفينة الأخرى، وإلى ثلاثة آلاف جندي، علماً بأن مثل هذه السفن الهائلة كانت محدودة الانتشار، ولا تصلح للأغراض العادية، وكانت تحمل بعض أسماء الجزر والجبال التي تشبهها في حجمها فقد ذكر البعض أن موادها الأولية تكفي لبناء خمسين من السفن العادية.

وصف بعض السفن القديمة: أشار العديد من الكتاب إلى أنواع أخرى من سفن الأقدمين غير التي سبقت الإشارة إليها، ومثالها بعض السفن الخاصة بالإمداد العسكري، وسفن الاستطلاع وأخرى للنقل السريع.

ظهر استعمال السارية في وقت متأخر نسبياً، وكان عددها لا يزيد على واحدة تثبت وسط السفينة ثم تنزع من مكانها وقت رسو المركب، أما استعمال الأشرعة فقد جاء هو الآخر مصاحباً لظهور السارية ذات الشراع الواحد المصنوع من القماش، أو أي مادة مناسبة أخرى مثل الجلود كجلود الأسود مثلاً.

كانت الحبال والسيور المستعملة يتم صنعها من الجلود في أغلب الأحوال، أو خيوط الكتان، كما أخذ ربط الدفة باستعمال أنواع من الحبال المصنوعة من نبات الرتم وأوراق سعف النخيل وغيرها.

وكانت المجاذيف يتم تغليف أجزاء منها عادة بطبقة من النحاس لزيادة قوة احتمالها كما تملأ مقابض أيديها بالرصاص حفاظاً على توازنها.

كما مثلت الحجارة أولى الأدوات التي استخدمت لرسو السفن إضافة إلى قطع من الخشب التي تلحق بها قطع من الرصاص لزيادة ثقلها والعمل بالتالي على شد المراكب إليها، كما استخدمت سلال مليئة بالحجارة لهذا الغرض، أو أكياس مليئة بالرمال، ومع الوقت حل استخدام الحديد على شكل أسنان كبيرة كوسيلة أكثر فعالية ودوام استمرار استعمالها لفترات أطول، علماً بأن بداية استخدام هذه الوسيلة كانت باستعمال سن واحدة حيث استمرت إضافة أخرى إليها تمشياً مع أحجام وأوزان المراكب وحركة الموج، وهنا علينا أن نشير إلى أن كل مركب كانت تحتفظ وتستعمل أكثر من أداة واحدة مع وجود واحدة مميزة تفوق الجميع من حيث الحجم والقوة مما لا يدعو إلى استخدامها إلا في حالات الضرورة القصوى.

كانت سفن الأقدمين لا تحمل تمييزاً يفصل بين طاقم العاملين الذين كان عليهم تأدية أي عمل دون تحديد طبيعته الأمر الذي تغير مع الوقت إذ باتت هناك مجموعات مميزة بين المجذفين والبحارة والجنود، فقد باتت طبيعة العمل تستغرق جهد ووقت الفئات العاملة التي لم يكن بإمكانها المساهمة في أي عمل لا يمت إلى عملها الفعلي والأساسي، وأكثر من هذا بات من الضروري تقسيم هذه الفئات الثلاث الرئيسة إلى فئات فرعية، ففئة المجذفين على سبيل المثال، كانت تقسم إلى ثلاث فئات فرعية تتمثل في مجذفي الطابق العلوي الذين عليهم استخدام مجاذيف أطول وأثقل وزناً مما يعني تصنيفهم كفئة خاصة تتقاضى أجراً أكبر من أولائك الذين يقومون بالعمل قرب سطح الماء وهكذا، وعموماً يمكن القول بأن طبيعة العمل كانت شاقة جداً، وتتطلب قدراً من القوة والجلد يستدعيان استبدال كل الذين لا يظهرون هذه الصفات، ولا يستطيعون بالفعل إثبات رجولتهم إذ لا مكان بينهم لمن لا يقوى على ذلك.

أما البحارة فهم الفئة التي عليها تولي مسؤولية إدارة جميع المرافق

باستثناء عمليات التجذيف التي لا يليق بهم ممارستها، وبالتالي يقسم البحارة إلى مجموعات لكل منها رئيس يتولى مسؤولية ضبط شؤونها بدءاً من إدارة الدفة والأشرعة وانتهاء بملاحظة نظافة المركب وكل ما يتعلق بسلامتها، وعموماً وصفت طواقم سفن تلك الحقبة بأنها تشكيلة من الخبثاء الذين لا يملكون ذرة من الدين والإنسانية مما يجعلهم بالتالي فئة من الأوغاد بكل معنى الكلمة.

ومع أن أسلحة جنود البحرية كانت لا تختلف كثيراً عن أسلحة أمثالهم من الجند على اليابس، إلا أن أسلحتهم الثقيلة كانت أوفر وربما أكثر تنوعاً أيضاً إذ ليس بإمكانهم التقهقر أو تغيير أماكنهم بسهولة، فقد كان عليهم أن يقاتلوا بالسلاح الأبيض إذا دعت الضرورة إذ ليس هناك حل وسط بين الهزيمة َوالنصر.

إضافة إلى ذلك هناك بعض المعدات القتالية المعدة خصيصاً للحروب البحرية ولا يمكن استعمالها على اليابسة ومنها على سبيل المثال الرمح المفرط في الطول الذي قد يتعدى طوله عشرين Cubits أو ذراعاً تقريباً. ومنها Sickle أو المنجل الذي يستعمل لقطع حبال الأشرعة وإنهاء تحرك سفن العدو بالتالي، ومنها الرؤوس الحديدية ذات الحدين لقطع حبال الدفة، هذا بالإضافة إلى معدات أخرى مهمتها قذف الحجارة على سفن الأعداء ومنها آخراً وليس أخيراً، تلك الكتل الحديدية التي تقذف بعنف شديد لتحطيم جوانب مراكب الأعداء، وتلك التي تشبه الخطّاف وتلقي من قبل معدات خاصة لتحطيم السفن المعادية.

أما فيما يتعلق بأمر قيادة تلك السفن فتتحدث جل المصادر عن نوعين من الضباط يمثل المجموعة الأولى ضابطان أعلى مرتبة من غيرهم بحيث يتولى الأول أمر العناية بالسفينة وبحارتها في حين يختص الثاني بأمر الجند، أما في بعض الأحيان القليلة فيترك أمر القيادة لكليهما دونما فصل في

الواجبات، ومعلوم أن مدة قيادة الأساطيل بالذات كانت تترك لأمر الشعب الذي من اختصاصه التدخل لمد تلك المدة أو تقصيرها، وأكثر من ذلك لا يحق لأي ضابط تولي أمر قيادة الأسطول لأكثر من مرة واحدة.

كان على ربان السفينة تولي دفة القيادة وأمر العناية بالسفينة إذ عليه إدارة سير المركب بكل تفاصيله الفنية، وعليه أن يكون على معرفة جيدة بجميع الموانىء والصخور والمناطق الضحلة أينما وجدت.

وهنا علينا أن نشير أن تلك المشاق التي كانت تواجه من يتولون أمر التجذيف الذين رؤي لتخفيف مشاق العمل وما يصاحبه من ملل قد يعتريهم استخدام موسيقى للعزف والغناء وحفاظاً على روحهم المعنوية وتسهيلاً لضبط استخدامهم لمجاذيفهم، تلك العملية التي لا تقل ضجراً وتعباً عن العمل العضلي الذي يقومون بها.

أما مراقبة الأجرام السماوية بما في ذلك جميع النجوم المعروفة يومها للاسترشاد بها فيتم عن طريق البحارة بغية تحقيق غرضين يتمثل أولهما في تحديد بداية ونهاية الفصول، في حين يتمثل الثاني في استخدامها كدليل لتحديد مسار سيرهم، إضافة إلى التنبؤ بالأحوال الجوية، وفي هذا الخصوص يمكن القول بأن بحارة تلك الآونة كانوا يلاحظون ويسجلون كل ما يمكنهم الاستفادة منه.

أما فيما يتعلق بتحديد مساراتهم فإن بحارة الفترة المبكرة جداً أي قبل التمكن من الاستفادة من الأجرام السماوية، كانـوا مجبرين على استخدام الشمس كمرشد لهم طوال ساعات النهار، أما مع حلول الليل فكانوا مضطرين للالتجاء إلى أقرب ميناء أو خط ساحل قريب حتى صباح اليوم التالي، خلافاً لفترة مجيء الفينقيين الذين يعتبرون بالفعل مخترعي الملاحة إذ تمكنوا من الاستفادة من باقي الأجرام السماوية بما فيها الدب الصغير إضافة إلى ما كان معروفاً لدى غيرهم من الأمم البحرية بما فيهم أهل كريت.

المحتويات

PROCEEDINGS OF THE EXPEDITION

TO EXPLORE THE

NORTHERN COAST OF AFRICA,

FROM

TRIPOLY

EASTWARD;

IN MDCCCXXI. AND MDCCCXXII.

COMPREHENDING AN ACCOUNT OF

THE GREATER SYRTIS AND CYRENAICA;

AND OF THE ANCIENT CITIES COMPOSING

THE PENTAPOLIS.

BY CAPTAIN F. W. BEECHEY, R.N., F.R.S.,


AND

H. W. BEECHEY, Esq., F.S.A.

LONDON:

JOHN MURRAY, ALBEMARLE-STREET.

MDCCCXXVIII.



خليج سرت
GULF OF SERT
Called by the Arabs
GIUN EL KEBRÎT
OR GULF OF SULPHUR
DISTRICT OF TRIPOLY
DISTRICT OF SERT
DISTRICT OF DERNA
CYRENAICA
NOW FORMING PART OF THE
DISTRICT OF BARKA
DISTRICT OF BENGAZI
ساحل خليج سرت الكبرى
Coast line of the Gulf
of the
Greater Syrtis,
by
Capt. F.W. Beechey, R.N.